شرف

صنع اللّه إبراهيم

شرف

تأليف
صنع الله إبراهيم

هنداوي

شرف

صنع الله إبراهيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٢٧ ٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ صنع الله إبراهيم.

قبل أن تقرأ

واكبَت سنواتُ مُراهَقتي نهايةَ العهد الملكي في مصر. كانت البلاد تَموج بدعوات التحرُّر الوطني من الوجود الإنجليزي العسكري، والتحرُّر الاجتماعي من سيطرة الإقطاع، ومن الأُمية والمرض والحَفاء! ... وشكَّلت هذه البيئة وجداني، وخاصةً الحديثَ عن أن المعرفة هي كالماء والهواء يجب أن تكون للجميع وبالمجَّان.

وفي مغربِ يومٍ من سنة ١٩٥١م، كنا أنا وأبي عائِدَين من زيارةٍ لأحد أقاربنا في شرق القاهرة. توقفنا في ميدان العتبة لنأخذ «الباص» إلى غربها حيث نقطن. اتخذنا أماكننا في مقاعد الدرجة الثانية. نعم! كانت مقاعد «الباص» آنذاك — والترام أيضًا — مُقسَّمة إلى درجتَين بثمنَين مُتفاوتَين للتذاكر التي يُوزِّعها «كمساري» برِداءٍ أصفر مميز أثناء مروره على الرُّكاب.

جلسنا أنا وأبي خلف الحاجز الزجاجي الذي يَفصل الدرجتَين، وتابَعتُ في حسدٍ رُكابَ الدرجة الأولى، بينما كان أبي غارقًا في أفكاره التي تُثيرها دائمًا أمثال هذه الزيارات.

قلتُ بحماسٍ طفولي: «سيأتي اليوم الذي يزول فيه هذا الحاجز، بل ويصبح الركوب بالمجَّان.»

تَذكرتُ الروايات التي أعشق قراءتَها فأضفتُ: «والكتب أيضًا!»

تَطلَّع إليَّ باستياءٍ من سذاجتي: نعَم! الكتب بالمجَّان؟ يا لها من سذاجة!

ولم أتصوَّر وقتَها أن يأتي اليومُ الذي تُصبح فيه كتبي أنا متاحةً للقراءة بالمجَّان! وذلك بفضلِ مُبادَرةٍ جريئة من مؤسسةٍ مصريةٍ طَموحة، فشكرًا لها!

صنع الله إبراهيم

القسم الأول

١

من المؤكد أن الحذاء ليس هو المسئول عن المصير الذي آل إليه أشرف عبد العزيز سليمان (أو شرف كما أَلِفت الأم أن تنادي حبة عينها)؛ فقد كان مبرمَجًا، بجيناته الداخلية، والخارجية لما وقع له من أحداث. ولا يغيِّر من الأمر قِصر الطريق الذي قاد من «كوتشي» إلى «جون»، ولا من الأخير إلى بؤرٍ أخرى.

صحيح أن «كوتشي» صارت رائحته لا تطاق وبَليت مقدمته، لكن هذا لم يكن السبب الذي دفعه إلى التوقف أمام الواجهة الزجاجية المضاءة بمصابيح سبوت لايت. السبب الأصلي أن كوتشي كان أخضر اللون بينما هو مقبل على المرحلة السوداء، التي وضع أساسها برأسٍ حُلق على المودة الإنجليزية مع مقدمةٍ مفلفلة، طالعه الآن في زجاج الواجهة.

أبرز الزجاج أمرَين آخرَين: الأسعار الفلكية للأنواع الأخرى ذات النقش الأسود من «أسكوت» إلى «أديداس» مرورًا بـ «نايك»، وهيكل أنثوي يحاذيه: أربعينية أو خمسينية ممتلئة الجسم في الملابس الشائعة المنحدرة من عصور الجليد، التي تتألف من جوبةٍ طويلة حتى القدمَين، وجاكت ملون وطرحة تغطي الرأس وتحيط بالوجه.

وسواء أكانت السيدة تعاني من قِصر النظر أم كان لديها مآربُ أخرى، فقد انحنت مدققة النظر في أسكوت، ثم استدارت قليلًا لتحصل على زاوية رؤية أكثر ملاءمة، لكن نظرها لم يسعفها؛ فقامت بحركةٍ خفيفة، وضعتها فوق خط التماس مباشرة.

يجب أن نكون موضوعيين في تقديرنا لموقف أشرف؛ كان في السن التي تفور فيها الدماء وتغلي لأقل لمسة (ولد سنة ١٩٧٤)، لكنه — أيضًا — كان مثقلًا بمجموعة من المحرمات التي تقيد الفعل؛ ولهذا السبب كان رد فعله التلقائي، على عكس ما هو متوقع، التراجع إلى الخلف، بدلًا من الاندفاع إلى الأمام؛ مما عرَّضه لدفعة من أحد المارة قذفت به إلى نهر الزحام الجارف.

فرغم ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة، أو بسبب ذلك، خرج سكان القاهرة جميعًا إلى الطرقات، وتدفَّقوا على شوارع وسط المدينة، و«طلعت حرب» بالذات، وإلى نقاط تجمُّع ثابتة أمام محلات الملابس والأحذية والساندوتش والمثلجات، فضلًا عن السينمات والمسارح. كان شرف قادمًا من ميدان التحرير، وقد عبَر ميدان طلعت حرب، معطيًا ظهره، بطبيعة الحال، لتمثاله، وكان جوعان، عطشان، حائرًا في كيفية إنفاق الساعات المتبقية من المساء.

كانت الأوبشنز أمامه كالآتي: دخول السينما وبالتحديد فيلم تسيل فيه دماء كافية طالما أن الأفلام الأخرى ذات الـ «صور» غير متاحة بفضل الرقابة التي تتولاها سيدةٌ فاضلة وصارمة في آنٍ، أو شراء علبة سجائر «مارلبورو»، أو شراء ساندوتش وكوب من الكولا وسيجارتَين من «كليوباترا» التي يكره مذاقها، أو العودة إلى البيت. الاختيار الأخير كان في الحقيقة اثنين: تحت، وفوق. تحت أي في الشارع، على الناصية (حيث كشك سجائر ودَين كبير) أو عند حانوت الميكانيكي مع أفراد الشلة وسيجارتين من البانجو الذي يجلب الصداع والغثيان إذا كان على معدةٍ فارغة، ثم الشاي في مقهى الكورنيش الذي أقيم في موقعٍ استراتيجي على حافة ترعةٍ قديمة تحولت إلى مقلب زبالة (وإذا كانت لدى الميكانيكي سيارةٌ صالحة للسير انتقلت المجموعة إلى المعادي القريبة لتلتحق بشلة الطلبة والمزيد من البانجو). فوق معناها الشقة (الضيقة حيث لا يوجد مكان للجلوس أو النوم) والمواجهة (مع النفس والآخرين) ومحاولة حل المعادلة المستحيلة.

ففي هذا الوقت من اليوم يكون أبوه بين مسلسلَين تليفزيونيَّين، وبالتالي في حالة عدم توازن، فيستبدل نظارة المشاهدة بنظارة القراءة، ويتناول ورقة وقلمًا ويشرع في تدوين مجموعة من حقائق الحياة يحفظها أشرف عن ظهر قلب منذ كان أبوه حريصًا على ألا يخفيها عنه.

التمرين اليومي كانت له عدة أهداف إضافة إلى إزجاء الوقت حتى موعد مسلسل السهرة: تقريع أفراد الأسرة (وخاصة الولد الكبير) وإشعارهم بالعبء الذي يمثلونه ومدى الجميل الذي يصنعه الوالد لهم عندما يجعل ٣٤٠ جنيهًا (راتبه الشهري المضمون) تتحول إلى ٨٠٠ (النفقات الفعلية). محاولة إيجاد نوع من التوفير واستبعاد بعض الأيتمز (في آخر مرة تم شطب بند الجريدة اليومية على أساس أنها لا تقدم غير مادتين: الكوارث، وخطب الرئيس، وهي مواد يقدمها التليفزيون بالتفصيل والألوان)، إثارة شيء من الحميَّة في بدن شرف أو قلبه كي ينهي دراسته أو يجد لنفسه شغلة تخفف العبء (وهي محاولة كانت تصطدم دائمًا بدفاع الأم عن حبة عينها). الهدف الأخير يدخل تحت طائلة علم

المستقبليات؛ إذ تجرى محاولة استشراف الوضع في ظل قانون المساكن المتوقع وبعد رفع الدعم الحكومي عن الكهرباء والمياه والمواصلات والخبز والسكر والشاي؛ أي التحرير (للأسعار)، والتثبيت إن لم يكن التقليص (للأجور).

لم تكن العودة إذن، بمستوييها الاثنين، مغرية. ولأنه لم يتمكن من الحسم فقد تشاغل بالاستكمال، النظري فقط، للطاقم الجديد والأكسسوار المناسب له.

تغاضى عن قمصان «فان هاوزن»، «سيلفانو»، «فستياكو» «بيير كاردان»، وعن «سونيتي» الاسبور، وتوقف برهة أمام قميص «ليفايس» وجمع بينه وبنطلون جينز «رانجلر». ثم انتقل إلى الأكسسوار: ساعة «سواتش» بخلفيةٍ سوداء اللون وسوار من نفس اللون، (رغم أن الموضة السائدة هي الساعة الكبيرة على شكل بوصلة)، سلسلةٌ ذهبية للعنق وانسيالٌ ذهبي للمعصم. ولم يقدر للطاقم أن يكتمل لا في هذا المساء ولا بعده؛ لأنه لم يعثر بين النظارات الشمسية، من «ستينج» و«بوليس» حتى «ريبان»، على النظارة المستديرة المذهبة الإطار بالعدستَين السوداوَين التي ارتداها «سلفستر ستالوني» في آخر أفلامه.

خلال ذلك كان الزحام قد بلغ أقصاه وتمت غربلته من العنصر الأنثوي وتحولت حركة السيارات التي ملأت عرض الشارع إلى زحفٍ بطيء. وسادت الحمى التي تسبق عادة الحفلات الأخيرة لعروض السينما، فتجمهر جمعٌ كبير من الشبان، أسفل ملصقٍ كبير ملأته «ليلى علوي» بما تملك من وفرة. الشاب الذي أبدى نقصًا في الخبرة أمام حانوت الأحذية، كان مدربًا في مجالٍ آخر؛ فقد أخذ ينقل البصر في حنكة بين صفوف السيارات التي ملأت عرض الشارع، متجاهلًا الماركات الشعبية مثل «الفيات»، والأخرى الكلاسيكية مثل «المرسيدس»، مركِّزًا على «الهوندا سيفيك» و«التويوتا كرولا» إلى أن حالفه الحظ: «جولف» ذات نوافذَ سوداء قائمة تتصاعد منها موسيقى صاخبة وتقودها فتاة تطاير شعرها وأبرزت من النافذة ساعدًا عاريًا حتى الكتف؛ مما بشر بالمزيد.

لكن «ب م دابليو» لم تلبث أن حجبتها عن ناظرَيه وقد انسابت في بطء حتى أوشكت أن تتوقف أمامه مباشرة. هكذا ألفى نفسه يطلُّ على ساقَين بديعتَين انحسر الثوب عن أعلاهما لتتمكن صاحبتهما من نقل قدمَيها بين المارش والفرامل، لم يكن مهتمًّا بتحت وإنما بفوق. فلم يكن بعدُ قد انتقل من مرحلة التعلق بالمكان الذي تغذَّى عليه إلى المكان الذي دلف منه. لكن المرور انساب قبل أن يعيد تصويب نظراته، فاندفعت السيارة إلى الأمام وسرعان ما اختفت عن ناظرَيه.

انتظر حتى تباطأت حركة السيارات من جديد وعبر الشارع. عاد القهقرى في اتجاه الميدان، متعثرًا في إفريز من الرخام أمام حانوتٍ للنظارات، مُدَّ بمنسوبٍ أعلى من الرصيف، هبط به بالنتيجة إلى حفرةٍ طينية كُوِّمت فيها بعض المخلفات. بعد خطوات كان أمام «ومبي» فوقف يتأمل آكلي الهامبورجر ويستعرض قائمة الأسعار المضيئة، رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب، ثم واصل السير حتى حانوت يتصدر مدخله عمود شاورمة، ساعدته رائحتها على الوصول إلى قرارٍ قائم على التضحية: الاكتفاء بكيس من الشيبسي وكوب من الكولا.

انضم إلى الآكلين الذين زحموا الرصيف؛ فأتيح له مثلهم متابعة الظاهرة الشقراء من لحظة ظهورها: سائحتان ترتدي إحداهما شورتًا كشف عن ساقَين سمينتَين لفحتهما الشمس، أسفل مؤخرةٍ قوية وممتلئة، بينما أبرزت الأخرى نقاط قوة مختلفة، ففوق بنطلونٍ ضيق من الجينز استقرت بلوزة ملونة بلا أكمام يبدو منها شعر إبطها وجانب من سوتيانها. وعلى أية حال فقد نجحت الفتاتان فيما فشلت في تحقيقه كافة الأحزاب السياسية في مصر.

فسرعان ما وجد شرف نفسه على رأس حشدٍ كبير لبَّى نداء الفلقتَين المتماسكتَين لصاحبة الشورت؛ اضطره إلى استخدام منكبيه للمحافظة على موقعه القيادي. هكذا كان خلفها مباشرة عندما توقفت فجأة، فأوشك أن يصطدم بها وأساءت هي من جانبها تفسير الموقف فاستدارت بوجهٍ عابس وهي تفتح حقيبة يدها وتستخرج ورقةً مالية من فئة الجنيه دفعتها إليه مرددة كلمة لم يتبيَّنها.

فوجئ بمبادرتها فلم يمد يده لالتقاط الورقة وتركها تهوي إلى الأرض، بينما استأنفت الفتاة السير مع رفيقتها ومن خلفهما كوكبة التابعين. وتطلَّع حوله فوجد أكثر من عين تتأمله في تفكُّهٍ، وربما كان هذا هو السبب في أن الدماء اندفعت إلى وجهه وأنه أشاح به ودسَّ يديه في جيبي بنطلونه، وواصل السير، غير عابئ بالنقود، مقتربًا من المصير الذي بُرمج له.

لم يبتعد كثيرًا؛ إذ اجتذبه تجمهرٌ آخر أسفل لوحةٍ كبير تملؤها وفرة من اللحم، لا لليلى علوي وإنما لـ «شوارزينجر». وبينما هو يتأمل اللقطات المعروضة من الفيلم في لوحة الإعلانات سمع من يوجِّه إليه الحديث باللغة الإنجليزية.

استدار ليجد نفسه أمام رجلٍ أجنبي، طويل القامة عريض الصدر أشقر شعر الرأس والحاجبين والشارب، يرتدي قميص الأحلام، قصير الكمَّين أسود اللون، وتتدلى من عنقه سلسلةٌ ذهبية، خاطبه قائلًا: معي بطاقةٌ زائدة، هل تريدها؟

١

ككل الأجيال الجديدة من المصريين، كان شرف يجيد اللغة الإنجليزية، أكثر حتى من العربية، لكن ذاكرته لم تسعفه بمفرداتها فتلعثم في محاولة الإجابة إلى أن تمكن أخيرًا من أن يقول: شكرًا، لا أحتاج إليها.

وككل الأجانب الشُّقر في مصر، لم يكن صاحبنا معتادًا أن يُرفض له طلب.

– يجب أن ترى هذا الفيلم؛ فهو مثير للغاية، ولا أظن أنك ستجد بطاقةً أخرى الآن.

تدافعت حصيلة أشرف من الكلمات الإنجليزية وسعد بقدرته على استخدامها.

– في الحقيقة أرغب في ذلك، لكني لا أملك كفاية من النقود.

قال الأجنبي وهو يهزُّ كتفه في غير مبالاة: أنا أقدمها لك من غير مقابل فلست في حاجة إليها، إن لم تأخذها سأرميها.

سلوكٌ طبيعي لدى الأجانب، الأمر الذي دفع شرف إلى إعادة التفكير.

– في الحقيقة هل أنت واثق؟

مدَّ الآخر يده بالبطاقة ودسها في يد شرف قائلًا: خذها. لا تكن ... (ولم يفهم معنى الكلمة)، أسرِع فالعرض على وشك أن يبدأ.

أخذها وتبعه إلى داخل السينما وإلى مقعدين متجاورين وسط الصفوف الخلفية كان الحصول عليهما وسط الإقبال الشديد مكسبًا حقيقيًّا، وكانت المقدمة الإعلانية قد انتهت وتبعتها استراحةٌ ضرورية، فحانت فرصة للحوار.

قال الأشقر: أنا اسمي جون، وأنت؟

قال: أشرف، أشرف عبد العزيز، في الحقيقة حصل لي الشرف.

كان مخلصًا في هذا القول، فلقاء الأجانب الشقر لا يحدث كل يوم. لكن جون، لسببٍ غير مفهوم، ضحك ومدَّ ساقَين طويلتَين وأراح ذراعَيه المفتولتين على مسندَي مقعده فتماسَّ ذراعاهما وأبعد أشرف ذراعه في الحال.

قال: في الحقيقة البطاقة كانت لشاب مثلك تعرفت عليه في الصباح ووعد بالحضور لكنه لم يأتِ.

قبل أن يستفسر منه عن سر غرامه بتوزيع بطاقات السينما على الشبان، رآه يطيل النظر إلى فمه، فشعر بالزهو لأن أخته كانت تعرب دائمًا عن إعجابها بشفتَيه وتتمنى لو لديها مثلهما، ثم إن الفيلم بدأ في هذه اللحظة، فوجَّه إليه اهتمامه وتابع أعاجيب شوارزينجر مبهور الأنفاس، وقد حرص على أن يترك لرفيقه المسند المشترك كي لا يتلامس ذراعاهما العاريان.

علَّق جون على الفيلم عندما انتهى بكلمة لم يفهمها شرف لكنه أومأ برأسه موافقًا، وعندما خرجا إلى الطريق سأله: من أي بلدٍ أنت؟

– أستراليا.

– ظننتك أمريكيًّا؛ أنت تتكلم مثلهم تمامًا، وتعيش هنا؟

– مؤقتًا.

– منذ متى؟

هزَّ كتفه: منذ عدة شهور.

سأله: أول مرة؟

– في مصر؟ أجل وأنت، أين تسكن؟

أجاب على الفور: في الحقيقة في المعادي.

أراد أن يصف له المكان، فتراءى له مدخله عند محطة المترو الذي تتجمع فيه القاذورات وتفوح منه رائحة المجاري ويغطيه الذباب، والحارات المليئة بالحفر والمطبات تحلِّق فوقها أسراب الذباب والناموس، والبيوت الصغيرة التي يرتفع منسوب الأرض عن مداخلها بصورةٍ مستمرة، والغرف التي يقيم فيها بين خمسة أشخاص وعشرة، والمياه المقطوعة، وأجهزة الراديو والمسجلات في النوافذ والمقاهي، وميكروفونات المساجد والأفراح.

بدت الإنجليزية عصيةً على كل هذه التفاصيل فاكتفى بأن يقول: في الحقيقة أنا أسكن في مكانٍ جميل على حافة القاهرة يجب أن تراه. وأنت أين تسكن؟

أينَ في غير الزمالك؟!

– تعالَ معي لأُريك منزلي؛ فلا بد أن تعرفه، نحن الآن أصدقاء.

طاوعته إنجليزيته في سلاسة: أوكي.

أشار جون إلى سيارة أجرة بالغ سائقها في إبداء تهذيبه ورقَّته عندما تبيَّن الشعر الأشقر، فتظاهر بتشغيل العداد، وخفض من صوت الكاسيت الذي كان يردد أغنيةً جديدة لوردة الجزائرية. ثم أغلقه تمامًا وحاول تشغيل الراديو على برنامج للموسيقى الغربية، كما لم يفُته القيام بقليل من الإرشاد السياحي، فتمهَّل فوق كوبري ٦ أكتوبر أمام عروسَين يلتقطان صورةً تذكارية يتحمل فيها النيل نصيبه من المأساة المقبلة، وعندما أبدى الخواجة عجبه من زحام السيارات فوق رصيف نادي الجزيرة، تبرَّع بالإيضاح: الأعضاء هنا بالآلاف.

ثم أضاف بزهو: الاشتراك بالدولار.

شعر شرف هو الآخر بالزهو وهو يتطلع بعينَي رفيقه إلى الشوارع الواسعة المرصوفة التي تحفُّ بها الأشجار والقصور الفاخرة، متغاضيًا عن القاذورات والأتربة التي كُوِّمت

بحذاء الأرصفة وأسفل السيارات الفاخرة، وفي الزوايا المتوارية، حتى توقف التاكسي أمام منزل من الأربعينيات (تحيط به حديقة وبضع أشجار)، يتصدره بوابٌ من التسعينيات (يجمع بين مهنتَي الحراسة والقوادة)، قادهما إلى مصعدٍ حداثي، (بلا باب وبأثرٍ واحد من العهد الغابر عبارة عن مرآةٍ عريضة حال لمعانها)، صعد في بطءٍ شديد أتاح لشرف أن يتأمل صديقه الجديد الذي وقف ممسكًا بمقبض الباب وقد أعطاه ظهره، فكشف بذلك عن قفا عريض أثار اهتمام الشاب؛ لا بسبب ما أوحى به من إمكانيات للعبث، ولا بسبب شحوب بشرته البالغ، وإنما بسبب السلسلة الذهبية التي أحاطت به.

غادرا المصعد في الطابق الثالث إلى طرقةٍ نظيفةٍ مضاءة، تتوسطها نافذة تطل على منور، تنتهي في أحد طرفَيها ببابٍ خشبيٍّ متين، تزينه قضبان من النحاس اللامع، أدى إلى ردهةٍ وثيرة الأثاث وصالةٍ فسيحة تتوسطها مائدةٌ واطئة بصينيةٍ كبيرة من النحاس، ويتألف أحد جدرانها من مدفأةٍ كبيرة صُفَّت فوق رفِّها الرخامي التماثيل الصغيرة والمشغولات النحاسية وزجاجات الخمر، أما الجدران الأخرى فقد ازدحمت باللوحات الفرعونية الملونة وقطع القماش والسجاد التي تمثِّل مناظر من الريف المصري، في محاولةٍ جاهدة للانتماء.

بإشارة من مضيفه احتل فوتيهًا وثيرًا في حرص. وأنزل الآخر «جوني ووكر» من عليائه مع كأسَين قائلًا، كما في الأفلام بالضبط: لا تمانع في كأس، أليس كذلك؟

غالب شرف إنجليزيته: في الحقيقة يا مستر جون هذه مناسبة تتطلب الاحتفال، لكني لا أشرب سوى البيرة.

قال مستر جون مقلدًا طريقته في الحديث: في الحقيقة أنا عندي بيرة؛ بيرة مستوردة، وعندي أيضًا حشيش لو أحببت.

وقام على الفور إلى المطبخ وعاد منه بعلبتَين «هينيكين» وإناء من مكعبات الثلج وصحن مليء بالفستق واللوز والبندق. ثم مضى إلى الناحية الأخرى من الشقة وعاد بعلبةٍ معدنية صغيرة في حجم علب السجائر ودفتر من ورق البفرة ولفافة من السلوفان في حجم علبة الثقاب تصاعدت منها رائحة المخدر النفاذة اللذيذة.

صبَّ لنفسه كأسًا من جوني ووكر وأشار لشرف كي يصب لنفسه البيرة ورفع كأسه في الهواء ليقرعه بكأس أشرف قائلًا: نخب صداقتنا.

ردد شرف النخب في حماسة، بينما انصرف الخواجة إلى إعداد سيجارةٍ ملغومة؛ أفرغ أولًا محتويات سيجارةٍ عادية ثم اقتطع حمصة من قطعة الحشيش وأودعها ورقة

مفضَّضة استخرجها من علبة السجاير، سخَّنها قليلًا بعود كبريت حتى لانت فدَهسها مع التبغ ثم أفرغ المزيج في ورقة السجاير وأدخلها العلبة المعدنية وأخرجها منها ملفوفةً جاهزة.

قدم السيجارة إلى ضيفه وأشعلها له. جذب شرف عدة أنفاس ثم أعادها إليه، وتبادل الاثنان التدخين حتى انتهت السيجارة، وقدم الخواجة لضيفه قطعة شكولاتة أوشك أن يعتذر عن تناولها إلى أن تبين نوعها.

قال شرف وهو يلتهم «كادبوري»: عندك شقةٌ جميلة.

كان الرأي صادرًا عن وعيٍ كامل فلم تكن السيجارة قد أحدثت تأثيرها بعدُ.

قال الآخر: تعالَ أفرِّجك عليها.

تبعه إلى غرفة نوم وثيرة يتصدرها فراشٌ مغطًّى بالدانتلا، ودولاب أنيق من خشبٍ لامع، وأباجورة بجوار السرير وأخرى بجوار فوتيل أنيق ذي مسندَين محشوَّين جيدًا وبينهما نافذةٌ مفتوحة تملأ فراغها أغصان الأشجار. انتقلا إلى الحمام الذي كان في سعة الصالة يتصدره بانيو ضخم وبه تواليت نظيف وله بابٌ متين يُفتح ويُغلق في هدوء وإحكام، وإلى مطبخٍ فسيح تتصدره ثلاجة تكدَّست بالمحتويات التي أشهرتها إعلانات التليفزيون، استخرج منها الخواجة أطباقًا صغيرة بها شرائح من اللحوم الباردة والسجق الغريب الشكل وأنواع من الأجبان لم يسبق لأشرف أن رآها، وضعها فوق صينيةٍ خشبية ناوله إياها فحملها إلى الصالة وهو في أعقابه.

تناول شرف كأسه ورشف منها ثم قال: أنا أيضًا أعيش في بيت له حديقةٌ كبيرة.

قاطعه مضيفه: في المعادي؟

بلع ريقه وقال: في الحقيقة نعم. ولي حجرةٌ خاصةٌ مدهونة بالزيت ونظيفة تطل نافذتها على شجرة ياسمين فأشم رائحتها طول الوقت، ولي سرير في الركن، لي أنا وحدي، أمامه ستارة ومكتب خلفه دولاب فيه راديو ستريو وكاسيتات ولوحة الموناليزا على الجدار، هل تعرفها؟ وصورةٌ كبيرة أيضًا لمايكل جاكسون، هل تحبه؟ وفي الصباح تُحضر لي أمي أو أختي الكبيرة الإفطار: بيض وحليب ومربى، كما تأكلون أنتم. أليس هذا إفطاركم؟ تحضره أمي في صينيةٍ كبيرة بها زهرية من ورود الحديقة، لا تتخيل الرائحة.

كان جون يستمع باسمًا. وخيِّل إلى شرف أن وجهه ازداد شحوبًا.

سأله وهو يصبُّ له بقية البيرة: هل أنت طالب؟

أجاب على الفور: في الجامعة.

١

شعر أن ضوء المصابيح ازداد توهجًا، والْتمعت السلسلة الذهبية المحيطة بعنق الخواجة الذي لم يفته اتجاه نظر ضيفه فقال وهو يمسكها بأصابعه: تعجبك؟

أجاب: في الحقيقة نعم.

خلعها من عنقه وناولها له قائلًا: هي لك.

قال: لا أستطيع أن آخذها.

كان الخواجة حاسمًا فألقى بها نحوه واضطر أشرف إلى تلقُّفها.

– سأشتريها منك.

– لن تستطيع فهي غالية جدًّا.

قال في عناد متمسكًا بمفهومه عن الشرف: بل سأفعل!

وسواء أكان السبب إدراكه لعجزه أم أن السيجارة بدأت عملها، فإنه شعر بالدوار فجأة وبالرغبة في البكاء؛ الأمر الذي مس قلب الخواجة، فانتقل إلى جواره وأحاطه بذراعه.

أسند شرف رأسه إلى صدر الخواجة العريض فقد حانت لحظة الاعتراف. وأثبتت اللغة الإنجليزية أنها عصية على الحقيقة؛ فعاد إلى لغة موطنه: العربية لا «المعادية»: كيف أنه كان يكذب. وأنه لن يستطيع شراء شيء، وحتى الآن لم يتمكن من دخول الجامعة، ورائحة الياسمين التي ذكرها عندما تحدث عن منزله هي الرائحة الدائمة لـ «خرانا»، الذي يتجمع في بئر أمام باب المنزل وتأخذه شاحنة مرة في الأسبوع.

ذروة الاعتراف بدت كمقطع من أغنية لأم كلثوم؛ أي ميلودرامية تمامًا. أنا زهقت من حياتي ونفسي أسيب البلد. يا ريت تاخدني معك بعيد.

لم يتكلم الخواجة واكتفى بأن وضع السلسة حول عنق الشاب ثم مد يده إلى ساقه وتحسس فخذه.

أعادت إليه اللمسة إنجليزيته؛ إذ قال مستنكرًا: أنت لا تصدقني؟ لن تجد في جيبي نقودًا تذكر.

أبعد جون يده وقال: يمكنني أن أعطيك ما تشاء، وتناول مجلةً مصورة من فوق رف المدفأة وناولها له قائلًا: هل تحب الصور؟

من الذي يكرهها؟ كانت المجلة أجنبية بها صور كثيرة لنساء ورجال عرايا في أوضاع أجرت الدماء ساخنة في عروق الشاب الغرِّ، كما أثبت السؤال الذي بدر منه: هل أنت متزوج؟

أجاب: كلا، أنا لا أطيق النساء.

كفت الغرفة عن الدوران لحظة، ولأول مرة شعر شرف بقلقٍ مبهم.

سأله الآخر: وأنت؟

قال: أنا أحب جارة لي لكن أهلها يريدون تزويجها.

– لك؟

– لا، لقريبٍ لها غني.

– هل هي تحبك؟

– إنها تتلطف معي أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى تتجاهلني وتعاملني بقسوة.

غيَّر جون الموضوع قائلًا: السلسلة حلوة عليك. انظر إلى نفسك في المرآة.

أشار إلى مرآةٍ مذهبة الإطار على الجدار الواقع خلفه، فنهض شرف وهو يترنح واستدار يواجهها. بدت السلسلة فعلًا جميلة وشيك، لا ينقصها إلا القميص الأسود والنظارة السوداء لكن ما انضم إليها في المرآة هو وجه جون الذي ازداد اقترابًا حتى أوشك أن يلمس خده بشفتيه، بينما أحاطه بذراعَيه من الخلف.

أبعد شرف وجهه وهو يحاول الإفلات من الذراعَين قائلًا: ما هذا يا جون؟ ماذا تفعل؟

لم يكن جون في حالة تسمح له بالرد شفاهيًّا، وبدلًا عن ذلك أطبق على فريسته الذي قاوم بعنف، ونجح في أن ينسلَّ من بين ذراعيه إلى أسفل ويقفز ناحية الباب، لكن الحظ لم يكن في صف أشرف من البداية؛ فقد تعثَّر في السجادة وسقط على الأرض إلى جوار المائدة. وفي اللحظة التالية كان الخواجة فوقه.

جاهد الشاب في دفع مُهاجِمه الذي كان يفوقه قوةً، ونجح في شلِّ حركته إلى أن شعر به يحاول تجريده من ملابسه وهو يلهث، فأمدَّه العدوان الصريح بقوةٍ جديدة؛ وجَّه إلى رأسه ضرباتٍ عشوائية بقبضتَي يديه أجبرته على محاولة توقِّيها. وبدا أن الحظ قد تدخَّل أخيرًا في صفه؛ إذ ارتطم رأس المعتدي بحافة الصينية فخفَّت قبضته، استطاع شرف أن يحرر جسده ويزحف مبتعدًا، وكما يحدث عادة في هذه المواقف، غيَّر الحظ موقعه على الفور؛ فقبل أن يصبح شرف بمنأًى عن مهاجمه تمكَّن هذا من الإمساك بساقَيه وأوقعه أرضًا ثم ارتمى فوقه من جديد.

بدت النتيجة محسومة هذه المرة، وشعر بها شرف بجسده قبل أن يدركها بعقله، ولأنها المرة الأولى التي يواجه فيها عدوانًا صارخًا من هذا النوع فقد استنفر كل طاقاته. كان قد فقد السيطرة على نصفه الأسفل، فطوح ذراعيه على غير هدًى، هكذا لمست يده سطح الصينية فتحسسها في لهفة حتى عثر بصحن الفستق، لم يتردد ثانيةً واحدة، قبض عليه وقذف به الرأس الجاثمة فوقه.

١

كان جون منهمكًا في حل مشكلة الملابس، ومع ذلك انتبه للصحن المندفع نحوه فتفاداه. وأيقن شرف أنه خسر المعركة، وعندئذٍ لمح بطرف عينه زجاجة الخمر فجاهد حتى قرَّب أصابعه من عنقها وأطبق عليه ثم رفعها في الهواء وأهوى بها على صدغ مهاجمه.

لم يتمكن جون من تفادي الزجاجة. وأصابته الضربة بالذهول فجمدت حركته. ولم يلحظ شرف الدماء التي سالت على وجهه. لم يلحظ شيئًا على الإطلاق ولا حتى أن يده القابضة على شظية مدببة من حطام الزجاجة كانت مستمرة في الارتفاع والهبوط فوق الرأس الأشقر المخضب بالدماء.

٢

أسلمني الرقيب في صمت إلى حارسٍ وقَّع باستلامي على دفتر، وتبعته في ممرٍّ طويل تضيئه المصابيح الكهربائية، وتتصاعد من جنباته رائحةٌ غريبة هي مزيج من الفنيك والبول. مررنا بغرفٍ خالية اكتظت بالمكاتب الخشبية وأضاءتها شمس العصاري، ونزلنا سلمًا إلى الطابق الأرضي؛ فأبرز الحارس حلقةً من المفاتيح الضخمة فتح بأحدها بوابةً من القضبان الحديدية، انتهزت الفرصة لأطلب منه مساعدتي في الاتصال بأهلي.

قال: إيدك على خمساية.

قلت: أنا دالوقت ممعييش، لكن أهلي حيدولك.

لم يرد عليَّ، ودفعني أمامه في ردهةٍ صغيرة بها ثلاثة أبواب مصفحة، وفي طرفها فتحة بغير باب تضم مرحاضًا مكشوفًا، تكوَّم البراز حول حافته وتصاعدت منه رائحةٌ خانقة.

أبرز مفتاحًا آخر فتح به أحد الأبواب الثلاثة، ودفعني إلى الداخل ثم أغلق الباب ورائي دون أن يعبأ بالصيحات التي استقبلته، شققت طريقي بين بضعة أشخاص تجمعوا عند الباب وانهالوا عليه بالدق والصياح.

ألفيت نفسي في غرفةٍ كبيرة تلطخت جدرانها بالحبر وبقع الدماء وكتاباتٍ مختلفة، واكتست أرضها بالزفت وخليط من البصاق والبول. أشار لي رجلٌ ضخم الجثة يجلس القرفصاء على الأرض كي أنضم إليه، كان يرتدي جلبابًا قذرًا شُقَّ من منتصفه ليكشف عن صدره وعورته، شعرت بالخوف فتجاهلته ومضيت إلى ركنٍ بعيد عن الباب. جلست فوق مصطبة من الأسمنت أسفل نافذةٍ عالية من القضبان الحديدية المغطاة بشبكة من السلك.

اقترب مني رجلٌ أكبر مني في السن، ذو ملامح وادعة، يرتدي قميصًا عاديًّا وبنطلونًا، ويضع نظارةً طبية، ذات إطار من نوعٍ رخيص. جلس إلى جواري وأخرج سيجارتين من جيب قميصه، قدم إليَّ إحداهما، أخذتها رغم أنها كانت من طراز «كليوباترا»، عرَّفني بنفسه قائلًا إنه موظف في وزارة التربية والتعليم وأنه احتجز على سبيل الخطأ بسبب التشابه بين اسمه واسم أحد المتطرفين الهاربين. كشف عن باطن ذراعَيه أسفل الإبط وباطن ساقيه أسفل الركبة فرأيت كدمات زرقاء كبيرة وآثار تقيحات على حوافها.

قال: مصدقونيش إلا بعد ما أكلت الطريحة.

سألته: قصدك إيه؟

قال: مسمعتش عن الجهاز؟

هززت رأسي نفيًا.

قال: بكرة تدوقه.

تسارعت دقات قلبي وسألته بصوتٍ مرتجف: هم بيعذبوا كل واحد؟

– اللي ما يعترفش ياخد نصيبه، واللي يعترف كمان. أمال يتأكدوا ازاي إنه بيقول الحقيقة؟

ران علينا الصمت برهة وشعرت بقرصةٍ حادة في ساقي، عند حافة الجورب، حركت ساقي في حذر وجذبت ساق البنطلون في عناية ثم تطلعت إلى حافة الجورب، لكني لم أجد أثرًا للبرغوث الذي قرصني.

قال إن القاضي أمر بالإفراج عنه منذ ثلاثة أسابيع وإنه ينتظر التنفيذ في أية لحظة.

قلت: تلات أسابيع؟ المفروض تكون خرجت ما دام أفرج عنك.

قال: دخول الحمام حاجة والخروج منه حاجة تانية.

راح يعدد لي الإجراءات المصاحبة لقرار الإفراج: العودة إلى المحكمة في اليوم التالي للحصول على ورقة اسمها صحة إفراج تفيد مراجعة الأوراق، ثم الذهاب إلى مديرية الأمن في باب الخلق للحصول على ورقة تفيد أنه ليست عليك أحكامٌ سابقة، وبعد ذلك المباحث في لاظوغلي لكي تسجل أنه لا يوجد لديها مانع من إطلاق سراحه بشرط ألا يكون مطلوبًا في جهةٍ أخرى، ثم العودة إلى القسم للحصول على إمضاء رئيس المباحث الذي كان قد انصرف ولم يظهر إلا في اليوم التالي. وبعد أن وقَّع اصطحبه الباشكاتب إلى مكتبه وطلب منه بطاقة الهوية ثم بسط يده طالبًا الحلاوة.

– طبعًا عادي، المشكلة إني من ساعة ما القاضي أفرج عني وأنا بأوزَّع شمال ويمين. كل خطوة: مبروك، ألف مبروك؛ يعني اطلع بالسجاير والشاي والقهوة. خلصنا

الورق وخلصت فلوسي. ولما الباشكاتب طلب الحلاوة كنت وصلت لآخري، لعنت أبوه وأبو الضباط والحكومة، تفتكر عملوا فيَّ إيه؟

– ضربوك؟

– يا ريت، الضرب كان أهون. لا يا سيدي. عملوا لي كعب داير.

– يعني إيه؟

– يعني ألفُّ محافظات مصر كلها عشان كل محافظة تشوف إذا كان عندها حاجة ضدي.

هونت عليه ودعوت له بالإفراج القريب، ثم طلبت منه أن يتصل بأهلي إذا خرج، وأعطيته رقم تليفون بوتيك على ناصية شارعنا، تعمل به أختي. وعدني بأن يفعل قائلًا: حاقولهم يجيبوا لك بيجامة وفوطة وصابونة وأكل طبعًا.

سألته مترددًا: هو مفيش أكل هنا؟

نظر إليَّ مستنكرًا ثم ضحك: أكل؟ إنت فاكرها لوكاندة؟ لك رغيف واحد حاف في اليوم والباقي عليك. إنت تغديت؟

قلت: ولا فطرت.

مد يده إلى كيسٍ كبير من البلاستيك بالقرب منه وأخرج لفافة قدَّمها لي.

– كل، جبنة ولانشون.

تطلعت إلى الساندوتش في تردد، ودفع هو به إلى يدي في حزم فأخذته، وعاد ينبش في الكيس البلاستيك حتى استخرج فلفلةً خضراء مسحها في ملابسه وقدمها إليَّ قائلًا: كل يا راجل.

الْتهمتُ الساندوتش وأنا أتطلع حولي إلى الآخرين، التقت عيناي بعينَي الرجل العاري الذي سلطهما عليَّ في تركيزٍ غريب. ودون أن أشعر وجدت نفسي أقترب من كعب الداير كأنما أحتمي به.

فرغت من الأكل فقدَّم لي سيجارة، وسألني عن سبب احتجازي. حكيت له قصتي وكيف أن الشرطة تتهمني بقتل الأجنبي بغرض السرقة، وقلت له إن جون كذب عليَّ؛ فقد عرفت من التحقيق أن هذا ليس اسمه الحقيقي وأنه من إنجلترا وليس من أستراليا. استمع إليَّ باهتمام دون أن يعلق بشيء.

تدافعت الدموع إلى عينيَّ وواجهته قائلًا: أنت مش مصدقني؟

بدا عليه الارتباك وقال: لا، مصدقك.

أضاف بعد لحظة: الواحد هنا يسمع حكايات يا ما.

لم أفهم ما يعنيه فسألته عن رأيه في مصيري؟ قال: محامي شاطر يطلعك براءة أو بحكم بسيط.

انفجرت فجأة عاصفة من الشتائم البذيئة من الركن البعيد عن الباب. رأيت اثنين يمسكان بخناق بعضهما البعض ويتبادلان الاتهام بالغش وقد تناثرت حولهما أوراق كوتشينة قديمة. كان الشر يبدو على وجهيهما، وبخاصة واحد منهما نحل شعر رأسه من الجانبين والمؤخرة، تاركًا جزيرةً صغيرة فوق جبهته مباشرة، ورأيت زميله يرفع يدًا برزت منها مطواةٌ صغيرة، ولمحت إصبعًا زائدًا يتدلى منها إلى جوار الخنصر.

اعتدلت في جلستي متوترًا فضحك كعب الداير قائلًا: متخفش، مش حيحصل حاجة. وبالفعل هدأ الاثنان بعد لحظة واستأنفا اللعب وكأن شيئًا لم يحدث.

اقترب منا شاب في سني، يرتدي نظارةً طبيةً سميكة، عقد ذراعَيه أمام صدره وأخذ يضغط بهما على جسمه الهزيل، وكان وجهه شديد الشحوب وحول عينيه حلقاتٌ سوداء.

تطلَّع إليَّ في صمت، ولحظت أن وجه كعب الداير قد تجهَّم. ظل الشاب في مكانه وجسمه يرتعش بين الفينة والأخرى وأصابعه تدعك ذراعيه، ورأيت العرق يتجمع على وجهه.

خاطبه كعب الداير في جفاء: مفيش معاه.

ظل الشاب واقفًا وهو يتطلع إليَّ كأنه لم يسمع.

قال له كعب الداير: إذا كنت عاوز تاكل عندي سندوتش زيادة.

استدار الشاب مبتعدًا دون كلمة. وتابعته بنظري في استغراب.

زايلت الجهامة وجه كعب الداير وحلَّ محلها تعبيرٌ حزين: مش راضي ياكل. شاي وقهوة على طول. طالب بالجامعة، ضبطوه بياخد حقنة ماكس تحت الكوبري. كانوا اتنين، هو اتحبس هنا، وزميله اتحبس فوق في مكتب مأمور القسم وبعدين أفرجوا عنه.

قلت: كوسة؟

قال: طبعًا. أصله ابن رئيس المحكمة العليا.

وأضاف ساخرًا: المسكين ده فاكر ان صاحبه حيتوسط للإفراج عنه. ما يعرفش انه هو اللي حيشيل القضية كلها.

تابعت الشاب وهو يتنقل من مجموعة إلى أخرى دون أن يتوقف عند أحد، ثم يدور بالقاعة وهو يدعك ذراعَيه في عصبية.

أومأتُ إلى رجلٍ وقور بلحيةٍ كثةٍ تتدلى على صدره وقلت: من الجماعات، مش كده؟

ضحك: أبدًا. ده سواق على نقل «سوزوكي». حرامي.

أبديت استغرابي.

قال: وحرامي خطر كمان. اتفق مع تاجر ينقل له كمية بيض، وفي الطريق هدده بموس وأخد منه البيض وخمسمائة جنيه.

واصل تعريفي بالباقين: سائق سفير أعطاه شيكًا بسبعة آلاف دولار لصرفه من البنك، فصرفه وترك السيارة وسافر إلى الأردن بحثًا عن عمل، وعندما فشل عاد فقُبض عليه في المطار، مدير فرع في مؤسسةٍ حكومية لتعبئة الأغذية وجدوا عنده كمياتٍ كبيرة من الشاي الذي انتهت مدة صلاحيته وأقرَّ بأنه تلقَّى تعليمات من رؤسائه بإعادة تعبئتها في عبواتٍ أخرى ببياناتٍ جديدة، جزار ذبح عجلًا مريضًا في المقابر، عاطل ينتظر الترحيل إلى الزقازيق حيث اغتصب فتاةً صغيرة هاربة من بيتها عمرها ١٥ سنة هو واثنان من أصدقائه، كهلٌ بدينٌ في ثيابٍ متسخة قبض عليه لأنه يبيع مكرونة في عربة مكشوفة.

سمعته يشكو لمغتصب الفتاة قائلًا: المكرونة بتجيلنا في براميل من غير غطا، وكل الناس شايفاها. يبقى أنا لما أبيعها عريانة أتمسك! ليه؟! عشان مدفعتش.

أضاف بعد أن هدأ: وفيها إيه يعني؟ حيحصل إيه؟ ده احنا شعب يهضم الزلط.

تصاعدت ضجة في الخارج، وتجمَّع المحتجزون عند الباب وأخذوا يدقون عليه، نهضت واقفًا وانضممت إليهم، نادى صوتٌ جهوري عدة أسماء ثم ظهر الصول عند الباب وفتحه ليخرج أحد المحتجزين ثم أغلقه من جديد في وجه الآخرين الذين تزاحموا حوله. وأمكنني أن ألمح طرفًا من البوابة الحديدية الخارجية وقد تجمع عندها عدد من السيدات في الملابس البلدية وأطفال في جلاليب.

تابعت النداء على الأسماء في ترقب أملًا في سماع اسمي، وتكرر فتح الباب وإغلاقه. وعاد البعض يحمل كيسًا من الطعام وبطانية، وظهر البعض الآخر خاوي الوفاض كسِيف البال، وفرش أحدهم بطانيةً سميكةً ملونة جاءته وجلس فوقها سعيدًا أسفل عبارة سُجلت على الجدار بحبرٍ جاف: «كله من النسوان».

انتهت الزيارة بعد ساعة، ودبَّ النشاط في المحتجزين، وتجمَّع بعضهم حول الطعام الذي جاءهم من أهلهم، وجلست أنا وحيدًا في الركن أتأملهم. واستأنف طالب الماكس جولاته بين الذين جاءتهم زيارات، ثم انكمش إلى جوار الحائط، وتكوَّر وهو يرتعش. وبعد قليلٍ قام أحدهم ومضى إلى النافذة ونادى على جندي في الخارج ثم لفَّ ورقةً مالية على شكل سيجارة مدها له من ثقب بالشبكة وأتى بكوب من البلاستيك وضعه أسفل الثقب فامتد منه خرطوم رفيع من البلاستيك انسال منه الشاي.

سال لعابي لمنظر الشاي والتفتُّ إلى صديقي أملًا أن يشتري لنفسه كوبًا ويعزمني على واحد، أو على الأقل تنوبني رشفتان من كوبه، وجدته قد التفَّ ببطانية واستسلم للنوم. وترددت أصواتٌ غاضبة في الخارج ميَّزت بينها صوت امرأةٍ بلدية تصيح: وإيه يعني لما اضربه؟ دا جوزي وانا حرة فيه. محدش له دعوة.

تباعد صوتها بعد قليل وسمعت صوت إغلاق باب الحجز المجاور لنا والخاص بالنساء.

فُتح بابنا بعد لحظات وانضم إلينا كهل في ملابسَ بلديةٍ فاخرة لم يكن يبدو عليه الانزعاج؛ كأنما ألف المكان. ولم يلبث الحارس أن فتح الباب وناوله لحافًا سميكًا وبطانيةً جديدة وعدة لفائف من الطعام تصاعدت منها رائحة الكباب، وكان يدعوه بالحاج. بسط الرجل فرشته ثم فض لفافة الطعام ووجَّه الحديث إلى الجميع دون أن ينظر إلى واحد بالذات: تفضلوا معايا. ترددت بضع كلمات الشكر ولم يستجب أحد إلى الدعوة، ويبدو أنها لم تكن جادة فلم يكررها، وانقضَّ على طعامه في شهية وحماس.

غالبت نفسي كي لا أنظر إلى قطع اللحم والكفتة المغطاة بالبقدونس، وإلى أرغفة الخبز التي كان يقضم منها لقماتٍ كبيرة، وإلى أنواع السلاطات التي أحاطت بالطبق، وجهت انتباهي إلى كهلٍ في جلبابٍ رخيص يبكي في صمت. واجتذبني حديث رجلٍ هادئ، أصلع الرأس، كان يحكي لجاره عن زوجته. فهمت أنها ادعت عليه بأنه سرقها لأنه قال للقاضي إنها ما زالت بكرًا وإنه لم يدخل بها حتى الآن، فاعتبرت ذلك طعنًا في شرفها.

سمعتُ نداءً على اسمي وظهر الصول في فرجة الباب، أشار إليَّ فتبعته إلى الخارج، صعدنا السلم من جديد إلى أعلى. وفي هذه المرة تجاوزنا الطابق الأول وواصلنا الصعود إلى الثاني.

انطلقنا في ممرٍّ تحفُّ بجانبَيه الغرف المغلقة، حتى وصلنا إلى باب بحواره لافتة تعلن عن: «ضابط المباحث»، يقف أمامها رجل في قميص وبنطلون، أشار لنا بالانتظار، وطرق الباب ودخل ثم عاد بعد دقائق وأومأ لنا بالدخول.

كان ثمة ساتر خشبي في المدخل دُرنا حوله لتطالعني غرفةٌ كبيرة وصورة رئيس الجمهورية فوق شابٍّ مديد القامة وسيم الملامح يبدو عليه أنه من أولاد الناس، كان يتحدث في سماعة تليفون بصوت هامس بينما يده الأخرى تنفض رماد سيجارة «كِنت» في منفضة معدنية على مكتبه. وكان يرتدي قميصًا اسبور مخططًا من طراز «سونيتي»، لم يعجبني ذوقه، وتنبعث منه رائحة عطر «كارتييه»، وإلى الجانب الضيق من المكتب جلس في احترامٍ رجلٌ آخر في قميصٍ عادي بنصف كم يتشاغل بالتقليب في بعض الأوراق.

أدَّى الصول التحية العسكرية، وظل واقفًا في انتباه إلى أن أنهى الضابط حديثه التليفوني وأشار له بالانصراف دون أن يرفع إليه عينَيه. خرج الصول بينما ظل الضابط يتطلع إلى يده التي تنفض السيجارة وقد بدت عليه علامات التفكير العميق.

شعرت بشخصٍ خلفي يضع كفه على قفاي ويتحسسه برقَّة. ارتعش جسدي من اللمسة التي لم أعهد مثلها من قبلُ وبدت لي اليد دافئة توحي بالاطمئنان، ثم سمعت صوتًا يقول في أذني: تكلم أحسن لك.

التفتُّ برأسي لأرد على من خاطبني فهوت يد على صدغي، ترنَّحتُ من وقع الصفعة وكدت أقع على الأرض لكن مخبرًا آخر تلقفني بين ذراعَيه، ونهرني الضابط قائلًا: بص لي وجاوب بسرعة.

قلت: حاضر.

هوت يد المخبر الثاني على صدغي فأعادتني إلى حضن الأول: قول أفندم يا ولد.

رددت بسرعة: حاضر يا افندم.

قال: تعترف ولَّا أعلقك؟

قلت في توسل: والله العظيم يا سعادة البيه أنا قلت كل حاجة زي ما حصلت.

تلقيت لكمةً صاعقة في وجهي فأضفت على الفور: متآخذنيش يا سعادة الباشا، مش قصدي، وحياة المصحف زي ما قلت أول مرة، هو اللي اداني السلسلة من نفسه، ولما حب يعتدي على شرفي دافعت عن نفسي، لكن ما قصدتش أقتله أبدًا، هاتلي مصحف أحلف عليه.

ظل يتطلع إليَّ دون أن يتكلم فشككت أنه مسيحي.

قلت: والإنجيل يا سعادة الباشا زي ما قلت.

بدا عليه الغضب وقال: قلَّعوه.

شدوا بنطلوني إلى أسفل بينما تولى أحدهم ربط يدي بكلبشات معدنية خلف ظهري.

خاطبني الضابط متهكمًا: عارف إحنا حنعمل فيك إيه؟

انتابني الرعب وجذبت يدي فازدادت الكلبشات ضيقًا حول رسغي وجذب أحدهم كيلوتي إلى أسفل فتضاعف رعبي، ربط به قدميَّ ثم أحضر طرحةً نسائية وربط بها عيني، وأخيرًا رفعوني وعلقوني في النافذة بحيث ألمس الأرض بأطراف الأصابع.

جربت أن أنقل ثقل جسدي بالتناوب بين اليدين والقدمين لأخفف الألم بينما انهالوا عليَّ بالكرباج والشتائم.

هتفت: ارحموني. أنا مستعد أقول أي حاجة، بس كفاية كده. ومش حاقول على اللي إنتو عملتوه فيَّ، أنا عارف انه غصب عنكم. كفاية بأه. حرام عليكم.

شعرت بإعياءٍ شديد وسمعت من يسبُّني طاعنا في رجولتي، فلم أملك نفسي وصحت به: أنا أرجل منك، وهنا سمعت الضابط يقول لواحد منهم: هات الجهاز.

ربطني المخبر بسلك في كتفي وبدأ يضع شيئًا تحت رجلي. وسمعت صوتًا يقول: الفيشة بايظة.

قال الضابط بصوتٍ نافد الصبر: حطه في التانية يا حمار.

مرَّت لحظاتٌ بطيئة وفجأة اخترق ساقي قضيب من النار فصرخت. وتكرر الأمر مع الساق الثانية. أخذت أئن وشعرت فجأة بأني أقفز من مكاني وأطير في الهواء، ثم غبت عن الوعي.

أفقتُ لأجد نفسي راقدًا على الأرض غارقًا في المياه وعاريًا تمامًا، وقدميَّ مربوطتين بالكيلوت، والكلبشات في يديَّ خلف ظهري كما هي، والغمامة تغطي عيني.

أدركت من الأصوات المحيطة بي أن الضابط والمخبرين ما زالوا موجودين، فخاطبتهم قائلًا: حرام عليكم. وبدأت أبكي.

سمعت الضابط يقول: اختار اسم واحدة نندهلك بيه.

قلت: ليه؟ ما أنا لي اسم!

قال: إيه رأيك في اسم شريفة؟ وللا فتحية؟

قلت: اعمل معروف.

قال: اسمع الكلام أحسن ننده لأختك ونقلعها.

قلت له: كله إلا ده. أنا مستعد أعمل أي حاجة، أبوس رجلك.

قبل أن أغلق فمي شممت رائحةً نتنة تقترب مني وبجسمٍ غريب يستقر بين فكي، لم ألبث أن أدركت أنه قدم الضابط المكسو بجورب نتن.

لم أتمكن من تحريك فمي لكي أقبل قدمه. وسمعته يقول: اخترت اسم يا واد؟

لم أتمكن من الإجابة. ثم سمعت لطمة وصوت أختي تصرخ: يا لهوي.

صرخت: أنا معترف بكل حاجة. أنا كنت عاوز أسرقه ولما قاومني ضربته.

وفقدت الوعي.

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا جالس على الأرض وسط صمتٍ مطبق وما زلت مغمى العينين، مقيد اليدين.

مضت عدة ساعات كنت خلالها مشلول التفكير والإرادة، ثم سمعت وقع أقدام تقترب وصوت بابٍ قريب يُفتَح. امتدت يدٌ إلى غمامة عينيَّ فأزالتها. وألفيت نفسي أمام رقيب من جنود القسم طلب مني الوقوف وفكَّ قيدي.

أسلمني الرقيب في صمت إلى صول وقَّع باستلامي على دفتر. تحاملت على نفسي وتبعته في صعوبة إلى الطابق الأرضي حيث يقع الحجز.

كنا في الفجر والجميع نيام فوق المصاطب أو على الأرض، حيث انفرد البعض ببطانية فرشها تحت جسده، واشترك آخرون في بطانيةٍ واحدة استلقى فوقها اثنان أو ثلاثة. أما الذين لم يكن لديهم شيء فقد تمددوا على الأسفلت مباشرة وتوسدوا أحذيتهم.

وجدت مكانًا إلى جوار كعب الداير فرقدت فوق الأرض العارية وأنا أتحرك في حذر؛ لأن كل عضلة وعظمة في جسمي كانت تؤلمني. خلعتُ حذائي ووضعته تحت رأسي. شممت رائحة عرقي النفاذة، وتقلبت عدة مرات بحثًا عن جانبٍ مريح دون فائدة. اصطدت بضع بقَّات ظهرت على ملابسي فدعكتها في الأرض وأنا أكتم نفسي كي لا أشم رائحة دمائها. استعدت صورة فتاة سيارة الجولف وتخيلتها ترتدي بلوزةً بفتحة واسعة تكشف عن منبت ثدييها وأني أطاردها في سيارة كابورليه بمقعدَين وأسابقها حتى أجبرها على التوقف، عندئذٍ تفتح باب سيارتها وتستدير لتغادرها فتنكشف ساقاها. استمنيت على هذه الصورة من فوق ملابسي وأنا أتطلع حولي في حذر. ثم استدرت على جانبي وأغلقت عينيَّ، ورحت في نومٍ عميق لم تزعجه الحشرات.

في الصباح قاسمني كعب الداير إفطاره من الطعمية والجبنة البيضاء، واستمتعت بجزء من بصلة قذف بها إلينا أحد المحبوسين في قضية مخدرات. رويت له ما حدث وكيف أني سمعت صوت أختي. علَّق قائلًا إنها قد تكون تمثيلية من المباحث للضغط عليَّ.

اكتشفت أن طالب الماكس تبول على نفسه بالليل وأن هناك نزلاء جددًا انضموا إلينا. كان أحدهم فلاحًا من كفر الشيخ جعل يضرب كفًّا بكفٍّ وهو يردد: حسبي الله ونعم الوكيل! حسبي الله ونعم الوكيل! وعندما رآني أنظر إليه وجَّه إليَّ الحديث: الواد ابني بيعمل عملية مخ في أبو الريش، إديته دم وطلعت أبات بره على الرصيف. يقوم البوليس يمسكني في الفجر، يرضي ربنا الكلام ده؟!

كان الباقون جماعة واحدة من ثمانية أشخاص من مختلف الأعمار والأشكال، ملابسهم ممزقة وعليها آثار دماء، بعضهم يرتدي ملابس كاملة رغم الحر، والبعض الآخر جلاليب بيضاء، ومع ذلك تبدو عليهم مظاهر النعمة كما تجلَّى لي من الأقدام النظيفة الناعمة في الصنادل الجلدية.

عرفت من كعب الداير أنهم كانوا يستمعون إلى درسٍ ديني من الشيخ عمر عبد الكافي في المسجد، وعندما انتهى الدرس بدأ يجمع التبرعات لمسلمي البوسنة قائلًا إنه يفعل ذلك

بتكليف من وزير الأوقاف وشيخ الأزهر. اعترض هؤلاء على جمع التبرعات قائلين إنهم تأكدوا من الوزارة والأزهر من عدم صحة هذا الزعم، فاعتدى أنصاره عليهم، وعندما أبلغ مدير المسجد الشرطة جاءت على الفور وبدلًا من إلقاء القبض على أعوان عبد الكافي ألقت القبض على الضحايا.

عرف كعب الداير أيضًا، قصة الحاج صاحب الكباب؛ فهو تاجر أسماك مستوردة وجدوا في ثلاجته كمية من سمك الماكريل منتهية الصلاحية، وكان ينويى تعديل تواريخ إنتاجها وطرحها في الأسواق.

أتاح لنا الحارس الذهاب للمرحاض المكشوف حتى انتهينا جميعًا من استخدامه على مرأى من بعضنا البعض. وعندما أعادنا إلى الحجز بدأ النداء على أسمائنا.

لحظت البعض يتداولون شيئًا في سرية. وسألني أحدهم: معاك حمام؟

تطلعت إليه في بلاهة: حمام إيه يا عم؟ إحنا في إيه ولا إيه؟

كان صديقي يستمع فضحك وقال لي: الراجل يقصد برشام.

كنت أعرف القرص الأبيض الذي يحمل على أحد وجهيه صليبًا، وهو في الأصل دواء أجنبي للشلل لا تصرفه الصيدلية إلا بروشتة، وهو غالٍ جدًّا؛ فالقرص الواحد يشتريه صديقي زلطة الميكانيكي بثمانية جنيهات، وهو يأخذ في العادة قرصَين كل ثلاث ساعات وبعدهما كوب شاي. وجربت تعاطيه مرةً واحدة شعرت بعدها بانبساط وجرأة رهيبَين. ولم أكرر هذه المرة لأنه مكلِّف للغاية ولا يبقى أثره لليوم التالي، على عكس الأنواع الأخرى، وكنت أعرف أنه يسمى أحيانًا من باب التدليل «صلايش» لكني لم أسمع من قبلُ باسم «حمام»، وشرح لي كعب الداير أن المجرِّبين يأخذونه قبل العرض على ضابط المباحث ليساعدهم على تحمل التعذيب.

لم يرد اسم كعب الداير بين الأسماء فبدا عليه الابتهاج وقال: معنى كده أنا باقي هنا، يمكن أطلع على طول.

قلت له: وحياتك ما تنساش في أقرب فرصة، حد يزورني ويجيب معه أكل وفوطة وبيجامة وغيار داخلي. سكتُّ قليلًا ثم أضفت: وصابونة ضروري وماكينة حلاقة وأمواس وسجاير، وأضفت بعد تفكير: مش ضروري مارلبورو، يجيبوا كليوباترا، أرخص.

كانت أمي تعرف أني لا أدخن غير المارلبورو التي يقترب ثمنها من الأربعة جنيهات، وكانت تتحايل دائمًا لتمدني بالنقود الضرورية؛ لأن مصروفي لم يكن يسمح لي بشرائها، بل إن أبي لم يكن يعرف أني أدخن، وإن كنت قد لاحظت أنه بدأ يشك في الآونة الأخيرة، فضربني وطردني من البيت حتى اضطررت للمبيت في الشارع.

غادرنا الحجز من جديد وألفيت نفسي أمام الزنزانة المجاورة فوضعت عيني على الفتحة الدائرية في بابها، رأيت عدة نساء بينهن واحدةً شقراء الشعر ترتدي جوبة وشبشب زنوبة، أمسكت بسيجارة بين أصابعها وجلست في الوضع الذي تفضله أمي: ثانية ساقها اليمني أسفل فخذها الأيسر، الذي أقامته عموديًّا على الأيمن واستندت إليه بمرفقها. وكانت تختلف عن أمي في السيجارة التي تمسك بها بين أصابعها والكيلوت الأحمر اللون الذي ظهر بين ساقيها. وتربَّعت أخرى سمينة في ملابس بلدية سوداء على الأرض، وانطلقت تحكى وهي تشرح بيديها يمنة ويسرة في سطوة وعنجهية، وقدرت أنها المرأة التي ضربت زوجها.

اصطففنا طابورًا في الردهة الخارجية امتد حتى الطابق الأعلى. كنت في مقدمة الطابور وفي مواجهتي مباشرة قاعة استقبال كبيرة يجلس في طرفها ضابط بثلاث نجوم منهمكًا في الكتابة، لحظت أنه يتصبب عرقًا ويبذل مجهودًا بالغًا فيما يفعل. وكان هناك عدد من الضباط الشبان أغلبهم بنجمةٍ واحدة أو اثنتين يروحون ويجيئون بين المكتب وقائم خشبي مرتفع في الجانب الآخر من القاعة صُفَّت فوقه مجموعة من الدفاتر. تابعتهم في إعجاب وحسد. كانت النعمة تبدو عليهم من بياض ووسامة وشياكة: الكاب الأبيض تحت الإبط، القميص الأبيض الناصع بنصف كم، البنطلون الأبيض الضيق الذي يكشف تفاصيل الفخذين والأليتين، المسدس المثبت في جانب داخل حافظته، ومشية فيها زهو واعتداد. ولفت نظري واحد منهم ذو وجهٍ بيضاوي وشفاهٍ حمراء مكتنزة حلق شعره على طريقة كابوريا.

سمعته يهتف: يا عوض. ثم يكرر: يا عوض يا وسخ. يا عوض يا زفت. ولبَّى النداء شابٌ ريفي مكتئب الوجه كان منهمكًا في إغراق الطرقة بالمياه تمهيدًا لمسحها. أنَّبه الضابط على قذارة المكتب، أمره بمسحه، وصفعه على قفاه، وتناوب بقية الضباط صفعه على قفاه وهم يضحكون.

انتهى عوض من تنظيف المكتب فعاد إلى الطرقة وشرع يجرف المياه بالمساحة الكاوتشوك حتى كوَّمها قرب الدرج. تركها ومضى إلى قاعة الاستقبال فأغرقها بالمياه ثم أزالها بالمساحة فتجمعت أمامها قاذورات مختلفة كوَّمها في الجزء الذي نظفه من الطرقة، وتركها، واختفى.

أمرنا الحارس بأن نجلس القرفصاء. وصاح آخر في قمة السلم: الشحاتين والنشالين والحرامية الناحية دي، بعدهم بتوع المخدرات والتسعيرة، وهنا بتوع التزوير والدعارة.

توزع الجميع طبقًا للأمر، واحترت أين أقف. وأخيرًا تراجعت إلى نهاية الطابور. اقترب منا حارسٌ آخر وأخذ يضع القيود الحديدية في أيدينا؛ كل ذراعٍ يمنى في ذراعٍ يسرى. وجاء نصيبي مع رجلٍ طويل القامة يرتدي بلوزةً رخيصة وبنطلونًا من قماشٍ رديء ويحمل في يده كيسًا بلاستيكيًّا تبدو منه زجاجة كوكاكولا كبيرة الحجم.

نادى أحد الحراس: حق البنزين يا حضرات. وبدأ كل واحد يدس يده في جيبه متأففًا ويخرج مبلغًا من المال يدفعه للحارس، وتحسست جيبي رغم أني لا أحمل نقودًا.

جمع الحراس النقود وقادونا إلى الخارج فدُسنا في القاذورات التي خلفها عوض وأعدنا توزيعها في الطرقة، اتجهنا إلى سيارة نقل مغلقة الجوانب لها فتحاتٌ صغيرة مسوَّرة بالسلك، دفعَنا الجنود بغلظة من بابها الخلفي، كان سلمه يعلو عن الأرض بنصف متر على الأقل، فوجد أغلبنا صعوبة في القفز إليه بسبب القيود الحديدية في أيدينا. وعندما اكتمل عددنا أغلقوا الباب علينا بالرتاج واحتل حارسان مقعدَين متقابلَين خارج الصندوق.

كان الزحام كثيفًا داخل العربة وأوشكتُ أن أختنق من روائح العرق والأفواه التي استمتع أغلبها مثلي بأكل البصل. علق أحد الواقفين: مش احنا دفعنا عشان يحطونا في عربيتين؟

قلت له: لا: إحنا دفعنا عشان البنزين.

ضحك وقال: إنت يا بني على نياتك خالص.

جاهدتُ حتى اقتربتُ من إحدى الفتحات المسوَّرة من أجل نسمة هواء، بدا لي الشارع غريبًا كأني أراه لأول مرة، وتنبهت لأشياء لم أعرها اهتمامًا من قبلُ: حركة الناس والسيارات وأشكال النساء وخطواتهن المرتبكة ولحظت أن الناس تمشي كالمنومة وأن سيارتنا لم تُثر اهتمام أحد.

مررنا بثلاث محطات للبنزين، دون أن نتوقف عند إحداها.

ترجلنا أمام مديرية الأمن حيث اتجه أغلبنا إليها، بينما تابعت السير على الأقدام مع حوالي العشرة في طابور يقوده الصول ويحفُّ به اثنان من الحراس حتى مبنى المحكمة المجاور.

ولجنا ردهةً غاصَّة بالناس، وشقَّ لنا الصول طريقًا إلى حجرةٍ كبيرة بها أرائك خشبية، وبمجرد أن دخل آخر واحد فينا خاطبنا قائلًا: الشاي يا حضرات.

أخرج البعض جنيهاتهم فجمعها الصول، وكنت بين قلة لم تدفع بينهم زميلي في القيد والكهل الباكي الذي يدعى فوزي، ونزع الأول سدادة زجاجة الكوكاكولا وأصرَّ أن نشرب

منها فروينا عطشنا رغم أنها لم تكن باردة. عرفت أنه عامل بشركة شحن وتفريغ تهدم منزله في الزلزال وأقام بمساكن الإيواء حيث حصل هو وزوجته وأطفاله الثلاثة على حجرةٍ صغيرة في شقة من حجرتين ودورة مياه واحدة تسببت في مشاجراتٍ دائمة، مع الأسرة التي احتلت الغرفة الأخرى، وخصوصًا في الصباح عندما يستعد أطفال الأسرتَين للذهاب إلى المدرسة. وفي يوم دخل جاره الحمام صباحًا وظل أكثر من ساعة بينما كان الأطفال الصغار يصرخون خوفًا من التأخر على الامتحان، وعندما خرج دبَّت بينهما مشاجرة وتضاربا.

لمحت من فتحة في الباب كهلًا في بدلةٍ زرقاء من الكتان بكُمَّين قصيرَين، يقتعد الأرض ويضع أمامه لفافة من ورق الصحف تضم عدة أقراص من الطعمية وعلبة مخللات ورغيفَين من الخبز، اقترب منه كهلٌ آخر في ملابس الصولات فخطف لقمة من الخبز والتقط بها قرصًا من الطعمية. وجرى ريقي وأنا أتابعهما يلتهمان الطعمية.

انفتح الباب بعد ساعة، وتسلَّمَنا حارسٌ جديد قادنا إلى باب آخر، ألفينا أنفسنا بعده في القفص الحديدي بقاعة المحاكمة، وقفنا خلف شبكة من السلك تمتلئ حافتها السفلى القريبة من الأرض بالثقوب التي تسمح بمرور الأيدي. وتطلعت إلينا أنظار الجالسين فوق الدكك الخشبية، وقف إلى جواري طالبٌ آخر بكلية الطب عثر على بطاقة اشتراك مجانية في المواصلات ملقى في الشارع فوضع صورته عليه ليركب الأوتوبيسات مجانًا إلى أن شك فيه المحصل فأمسك به وسلمه إلى الشرطة التي أحالته إلى النيابة بتهمة التزوير في أوراقٍ رسمية. وتلاه شابان يرتدي أحدهما قميصًا مشجرًا فوق بنطلون متسخ ويمسك في يده بعلبة مارلبورو. والآخر شديد السمرة قذر للغاية يرتدي بوتًا يتابع ما يجري حوله بلا مبالاة وهو يمضغ لبانة. وفهمت أنهما من لصوص السيارات.

مضت ساعة ظلت فيها منصة القاضي خالية. كانت القاعة تمتلئ فجأة بالجالسين ثم تخلو منهم بعد قليل لتمتلئ بهم من جديد على الفور، وهكذا دواليك. ولم يظهر أحد من أهلي، وبعد ساعة أخرى دبَّ النشاط في القاعة، وانشقت الأرض عن حاجب فتح بابًا خلف المنصة وهو يصيح فينا: محكمة.

انفرج الباب عن ثلاثة رجال تقدموا من المنصة فاحتل اثنان منهما مقعدَين خلفها، أحدهما ضئيل الحجم بادي الخجل والانطواء، ألقى علينا نظرةً عابرة من خلف عويناتٍ داكنة ثم ثبت عينيه في سطح المكتب، والثاني شابٌّ متأنق يرتدي ربطة عنق ماركة «تيد لابيدوس». أما الثالث فقد دار حول المنصة وجلس إلى جانبها وبسط عدة ملفات أمامه،

وبعد أن دوَّن عدة سطور في أحدها بقلم «بيك» تناول أولها وقدَّمه للقاضي الذي تمتم بشيء فزعق الحاجب الذي وقف تحت المنصة مناديًا بأحد الأسماء.

تتابعت القضايا، ونودي على كثيرين بينهم أبو إصبع وزميله وسائق النقل السوزوكي، وعم فوزي، والحاج آكل الكباب. ثم رُفعت الجلسة بعد ساعة دون أن يتم استدعائي أنا أو الطالب أو رفيقي في القيد، واختفى القاضي وزميله خلف الباب الذي جاءا منه. وبعد نصف ساعة سمعت اسمي وقادني الحارس بعد أن فك قيدي إلى غرفة المداولة.

جرى كل شيء بعد ذلك بسرعةٍ مذهلة، وبينما كنت أحاول أن أحدد نوع العطر الذي ينبعث من زميل القاضي سألني هذا عما إذا كان لديَّ محامٍ؟ أجبت بالنفي، وقبل أن أفكر في إعلان براءتي أعلن القاضي بصوتٍ مرتفع: قررت المحكمة استمرار حبس المتهم ٤٥ يومًا وإيداعه السجن.

أعادني الحارس إلى القفص، وجاء الدور على الطالب الذي خرج من غرفة المداولة منهارًا. بعد ذلك أعلن الحاجب القرارات فنال الحاج إفراجًا بكفالة. تصاعدت الزغاريد من أهله وتكاتف عليه عدد من الحاضرين وأخذ يوزع النقود بلا حساب وسرعان ما اختلطت الزغاريد بالصويت عندما تُليت بقية الأحكام.

خرج بنا الحارس إلى الردهة الخارجية، وألفيت أمي فجأة أمامي، بدا عليها كأنها شاخت وتقدمت في السن عدة سنوات. كانت ترتدي ملابس سوداء وتلفُّ رأسها بطرحةٍ سوداء. احتضنتني في صمت وهي تبكي. وتخلصت منها في غضب شاعرًا بالخجل من أنظار الآخرين. تطلعت حولي بحثًا عن أختي وأبي فلم أجد لهما أثرًا.

غاص قلبي بين قدميَّ وسألتها: فين عايدة؟ هي بخير؟

ردت بصوتها الباكي: بخير يا بني.

لم أشأ أن أستوضحها السبب في عدم حضورها، أو أستفسر منها عما إذا كانت قد تعرضت لشيء على يد ضابط المباحث، ولم تتبرع هي بأي إيضاح، فسألتها عن أختي الثانية وأبي.

– فاطمة في الشغل وأبوك تعبان شوية، راقد من ساعة ما سمع الخبر.

سألتها كيف عرفتِ بمكاني؟ فقالت إن أحد الحراس زارها وأخبرها.

– إديتيلو كام؟

قالت: حكم دماغه على عشرة جنيه.

– وهدى أخبارها إيه؟

٢

– يا بني انت في إيه ولا إيه؟

كررت السؤال وشعرت أنها تتهرب من الإجابة.

– قولي لي، عايز أعرف.

– يا بني ما قلت لك. مش لك.

– حصل حاجة؟

– الظاهر اتخطبت رسمي.

جذبني الحارس من ساعدي لننصرف، وسألتني أمي عما أحتاج إليه، فطلبت منها نقودًا. أعطتني خمسة جنيهات. أرادت أن تعطيني كيسًا كبيرًا من البلاستيك لكن الحارس اعترضها وأبعد يدها في عنف قائلًا: ممنوع يا ست.

استعطفته أنا وأمي، ومدت إليه يدها بورقة من فئة الخمسة جنيهات فثار، استبدلتها بعشرة جنيهات فسمح لي بأخذ الكيس، وجدته يحتوي على خبز وفاكهة وأطعمةٍ ملفوفة في أوراق الصحف. تبينت بينها علبة تونة «شايس» وصابونة «زست» وعلبة شاي «ليبتون» وفانلتين «جيل» ملونتين ولبان «شيكلتس»، وفرشاة أسنان «سبيك» وأنبوبة معجون أسنان «كولجيت» وماكينة حلاقة «جيليت» ومعجون حلاقة «بالموليف» وجوارب تايلاندية ومنشفة للوجه.

طلبت منها أن تتصل بصديقي سيد وتخبره بمكاني وأن تجد لي محاميًا شاطرًا. وتركت نفسي للحارس شاعرًا بالارتياح لأني تخلصت منها.

٣

توقفت عربة السجن أمام بوابةٍ ضخمة مقوسة من الخشب الثقيل، تعلوها لافتة تعلن عن رسالة المؤسسة بكلمتَين مقتضبتَين هما: «التأديب والإصلاح». لم يكن ثمة محاولة للتضليل؛ فالكلمتان عبَّرتا بدقة عن الغرض المستهدف وهو المحافظة على تدفق المنح الأمريكية الموجهة للغرض نفسه (التدفق لا التأديب والإصلاح)، بل ومضاعفتها إن أمكن، وهو الأمر الذي تكشَّف لأشرف عبد العزيز سليمان منذ لحظة العبور.

فالبوابة الضخمة كانت تحتوي في منتصفها على بابٍ صغير بحجم القامة الإنسانية تطلَّب المرور منه القفز فوق حاجزٍ خشبي بارتفاع قدم. عندئذٍ ألفى نفسه في فناءٍ مربع أقيم وسطه نصبٌ غامض تحيط به دائرة من الحجارة الملونة مزروعة بالنجيل والزهور. بعد هذه الافتتاحية المضللة سيق إلى قاعةٍ كبيرة ازدحمت بالوافدين الجدد، وبجيوش الذباب التي كانت تقوم بعمليات إقلاع وهبوط منتظمة فوق مرحاض في الركن، تناثرت الإفرازات حول فتحته.

تولى الجنود تفتيش الإيراد الجديد (الذي جمعته العربة من عدة أقسام فأربى على الثلاثين محبوسًا) تفتيشًا دقيقًا، فقلبوا أكياس الطعام فوق الأرض، وتحسسوا السيقان والآباط والأفخاذ وما بينها، لم يُبدِ شرف تأففًا من الأيدي التي جالت في جسده بحرِّية، مستفيدًا من درس التحسس الأول على يد جون، ولا اعترض على ما قام به الجنود من مصادرات: ماكينة الحلاقة لأن كل الأدوات المعدنية والأسلحة البيضاء ممنوعة (وهو إجراءٌ قديم من إجراءات الحماية يهدف إلى دعم المنتجات المحلية)، النقود (كي لا يشتري من الكانتين الذي يبيع للنزلاء ما يحتاجون إليه من أطعمة وسجائر)، الساعة (كي لا يخسرها في لعب الكوتشينة)، الخاتم (كي لا يسرقه منه أحد)، رباط الحذاء (كي لا يشنق به نفسه

في النهاية)، وبالمقابل سُمح له باستبقاء كوتشي والمنشفة والصابون الحلو ولفافة طعام (عدا الشاي والسكر اللذين وضعا جانبًا من أجل عدم إعدامهما فيما بعدُ).

جلس الوافدون القرفصاء إلى جوار الحائط واضعين أكياسهم بين سيقانهم وهم يمسحون عرقهم وينشون الذباب، ومضى بعض الوقت قبل أن يبدأ المشهد التالي. ومهد له جنديان يحملان كرسيًّا وضعاه في مدخل القاعة (حتى تخفف تيارات الهواء من الروائح والحرارة) وبحيث يواجه الساحة الخارجية التي تتوسطها الزهور، وبعد قليل ظهر ضابطٌ شاب، رياضي الهيئة، وسيم الطلعة، على وجهه تعبير من الضجر الدائم، احتل الكرسي وجلس في استرخاء متجنبًا النظر إلى الضيوف، مثبتًا عينَيه على الزهور، أعطاه أحد الجنديَّين دفترًا. فتحه وقلَّب صفحاته ثم بدأ ينادي منه الأسماء بصوتٍ ملول، وجاء دور الحلاق في الملابس الخضراء التي تُميِّز المساجين، فمرَّ عليهم في عجلة كشفت عن خبرة مع البهائم في سوق القرية.

تابع شرف باهتمام عملية الحلاقة، ولاحظ منزعجًا أن الحلاق يطلق آلته بقوة في الرأس ويجردها من الشعر تجريدًا تامًّا في حركتَين سريعتَين، كما لاحظ أيضًا أنه يرقُّ أحيانًا فيأخذ من أحدهم علبة سجائر، عيني عينك تحت بصر الضابط، ويستبدل آلته بمقص يعالج به الشعر في رفق.

كان كعب الداير قد نصحه باستبدال المارلبورو بكليوباترا؛ لأن الملكة المصرية، فضلًا عن رخصها بالمقارنة مع الكاوبوي الأميركي، هي العملة السائدة في مؤسسة التربية. هكذا كان شرف مستعدًّا للتضحية بعلبة كاملة للحيلولة دون الاستئصال الوحشي للشعر الذي عانى كثيرًا في تربيته ومحاولة تطويعه للمودة المتقلبة. فأعطى الحلاق علبة سجائر عندما بلغه وهو يتوسل إليه: وحياتك تخف إيدك شوية.

استخدم الحلاق مقصه في رفق فتساقطت الخصلات الثمينة على الأرض، وكما يحدث في أمثال هذه الصفقات، لم يتجاوز ما فاز به شرف من شعر طبقة لا يزيد سمكها عن سنتيمتر واحد.

بعد الحلاقة جاء دور التصوير ثم القرفصة من جديد، لتبدأ نمرة الصول. كان هذا كهلًا ذا كرشٍ ضخم، يدعى لسبب غير مفهوم «عترة»، قام بتقسيمهم إلى مجموعات طبقًا للتهمة مستعينًا في ذلك بعصًا رفيعة في يده اتخذها من فرع شجرة. وعندما انتهت تلك العملية أعاد لخبطتهم من أجل تقسيم من نوعٍ آخر: اللي عاوز يدخل عنبر الميري شمال، واللي عاوز الملكي يمين.

توقف لحظة محسوبة ثم تعطف فشرح المقصود بالمصطلحين: الملكي يعني تاكل وتلبس زي ما انت عايز، والميري تلبس بدلة السجن وتاكل عيش وجبنة وتشتغل كل يوم عند بتوع الملكي.

لمزيد من الإيضاح حول الفرق بين القطاعَين الخاص والعام أضاف الصول أن الشغل المقصود هو تنظيف الزنازين وتفريغ دلاء البول والخراء.

انقسموا على الفور إلى مجموعتَين؛ واحدةٌ صغيرة تألَّفت فيما يبدو من القادرين — كان بينهم طالب الجامعة المدمن وصاحب التي شيرت — وأخرى أكبر من الرعاع تضم صاحب الأصبع السادس وزميله وعم فوزي الدائم البكاء، وشابًّا في قميصٍ مزركش ونظارةٍ طبيةٍ مذهبة وآخرين. وجاء وضع شرف في منزلة بين المنزلتين.

هل انتهى الأمر؟ ليس بعدُ.

صاح الصول بأعلى صوته: اللي عاوز ملكي يقدم طلب على عرضحال دمغة.

بدأ القادرون كتابة الالتماسات التي وزعها عليهم أحد الحراس بثمنها: ثلاثة علب سجائر للواحد. ولمح الصول شرف واقفًا على حدة فصرخ فيه: إنت واقف كده ليه زي اللطع؟

اعترف اللطع بأنه لا يعرف موقف أهله من هذا الأوبشن، وأنه لا يستطيع أن يحسم الأمر قبل أن يأخذ رأيهم، طالما أنهم سيدفعون الثمن.

ضحك الصول وقال: شا الله يا أهلي، خش يا خويا ع الميري لغاية ما يبقوا يبعتولك.

انضم إليهم، ووقفوا ينتظرون حتى انتهت كتابة الالتماسات وقام الصول بمراجعتها، وإذا به يصرخ غاضبًا، وتنهمر الشتائم من فمه. لم يكن ثمة خطأ في محتوى الالتماسات، الخطأ كان في حصيلة ثمنها، وأثمرت ثورة الصول محاولة تصحيح متواضعة. وفي النهاية تم اقتياد الجميع إلى الحمام حيث تعرض شرف لأول تجربة من نوعها في حياته: أن يقف عاريًا بين العراة.

حاول بالطبع أن يحمي خصوصيته بكفَّيه. لكنه اضطر لاستخدامهما بعد قليل لدعك جسمه بصابونة سوداء متحجرة أسفل مياه الدش الساخنة. ودفعه الحياء (ومحدودية التجربة أيضًا) إلى أن يستدير مواجهًا الحائط، حاميًا بذلك خصوصيته، ومقدمًا للآخرين أعز ما يملك.

ارتدى الملكيون ملابسهم وانصرفوا إلى عنبرهم، بينما اقتيد أهل الميري إلى غرفة «الأمانات» حيث خلعوا ملابسهم ووضعت في أكياس بأرقامهم. كان أغلبها خِرقًا بالية لن تتحمل لبستَين أخريَين أو قذرة لدرجة لا يصلح معها تنظيف، وما كان أصحابها أنفسهم

يعارضون لو شاء السجن إعدامها. لكن المؤسسة، فيما يبدو، كانت متعنتة في أمانتها. ولهذا السبب قدمت إليهم خرقًا بالية من مودة مختلفة عبارة عن رداء من الدمور السادة أبيض اللون يتألف من أربع قطع: قميص مثل الفانلة بلا أكمام، قميص مثل البلوزة بكمين طويلين وفتحة صغيرة عند الرقبة، بنطلون يُعقد بواسطة شريط من نفس القماش أشبه بالحبل، وطاقية مثل الكاب. لم يكن ثمة كيلوت؛ إذ قدرت المؤسسة أن المحبوسين (بالنظر إلى طبيعة الظروف التي جاءت بأغلبهم، وما ينتظرهم من تأديب وإصلاح) لن يكونوا بحاجة إليه.

لم يكن أشرف عبد العزيز، الخبير بالملابس وأنواعها، وتقلبات موداتها، جاهزًا لرداء لا يتناسب فقط مع حجم لابسه وإنما يتألف أيضًا من قطعٍ غير متناسقة، ولا تردد في الجهر برأيه.

قال للحارس منفعلًا وهو يتأمل البلوزة التي تستوعب نزيلين في آنٍ والبنطلون الذي غطى ركبتيه بالكاد: مش مقاسي.

على كثرة الغرائب التي مرت بالحارس في حياته السجنية، لم يسبق له أن استمع إلى وجهة نظر من هذا النوع، وكان رد فعله طبيعيًّا، هوى بيده على قفا الشاب وهو يقول: حاضر، حشوفلك مقاسك حالًا، شيل نمرتك وقدامي ع الزنزانة.

كانت الصفعة إشارة لبقية الحراس بأن عملية التأديب والإصلاح قد بدأت، فانهالت الصفعات تقود النزلاء الجدد إلى عنبرهم.

حمل كلٌّ منهم «نمرته» على كتفه: بطانيتَين رثَّتين وبُرش (سجادة من الليف الخشن المجدول كفيلة بتذكير النائم فوقها بما ارتكب من جرائم)، وحملوا أكياس الطعام والحاجيات الأخرى في أيديهم وخرجوا إلى الفناء حيث كان الضابط المغرم بالزهور قد نقل كرسيه (أو بالأحرى نُقل له) إلى ظل مبنًى صغير من طابقٍ واحد رُصَّت أواني الزهور حول مدخله، وبدأ العبور الثاني في هذا اليوم.

لم يكن اجتيازًا لعائقٍ واحد كما كان شأن الأول؛ فالفناء انتهى ببوابةٍ كبيرة من القضبان الحديدية، ثم فناءٌ آخر على صورة مربع يتوسطه مبنًى قديم من الحجارة السميكة المطلية بألوانٍ جيريةٍ كالحة، له بابٌ حديديٌّ ضخم انفرج عن رائحةٍ عفنةٍ طاغية ذكرت شرف بالملابس المتسخة إذا ما تسللت إليها الرطوبة أو المياه وتُركت عدة أيام في حاوية مغلقة، كما دأبت أمه على أن تفعل.

امتدت أمامهم ردهةٌ طويلة صُفَّت الزنازين على جانبَيها وتوسطها سلمٌ حديدي يؤدي إلى الأدوار العليا، وكان ثمة لافتةٌ خشبية تحمل كلمة «الإيراد»، كتبت بالطباشير في خطٍّ

ركيك، بجوار عدد من الزنازين اتجه إليها الحارس، دسَّ مفتاحه الحديدي الكبير بعنف في قفل أول باب محدثًا صليلًا مدويًّا، ثم دفعه إلى الداخل، وتنحَّى جانبًا دون أن يتخلى عن المفتاح في قفله.

فاحت رائحة العطن مركزة هذه المرة، وتبدَّى عدد من أصحاب الأردية البيضاء يفترشون الأرض. نهض أحدهم وكان طويلًا نحيفًا بكرشٍ بارز يجعله يبدو كالمرأة الحامل في شهرها الخامس فتقدم للقاء الوافدين وهو يمد يده بعلبة مارلبورو لا إليهم وإنما إلى الحارس الذي لم يكتفِ بسيجارة وضعها في فمه وإنما التقط أخرى أودعها خلف أذنه، وأشار إلى أقرب خمسة من رعيته بالدخول. ثم انسحب في صمت مغلقًا الباب خلفه، منتقلًا إلى الزنزانة المجاورة.

وقف الخمسة في مدخل الزنزانة وحاجياتهم في أيديهم وعلى أكتافهم: شرف، الشاب ذو النظارة المذهبة، أبو إصبع (ولهذا يدعى بلحة)، زميله سعد صلصة، عم فوزي دائم البكاء. وكما يفعل الدجاج المذعور عندما يدخل العشة تدانوا من بعضهم البعض وأخذوا يتبادلون النظرات مع القاطنين، الذين لم تبدر منهم إشارة ترحيب بمن سيضيقون عليهم فسحة المكان.

خطا صاحب «المالبورو» إلى منتصف الزنزانة وقال في حزم: أنا بطشة نبطشي الزنزانة، كل واحد له بلاطتين ونصف عرض وسبع بلاطات طول، ولا سنتي زيادة.

إذا كان هذا البيان السيادي قد فُهم من قِبل المجربين أمثال بلحة وزميله، فإن الآخرين ظلوا يتطلعون في بلاهة إلى المتكلم الذي خصَّ بحديثه أقربهم إليه، صاحب النظارة المذهبة الإطار؛ صبري، الذي فقد قميصه المزركش وبدا ضئيلًا منكسرًا في رداء السجن غير المتناسق، فقرب منه رأسه وتأمله متحديًا: إيه، مش عاجبك؟

وقبل أن يتاح له إيضاح موقفه صفعه.

رفع المسكين يده إلى خده في استكانة بينما تطلع بطشة حوله منتصرًا. لم يكن قد صدر عنهم ما يبرر هذه المواجهة، لكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام شخص في أهمية النبطشي؛ أي المناوب بالتركية الممصرة، كي يعلن عن (ويؤكد) منصبه الذي يجعله بسبب سجله الحافل، حارسًا غير رسمي، أو ممثلًا شخصيًّا للحارس، وفي العمق؛ أي إن درجة تمثيله تمتد إلى من يقف خلف الحارس (أو أمامه حسب منظور الرؤية) ابتداء بالصول ثم الضابط وبعده وكيل السجن ثم مديره صعودًا حتى وزير الداخلية ورئيس الوزراء.

تشاغل الضيوف بمسح عرقهم الذي أسالته حرارة الجو والاستقبال، حتى انتهى القدامى من تحريك الفرشات (النِّمَر) ليفسحوا لهم مجالًا طبقًا للقانون العصامي الذي يقضي بأن يبدأ الجدد من القاع (وهو هنا الباب ودلو البول الموضوع إلى جواره)، وكان بلحة وصلصة على معرفة بالقانون فقفزا إلى الداخل تاركين زملاءهم حيارى في المدخل. ولأنه أصغر الجميع في السن، استقرَّ شرف في نهاية المطاف إلى جوار الدلو (مشرفًا على تشكيلة فريدة من النعال يصعب نسبة أيٍّ منها إلى ماركة معروفة).

أحصى شرف ستة من السكان القدامى، لم يكن من السهل تمييزهم لأول وهلة؛ فالملابس البيضاء متماثلة وكذلك الوجوه السمراء، لكنه تعرف بعد لحظة على سائق السوزوكي بلحيته الكثة ومسبحته (وكان يحتل أحد الركنين الاستراتيجيين)، وميَّز شابًّا ذا وجه شديد الشحوب، وآخر أسود البشرة ورابعًا بلحيةٍ مشذَّبة تدور بوجهه ولا تحتل سوى شريط ضيق من الوجنتين والذقن.

هل انتهت إجراءات الدخول؟ ليس بعدُ.

دار المفتاح مرةً أخرى في قفل الباب وظهر حارسٌ ضخم الجثة غريب المنظر؛ إذ تألف جسمه من عدة انبعاجات في اتجاهاتٍ مختلفة.

رحب به بطشة قائلًا: مساء الخير يا بو علي، ثم التفت إلى النزلاء الجدد وصاح: كل واحد يطلع علبة سجاير.

تجلَّت على الفور فائدة الصفعة التي نالها صاحب النظارة المذهبة؛ إذ سارع الجميع بتنفيذ أوامر النوبتجي الذي جمع العلب وقدمها للشاويش بَعْجَر. وانسحب هذا بعد أن أخذ العلب دون أن يفوه بكلمة تاركًا الباب مفتوحًا.

لم يتبرع بطشة بأي إيضاح لنوعية الرسوم المدفوعة، ولم يخطر لأي من النزلاء الجدد أن يستفسر عن الأمر، على أنهم سيعرفون فيما بعدُ أنها حلاوة المفتاح وهي إحدى رسوم الريسبشن التي يحصل عليها شاويش العنبر من كل وافدٍ جديد.

لكن الحلاوة — مثل الصفعة — كانت تهدف إلى توصيل رسالةٍ هامة. وكانت هذه الرسالة في منتصف الطريق إلى أدمغة الضيوف الذين تبادلوا نظراتٍ متفهمة، عندما نادى الحارس على بطشة فغادر الزنزانة وعاد في صحبة مسجونٍ قذر الهيئة حافي القدمين يجرُّ دلوًا معدنيًّا من النوع الذي جلس شرف إلى جواره، تتصاعد منه أبخرة الطعام لا البول، وتبرز منه يد مغرفة. تناول أحد النزلاء ثلاث «قروانات» (وهي أطباق غويطة من الألومنيوم) وهرع بها إلى صاحب الدلو الذي ملأها بسائلٍ أسود تعلوه طبقةٌ زيتية، وانتقل

الدلو إلى الزنزانة التالية وحلَّ محله دلوٌ آخر من الحجارة البيضاء تشبه الجبن القريش وتغطيها الشوائب. ثم ظهر ثالث (سجين لا دلو) يجر بطانية كبيرة فوق الأرض احتوت على أكوام من أرغفة الخبز أعطى ثلاثة منها لكل نزيل.

انطلق صوتٌ بعيد يردد: تمام، أعقبه صوت اصطدام المفتاح في قفل زنزانة. وتكرر الصوتان وهما يقتربان، ثم ظهر الشاويش بعجر في صحبة بطشة. ودخل الأخير حاملًا زجاجة مياه مثلجة تحت إبطه ثم قام الشاويش بإحصاء العدد وهتف مرةً أخرى: تمام. وأغلق الباب بالمفتاح قبل أن ينتقل إلى الزنزانة التالية.

لم يرفع شرف عينَيه عن زجاجة المياه وآثار برودتها المنعكسة على جدرانها، ولعله لم يشعر بالعطش في حياته كما شعر به الآن، لكن السبيل كان ممتنعًا عليه، وتعيَّن عليه أن يقنع بزجاجةٍ بلاستيكيةٍ أخرى فوق دلو المياه، فمدَّ يده إليها ورفعها إلى شفتَيه، متجاهلًا دفئها، ولم يكد يجرع رشفتَين حتى فوجئ بيد بطشة تنتزعها بعنف وصوته يصرخ: إنت حتشرب المية كلها؟! ... عندك الجردل اشرب منه.

كان يشير إلى دلو مماثل لدلو البول وضع في الناحية الأخرى من الباب يعلوه غطاء معدني استقر فوقه كوب معدني ذو أذن، نهض شرف وتناول الكوب وأزاح الغطاء وتطلَّع داخل الدلو. كان ممتلئًا بالمياه إلى قرب حافته. وانعكس الضوء على سطحها كاشفًا عن طبقةٍ زيتيةٍ خفيفة تمرح فيها الكائنات الدقيقة. في الظروف العادية ما كان شرف ليتنازل عن كوب المياه المثلج تحمله إليه أمه أو إحدى أختيه، لكن الله غالِب. غالَب اشمئزازه وغمس الكوب في المياه، وفي اللحظة التي بدأ يتجرع فيها الماء عادت الرسالة تشق طريقها إلى أدمغة الضيوف، واختار بطشة هذه اللحظة ليعلن أن ملء جرادل الماء وتفريغ جرادل البول يتم بالدور، وأن هذا الدور يبدأ من الغد بشرف. ساعد هذا الإعلان على وصول الرسالة بسرعة، فتقاربت رءوس الضيوف، ثم أخرج كلٌّ منهم علبة سجائر، وباتفاقٍ صامت عهدوا بها إلى محمد بلحة، بعد أن توسموا فيه (بسبب إصبعه السادس) أنه المؤهل مهنيًّا بينهم، ليقدمها باسمهم إلى السيد المناوب.

كان هذا قد ارتقى عرشه في الركن الاستراتيجي (الذي لا يصل إليه بصر المار في الطرقة إذا كان الباب مفتوحًا ولا المتلصص من خلف الباب إذا كان مغلقًا) الذي أتاح له أن يستولي على جدارين في آنٍ واحد رتب المساند الكافية لهما: أكياس ولفافات عديدة وبطاطين قديمة، بينما تألفت قاعدة العرش من طبقةٍ سميكة من عدة بطاطينَ جديدة ما زالت محتفظة بوبرها جلس فوقها بالطريقة المناسبة: الساق اليسرى مثنية ومستقرة في استرخاء على

الأرض تحت اليمنى القائمة وفوقها الذراع اليمنى تحمل في نهايتها سيجارة بين ظفرَين متسخَين، الذراع اليسرى كانت في المكان المتوقع، في نقطة ملائمة تسمح لأصابعها أن تعبث بالتبادل بأصابع القدمين في ناحية والأجهزة الإخراجية في الناحية أخرى؛ نفس الوضع الذي اتخذه أسلافه من الولاة والسلاطين والخلفاء عندما كانوا يتلقون خراج الولايات والأقاليم والأمصار.

تلقى النوبتجي الهدية المتواضعة من ممثل الوافدين في غير مبالاة؛ إذ ناولها لوزيره — النحيف مثله لكن أقصر وله أنفٌ متورم وشفاهٌ متشققة وكتفان محنيتان — الذي أودعها في نشاط أحد الأكياس الغامضة المدسوسة في غياهب «نمرة» رئيسه.

شرع النزلاء يعدون نمرهم، فبسطوا الأبراش والبطاطين وطووها بطريقةٍ معينة فشل شرف في تقليدها. وهنا هبَّ إلى نجدته جاره صبري، الذي وسعت مدرسة الجندية مداركه، فطوى إحدى البطانيتين ثلاث طيات وفرشها فوق البرش، واقترح عليه أن يجعل الثانية وسادة إلى أن يتغير الطقس فيتغطى بها.

انقسم القدامى إلى مجموعتَين، بسطت كل واحدة أطعمتها أمامها، وتجمَّع الخمسة قرب المدخل، وجردل البول، حول القروانة ذات السائل الأسود، أخرج كلٌّ منهم ما لديه فتكونت مائدةٌ حافلة من البقايا: أنصاف وأرباع ساندوتشات الفول والجبن وأقراص الطعمية وأكياس الشيبسي. قامت جيوش الذباب بعملية إنزال ساحقة، على الطريقة الإسرائيلية، انضمت إليها قوات أرضية من صراصيرَ صغيرة الحجم داكنة اللون خرجت من خلف دلو البول الذي فاحت رائحته النفاذة، فلم يشعر شرف برغبة في الأكل. بلحة الذي عاد للتو من سفارته شاعرًا بأهميته، هو الذي أخذ على عاتقه قيادتهم فهشَّ الذباب بيد ومد الأخرى إلى «نصف فول» أمام شرف ورفعه إلى فمه قائلًا: بسم الله.

كانت المائدة متواضعة بالقياس لمائدة المجموعة التي تزعَّمها بطشة وضمت معاونه وسامبو، أو الأخرى التي ضمت الملتحيَين والشاب ذا الوجه الشاحب. ما كان يميز المائدتين (ويساوى بينهما) هي المختارات التي تألفتا منها: جزء من دجاجة، أربع قطع من محشي ورق العنب، قطعة من مكرونة الفرن، إصبعان من الكفتة وأشياء أخرى (منها ربع صينية كنافة أمام بطشة) تُمثل حصيلة اليوم من الأطعمة الوافدة إلى عنبر الملوك، وبهذا لم يعودوا في حاجة لقروانة السائل الأسود، وصار باستطاعة النوبتجي أن يبدي رضاءه عن الهدية التي تلقاها، فأشار لمعاونه أن يعطي القروانة للضيوف، قائلًا في نبرة لم تخلُ من تهكم: عاوزين يمك؟

تناولوا منه قروانة السائل ذي اللقب التركي، لكن أحدًا منهم لم يقربها. تظاهروا بالانهماك في الأكل بينما كانوا يرقبونه هو ومجموعته، وهي متابعة استمتع بها النوبتجي وحرص على استمرارها؛ ففي لحظة توقيت دقيقة، انتهى فيها الضيوف من ساندوتشاتهم وأخذوا يحدقون بمشاعرَ ملتبسة إلى محتويات القروانتين، مد يده إلى أحد أكياسه وهو يتطلع إليهم ليتأكد أن المشهد لن يفوتهم، واستخرج علبة من الطعام المحفوظ، أعطاها لمعاونه الذي عكف على مهمته في نشاط؛ وضع العلبة فوق أرض الزنزانة وأخذ يحكها في قوة حتى تآكلت حافتها ثم رفعها وقلبها وضغط على سطحها بيده فسقط داخله. تناول الغطاء بأصبعه ووضعه جانبًا ثم أفرغ محتويات العلبة في صحنٍ معدني واستقر اثنا عشر زوجًا من الأعين على السمكات الأربع التي رقدت في صلصتها.

انضمت عينٌ جديدة من خلف الباب، ظهرت في فتحةٍ دائريةٍ صغيرة بمنتصفه استقبلها النوبتجي بالهتاف: مساء الخير على غفر الليل. تراجعت العين وظهر مكانها فم ردد: مساء الورد. وعلى الفور قام بطشة وألقم الفم سيجارة. انسحب الفم بالسيجارة وانسدل الغطاء فوق العين السحرية ثم تكررت التحية المتبادلة عند الزنزانة التالية.

انتهى طقس الأكل، وأشعل المدخنون سجائرهم، وتولى المعاون «صنقر» إدارة الطقس التالي: خلع قميصه معريًا صدره وأفرغ محتويات قروانتين من السائل الأسود في دلو البول ثم وضعهما إلى جواره مقلوبتَين ومتباعدتَين قليلًا، واستخرج من مخلاةٍ كبيرة معلَّقة فوق رأس سيده برادًا صغيرًا من الألومنيوم وعلبةً معدنيةً صغيرة وبضعة شرائط من القماش، ومن خلف جردل البول قنينة زجاجية في حجم زجاجة الكولا، ومن جيبه علبة ثقاب، وضع كل هذه المعدات على الأرض إلى جوار دلو البول وقرفص أمام القروانتين، فتح العلبة المعدنية واستخرج منها لفافتين من الورق: أفرغ من الأولى في البراد قدر ملعقتين من الشاي ومن الثانية حفنة من السكر، ثم أعادهما إلى العلبة وملأ البراد من مياه الشرب ووضعه جانبًا. وجه اهتمامه إلى بقية المعدات فضبط وضع القروانتين وبلل القماش بمحتويات القنينة الزجاجية ودعكه بين كفيه ثم ألقى به بين القروانتين وأضرم فيه النار من عود ثقاب. وعندئذٍ تناول البراد فأقامه فوق النيران مستندًا إلى حافتَي القروانتين.

قام صنقر بهذه العمليات في دقةٍ تامة ومهارة عالية فاستحق المكافأة في صورة سيجارة قدمها إليه سيده وهو يتطلع إلى الجمهور قائلًا: ولَّع يا صنقر.

اهتزَّ صنقر في جلسته يمينًا ثم يسارًا كأنما يقف وراء النصبة في مقهًى حقيقي، وتناول السيجارة قائلًا: تسلم إيدك يا معلمي.

تبادلا التدخين عدة مرات قبل أن يتعطف النوبتجي ويقدمها إلى سامبو الذي كان منهمكًا في غسيل علبتين فارغتين من علب السالمون وكوب من البلاستيك له أذن جانبية، أفرغ فيها صنقر الشاي طبقًا للقواعد: كوب البلاستيك للرئاسة، علبة سالمون ينتهي الشاي قبل حافتها بأصبع لسامبو، وعلبة سالمون، مملوءة حتى الحافة بطبيعة الحال، لصنقر شخصيًّا.

انتقل البراد للمجموعة الثانية وتولى الشيخ سوزوكي إعداد الشاي. خلال ذلك قام بلحة بمفاوضاتٍ مكوكية بين بطشة والضيوف أسفرت عن تلقيمة من الشاي والسكر والوقود (بضع قطرات من محتويات القنينة الزجاجية المؤلفة من الطبقة الزيتية التي تعلو محتويات دلاء الطعام) مقابل سجائر جمعها من زملائه الأربعة، وتولى خبيرٌ آخر ذو تجربة هو سعد صلصة إعداد الشاي وتوزيعه.

هكذا وصلت علبة السالمون أخيرًا إلى فم شرف الذي تلقى في الدقائق الأخيرة الرذاذ الناجم عن عمليات الغسيل فوق جردل البول، فأراح رأسه على الجدار ومضى يرتشف محتوياتها في تلذذ، دون أن يعبأ بالطعم الكارف، من جراء دخان الوقود، وانصرف إلى متابعة المباريات.

كانت ثلاثًا: واحدة للأيدي والثانية للأنف والثالثة للسان. فبينما كان ورق «الكوتشينة» ينتقل في سرعةٍ خاطفة بين الأرض وأيدي سوزوكي والشاب ذي الوجه الشاحب، مشفوعًا بالسجائر التي اتخذاها عملة للمكسب والخسارة، تحلقت جماعة بطشة، في مقر قيادته، حول طبقٍ كبير من البلاستيك به أقراصٌ بيضاء مثل أقراص الأسبيرين تولى صنقر طحنها بملعقة ثم قسم الطحين إلى أكوامٍ صغيرة، وكان بطشة مستعدًّا بورقة لفَّها على شكل سيجارة وهو يتطلع إلى الضيوف ليتأكد من متابعتهم لما يفعل من أعاجيب، ثم دس أحد طرفي الورقة في كوم وأخذ يستنشق حتى أتى على نصيبه فناول الطبق لصنقر، واضطجع على وسائده تاركًا للمسحوق أن يفعل فعله ومفتتحًا المباراة الثالثة:

القرص الواحد بعلبة سجاير يا بلاش. يعمل دماغ حلوة، يخليك تنسى كل حاجة والوقت يعدي من غير ما تحس.

لمن خالجه بعض التردد أو شاء الاستزادة في المعلومات أضاف المعاون: في أقراص تانية تودي في داهية. أخدت منها مرة عشرة أقراص مرة واحدة وروَّحت. يقوم يحصل إيه؟

أدلى سامبو بالمداخلة المطلوبة: يعني حيحصل إيه يا خيّ. ما احنا عارفين اللي فيها.

٣

واصل صنقر دون أن يهتم: الولية مراتي فتحتلي، رحت قالع ملط على طول.

هلل المستمعون وتوالت التعليقات إلى أن تبرع صنقر بالإيضاح: جريت على الدولاب. فتحته ودخلت جواه. ورحت قافل الباب عليَّ وقاعد.

انفجرت عاصفة من الضحك والتهليل ضاعفها بطشة عندما روى كيف تهيأ للمعلم حنكوشة أن السلم أمامه فألقى بنفسه من الطابق الرابع ونزل حتت في فناء العنبر. والظاهر أن مصير المعلم حنكوشة كان محملًا بإغراء لا يقاوم بالنسبة لبلحة وصلصة إذ أخذا يزحفان حتى بلغا الرئاسة، وحصلا على استنشاقة، أجريا بعدها مفاوضاتٍ هامسة بشأن استمرار التموين ثم عادا إلى قاعدتهما ليستمتعا بالنتائج: دورٌ جديد من الشاي ونزاعٌ غامض ما لبث أن فضح سرهما؛ فبعد أن حمَّل صلصة زميله مسئولية التهمة التي يواجهانها تكشفت التفاصيل: صعدا إلى إحدى سيارات الركاب القادمة من الأقاليم وأشهرا المطاوي وجمعا تحت تهديدها ما يحمله الركاب من نقود وساعات. وعندما أراد أحد الأغبياء، واد تلميذ، المقاومة وجه إليه بلحة عدة طعنات أودت بحياته.

أرهف بقية الضيوف أسماعهم وهم يتبادلون النظرات، وشعر صلصة بالأمر فلزم الصمت فجأة وهو ينقل البصر بين شرف وجاره المصفوع، في حدة أثارت قلقهما، ودفعت شرف إلى تشغيل لسانه فسأله عن السبب في اسمه.

تجهَّم وجهه، وتبرَّع بلحة بالإجابة: أصله من صغره غاوي يسرق علب الصلصة.

انفجر ضاحكًا وهو يتطلع إلى مستمعيه منتظرًا مشاركتهم وهي ما انتووه، وبالفعل فتحوا أفواههم، لكن النظرة الباردة في عيني صلصة كتمت الضحك فيها وتركتها فاغرة في بلاهة. وتدارك بلحة الأمر فسأل أشرف عما أتى به. استمعوا إلى قصته في اهتمام أسفر عن تنشيط لملكاتهم القانونية: أكد صبري فرصة أشرف في النجاة؛ لأن القانون يبرئ الشخص الذي يقتل دفاعًا عن النفس، فما بالك بالدفاع عن الشرف؟ وهزَّ صلصة رأسه متشككًا وقال بلهجة العليم: لو ماكانش اعترف كان نفد.

روى بلحة حادثةً مشابهة، تعرَّض فيها صديق له لاعتداء راح ضحيته لكن القاتل فاز بالبراءة لأن محاميه أثبت أن القتيل كان مسلحًا وبادر بالهجوم. وسرد سعد صلصة عدة وقائع نال فيها المعتدي البراءة أو حكمًا مخففًا لأن القاضي لم يجد دليلًا على نيةٍ مدبرة.

قال صبري: الأسبوع اللي فات واحد دبح مراته عشان لقاها نايمة مع واحد. تفتكروا خد إيه؟

هتفوا جميعًا في صوت واحد: إيه؟

تطلع إليهم منتصرًا: براءة.

انتعشت آمال شرف فقال متكلفًا الضحك وهو يتلمس كلامه في صدًى عيونهم: المهم الواحد ميخدش إعدام.

– يا راجل تف من بقك. أقصاها، سبع سنين.

جاء التعليق العنيف من سامبو، الذي قرر أن يأخذ حقه، فأوضح أن الدفاع عن الشرف له أوجهٌ مختلفة، هو واحد منها: المهنة نقاش والحكاية بدأت بعلاقة مع زوجة خفير في التبين، ما إن يغادر الخفير منزله ليقوم بالحراسة في مدينة ١٥ مايو حتى يتسلل سامبو داخلًا ليقوم بالواجب، إلى أن وقع المحظور. ففي إحدى الليالي قرر الخفير أن يقوم بالواجب بدلًا من الحراسة، وعندما وصل النقاش فوجئ بوجود الزوج الذي قرر، بالطبع، أن يدافع عن شرفه. وكان من الممكن أن تكون النتيجة كلاسيكية لولا تدخُّل الزوجة التي عالجت زوجها بضربة على رأسه بالهون أتاح للعشيق أن ينهال عليه طعنًا بسكين المطبخ حتى أجهز عليه.

تبارى المتخصصون في التكييف القانوني للحادث قطعه صوتٌ جهوري في الخارج صاح في لهجة آمرة: عنبر كله يسمع.

صاح بطشة بدوره: اسكت انت وهو خلُّونا نسمع النشرة.

كرر الصوت الجهوري: عنبر كله يسمع ... بعد مساء الخير على المساجين على حرس الليل ... النشرة يحييكم ويقدم الوصف التفصيلي للخارجين بكرة.

وصمت لحظة ثم صاح فجأة: ردوا ورايا ... يا رب الخارجين بكرة يروحوا ما يرجعوا، آمين.

رددت كل الزنازين الدعاء خلفه. وبدت يا رب وآمين خارجة من أعماق القلوب النقية التائبة. ثم ساد الصمت وأنصت الجميع للأسماء والجهة المستدعى إليها أصحابها، تليت باللهجة التي يستخدمها الراديو عند إذاعة أسماء الناجحين في الثانوية العامة، وبعد أكثر من خمسة عشر اسمًا قال المذيع في أدبٍ جم: أشكركم لحسن الاستماع وعقبال ما تروحوا جميعًا.

ساد الزنزانة الوجوم الذي يتلو إذاعة نتائج الثانوية العامة، وتذكر البعض ربهم فاصطفوا لصلاة العشاء خلف صاحب اللحية المشذبة، وأشعل المدخنون سجائر جديدة، وأسند شرف ظهره إلى الجدار ثانيًا ساقَيه بحيث تصبح ركبتاه في مستوى ذقنه. كان الحر لا يطاق والذباب لحوحًا بطيء الحركة لا يحفل بمحاولة إبعاده أو قتله، فراودته الرغبة

في أن يخلع سترته السجنية ويعري صدره وذراعيه كما فعل صنقر أمام النار. لكن نظرةً غامضة، ليست الأولى، من سوزوكي، مصحوبة بابتسامةٍ ودية، جعلته يحجم عن ذلك. واكتفى بأن يتطلع في حسد إلى ورقة الكرتون التي كان بطشة يروِّح بها عن وجهه متنازلًا عنها لأحد الجالسين حوله بين الحين والآخر فيما خاله شرف أريحية، إلى أن تبين حقيقة الموقف عندما لاحظ أن من يأخذ الكرتونة يستخدمها في التهوية، لا عن نفسه، وإنما عن بطشة.

بدا الجميع عازفين عن استئناف المباريات، وهي اللحظة التي يعرفها حارس الليل بالتجربة؛ ولهذا اختارها ليظهر مرتين، في الأولى أعلن عن نفسه بواسطة راديو ترازستور صغير وضعه بين القضبان التي تتألف منها شراعة الباب، وأداره على أغنية لأم كلثوم انتزعت صيحات الإعجاب والتهليل، بالإضافة إلى سيجارة من كل مستمع. وفي الثانية أغلق الراديو عندما أوشكت الأغنية على الانتهاء وسحبه منتقلًا إلى زنزانةٍ أخرى.

شرف كان من الذين ضاقوا بالأغنية رغم أنه ساهم في تكلفتها، فمن يسمع أم كلثوم اليوم؟ كان يفضل بالطبع أغاني الشباب: من أول «ما تخافيش أنا مش ناسيكي» حتى «تعبتيني قوي يا عمتي». وعندما اكتشف أن جاره المكتئب منذ صفعة الرئاسة يشاركه الرؤية، وجَّه إليه السؤال التقليدي ليحصل على إجابةٍ تقليدية: العمل في مصانع إيديال، في المخازن بالطبع. فماذا غيرها يمكن أن يأتي بالواحد إلى هنا؟

المجيء إلى هنا كان بسبب الترموستات؛ ففي أثناء الجرد السنوي اكتشف المسئولون نقصًا في العهدة.

أبدى شرف إدراكًا للمشكلة من واقع تجربته. فعلًا، تلاجتنا عطلانة بسبب الترموستات وكل ما أروح أسأل عندكم يقولوا مفيش.

لم يقل شرف إنه وجدها في حوانيت القطاع الخاص، بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلي عند إيديال؛ فقد خالجه إحساسٌ مبهم بأن هذه الإضافة قد تكون محرجة.

ومن ناحيته قطع صبري الطريق عليه بسؤال حاسم: زانوسي؟

أجاب شرف بمسكنة: لا، إيديال.

بعد التحديد الصارم للمواقع عرج صبري على جذر المشكلة: كان فيه مشروع لمصنع ترموستات وبعدما بنوه وصرفوا عليه ثلاثة ملايين جنيه رئيس مجلس الإدارة اتغير والرئيس الجديد ألغى المشروع.

– ليه؟

لم يقل صبري إن الرئيس القديم يملك شركة مقاولات بناء والرئيس الجديد يملك وكالة لاستيراد قطع الغيار بينما هو لا يملك غير الستر؛ إذ تذكر في هذه اللحظة النصيحة التراثية المجربة بشأن اللسان وآذان الجدران.

سؤالٌ آخر جال بذهن شرف ولم يجسر على التفوُّه به: إذا كان هذا هو الحال فلماذا لم ينضم صبري إلى عنبر الملوك؟

اجتذبت وحدة الجذور لسان صاحب اللحية المشذبة؛ فهو سائق أتوبيس تعطلت فرامل سيارته فصعد على رصيف المحطة وأسقط تحت عجلاته خمسة أشخاص مات منهم ثلاثة. أولاد الحرام هم السبب؛ فهو يسوق منذ عشرين سنة ولم يرتكب حادثةً واحدة، لم يكن لديه رئيسان: قديم وجديد وإنما رئيسٌ واحد يجمع بين ملكات الاثنين، وجاراج هائل مثل الغابة لا يعرف أحد الداخل إليه ولا الخارج منه.

لم تنجح التجربة في هزِّ إيمان السائق المسكين، فمصيره على أية حال لا يختلف عن مصير زميل له هاله ما يرتكبه المديرون الكبار من انحرافات؛ فأبرق إلى رئيس الجمهورية طالبًا إنقاذ أموال الشعب وممتلكاته، فتم تحويل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذي حوَّله إلى وزير النقل الذي حوَّله إلى رئيس الشركة الذي حوَّل العامل الغيور إلى التحقيق ثم الفصل ثم السجن.

بدأت الحكايات تنحو إلى التكرار فهبط حماس اللسانيين، وانصرف بعضهم إلى لعب القمار بينما أخذ الباقون يستعدون للنوم. هنا حانت فرصة شرف للتعرف على جانبٍ آخر من شخصيات زملائه.

فقد شرعوا يغادرون أماكنهم واحدًا بعد الآخر، مقتربين من حيث جلس، وما إن يصبح الواحد منهم فوق رأسه تمامًا، حتى يفك رباط سرواله ثم يخفضه قليلًا لأن السروال ليست له فتحة من الأمام ويخرج قضيبه ويحكم توجيهه فوق دلو البول. وبعد أن يتبول يهز القضيب في يده ليتخلص من آخر نقطة، ويعيده إلى سرواله بعد أن يلقي نظرة على شرف تعكس إحساسًا بالزهو أو ضآلة الشأن حسب الحال.

اختنق هواء الزنزانة ببخار البول ودخان السجائر، ونشط الناموس، ودبت الحدة إلى تعليقات لاعبي القمار وأوشكوا أن يتماسكوا بالأيدي، بينما غفا آخرون وهم جلوس. تمدد شرف فوق بطانيته ورأسه عند الحائط فأوشكت قدماه أن تحتكا بقدمَي بطشة الراقد في مواجهته، وإلى جواره، بعد صبري، بدأ عم فوزي، بمجرد إطفاء النور، يندب حظه ويبكي، تمهيدًا لجولة أخيرة في مباريات اللسان.

لم يكن في حاجة إلى تشجيع أو حث؛ فهو بائع جوال، صناعته النداء على البضاعة طول النهار، ويعود منهكًا في نهايته إلى غرفةٍ ضيقة يسكنها مع زوجته وأولادهما بالإضافة إلى أخته وولديها. في اليوم المشئوم اشتدت الحرارة والرطوبة وعاد من جولته في السوق ليجد المياه مقطوعة. أراد أن يغفو قليلًا فأيقظه شجار الأطفال وقام وهو يتصبب عرقًا شاعرًا بصداع، نجحت زوجته في الحصول على قليل من المياه من حنفية عمومية في حيٍّ مجاور فأشعلت موقد الكيروسين في ركن الغرفة المخصص للطهي وعهدت لابنة أخته أن تعد له الشاي ففعلت، وعندما غلى الشاي طلبت البنت من أخيها البالغ من العمر عشرة أعوام أن يصبه له فأسقط بضع قطرات على قدمه. هنا فاض به الكيل — كما يقول الأدباء — فمد يده وتناول موقد الكيروسين المشتعل وقذف به الفتاة. الباقي قامت به النيران التي أمسكت بها وأحرقتها. عند هذه النقطة كان قد استنفد مئونة اليوم من الدموع فلزم الصمت.

أثارت الحكاية شفقة شرف كما حركت مشاعره العائلية وأحاسيسه الجمالية؛ إذ ألفى نفسه يتأمل مسكنه بعينٍ فاحصة زادتها الأيام الأخيرة عمقًا في الرؤية، وظهر تأثير اللسانيات التي نشطت طوال الساعات الأخيرة وحفلت بشتى ألوان الفعل، فلم يضيع وقتًا في المقارنات، ولم يستسلم للنظريات الإصلاحية إنما اختار القطيعة التامة منطلقًا من شقةٍ جديدة في منزلٍ حديث بحيٍّ راقٍ، اختاره في البداية ذا واجهة من الزجاج والألوميتال ثم اكتفى ببنايةٍ عادية لها مدخلٌ عادي يتألف من بوابةٍ حديدية وبواب وعدة درجات من الرخام تؤدي إلى سلمٍ عريض وشقة في الطابق الثاني أو الثالث، لها بابٌ خشبيٌّ متين يفتح على أنتريه به ثلاثة فوتيهات أو أربعة من الجلد الأسود، بالإضافة إلى أريكة ومائدةٍ معدنية يعلوها لوح من الزجاج الفيميه، ويؤدي إلى صالة بها مائدةٌ مستديرة للطعام، فوقها مفرشٌ مزركش، وحولها أربعة مقاعد، وخلفها بوفيه.

عندما وصل إلى هذا الحد لم يعد بالإمكان اعتراض طريقه، فرش الشقة كلها بالموكيت الأحمر وجهزها من جميعه: مكنسة «ناشيونال» وجهاز تكييف سبليت «باور»، وزود المطبخ الواسع بثلاجة «جنرال إليكتريك» ببابين، وحوض «ستانليستيل» وغسالة أطباق «بوش» و«ميكروويف» وبوتاجاز «ماجيك شيف» بخمس شعلات وكيتشن ماشين «مولينيكس»، وشفاط «توشيبا» لطرد الروائح الناتجة. أما الحمام فكسا أرضه وجدرانه بسيراميك ملون ووحدة «ليسيكو» كاملة من حوض وبانيو وكومبينيشن، وسخان «جونكر» وغسالة «وستنجهاوس» فول أوتوماتيك. أهم الأجهزة كانت في الأنتريه؛ خلف بارتيشن،

فوق طاولةٍ صغيرةٍ مخصوصة من سطحين: تليفزيون شارب ٢٦ بوصة بالريموت، ديش ضخم فوق السطح (وبالتالي تليفون محمول. «نوكيا» لتسهيل الاتصال بين فوق وتحت)، فيديو «سوني» متعدد الأنظمة، وستريو «أكاي» كبير علقت سماعتاه في ركنَين متقابلَين قرب السقف.

هكذا تم الإعداد للمشهد الرئيسي الذي ضمه هو وأصدقاءه، سيد وزلطة وجمال، يتناولون البيرة ويدخنون «جوانت» الماريجوانا بينما يستمعون إلى أغنيات «ساندرا» و«مادونا». ولم يلبث أن كشف عن هدفه الحقيقي عندما طردهم ووضع هدى مكانهم. لكنه لم يدرِ ماذا يفعل بها فاستبدلها بفتاة الجولف، وكان على وشك أن يضع يده داخل صدرها عندما تبين فجأة ما لم يحسب حسابه. وتم ذلك مع أول قرصة.

فعندما اطمأن البق للظلام خرج من مكامنه وانطلق يعربد، معيدًا شرف لا إلى الزنزانة وحدها وإنما إلى حافة المعادي أيضًا حيث تظهر آثار المقاومة في خطوط دموية على الجدران. هكذا انتبه إلى أنه لم يحسب حساب شركائه في الجدران الأربعة التي قسمتها كنبة بلدية إلى جناحين: واحد له مع أبيه والثاني لأختيه مع أمهما، لم يكن بوسعه أن يخصص لكلٍّ منهم حجرة، بسبب الإمكانيات، وإنما لأن الهدف الأساسي كان يتمثل في الانفراد بمسكنٍ خاص من أجل أن يصبح سيد مصيره. بدا التخلص من عايدة سهلًا بإعادتها إلى زوجها الذي تطلقت منه لأن أمه (التي تُؤويهما) تسيء معاملتها، ثم ألحق بها أمه هو وزوج الأخت الأخرى وأوجد عملًا لأبيه خارج البلاد.

أوضحت له قرصةٌ حادة، من برغوث هذه المرة، هشاشة الحلول التي لجأ إليها (لأن طلاق عايدة بائن لا عودة فيه، وأخته الأخرى سيئة الحظ، وأمه لن تقبل الحياة في منزل غريمتها، كما أن أحدًا لن يقبل استيراد الأب الذي أوشك عمره الافتراضي على النهاية) فقرر أن يترك للعناية الإلهية مهمة التخلص منهم. لكنه لم يسلم من شعور بالذنب نتيجة هذا المنحى في التفكير، فانصرف عن الأمر برمَّته.

كان تدبر الأوبشنز التي أتيحت له قد أرهقه، فراح مرةً واحدة في نومٍ عميق، استيقظ منه مفزوعًا على ساق صبري فوق فخذه. هدأ روعه قليلًا عندما استمع إلى شخير جاره المتواصل فأزاح الساق وابتعد عن صاحبها قدر الإمكان حتى التصق بدلو البول تمامًا، وغرق في رائحة متعددة الأبعاد كوَّنتها الأحذية المحيطة برأسه ونتائج تخمر كل من الأطعمة في البطون والإفرازات في الدلو، استسلم لغفوٍ متقطع تسلَّى خلاله بالإنصات إلى النشرة الأخيرة ذات البناء الأوبرالي المؤلَّف من شخير (تمسك بطشة بقيادته وهو نائم)، يتردد بين

٣

العويل والحشرجة (حسب نوع الصور المصاحبة)، تعترضه إيقاعات من زرطاتٍ متباينة الشدة (حسب نوع الطعام الذي أنتجها)، ممتزجة بنداءات حراس السور الخارجيين، في أبراجهم المشيدة، معلنين عن وجودهم كل ساعة بصوتٍ جهوري (يغالبون به خوفهم): واحد تمام، اتنين تمام، تلاتة تمام، ... حتى ستة.

٤

فتحوا علينا في الصباح الباكر، ليخرج بطشة وحده، ثم أغلقوا الباب وألفيتني عاجزًا عن التنفس؛ إذ كان جو الزنزانة خانقًا مكتومًا، وازداد الأمر سوءًا عندما أشعل البعض سجائرهم وأخذوا يسعلون ويبصقون.

فتح لنا بطشة بعد نصف ساعة لنذهب إلى المراحيض، واندفع القدامى إلى الخارج قافزين فوقي. دسست قدمي في حذائي، طاويًا مؤخرته، محولًا إياه بذلك إلى خف، ووضعت منشفتي حول رقبتي وحملت صابونتي في يدي واقتربت من دلو البول. كان ممتلئًا لحافته والرائحة المنبعثة منه قوية زاعقة. انحنيتُ فوقه وأمسكته من مقبضَيه لكن الصابونة التي في يدي عاقتني ألقيت بها في عبي ورفعت الدلو وغادرت الزنزانة.

مشيت بصعوبة منحنيًا إلى الأمام، محاذرًا أن تهتز محتوياته كي لا يصيبني الرذاذ. اتجهت إلى حيث وقف الحارس بجوار باب في منتصف العنبر يؤدي إلى ردهةٍ صغيرة، ثم جناحَين متقابلَين بكل واحد صف من مراحيض بلدية مكشوفة مزودة بستائر من الخيش لا تكفي لستر الجالس، وأمامها صف من الحنفيات ثبتت في الجدار المقابل فوق مجرًى أرضي. دلقت الدلو في المجرى وشطفته بمياه الحنفية عدة مرات، ووقفت أنتظر دوري في استخدام المرحاض. أوشكت الروائح المتصاعدة أن تصيبني بالغثيان، وعندما حان دوري أخيرًا لم أتمكن من التبرز، غسلت وجهي وأسناني وألقيت بالمنشفة حول عنقي، ثم حملت الدلو وعدت إلى الزنزانة.

وجدت بطشة يصرخ بعصبية أمام دلو المياه موجهًا السباب لشخصٍ مجهول، وتبينت أن أحد النزلاء أخطأ الهدف بالليل وتبول في دلو المياه. أمرني أن أحمل الدلو إلى الدورة وأنظفه بالصابون ثم أملأه بالمياه، وطلب من صبري أن يعاونني، منبهًا عليَّ بألا أنسى غسيل القروان المتخلف عن عشائنا.

انصعنا لأمره، ثم تناولنا إفطارنا المؤلف من الجبن القريش المتحجر ورغيف من الخبز المتجمد. ولاحظت أن صنقر أضاف قطرات من الزيت إلى نصيبه من الجبن وكسر بصلة في مصراع الباب، أما بطشة فلم يأكل معه.

وضعت علبة السجاير في عبي وطويت فرشتي حسب التعليمات وأخرجتها إلى الممر ووضعتها إلى جوار الحائط وفوقها القروانة، لمحت بطشة جالسًا إلى جوار الحارس فوق دكة مكتبٍ خشبيٍّ صغير مثل مكاتب التلاميذ وُضع في منتصف الطابق. كان يأكل معه في رصانة من طبقٍ كبير أحاطت به أعواد من الفجل والجرجير والبصل الأخضر.

نودي علينا بعد قليل، وجمعنا الحارس وهو يتجشأ في ردهة العنبر مع نزلاء الزنازين الأخرى، فأربى عددنا على المائة. وكان ثمة عدد من الشبان المتماثلي الهيئة، وفهمت أنهم من المجندين الهاربين من الجيش وحُكِم على كلٍّ منهم بسنتين، أمرنا بطشة أن نجلس القرفصاء، وأطل علينا نفر من نزلاء الطوابق العليا أخذوا يتفرجون علينا، أحصيت ثلاثة طوابق فوق الأرضي، تدور بها أسيجة حديدية، يعلوها سقف من القضبان المتشابكة. وعرفت من صلصة الذي قرفص إلى جواري أن أغلب سكان الطابق العلوي متهمون مثلي في جرائم قتل دفاعًا عن الشرف.

ألقى علينا الحارس كلمة عن أهمية المحافظة على النظام والعمل بالتعليمات واللوائح وتجنب إحراز الممنوعات. كنت أمامه مباشرة، فجعل يخبط على رأسي بخرزانةٍ رفيعة ليؤكد حديثه، ثم ترك الكلمة لبطشة الذي طلب ممن له دراية بيننا بالطهي أو الخبيز أو أشغال النجارة أن يرفع يده.

اختارني بطشة مع صبري وآخرين للنظافة، وأوضح الحارس أنها على عكس الأعمال الأخرى تكلفتها من نزلاء كل زنزانةٍ ملكية، فينال الواحد ثلاثة جنيهات.

همس صلصة: مش حنشوف منها حاجة، حيقسم مع بطشة.

تبعنا الحارس إلى الخارج حاملين بطاطيننا، فنشرناها في الشمس ومضينا إلى العنبر الآخر المخصص للملكية. فعهد بنا إلى حارسه الذي سلم كلًّا منا قطعةً كبيرة من خيش المسح ووزعنا على الطوابق المختلفة لرفع البول والمخلفات ومسح الزنازين.

بدا لي أن العنبر الملكي لا يختلف عن عنبرنا إلا في شيءٍ واحد هو الملابس. وفهمت أن هذا وضعٌ مؤقت طالما أن نزلاءه تحت التحقيق، فبمجرد الحكم عليهم سيرتدون ملابس السجن الخضراء.

٤

عهد الحارس إليَّ أنا وصبري بالطابق الثاني الذي يقطنه السُّنِّيَّة من أصحاب اللحى، وأفهمنا أنهم ينظفون زنازينهم بأنفسهم وأن مهمتنا تقتصر على تنظيف الطرقة الخارجية التي تمتد أمام الزنازين فضلًا عن المراحيض.

لم يسبق لي أن أمسكت في حياتي خيشة حتى أو مكنسة؛ فقد كانت أمي تنفرد بكل أعمال البيت بمعاونة أختَيَّ، ويبدو أن صبري كان مثلي؛ فقد وقفنا نتبادل النظرات في مدخل الدورة لا ندري ماذا نفعل، إلى أن جاء الحارس ونهرنا. خلعت حذائي وتقدمت حافيًا إلى المراحيض فأزحت ستارة أحدها، وطالعتني على الفور كومة من المخلفات يغطيها الذباب. تراجعت متأففًا وأنا أشعر بالغثيان وتذكرت يوم الترنش عندما تأتي سيارة الفضلات لتفريغ البئر الموجود في مدخل منزلنا.

تدافعت الدموع في عينيَّ، وتطلعت إلى صبري فوجدته قد فتح حنفية المياه في المرحاض المجاور ففعلت مثله، وفتحتها على آخرها حتى تجتاح المخلفات في طريقها، ثم واتتني فكرة فتناولت دلو المسح وملأته إلى منتصفه بالماء وألقيت بمحتوياته في المرحاض. كررت العملية حتى نظف تمامًا، فانتقلت إلى المرحاض المجاور.

استخدمنا الدلو بعد ذلك في تنظيف أرض الدورة، ومسحت مدخلها بالخيشة، ثم خرجنا إلى الطرقة فتولى صبري النصف الأيمن وتعهدت أنا بالأيسر. بللت قطعة خيش ومضيت حتى نهاية الطرقة فبسطتها فوق البلاط، ثم سحبتها إلى الخلف في اتجاه دورة المياه، كانت الزنازين مفتوحة ووقف أصحابها على عتباتها يتابعون ما أفعله. كان أغلبهم يرتدون الجلاليب البيضاء فوق سراويل طويلة من نفس اللون. اختلست النظر داخل إحدى الزنازين وأنا أجرُّ الخيشة فرأيتها مرتبةً ممتلئة بصناديق من الكرتون اصطفت فوقها أنواع المعلبات وعلب لبن «نيدو» الكبيرة وصناديق «كولمان». ولمحت في أخرى سخانًا كهربائيًّا فوق صفيحةٍ كبيرة.

لم أجد معنًى لإعادة ارتداء الحذاء فحملته في يدي، وحذا صبري حذوي، هبطنا حفاة إلى الطابق الأرضي فوجدنا القدامى قد سبقونا إلى الزنازين بحيث وقع تنظيف المراحيض من نصيبنا. وعندما انتهينا منها أمرنا الحارس بتنظيف الزخارف الحجرية البارزة التي تحيط بأبواب الزنازين، وكانت مدهونة حديثًا بلونٍ رماديٍّ كئيب.

اختلست النظر داخل الزنازين التي علقت بجوار بعضها لافتة «الإيراد»، كانت حاشدة هي الأخرى بصناديق المعلبات وحبال الملابس التي تدلت من السقف. أما أصحابها فكانوا يرتدون خليطًا منها، ولمحت أكثر من شخص يرتدي الروب دي شامبر الملون، وكان أحدهم

يدخن غليونًا، وخُيل إليَّ أني رأيت صاحب التي شيرت الذي تعرفت عليه في مركز الشرطة وكان يرتدي هنا شورتًا رياضيًّا أبيض اللون.

جمعنا الحارس أنا وصبري في طرف الطرقة، بعد أن ضمَّ إلينا عم فوزي. أوقفنا صفًّا بالعرض ووجوهنا إلى الجدار، وأمرنا أن نبسط قطع الخيش أمامنا على البلاط بحيث تلاصقت وغطت كل شبر منه، وبحركة واحدة سحبنا الخيش إلى الخلف مكتسحين القاذورات التي تخلفت عن نظافة الزنازين، تراجعنا بظهورنا حتى بلغنا مدخل المراحيض، فكومناها أمامها، وغسلنا الخيش في الدلاء، وعدنا إلى نقطة البداية كررنا هذه العملية عدة مرات حتى لمع البلاط من نظافته، ثم انتقلنا إلى النصف الآخر، الذي يبدأ من باب العنبر، فأعدنا الكرة.

ظهر سجينٌ قديم في مدخل العنبر، ونادى من ميكروفون في يده النزلاء الذين جاءتهم زيارة، كنت على يقين من أن اسمي لن يكون بينهم؛ إذ لا يستحق النزيل زيارة إلا بعد أن يمضي شهر على حبسه، ومع ذلك أصغيت للأسماء، وتابعت أصحابها وهم يغادرون زنازينهم على عجل وقد اعتنوا بمظهرهم وبدا البِشر والتلهف على وجوههم.

انتهينا من عملنا فجمعنا الحارس وتمم علينا ثم أسلمنا لحارس عنبرنا. واقتادنا هذا إلى الفناء الخارجي المفروش بالرمل، فقمنا بجمع ما تبعثر في أنحائه من قصاصات ورق وأعقاب سجائر وضعناها في برميلٍ مخصص للقمامة. وحان موعد آذان الظهر، فسحبوا منا اثنين لتوزيع الطعام.

مرَّ بنا السجناء العائدون من الزيارة وهم يحملون أكياسًا متفاوتة الأحجام وصناديق «تيك أواي» من «كنتاكي فراي تشيكين» و«بروست فود». كانوا يبدون في لهفة للعودة إلى زنازينهم. وسمح لنا الحارس أن نحصل من موزعي الطعام العائدين إلى المطبخ على قروانة من سائل طيني لزج تسبح فيه حبات من الفول المسلوق.

انتحيتُ جانبًا أنا وصبري وحجاج واقتعدنا الأرض، وما لبث صلصة وبلحة أن انضم إلينا. خطر لي أن أشرب السائل لكن منظره لم يشجعني. تطلعت إلى بلحة فرأيته يلتقط حبات الفول وينزع قشرتها ثم يقذف بها إلى فمه. قررت أن أفعل مثله، فتناولت حبة وأزلت قشرتها وعندئذٍ انفصلت فلقتاها وجدت قلبها مهترئًا ترقد داخله حشرةٌ سوداء غريبة؛ ألقيت بالفولة وحشرتها جانبًا في اشمئزاز وتناولت غيرها، لكني صادفت نفس الأمر وأوشكت الكمية أن تنتهي دون أن أعثر على حبةٍ سليمة، فعدلت سياستي بأن صرت أُلقي بالحشرة وألتهم الفولة.

راقبني بلحة في استهزاء ثم خاطبني قائلًا: إيه اللي بتعمله ده يا بابا؟ والتفت إلى صلصة وقال: الواد ده باين عليه ابن ناس، شفت بياكل الفول ازاي؟

دافعت عن نفسي قائلًا إنها أول مرة أدخل السجن.

قال صلصة: كان لازم تدخل أيام ما كان يوم عدس ويوم فول؛ يوم سوس ويوم زلط، ودالوقت العدس بيصدروه فمعدش غير السوس.

لمحت بطشة يسير بمفرده قادمًا من ناحية الإدارة متجهًا إلى باب عنبرنا، سألت: هو بطشة جاي في إيه؟

قال بلحة: نفوس. واخد مؤبد.

سأل فوزي: وايه اللي جابه هنا؟ مش مفروض يودوه الليمان؟

– كان فيه، لغاية ما مسكوه بيتاجر في البرشام. بقاله سنة ونص مستني يتحاكم.

سألت مدهوشًا: يقوموا يعملوه نبطشي؟

قال بلحة: يا بني انت كركي، هم بيختاروه عشان كده. المأمور عارف إنه بيتاجر في المخدرات يقوم يعمله نبطشي. يطنشوا على شوية الأقراص اللي بيوزعها عشان يضمنوا انهم يعرفوا كل حاجة بتحصل في العنبر.

سألت: قصدك إنه ...

قال صلصة: طبعًا، مش عاوزة كلام، مكنوش يخلُّوه رايح جاي كده ومعاه المفاتيح.

تابعه بلحة في حسد: أهو ده اللي عايش زي الملك ميحسش بالحبسة أبدًا.

سألته: ازاي البرشام بيدخل لما هم بيفتشوا كل واحد. يمر ازاي على العساكر والضباط؟

– ما هم دول اللي بيدخلوه، العسكري من دول يحط الأقراص في بالونة ويلبسها من تحت لغاية ما يمر من بوابة السجن وياخد على كل عملية تلاتين جنيه. بعد كده التاجر يبيع القرص اللي باتنين جنيه برة بأربعة وخمسة.

صاح الحارس فينا كي نواصل العمل، انتشرنا من جديد في الفناء لتنقية رماله من الشوائب إلى أن أذن العصر وحان وقت الفسحة فقادنا الحارس إلى فناء عنبرنا.

وجدته مكتظًا بالنزلاء الذين شكَّل بعضهم طابورًا يطوف حول الفناء على مهل بينما جلس البعض الآخر القرفصاء إلى جوار الجدار وانهمكوا في لعب السيجة، وكان بينهم عدد ملحوظ من الأفارقة، وبسط أحدهم صحيفة على الأرض رص فوقها أنواعًا مختلفة من السلع مثل بكر الخيط والإبر والأمشاط والفنيك والبخور وماكينات «ناسيت» البلاستيكية

للحلاقة، وسجائر «كنت» و«مارلبورو» و«سيلك كت»، بألوانها المختلفة، وأظرُف الجوابات والأقلام الجافة وعلب الفول والخضراوات الأخرى والأعصرة المحفوظة.

اشتريت ظرفَين وطابعَين وورقتَين وقلم «بيك» بنصف علبة كليوباترا. وانضممت إلى سوزوكي وجابر، سائق الأتوبيس، اللذين كانا يرقبان شابَّين شديدَي الشبه يثرثران مع الحارس بَعْجر، قال لي جابر إنهما شقيقان من بولاق الدكرور ساعدا أمهما في قتل شقيقتهما، فأوثقوها بالحبال في الحمام وسكبوا عليها جركن كيروسين وأشعلوا فيها النيران ثم أغلقوا عليها الباب حتى فارقت الحياة.

استبشعت الأمر وسألت: هي عملت إيه؟

قال جابر: هربت من البيت عشان تتجوز واحد غني من بتوع الخليج، الظاهر حد ضحك عليها، ولما كشفت الحقيقة رجعت. لكن الناس قعدوا يعايروا أمها.

تركتهما إلى حلقة أحاطت بشيخٍ مهيب المنظر تحيط بوجهه السمح لحيةٌ بيضاء كثيفة ويرتدي طاقية من الصوف المشغول خضراء اللون، سمعتهم يلقبونه بالشيخ عبد الله، وكان يتحدث في صوت رزين والجميع ينصتون إليه في احترام: يجب أن يسير كل شيء في حياة البني آدم على ترتيب حضرة النبي ﷺ ... في الأكل والشرب ودخول المسجد والخروج منه، في كل حاجة. ابن أحد الصحابة مات في دورة المياه فخاف أبوه إنه مش حيدخل الجنة، لكن الفتى جاله في المنام وطمأنه أنه دخل الجنة لأنه لما دخل الحمام دخله على ترتيب حضرة النبي.

تطلع الشيخ إلى مستمعيه مثبتًا عينَيه في كل واحد لحظة ثم استطرد: أنا عيلتي اهتدت جميعًا، وابني وعمره سنتين لا يشرب ولا يجلس لطعام إلا بالطريقة الإسلامية، وهم لا يفتحون التليفزيون، وكنت اشتريته بفلوس العراق، ومرضتش أبيعه عشان اللي يشتريه ميفتحوش ويرتكب معصية.

استمعتُ إليه في اهتمام وقد سحرني صوته، وشعرتُ بالسكينة، فاقتربتُ منه وقد تعلَّقتْ عيناي بوجهه السمح. مضى يتحدث عن الآيات المختلفة للحكمة الإلهية فقال: ربنا خلق لنا مفاصل في الكوع لولاها كنت تيجي تاكل يقوم دراعك ياكل وش اللي جنبك.

أعلن بعجر انتهاء الطابور فحملت بطاطيني ودخلت العنبر، وسمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه للاغتسال. أخذت صابونتي ومنشفتي سعيدًا بأني سأتخلص من العرق والتراب اللذين التصقا بجسدي، وهنا ناداني بطشة وطلب مني وهو يتحسس خدي بيده أن أملأ مياهًا إضافية للشرب، سارعت بتنفيذ أمره وقد سرني أنه تخلى عن عدوانيته معي. ملأت أربع زجاجات «سبرايت» كبيرة من حنفية الدورة وحملتها إليه ثم عدت أدراجي.

انتظرت حتى جاء دوري في استعمال المرحاض الأخير المخصص للاستحمام. دخلت وأنزلت الستارة ثم خلعت ملابسي وعلقتها على مسمار في الحائط. تلفتُّ حولي بحثًا عن مصدر المياه فلم أجد غير الحنفية الواطئة القريبة من الأرض، قرفصت بجوارها وفتحتها ثم بللت الصابونة ودعكت جسمي.

انقطعت المياه فجأة وانتظرت عودتها وأنا مقرفص فوق فتحة المرحاض. سمعت بعد لحظات صوتًا يشكو من انقطاع المياه كعادتها كل يوم، نادى علينا بعجر من أجل التمام، وبعد قليل فوجئت به يرفع الستارة ويطل عليَّ والمفتاح الحديدي الثقيل في يده.

بادرني قائلًا: إنت بتعمل واحد وتلاتين وللا إيه يا مسجون؟!

شكوت له انقطاع المياه وأني لم أنتهِ بعدُ من الاستحمام فأشار لي بالخروج قائلًا: معلهش يا بيه. اخرج الوقت وإحنا نجيبلك المية لحد عندك في الزنزانة.

قلت محتجًّا: أخرج ازاي وأنا عريان كده؟

تطلَّع إليَّ ثم قال متفكهًا: البس هدومك.

– فوق الصابون؟

انحنى فوقي ومد يده فقبض على ذراعي بيد من حديد وجذبني إلى خارج المرحاض قائلًا: تعال زي ما انت.

جذبت ملابسي وارتديتها فوق الصابون الذي امتزج بعرقي وقذارتي وتبعته إلى الزنزانة.

وجدت وضعي قد تحسن قليلًا؛ إذ انضم إلينا زبونٌ جديد استقر مكاني إلى جوار دلو البول، فتقدمت أنا خطوة نحو عمق الزنزانة، ولاحظت أن سوزوكي فقد موقعه المتميز، بينما احتفظ بطشة بركنه.

تعرفت في النزيل الجديد على محمود سعيد، فلاح كفر الشيخ الذي قبض عليه البوليس لأنه كان نائمًا في الشارع. سألته عما جاء به، فقال إنهم أفرجوا عنه في الصباح الذي رحلونا فيه إلى السجن، فأسرع إلى المستشفى، وهناك نصحه الأطباء بنقل ابنه إلى مستشفى استثماري توجد به استعدادات أكثر، عمل بالنصيحة وذهب إلى المستشفى الذي طالبه بأن يدفع أولًا ألف جنيه. فأسرع بالعودة إلى قريته حيث رهن بيته وجاء بالنقود في نفس اليوم وأدخل ابنه المستشفى، وفي المساء قالت له إحدى الحكيمات البقية في حياتك يا عم محمود. لم يدرِ ما حدث بعد ذلك سوى أنه عاد مرة أخرى إلى القسم وأحيل إلى النيابة بتهمة التعدي على أطباء المستشفى وتحطيم واجهته الزجاجية.

ملأتُ كوزًا من البلاستيك من دلو المياه وانحنيتُ فوق دلو البول فصببت منه في يدي اليسرى وحاولت أن أغسل وجهي، وشعرت بسوزوكي إلى جانبي. تناول مني الكوز قائلًا: كده مينفعش، لازم حد يصبلك.

غسلت يدي ووجهي وأنا أتوقع زجرًا من بطشة، وصحَّ ما توقعته؛ إذ صاح: ضيعولنا المية بأه. الشوية دول عشان الشرب مش عشان مسح الطيز.

لم يأبه سوزوكي بالرد عليه، وشعرت أن الجو بينهما ليس طبيعيًّا.

بدأ توزيع اليمك، وكان عبارة عن حساء الرجلة وقطعة من اللحم، أو بالأصح قطعة من الجلد.

أبدى صبري تذمره فعقب بطشة — الذي لا يأكل أبدًا من اليمك — قائلًا في غير مبالاة: محدش بيشوف اللحمة هنا خالص.

تكونت مجموعات الأكل الثلاث مثل الأمس. وأصرَّ بطشة على استضافة محمود سعيد الذي كان يحمل لفافة بها عدة ساندوتشات. أما نحن فلم يكن لدينا غير قروانة اليمك فوضعناها وسطنا وأمسك كلٌّ منا برغيفه وبدأنا نغمس.

توقف صلصة فجأة عن الأكل وتطلع إليَّ في غضب. اتهمني بأني آكل مثل الخنازير، وقلد طريقتي في الأكل، فغمس لقمة ورفعها عموديًّا إلى فمه بعد أن مده إلى الأمام بحيث تساقطت نقاط الحساء من أصابعه وفمه في الإناء. وتطوَّع بلحة ليشرح لي طريقة الأكل الجماعي السليمة، فطوى اللقمة بين أصابعه وغمسها ثم رفعها بالقرب من حافة الإناء وأدارها في خفة حتى التقطها بفمه دون أن تسقط منها نقطةٌ واحدة.

أتينا على القروانة بسرعة ثم التجأنا إلى نمرنا. واكتشفت أنه لم يتبقَّ معي غير سيجارتين هما كل ما أملك. وكان أمامي أحد سبيلين: إما أن أستمتع بتدخينهما مرةً واحدة أو أقسمهما على عدد من المرات بحيث تكفياني حتى مساء الغد. وبينما أنا أتدبر الخيارين رأيت سامبو يضع سيجارة على الأرض ويعكف على تقطيعها بنصف مشرط إلى ثلاثة أجزاء متساوية ثم ثبت إحداها في مبسم خشبي صغير.

سألته عن المصدر الذي حصل منه على المبسم، فأجاب: اشتريته.

تدخل بطشة في الحديث بعد أن سمع حوارنا وسألني: عاوز واحد؟

أومأت برأسي.

قال: بعلبة سجاير.

تدافعت الدماء إلى وجهي فضحك مستهزئًا.

خاطبني سوزوكي من فرشته متجاهلًا بطشة: ميهمكش يا أشرف. أنا حشوفلك واحد، ولو عُزت برشام أنا أجيبلك القرص بنص علبة.

تجهم وجه بطشة وتردد فجأة صوت صاحب النشرة المألوف: عنبر كله يسمع.

أردف بعد أن ساد الصمت: مساء الخير على الجدعان، أعرفكم أن المعلم الفص طالع بكرة من خمس سنين جدعنة، يا رب يروح ما يرجع، عقبال عندنا يا حبايب.

تصاعدت صيحات التهليل، وبدأت الزنازين توجه التحية إلى سعيد الحظ، ثم جاء دور نشرة الخارجين في الغد. سألت صلصة عن حكاية هذه النشرة فقال لي إن المذيع مسجونٌ قديم محكوم بست سنوات، ويحصل من الحراس قبل التمام على أسماء الذين سيتم ترحيلهم في الغد.

قلت: ويدُّوهالو ليه؟

قال: بيشتريها منهم بسجاير، ويذيعها كمان بسجاير. علبة من كل واحد يقول اسمه، وبالفلوس دي يصرف على نفسه وعيلته برة.

أخرجت الورقة والقلم من كيسي، وفجأة زعق صوتٌ جهوري: عنبر كله يسمع.

هتف بطشة مهللًا وهو يستنشق الأسبرين: أيوه يا شيخ عبد الله ... ادينا.

مضى الصوت الجهوري في رزانة فقرأ البسملة معلنًا عن تقديم نشرة الأخبار الإسلامية التي استهلها بأخبار البوسنة والصومال قائلًا: إن الأمم المتحدة بقيادة الصليبي بطرس غالي لم تفعل شيئًا للمسلمين، ثم تلا تقريرًا خاصًّا عن أوضاع الأراضي المحتلة وصور الاضطهاد التي تنزلها إسرائيل بالشعب الفلسطيني، وقال إن اتهام إيران بدعم الإرهاب في مصر مزاعم أمريكية تمهد لضرب إيران بعد خطواتها السريعة في مجال الأسلحة الذرية. وانتقل بعد ذلك إلى الأخبار المحلية، فوصف مطاردة رجال الأمن للجماعة في الصعيد، وأعلن أن وزير الزراعة قرر إزالة محصول قصب السكر واستبداله بالبنجر بعد أن عجز الأمن عن ملاحقة أفراد الجماعة. ثم زفَّ إلى المسجونين نبأ اغتيال عقيد شرطة في أسيوط، فتصاعدت صيحات التكبير من بعض الزنازين، وتكرر التكبير عندما أكد أن أولياء أمور الطالبات في مدرسة إعدادية أعلنوا رفضهم لقرار وزير التعليم بنقل المدرِّسة التي فرضت الحجاب على الطالبات.

سألتُ صلصة: والشيخ عبد الله بيجيب النشرة دي منين؟

تدخَّل بطشة قائلًا: الشيخ ترتيب حضرة النبي؟ ده راجل عقر متغركش دقنه، مربيها هنا. عنده تسع قضايا نصب آخرها ع السياح في الهرم، طلَّع لهم كارنيه إنه مخابرات

وفتشهم ولطش فلوسهم، وكان شايل مسدس صوت. لما جه هنا لف على السُّنية اللي في عنبر الملكية. بيعتوا له أكله وشربه وسجايره والنشرة اللي بيقراها كل ليلة.

لحظت أن مجاهد، الشاب ذا الوجه الشاحب يتأمل جانبًا من ورقة جريدة في استغراق، ولمح صنقر اتجاه نظراتي فهتف: وريهم يا مجاهد الجرنال.

ناولني الشاب الورقة بشيء من الزهو فوجدتها بالية بعض الشيء، قرأت عنوانًا كبيرًا نصه: «ضاعت القيم وجاء الحقد ليحصد الخير»، وأسفله هذه السطور:

> «استيقظت سيدة أحد القصور على نباح كلبها الكبير؛ فأسرعت تستطلع الأمر، فوجدت شابًّا متعبًا يفترش الأرض ومستغرقًا في النوم. فرقَّ قلبها لهذا المنظر المؤلم غير الإنساني، فهرولت إلى داخل القصر وأحضرت بطانية وبعض الطعام وعرضت عليه أن يعمل عندها لرعاية ابنها الصغير. وذات يوم وأثناء مراقبتها لابنها الصغير (٩ سنوات) وهو يلهو، رأت الشاب يطعنه وفرَّ هاربًا، أسرعت بنقل ابنها إلى المستشفى وأبلغت الشرطة، وبعد ٢٤ ساعة ألقي القبض على الجاني — مجاهد سليم — الذي اعترف بجريمته، وبررها بأن الحقد استولى عليه عندما اكتشف أن الكلب يأكل وجبة أسرةٍ كاملة وأن الدراجة البخارية التي يلهو بها الطفل حمادة بثمن خمسة أفدنة.»

استردَّ مني ورقته وطواها بعناية ثم وضعها في كيس من البلاستيك دسَّه تحت نمرته، وأخرج بطشة من جيبه ورقةً مطوية من صحيفة اليوم عرضها على سامبو وصنقر وهو يضحك، شاركه الاثنان الضحك معلقين على صورة في صدر الورقة، وأدركت أن معرفتهما بالقراءة محدودة، تداولت الأيدي الصحيفة حتى وصلت لعم فوزي فتأمل الصورة ثم ناولني إياها لأقرأ ما كتب أسفلها. طالعني وجه رجلٍ أنيق يرتدي ملابس الشرطة وتحته اسمه مسبوقًا برتبة لواء يبدو من علية القوم، وفوق الصورة عنوانٌ خاص بالقبض على أكبر تاجر مخدرات هارب من حكم بالسجن لمدة عشر سنوات، وعندما قرأت الخبر اكتشفت أن الصورة لم تكن لتاجر المخدرات وإنما للواء الشرطة الذي قبض عليه.

لم أكد أعلن اكتشافي هذا حتى انهالت عليَّ التعليقات بأني لا أفهم، وصاح بطشة فيَّ: وانت مين اللي علمك القراية؟

خفَّ صبري إلى تأييدي عندما قرأ النبأ، فتراجع بطشة وقال إن كثيرًا من ضباط الشرطة يجربون حظهم في مجالات مثل المخدرات أو سرقة المنازل لكنهم على العموم

٤

يتصفون بالخيبة. وقال بلحة إنه شخصيًّا يعرف ضابط شرطة مفصولًا سرق خزينة بها مجوهرات ونقود، وفوجئ بعودة صاحبة الشقة وهي شقيقة صديقه، فهرب إلى سطح العمارة، وأمسك به الأهالي واعترف بأنه سرق المفتاح من صديقه.

قلب صنقر شفته قائلًا: كان لازم يعمل حسابه.

تبينتُ بعد لحظات أن صنقر من لصوص المنازل، وأن بطشة بدأ حياته أيضًا بتخصصٍ مختلف في نفس المهنة؛ فكان يسرق عن طريق كسر الباب أو كسر ريشتَين من مصراع النافذة الخشبي، أما صنقر فيتسلق المواسير، كما أن بطشة لم يكن يسرق غير الأجهزة الكهربائية والمنقولات، أما صنقر فيقتصر اهتمامه على النقود السائلة والذهب؛ أي ما غلا ثمنه وخفَّ حمله.

شرح لنا صنقر في شيء من الزهو كيف يختار ضحاياه: الشقة المقفولة أنا مدخلهاش؛ لأن أصحابها مش حيسيبوا فيها مصاغ أو فلوس؛ يا إما بياخدوا كل حاجة معاهم وهم خارجين أو يحطوها في البنوك. أنا بحط عيني ع الشقة اللي ساكنة، اللي أصحابها بيخرجوا كل يوم الصبح لأشغالهم ويسيبوا المصاغ بتاعهم وراهم.

سأله جابر: ولو حد منهم رجع صدفة؟

– يبقى حظي وحش.

– بتشيل سلاح؟

تدخَّل صلصة وهو ينظر بطرف عينه إلى زميله بلحة: الحرامي الشاطر عمره ما يستخدم السلاح لأن ده يعرضه للسجن المؤبد أو الإعدام في حالة الوفاة، في حين أنه لما يتمسك في سرقة عادية أقصاها من ست شهور لتلات سنين أو بالكتير ستة.

علق صبري قائلًا: يعني أربعة و٨ شهور.

سألته عما يعنيه فشرح لي أن السجين الذي يحسِن السلوك تُحسب له السنة بتسعة شهور ويخرج بثلاثة أرباع المدة.

أبهجتني هذه المعلومة، وجعلت أحسب الأحكام المختلفة عندما تُطبق عليها هذه القاعدة. وأعطيت نفسي حكمًا من عشر سنوات ثم خفضته إلى سبعة ثم ثلاثة.

حصل صبري على الكوتشينة، وأقنع عم فوزي بأن يكفَّ عن البكاء ويلاعبه، وعرضا عليَّ أن أنضمَّ إليهما فاعتذرت، كما رفض فلاح كفر الشيخ وانفجر باكيًا ثم لزم الصمت محدقًا في الحائط.

اقترضت نصف الموس من صنقر وقطعت به سيجارة ثلاث قطع، وألقى لي سوزوكي بمبسمه كي أضع به الثلث الأول، شكرته وقدمته إليه ليشعله ويأخذ لنفسه نفسًا لكنه رفض، أشعلت لنفسي وعدت إلى الورقة والقلم، وأنا أبحث عن شيء صلب أستند إليه، لمحت عم فوزي يعبث بغطاء بلاستيك لعلبة حلاوة، فأخذته منه ومسحته في بنطلوني ثم ثنيت ركبتيَّ إلى أعلى ووضعت الغطاء فوقهما وأسندت الورقة إليه.

لم يسبق لي أن كتبتُ إلى أمي؛ ولهذا واجهتني صعوبةٌ شديدة في صياغة الكلمات. لم أعرف كيف أخاطبها. كتبت أولًا: ماما، ثم غيرتها إلى أمي، وأضفت بعد تفكير: العزيزة، وعدت فشطبتها واستبدلتها بالغالية. في البداية وصفت لها الزنزانة وزملائي بها، ونزلت دموعي وأنا أصف لها الأكل وكيف نظفت المراحيض، فمسحتها ثم واصلت الكتابة:

«**أمي الغالية**

أنتِ وحشتيني جدًّا يا أمي أنتِ وعايدة وأبي والجميع. لا بد أن تتأكدي من براءتي، فأنا لم أسرق ولم أقتل، أنا كنت أدافع عن شرفي، أنا ضحية الأقدار المريرة، لكن ربنا هو الذي يرى كل شيء ويعلم كل شيء، وأنا متأكد أنه لن يخذلني.

أمي الحبيبة،

أرجوك ألا تتأخري في الرد عليَّ. ليس لي الآن زيارة، لكنك تستطيعين القدوم إلى السجن وتقديم طلب بنقلي إلى الملكية بشرط أن تكوني مستعدة لإحضار طعام لي كل يوم أو يومين، وكمان تأخذي الغسيل مرة في الأسبوع، وعشان كده لازم تشتريلي غيار أو اتنين. ولا تنسي شبشب زنوبة من النوع التايواني المستورد لأنه يتحمل، أرجوك يا أمي، فلن أستطيع احتمال الحياة هنا في هذا العنبر وسط المجرمين والمراحيض، ولا تنسي السجاير، قد ما تقدري؛ مش عشان أشربها، لا؛ أصل كل حاجة هنا بسجاير. وكمان «أوبتاليدون» عشان الصداع. وعلى فكرة من حق أي سجين أن يودِع له أهله رصيدًا من النقود في صندوق الكانتين عن طريق الإدارة، يسحب منه لشراء أي كمية من السجاير والحلاوة الطحينية. ابنك البريء المظلوم.»

قرأتُ الخطاب عدة مرات، وأضفت إليه حاشية أطلب فيها منها أن تتصل بصديقي سيد وتحضره معها إلى جلسة المحاكمة.

٤

أشعلت الثلث الثاني من السيجارة وكتبت لهدى:

«حبيبتي الغالية

لقد تحددت ساعة اللقاء منذ الأزل، وكانت محور وجودي وسببه. إني أتحدث عن شيء أجمل من أن يوصف بأي وصف. استردي ثقتك فيَّ، سأخرج قريبًا؛ فأنا بريء، وعند خروجي قريبًا سأسافر إلى الأردن أو ليبيا لإعداد كل شيء لارتباطنا، كل شيء من كبير وصغير، وسأعود قريبًا لكي أتقدم إليك رسميًّا كي نذوق السعادة المطلقة ... انتظري شهرًا أو شهرين بالكثير وسترين مني عملًا جادًّا؛ خاصة أن الشقة في طريقها أن تكون جاهزة تمليك وهنا في مصر.

حبيبة قلبي،

لا أريد أن أكون متطفلًا عليكِ، ولكنني أدرك جيدًا أننا خلقنا لبعض ولا سعادة لأحدنا بعيدًا عن الآخر، ومع ذلك فأنتِ حرة، لكن فكري جيدًا ولا تخشي شيئًا إطلاقًا. فكري بقلبك وعقلك.»

توقفت وأشعلت ثلث السيجارة الأخير، وفكرت قليلًا ثم استأنفت الكتابة:

«حبيبتي الغالية

إن الحياة كون واستحالة ومأساة، وجانب الكون يكون بارتباطنا، وعدم ذلك لا يُبقي لكلينا سوى الاستحالة والمأساة، أنتِ لي وملكي، وهيهات أن يظن أي إنسان غير هذا ... إنها الحقيقة والقدر، إنه كتابٌ مكتوب. اهربي من نفسك، اسمعي كلامهم، استسلمي لهم، صدقيهم، وأسلميه نفسك، تزوجيه ... لكن أنت لي، وأقسم لك إنك لي. مردك لي ومردنا إلى الله. روح قلبي وسر وجودي، لا تقلقي ولا تحزني، افعلي ما ترينه، واعلمي أنني لا ولن أسبب لك أي إشكال إطلاقًا، وعلى العكس، أتحمل لأجلك ولأجل حبنا.»

انتهيت من الكتابة، وأغلقت الرسالتَين، ثم كتبت عنوان بيتي على الأولى، وعنوان البوتيك القريب من منزلنا على الثانية، وأضفت جملة تحتها خط: «يُسلم ليد الآنسة هدى فريد.»

لمحت الصحيفة ملقاة جانبًا فتناولتها وقلبت صفحاتها بحثًا عن إعلانات السيارات، فاستوقفني واحد بعنوان «دليلك في اختيار سكن العمر». كان يحدد المعايير التي يجب أن

يختار بها المرء مسكنه، وأولها أن تكون فيلا وفي موقع مرتفع عن سطح البحر وجاف وبعيد عن التلوث، وأن تسمح مساحتها الفعلية بالتنفس والاستمتاع، وألا تقل مساحة الخضرة عن ٧٠ في المائة منها، أما المساحة التي تمنح الخصوصية فيجب ألا تقل عن ثلاثة أمتار من كل جانب، وأن تكون الفيلا مجهزة بحمام سباحة وتكييفٍ مركزي.

لحظت أن الجميع ناموا فيما عدا بطشة الذي كان يتأملني من نمرته وهو يدخن. ورأيته يعتدل جالسًا ثم يزحف نحوي، خاطبني هامسًا: عارف إنك ملكش جوابات إلا بعد ما تطلع من الإيراد؟

قلت: طب والعمل؟

قال: قدامك طريقة واحدة عشان تبعت جواب.

سألته في لهفة: إيه هي؟

تطلَّع حوله إلى أن اطمأن إلى أن الجميع نيام.

قال: تنزل بنفسك تحطها في صندوق البوستة اللي في الميدان.

سألت في دهشة: برا السجن؟

– طبعًا يا كركي. الصبح تقول للشاويش. بس اوعى تقول للتانيين أحسن يعملوا زيك. السجن مبينزلش أكثر من واحد في المرة.

لم أكذب خبرًا وتوجهت إلى الحارس في الصباح بمجرد انتهائي من الدورة — وكان وجهًا جديدًا لم يظهر قبل اليوم — وطلبت منه أن يسمح لي بالنزول إلى الميدان لوضع الخطاب في صندوق البريد، تأملني لحظة ثم ظهرت ابتسامة على شفتَيه سرعان ما ملأت وجهه فنادى بطشة وقال له: خد مكاني لغاية لما أودي المسجون ده لسيادة الضابط علي بلبل.

كان الضابط جالسًا في الفناء وأمامه مائدةٌ صغيرة عليها كوم من أرغفة الخبز وطبق صغير به أقراص الطعمية، وألفيته شديد السمرة، ضخم الجثة طولًا وعرضًا، لا تتناسب سنه المتقدمة مع رتبته الصغيرة التي لم تزد عن نجمتين، يحمل وجهه تعبيرًا غاضبًا.

صاح في صوت جهوري لا يقل عرضًا عن جسده عندما رآنا نقترب منه: إيه؟ في إيه؟

أدى الحارس التحية العسكرية وقال: النزيل عاوز ينزل الميدان.

قال الضابط بصوت أقل حدة وإن بدا متوترًا مهددًا: ينزل فين؟

قال الحارس مجاهدًا ليغالب ابتسامة: الميدان يا باشا. عاوز يحط الجواب بنفسه في صندوق البوستة.

أطلق الضابط العنان لحنجرته صائحًا: ميدان إيه يا سي عبد الحفيظ؟ إنت بتهزر؟

٤

قال الحارس: لا يا افندم. هو قال كده. وسعادتك قلت: التعليمات إن أي مسجون يطلب حاجة نجيبه لسعادتك.

توعده الضابط قائلًا: طيب يا عبد الحفيظ. وتحول إليَّ لأول مرة وقال بصوت أقرب إلى الهمس: عاوز تنزل الميدان؟ الميدان مرة واحدة؟

شعرت أن هناك شيئًا في الأمر فقلت بحذر: بطشة قال لي كده يا سعادة البيه.

قال بنفس الصوت الهامس المتوعد: بطشة اللي قال لك؟

دوَّى صوته فجأة بأعلى درجاته فقفزت من البغتة: روح عنبرك يا عبد الحفيظ وسيبلي الواد ده.

أدى الحارس التحية وانصرف، وأشار لي الضابط أن أقف إلى جوار الحائط ففعلت. انصرف إلى طعامه دون أن يفقد وجهه تعبيره الغاضب، ولحظت أنه يتناول رغيف الخبز فيطويه مرتين ويدس في ثناياه قرصًا من الطعمية ثم يقضم منه قضماتٍ كبيرة تقضي على الرغيف في ثوانٍ.

أحضر له أحد المساجين كوبًا من الشاي، وما لبث أن أتى على الخبز والطعمية فتطلع إلى الإناء الفارغ برهة ثم تناول كوب الشاي، وأخذ يرتشف منه بصوتٍ مسموع، وبدا كأنه نسيني تمامًا، ثم نهض من مقعده ودخل مكتبه الذي تؤدي إليه درجتان حجريتان. ولاحظت أن قدميه بالغتا الضخامة وأن حذاءه بالٍ كما أنه يعرج قليلًا.

رأيت طابور الخدمات يغادر العنبر. ومضت ساعة ثم أخرى كنت أنقل خلالهما ثقل جسمي بين ساقي بالتناوب وسمعت فجأة صوت الضابط يصرخ مناديًا من يسمى بالدهشوري. أقبل على الفور حارس متقدم في السن جلل الشعر الأبيض رأسه يمسك بخيرزانة رفيعة في يده، كان هو نفسه بالغ النحافة يشبه عصا تحمل عنقًا رفيعة بتفاحة آدم بارزة. دخل المكتب وغاب بضع لحظات، ثم خرج واقترب مني وهو يضرب بعصاه كف يده اليسرى: قدامي ع العنبر.

مشيت أمامه بينما أضاف: بقى حضرتك كنت عاوز تنزل الميدان؟

قلت: بطشة اللي قال لي.

هوت صفعة على قفاي فترنَّحتُ وكدت أقع، لكني تماسكت واستطعت أن أتحمل الصفعة الثانية.

وكنا قد وصلنا إلى باب المنبر فلمحت بطشة واقفًا يتطلع نحونا وهو يضحك.

٥

لم يتأخر دور شرف في مساعدة «النشرة» على إعالة نفسه وعياله؛ ففي إحدى الليالي سمع اسمه في قائمة المرحَّلين إلى المحكمة في الغد. وقضى الليلة ساهرًا، لا من التفكير في احتمال الإفراج وإنما في الإمدادات: من الصور الحية والسجائر؛ الصور لدعم نشاطه الليلي بعد أن استنزف إمكانيات فتاة الجولف، والسجائر لأغراضٍ متعددة: تسديد الديون (لسوزوكي) والضرائب (لبطشة) والإشهار (للنشرة) فضلًا عن الاستخدام المباشر (في التدخين) والخدمات الأخرى التي تضاعفت في الصباح: حلاقة للذقن كاملة من جميعه؛ أي تتضمن النتف بالفتلة والدعك بماء الورد من زجاجة «أكوا فيلفا أفتر شيف» مقابل علبة سجائر، مسح الكوتشي وإعادة ألوانه الطبيعية مقابل نصف علبة، حمام مخصوص في المرحاض لا تنقطع خلاله المياه مقابل علبة، كيٌّ في الموقع (أي في مبنى الإدارة، أمام غرفة الأمانات، حيث يسلم البذلة البيضاء ويتسلم قميصه وبنطلونه الملونين والمكرمشين) مقابل علبة للقميص وعلبتين للبنطلون.

حليقًا، نظيفًا، مكويًّا، تسلم الكارت الأصفر الذي حُرِّر له يوم دخوله. وبدأ العبور المضاد: جلس القرفصاء في طابور مزدوج مع الخارجين، ثم سار معهم إلى فناء الإدارة الخارجي حيث تمت إجراءات التتميم مرةً أخرى. وأخيرًا باب السجن الرئيسي، حيث تم تقييد المحبوسين، اثنين اثنين، وضُم إلى مجموعة من اثني عشر محبوسًا، بينهم بعض زملاء مركز الشرطة القدامى؛ مثل فوزي وبلحة وصلصة، وُضعوا في الزنازين المتحركة.

كانت الرحلة على العموم مخيبة لآمال شرف، فبسبب القيد لم يتح له الاقتراب من إحدى الكوَّات المطلة على الطريق ولم يرَ من صنف النساء غير بضع مارَّاتٍ محجبات، لكن حظه تغير في المحكمة. وبدأ التغير فور وضعه في القفص؛ فقد وجد نفسه في صحبة ثلاث نساء، مرة واحدة، مثَّلن التيارات الأساسية في الحركة النسائية.

كانت الأولى امرأةً ضامرة، من طراز أم قويق، في ملابسَ شعبيةٍ سوداء، انتحت ركنًا لزمته دون حركة وهي تتطلع أمامها ساهمة، تتأمل ما اقترفته يداها. وكانت الثانية سمراء، في مقتبل العمر، ذات شعر بين الأحمر والأصفر، ترتدي ثوبًا ملونًا يكشف نحرها وينتهى عند ركبتيها، وتشعل السيجارة من السيجارة من علبة وضعتها في فتحة صدرها، وتحصل على إمدادت مستمرة من الشاي والقهوة. أما الثالثة فسيدة وقور، سمينة، (من طراز الخنزيرة، الحيوان لا السيارة) في رداءٍ حريريٍّ سمني اللون غطَّى جسدها حتى أصابع القدمين، أحاطت وجهها بطرحة ثبتت من جانبَين بدبوَسين لامعَين ينتهيان بحبتَي لؤلؤ، وأخفت عينيها خلف نظارةٍ شمسية سوداء، مزخرفة الإطار.

جاءت وقفته إلى جوار شاب في مثل سنه، منكوش الشعر، يدخن في عصبية، يبدو عليه الذعر. ألصق وجهه بشبكة القفص ليقترب قدر الإمكان من أمٍّ باكية تردد دون توقف: يا عيني يا بني يا صالح! أفضى إلى شرف بأنه طالب بالمعهد الفني الصناعي، ثم تبادلا اللسانيات، كان قد تلقى خطابًا من مجهول يخبره أن شقيقته الصغرى وعمرها سبعة عشر عامًا على علاقة بشاب وحملت منه، واجهها بالخطاب، فأنكرت، تحداها أن تذهب معه إلى المستشفى للتأكد من صدق أقوالها فوافقت، اصطحبها دون علم والديهما بعد أن أخفى سكينًا في ملابسه، وفي الطريق وعد بمساعدتها وعدم إفشاء السر لأحد إذا قالت له الحقيقة. اطمأنت إليه البلهاء واعترفت بأنها كانت على علاقة بشاب وعدها بالزواج ثم غرَّر بها. وهنا لم يتمالك نفسه فأخرج السكين من ملابسه وإنهال عليها طعنًا في أجزاء متفرقة من جسدها، ثم أسلم نفسه للشرطة معترفًا بفعلته، فقدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد.

أعاده ذكر التوصيف القانوني إلى الحاضر فانهار باكيًا، واقتعد الأرض ليكون قريبًا من رأس أمه وتختلط دموعهما. وقفز مكانه شابٌّ آخر وسيم الملامح، ذو شعرٍ ناعم بالغ السواد، في نفس العمر، وربما نفس المصير، لكنه على عكس الاثنين الآخرَين بدا مستسلمًا لا مباليًا، يتطلع حوله كأنه يتفرج على فيلم. الفيلم الحقيقي بدأ من عدة سنوات، لا في حديقة الحيوان وإنما في الموسكي، كان في الصف الثاني الإعدادي، ويعيش وأربعة من الأشقاء والشقيقات ووالديهم في غرفتَين أسفل السلم بمنزلٍ قديم بمنطقةٍ جبليةٍ عشوائية. وبسبب صيام رمضان المرهق أرسله أبوه العليل الذي يتاجر في إبر الخياطة المثبتة في بطاقاتٍ صغيرة إلى تاجر بالموسكي. هناك تقابل مع حسن زرافة.

قدم زرافة نفسه على أنه صاحب محل بمصر القديمة يريد كميةً كبيرة من بطاقات الإبر، ودعاه لعقد الاتفاق في مقهى بالحسين (أهناك مكان أكثر ملاءمة في الشهر الكريم؟).

٥

كان السعر مغريًا، يتضمن عمولةً معقولة للصبي حجاج، مُهرت بدعوة للإفطار لاقتراب وقت المغرب، تلاها شرب الشاي والمثلجات على مقهى برمسيس، ومحاولةٍ فاشلة لإقناعه بتدخين السجائر التي سببت له سعالًا حادًّا، فكرس زرافة نفسه لتعليمه شرب الشيشة ولعب الورق حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل فأبرز ورقته الأخيرة: لو روَّحت الوقت أبوك حيضربك، تعالى معايا أحسن. أنا متجوز وعندي أولاد في سنك تنام معاهم والصبح روَّح. وعندي كمان شيشة.

لم ينصرف حجاج في الصباح التالي ولا الذي بعده، ولم يرَ أسرته أو مدرسته منذ ذلك اليوم؛ فقد أخذه ابن الزرافة إلى عزبة إسطبل عنتر بمصر القديمة، وغرفة واحدة تضم حيوانًا آخر يدعى سيد غوريللا، وأكثر من ١٥ طفلًا لا يتعدى أصغرهم سن الثمانية، أثار منظرهم فزع الزبون الجديد فأراد الانصراف، لكن دخول الحمام ليس مثل الخروج منه كما سبق أن اكتشف الكعب الداير.

أبرز زرافة مطواة، فبكى حجاج وأخذ يصرخ، فضربه بعصًا كبيرة على رأسه لم يشعر بعدها بشيء. الأولاد الآخرون هم الذين أخبروه عندما أفاق بما حدث، لا شيء أكثر مما حدث لهم. فقد اعتدى زرافة على شرفه، وداوم على الاعتداء عليه طوال شهرٍ كامل، ظل خلالها حبيس الغرفة، إلى أن ظن أن ترويضه اكتمل فصحبه إلى العمل. بيع بطاقات إبر الخياطة في وسائل المواصلات كغطاء للعمل الحقيقي.

هل استسلم؟ لا، في أول يوم قرر الهرب داخل أتوبيس، فغافل زرافة ونزل من الباب الآخر. فوجئ أمامه بالحيوان الآخر الذي يشترك في السكن والحريم والمهنة، النتيجة علقة بخرطوم جلد وإنذار ناجع، لو كرر المحاولة سيشوه وجهه الوسيم بماء النار، ويخطف أحد أشقائه، أو يعتدي على والدته. ولتكن له عبرة في أحد عيال سيد غوريلا الذي حاول الهرب فقطع سيد رقبته وشرب من دمه.

هكذا مضت السنوات انتقل خلالها حجاج مع صاحبه من إسطبل عنتر إلى دار السلام ثم مدافن اليهود، كما انتقل من إبر الخياطة إلى الأمشاط والمناديل الورقية ثم البانجو، وهنا تنبهت له الشرطة اليقظة فعقدت من أجله الاجتماعات المكثفة على أعلى مستوى في لاظوغلي وباب الخلق، ورسمت خطةً محكمة للإيقاع به، فتنكر له خصيصًا عقيدٌ محترم اقترب منه أثناء وقوفه على ناصية شارعَين في مصر الجديدة وقدم له عشرة جنيهات، وعندما شرع حجاج في إخراج لفافة البانجو من جيبه أطبق عليه الكمين، وعثر معه على ثماني لفافاتٍ أخرى، اعترف بحيازتها بقصد الاتجار، فاستحق العقوبة المقررة وهي الإعدام.

ضم القفص أيضًا مجموعةً غريبة من عشرة رجال، أغلبهم ضامرو الأجسام، شاحبو الوجوه بطريقةٍ لافتة، يتنفسون بصعوبة ويصدر عنهم سعالٌ حادٌّ متكرر، اكتظت القاعة من أجلهم بجمهرة نساء في جلاليبَ سوداء وأطفال في جلاليب بلا لون، وعدد من المحامين والصحفيين. وكشفت اللسانيات أنهم من عمال حلوان الذين أضربوا عن العمل واعتصموا بمصنعهم؛ احتجاجًا على فصل عدد من زملائهم لأنهم طالبوا باحتساب أيام الجُمع ضمن المرتب؛ أسوة بالمستشارين وهم موظفون متقاعدون من أصدقاء رئيس مجلس الإدارة، عيَّنهم برواتبَ عالية لا يقلُّ الواحد منها عن الألف جنيه في الشهر، تكفي لحساب أيام الجُمع للعمال إلى يوم القيامة.

هل تعبيرهم عن الرأي هو الذي جاء بهم؟ أبدًا، الأهل هم السبب، فقد؛ فقد تجمعوا أمام بوابة الشركة لكي يطمئنوا على أزواجهم وأبنائهم ويزوِّدوهم بالطعام، لكن الشرطة منعتهم وألقت بالزاد والزواد في الترعة، وبقنابل الدخان في المصنع، لم يجد الأهل وسيلة للتعبير عن رأيهم سوى الحجارة، وتصورت الشرطة أنها تواجه انتفاضة على الطريقة الفلسطينية، وردَّت بإطلاق الرصاص على الطريقة الإسرائيلية، فقتلت ثلاثة وجرحت سبعين ثم ألقت القبض على الباقين.

شكوى أخرى جانبية لا علاقة لها بالموضوع وإنما تفسر الشحوب والضمور والسعال، لديهم ولدى الأهل والشرطة معًا، فضلًا عن الاستعداد للمغامرة (بالإضراب والاعتصام): فمداخن المصانع تنفث في الهواء عشرين طنًّا من الأسمنت كل يوم.

أخته فاطمة وأمه اللتان لم تذهبا في حياتهما إلى حلوان، بدت عليهما نفس المظاهر عندما اقتربتا من القفص في وجل، وكلٌّ منهما تحمل في إحدى يديها كيسًا منتفخًا من البلاستيك. كانت الأم ترتدي جلبابًا داكن اللون وتغطي رأسها بطرحةٍ سوداء، وتنتعل صندل الخروج الأسود المعهود، وكانت الأخت ترتدي الفستان الوحيد الذي تذهب به إلى البوتيك وتلف شعرها في إشاربٍ ملون لتعطي الانطباع بأنها محجبة، أما الأب فظل جالسًا في نهاية القاعة، جزعًا مهدمًا يتمتم الصلوات والدعوات، محتفظًا بالمسافة التي حرص عليها دائمًا بينه وبين ابنه، وطالما أثارت ضيق الابن وتساؤله عن حقيقة عواطف الأب، لكنها الآن لقيت رضاه.

تلفَّت شرف حوله بحرج عندما رفعت أمه منديلًا تجفف به دموعها، وطلب منها في غضب أن تكفَّ عن البكاء، ثم سألها إن كانت قد وجدت محاميًا؟ فأجابت بالإيجاب، جففت دموعها، وعندئذٍ شرع في البكاء وهو يشرح لها ما يتعرض له من مهانة، وكيف أن إرسال

الخطابات لا يُسمح به للسجين إلا بعد مرور أسبوعَين على تشريفه، وكيف حاول مع ذلك الكتابة إليها. المطلوب: الانتقال إلى عنبر الملكيين وما يستتبع ذلك من لوازم (ملابس وطعام ومزيد من السجائر).

تفجرت دموع الأم من جديد، وظلت تتطلع إليه وهي تبكي في صمت، فتشاغل عنها بالفرجة، واتجهت أنظاره مع الجميع إلى حشد من المحامين بأروابهم السوداء ولجوا القاعة في صحبة رجلٍ قصير القامة في ملابسَ أنيقة، تعرَّف شرف في الحال على بذلة من انتاج «إيف سان لوران»، وحذاء من طراز «بالي»، ونظارةٍ طبية ذات إطار من طراز «كارتييه» يحتل مساحةً كبيرة من الوجه، كان شعر الرجل مصففًا في عناية وشاربه محفوفًا على شكل خط فوق الشفتين، ويتحرك بطريقةٍ متخشبة، وهو يبتسم بصورةٍ مستمرة، كمن اعتاد الوقوف أمام كاميرات الميديا.

تعرَّف شرف أيضًا على شحوب من نوعٍ مختلف؛ فإلى جوار الرجل المتخشب سارت امرأةٌ أطول منه، ذات بشرةٍ بيضاء موردة، ترتدي بلوزةً سماوية اللون بكمَّين قصيرَين للغاية ينتهيان تحت الكتف مباشرة فيكشفان عن ذراعَين ريانتين، وأسفلها جوب فضفاض أزرق اللون، كانت تضع نظارةً شمسيةً داكنة، لم تتضح هويتها ولا معالم وجهها الذي أحاطت به هالة من الشعر الأسود الكثيف استقرت فوق كتفَيها، إلى أن خلعتها لتكشف عن عينين سوداوَين حزينتَين، تحيط بهما تجاعيدُ خفيفة، وفم صغير رقيق الشفتين. واعتبر أشرف نفسه سعيد الحظ عندما أحضر لها الحراس مقعدًا وضعوه إلى جانب النافذة المواجهة له ليخففوا عنها من الحرارة، فجلست محافظة على انتصاب قامتها واضعة ساقًا فوق الأخرى، كاشفة عن انسيابهما وامتلاء ربلتَيهما.

الدولة المتهمة بالتراخي والرخاوة أبدت درجةً عالية من سرعة الأداء بواسطة ممثلها الذي تصدَّر القاعة، فتتابعت القضايا في سرعة البرق، لدرجة أن عم فوزي لم يدرك أن قضيته نُظرت، إلا عندما سمع نبأ التأجيل في نهاية الجلسة. أما شرف فقد تمكن من التقاط اسمه وهتف: أفندم. رأى شخصًا يتقدم إلى المنصة ويخاطب كاتب الجلسة في عجلة فيسجل الأخير كلماته ثم يهمس للقاضي بشيءٍ ما. هزَّ القاضي رأسه موافقًا وهمس بدوره للكاتب، همس الكاتب للمحامي فعاد إلى مكانه بين الجالسين بينما نادى حاجب الجلسة على متهمٍ آخر.

شرح له صلصة هامسًا: الظاهر المحامي بتاعك مجاش وبعت واحد بداله.

سأله: وبعدين؟

قال: ولا قبلين. حتتأجل.

التجأ القاضي إلى غرفته بعد ساعة قضاها شرف في تأمل ساقَي رفيقة الرجل المتخشب. وبعد حوالي نصف ساعة خرج الحاجب ونادى على أم قويق فأخرجوها من القفص واقتادوها إلى الغرفة ... عادت بعد عشر دقائق دون أن يبدو شيء على وجهها. ثم نودي على ثابت محفوظ، فتقدم الرجل المتخشب من الغرفة يتبعه مرافقوه من المحامين.

استغرق الإنترفيو مع القاضي قرابة الساعة، كان صلصة لا يكف خلالها عن الحركة في أرجاء القفص، ينصت للأحاديث الجارية بين المتهمين وأقاربهم ويستفسر عن القضايا المنظورة ويدلي بآرائه في الأحكام المتوقعة ويلحُّ على معارفه كي يحضروا له دواء توسيفان المضاد للسعال، آخِذًا نفسه بين الحين والآخر خلف مؤخرة المرأة ذات الشعر الملون. عن هذا الطريق عرف شرف أن الرجل المتخشب من كبار موظفي الحكومة ويرأس الهيئة التي تتولى توزيع الأسمنت على التجار، وأنه من الذين وُسِّع عليهم في الرزق؛ إذ وُجد معه عند القبض عليه مليونين وربع مليون جنيه نقدًا، ومع ذلك خرج من غرفة المداولة عابسًا. وفوجئ سكان القفص بانضمامه إليهم فأفسحوا له مكانًا وتراجعوا بعيدًا في احترام، وتقدمت رفيقته من القضبان التي تعلق بها بيديه الاثنتين (كاشفًا لعينَي شرف اليقظتين عن ساعة ذهبية من طراز «رولكس») ووقفت تتطلع إليه (بعد أن وضعت نظارتها المعتمة كي لا تكشف عن حقيقة مشاعرها) بينما انهمك في حديثٍ هامس مع محاميه.

كان قاتل أخته قد اقتيد إلى غرفة المداولة وخرج بعد دقائق، وقبل أن يبلغ القفص تصاعدت الزغاريد. وأحاط به أقاربه وجُلُّهم بالملابس الريفية، ونشط بينهم عامل البوفيه الذي أحضر صندوقًا كاملًا من الكوكاكولا وضعه قرب المنصة، قاد الحراس صالح إلى القفص، وما إن دخل حتى اتضحت التفاصيل: حكم القاضي عليه (أو له كما تبين) بسنة مع وقف التنفيذ.

أحدث النبأ تأثير السحر على القتلة، بما فيهم شرف، لما كشف عنه من احتفاءٍ بالغ بقيمة الشرف، فلم يعبئوا بتأجيل قضاياهم لمدة ٤٥ يومًا أخرى، وغادروا القفص إلى قاعة الانتظار في معنوياتٍ مرتفعة، فيما عدا الدكتور ثابت الذي كان واجمًا، ولم يخفف من وجومه عرض الإستربتيز الذي كان في انتظارهم عندما صعدوا إلى سيارة الشرطة، والذي قدمه راكب يرتدي ملابس السجن المقيَّفة، فقد وقف فجأة وفك رباط بنطلونه وتركه يهبط حتى قدمَيه وتبعه بالكيلوت كاشفًا عورته ثم أقعى القرفصاء، معطيًا مؤخرته لضيف الشرف، ومد يده إليها بلفافةٍ صغيرة من البلاستيك، وبحركةٍ سريعة دسها إلى آخرها في

استه، ثم اعتدل واقفًا وأعاد ملابسه إلى وضعها دون أن يعبأ بنظرات الآخرين أو بنظرات الحارس الذي تابع كل ذلك من نافذة الباب الخلفي دون اكتراث.

لم تكن المؤخرة العارية الوحيدة التي قُدر لشرف أن يراها في يومه. فعندما بلغوا السجن وتم تفتيشهم للتأكد من أن الممنوعات التي أحضروها مخبأة في أماكنَ أمينة، احتجزوهم في قاعة الاستقبال دون ما إيضاح؛ كي لا يعبروا الفناء الذي حُجز لطقس العروسة. ومن كوةٍ صغيرة مسوَّرة رأى شرف مشهدًا سينمائيًّا: مائدة مغطاة بمفرش أحمر اللون يجلس خلفها ثلاثة ضباط مهيبو المنظر، أخفوا عيونهم بالنظارات السوداء المعهودة، وأمامهم هيكلٌ خشبي غريب عبارة عن قائم منفرج الساقين ينتهي من أعلى بذراعين تتوسطهما دائرةٌ مفرغة، إلى جوار الهيكل الصليبي وقف أحد السجناء بين اثنين من الحراس شارعًا في عرض ستربتيز، وسمع شرف سجينًا خلفه يقول: ده السوهاجي بتاع اللحمة.

كان يشير إلى ما وقع منذ أيام في طابق النفوس (جرائم القتل) عندما احتجَّ أحد المساجين على قطعة الجلد التي وجدها في اليمك وقذف بها في وجه الصول معلنًا، للعجب، تمسكه بحقوقه التي تنصُّ عليها لائحة مصلحة السجون؛ وهي قطعتان من اللحم الأحمر (لا الجلد) في الأسبوع (لا في اليوم).

تفرَّج شرف على عقوبة التمرد التي تنص عليها لائحة مصلحة السجون: تقدم شخص في ملابس مدنية فأعطى حقيبته لحارس بعد أن أخذ منها مقياس الضغط، فثبته إلى ذراع المتمرد وقاس ضغطه، ثم كشف على صدره وظهره بالسماعة، وتناول حقيبته ومضى إلى المأمور فتحدث معه قليلًا، ثم جلس إلى جوار علي بلبل. وأشار المأمور بيده للحراس فأشاروا بدورهم للسجين الذي ارتمى فوق الصليب الخشبي بحيث استقرت رأسه وسط الدائرة وذراعاه فوق الذراعَين الخشبيَّين، وتجلت مؤخرته للناظرين في عريها التام، وبعد أن ربطوه إلى العروسة الخشبية بسيور جلدية تبادل حارسان ضربه لمدة ربع ساعة بشومة طولها نصف متر، تنتهي في أحد طرفيها بعدة قطع من الجلد لا جلدةٍ واحدة.

صعدوا أخيرًا إلى زنازينهم وهم لا يكتمون إعجابهم بصلابة المجلود الذي لم يفه بآهةٍ واحدة، نجمان آخران نازعاه بطولة اللسانيات: أم شرف (بفضل المحشي والملوخية والدجاج المحمر والباذنجان المخلل والبقلاوة والعنب والكانتالوب، التي وزعها على الزنزانة، بأريحية بررها لنفسه بأنها تتلف لو بقيت للغد) وصلصة (بفضل جعبته التي ضمت إلى جانب زجاجة «التوسيفان» دواء السعال ذي المنافع الجمة، التي تقاسمها مع بلحة؛ ما جمعه من معلومات عن نجوم القفص).

فأم قويق قطعت زوجها بالسكين إلى أجزاء صغيرة، وكان المرحوم سباكًا ذهب إلى الخليج وتركها تقوم بتربية الأولاد، وبعد غيبة عدة سنوات عاد ليستمتع بنتائج كدحه، فطردها هي والأولاد الثلاثة وتزوج من فتاةٍ صغيرة، والمرأة المحجبة الوقور صاحبة عمارة تتميز بالوعي الاجتماعي؛ إذ عنيت بالمساهمة في حل مشكلة الإسكان، فضاعفت طوابق عمارتها العشرين دون أن تعبأ بقواعد البناء الغبية؛ مما أدى إلى سقوطها في أول هزة للزلزال. أما السمراء الملونة فمؤخرتها طرية أكثر مما يجب لأن (طبقًا لصلصة) المؤخرة الممتازة هي الصلبة المتماسكة، وهي خبرة أكدها الزعيم بعد أن أخذ نصيبه من التوسيفان.

استمع الجميع إلى حديث المؤخرات بعيون لامعة، فيما عدا واحدًا انخرط بالبكاء. لم يكن عم فوزي وإنما كهلٌ أبيض شعر الرأس، امتلأ وجهه بالحفر والأخاديد، انضم إليهم بالأمس فاحتل مكان فلاح كفر الشيخ (الذي خرج بكفالة)، إلى جوار دلو البول، دون أن يتأفف. وظهر السبب بعد قليل؛ فالمهنة هي الصرف الصحي بالتحديد، والاسم بالنتيجة: حسن بكبورت.

هددت دموعه بتغيير جو السهرة، فهب المجربون إلى العمل. هتف به صنقر: صلِّ على النبي، وناوله صبري كوب ماء ونصف ليمونة، وأشعل له سوزوكي سيجارة كاملة. وكان عليهم أن يدفعوا الثمن.

تحولت دموع عم حسن إلى نهنهات سمحت له بالتقاط أنفاس السيجارة والتعبير عن نفسه: فهو يمارس مهنة الخراء منذ ٢٤ سنة، ومع ذلك لم يتجاوز مرتبه ٩٢ جنيهًا.

– عندي سبعة في المدارس، ده حتى ما يكفيهومش عيش. طب ويعملوا إيه الوقت؟

على العكس مما تبادر إلى أذهانهم، فإن عم حسن لم يدخل السجن بسبب محاولة تصحيح الوضع، وإنما لأن صبيًّا مجهولًا سقط في بالوعة منزوعة الغطاء ومات.

– هو أنا اللي شلت الغطا؟ ميروحوا يدوَّروا على اللي شالها.

استخلص الحكمة: إحنا محكوم علينا بأكل الخرا من ساعة متولدنا، ولو محدش وقع في البلاعة إحنا اللي نموت فيها. الحكومة مبتديناش معدات كفاية أو ملابس وقاية، والنتيجة زي ما انت شايف: السكر والضغط والهرش.

شفع حديثه بالهرش أمام الجميع. على العكس منه لم يكن شرف يجرؤ على الهرش علانية، رغم أنه كان يتوق إلى ذلك بسبب ما في جعبته. وحال القيظ بينه وبين ما فعله مرة في الفجر، عندما استغل انخفاض درجة الحرارة، فبسط بطانية فوقه بحيث غطت وجهه وكل جسمه وثبتها خلف مؤخرة رأسه ثم رفع ركبتيه إلى أعلى وجذب الطرف الآخر من

البطانية أسفل قدميه فصارت مشدودة كالوتر وتوفرت أسفلها مساحة واسعة للتنفس والهرش دون أن يلحظ أحد.

راود نفسه على الصبر حتى ينعس الآخرون. وكان هو أول من راح في سبات استيقظ منه فجأة قرب الفجر على أصوات هرش حادة.

كان ينام بين صبري وسامي عازر، وهو عامل مصبغة في الأربعين، سبق عم حسن إلى الالتحاق بالزنزانة، فصار الآن يفصل بينه وبين شرف، دون أن يحرك الأخير رأسه استطاع أن يتبين صبري راقدًا على ظهره، وذراعيه إلى جانبيه، غارقًا في نوم عميق، وكما كان سامي عازر بالنهار منطويًا على نفسه، عازفًا عن الكلام، دافنًا رأسه في كتابٍ صغير يخرجه من كيسه ويفتحه على صفحة بعينها لا تتغير، رقد الآن منطويًا على نفسه، في وضع الجنين، دافنًا رأسه بين ذراعَيه.

استمر صوت الحك المتواصل، فرفع شرف رأسه ببطء وتطلع حوله، كان الجميع نيامًا والسيمفونية المعهودة تتردد بقيادة بطشة، وبين المقاطع كانت هناك لحظات توقف تسمح بالتقاط موسيقى من نوعٍ آخر. وبفضل شعاع من الضوء نفذ من كوة الزنزانة، قادمًا من مصابيح السور الخارجي، ميز يد عم حسن وهي تتحرك بعنف بين فخذيه. ألقى نظرةً أخرى حوله أكدت له أن الآخرين غارقون في النوم. عندئذٍ قرَّر أن يستغل الغطاء الصوتي المتاح، ففك سرواله في حذر وهو يعد بسرعة ملفًا مكثفًا من صور اليوم، تتصدره ساقا رفيقة الدكتور ثابت.

لم يستغرق منه الأمر كثيرًا، على عكس عم حسن الذي بدا أنه يواجه صعوباتٍ جمة؛ مما مكن بطشة من اكتشاف ما يجري.

كان النوبتجي بحكم تجربته الطويلة قادرًا على التمييز بين أنواع الهرش. هكذا أرغم عم حسن في الصباح على أن يتعرى، فكشف عن عورةٍ حمراء ملتهبة، وآثار دماء بين الفخذَين. وعلى الفور أسرع بطشة إلى الحارس الذي جاء برفقة تومرجي العيادة، وهو حارسٌ متنكر في بالطو فقد لونه الأبيض من زمان، أمرهم جميعًا أن يحملوا نمرهم وحاجياتهم (فيما عدا المأكولات والسجاير) ويتبعوه إلى العيادة.

كعادة الرؤساء لم يتبرع بطشة بتفسير ما يجري، ورفض الإجابة على أسئلة رعاياه، صنقر هو الذي أفضى ببعض المعلومات: عم حسن بكبورت مصاب بالجرب الذي تنتقل عدواه بسرعةٍ خاطفة؛ ولهذا لا مفر من عزله في المستشفى.

أسفر صنقر أيضًا عن مشاعر القيادة: أنا خايف يكون عدانا، أصل العلاج صعب، لازم العيان يستحمى بالليف الخشن والمية السخنة، ويدهن مرهم يشتريه على حسابه.

كانت العيادة في الطابق الأرضي من مبنًى مستقل يتألف من طابقَين، خصص الأعلى للمستشفى. وكان الممر المؤدي إلى غرفة الطبيب مزدحمًا بطابور من مسجونين ينتظرون الفحص، بالإضافة إلى أجسادٍ ذابلةٍ ملقاة على الأرض، تتصاعد منها رائحةٌ عفنة، وتتناثر حولها قطع الشاش الملوثة بالدم.

لم يكن السبب هو كثرة الزبائن وإنما خطأ في المصطلح. ذلك أن المستشفى الواقع في الطابق الأعلى لم يكن مخصصًا للمرضى وإنما للمعافين: مجموعة من أصحاب اللحى الذين حاولوا اغتيال وزير الداخلية يتعافون من أثر اعترافاتهم. حوتٌ كبير، متزوج حديثًا، ينتظر المحاكمة ويهرش طول الوقت ليرى زوجته في زيارة خاصة (كي تهرش له). واحد فقط استثناء من القاعدة، اتهم بسرقة سيارة، وعندما رفض الاعتراف حقنه ضابط الشرطة في ساقه بمزيج من محتويات المرحاض، فأصيبت بالغرغرينا.

عندما يئس الجميع من مجيء الطبيب في يومه، التجأ التومرجي للضابط علي بلبل، الذي التجأ إلى وكيل السجن، الذي تلفن للمأمور في منزله (حيث كان ملتجئًا إلى زوجته الصغيرة). وفي تصرفٍ فريد نادرًا ما تعهده البيروقراطية، أمر المأمور بالإجراء الضروري إلى أن يأتي الطبيب في الغد.

قاد الحراس المجموعة (تاركين عم حسن في المستشفى لا المنتجع) إلى الحمام العمومي (الذي يترددون عليه مرة في الأسبوع من أجل المكاشفة الجماعية). تركوا حاجياتهم في الشمس وخلعوا ملابسهم كلها ووضعت في كوم واحد على جانب، واندفعوا جريًا تحت الدش الساخن وهم يهللون كالأطفال، فيما عدا واحدًا.

زعق الحارس في سامي عازر الذي ظل واقفًا بكامل ملابسه في مدخل الحمام: اقلع يا مسجون.

لم يتحرك سامي وإنما ظل واقفًا وكيسه في يده، فتولى بطشة الأمر.

تقدم منه وهو يقول: معلهش يا حضرة الصول، أصله مينكشفش على رجالة.

ولسامي قال مهدهدًا: اقلع يا سامي. متخفش، محدش حيعملك حاجة. حط الكيس في الشمس واقلع.

تشبث سامي بكيسه وتلفَّت حوله بنظراتٍ مجنونة كأنما يبحث عن منفذ.

همس له بطشة: إن مقلعتش حيفتكروك عيان ويودوك الحجر الصحي. إنت كنت نايم جنبه.

انصاع سامي ففتح الكيس وتناول كتابه، احتفظ به في يده اليسرى ثم أغلق الكيس وخطا إلى الخارج فوضعه إلى جانب بقية الأكياس.

قال له صنقر مهدهدًا: دا اللي انت خايف عليه؟ متخفش. خده معاك تحت الدش.

صاح الحارس: وبعدين بقى؟ هات ده.

وتقدم منه مادًّا يده ليختطف الكتاب. أبعد سامي يده بعيدًا فسقط منه. وانفرجت صفحاته عن صورةٍ صغيرةٍ ملونة تدحرجت على الأرض.

انحنى الحارس قبل أن يتمكن سامي من منعه والتقط الكتاب والصورة، تعرَّف في الكتاب على الإنجيل الذي يعرفه لا بحكم دينه وإنما بحكم عمله. ولهذا لم يفُه بكلمة كي لا يجرح المشاعر المقدسة. لكن الصورة كان لها شأنٌ آخر.

قال وهو يرفعها أمام عينيه: الله! دي زي القمر أهيه، أمال مش عاوز تقلع ليه؟

قال سامي بصوتٍ واهن: اديني الصورة.

قال الحارس: خليها معاي شوية حاديهالك لما تخلص حمام.

استسلم سامي وخلع ملابسه ودخل تحت الدش الساخن، وبعد خمس دقائق نفخ الحارس في صفارته معلنًا انتهاء الحمام. استعاد سامي كتابه وصورته، وتسلم الجميع ملابس ونمرًا جديدة، وعادوا إلى زنزانتهم ليبدأ تنفيذ الشق الثاني من إجراء المأمور؛ وهو الحبس. فلم يغادروها إلا قبل توزيع العشاء بقليل، ولمدة عشر دقائق ذهبوا خلالها إلى دورة المياه، التي أخليت تمامًا من أجلهم كي لا يختلطوا بأحد.

على العشاء كان الموقف واحتمالاته (مدة الحبس) ونتائجه المباشرة (تخفيف الزحام) هو الموضوع السائد والذي كشف لأشرف حقائق جديدة عن عالم ما وراء الأسوار؛ فالمال الذي ظن أنه تحرر من سطوته بمجرد عبور العتبة الأولى، يشتري هنا كل شيء تقريبًا: بخمسة جنيهات يترك الحارس باب الزنزانة مفتوحًا طول النهار، بخمسين يحولك طبيب السجن إلى مستشفى خارجي لتقضي عطلة نهاية الأسبوع أو الموسم. بمائة يتم تهريب أي ممنوعات ابتداء من الويسكي حتى الحشيش. بعدة آلاف تنال عفوًا صحيًّا أو يقرر الطبيب أنك مجنون لتُحال إلى مستشفى الأمراض العقلية، كخطوة أولى للانتقال نهائيًّا إلى مجتمع العقلاء.

كسر بطشة الدائرة اللسانية بأن أومأ إلى سامي قائلًا: فرجنا بأه على الصورة.

رد هذا وهو يغمس لقمة في طبقه: ما تستهلش.

قال صنقر: برضه نشوفها.

مد يده إلى كيس سامي ونظر الأخير إلى يده لكنه لم ينبس بحرف ولم يعترض.

قال بطشة: دور في الكتاب.

أخرج صنقر الكتاب المقدس وفر صفحاته حتى عثر على الصورة فأخرجها وعرضها للضوء ثم قدمها لرئيسه الذي صفر بشفتَيه: يا بن الهرمة، حتة مرة.

تخاطف الجميع الصورة، فطالعهم سامي بوجهٍ متجهم تعلوه نظارةٌ طبيةٌ قاتمة، وقامةٍ قصيرة بالغة النحافة يعلوها قميص أبيض شُمِّرت أكمامه، وسيجارة في اليد. لم تكن صورته هي التي أثارتهم وإنما الحسناء الممتلئة التي وقفت إلى جواره في ثوب زفافٍ أبيض ذي فتحةٍ عريضة تكشف عن منبت ثدييها.

تابع سامي انتقال زوجته من شخص لآخر دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.

سأله سوزوكي: إنت متجوز من إمتى؟

أجاب: من حداشر سنة.

السؤال التالي جاء من سامبو بحكم تخصصه: إنت قتلتها، صحيح؟

لزم سامي الصمت وهو يحدق في الأرض ثم قال: الشيطان شاطر.

– لازم مشيها كان وحش.

بُهت سامي ورفع رأسه مواجهًا سامبو. وتوقع الجميع معركة، لكن سامي كان يفكر. هزَّ رأسه وقال: كانت بتخرج كتير بعد ما أروح الشغل؛ أصل إحنا مجبناش ولاد.

أدرك بعد لحظة انتفاء العلاقة السببية بين كثرة الخروج وعدم الإنجاب فسارع بالتصحيح: يوم الحادثة كنت قايم من النوم فقعدت تعايرني إني مبصرفش عليها كويس ومبدوَّرش على شغلانة أحسن أو أسافر، وإني مبخلفش، قمنا اتخانقنا، مسكت في رقبتها، ومدريتش بنفسي إلا وأنا في الشغل. لما روَّحت المغرب لقيتها ميتة، فبلغت البوليس.

مدَّ يده إلى إبطه وأخذ يهرش، فتبادل الآخرون النظرات، هدأت هواجسهم عندما أبعد يده. وجاء دور شرف الذي شعر بقرصة في جنبه، تجاهل الرغبة في حك مكان القرصة كي لا يلفت الاهتمام. وانتظر وهو يجز على أسنانه ويتطلع إلى الآخرين. كانت نشأته على حافة المعادي قد وسعت مداركه، فأصبح قادرًا على التمييز بين أحوال القرص وتجلياته (من قبيل القرصة الكاذبة التي يشعر فيها المرء بأعراض القرصة دون أن تحدث). هكذا اطمأن عندما انتقلت القرصة إلى كاحله؛ فهو مكان مفضل لدى البراغيث.

استمر الحبس طيلة اليوم التالي دون أن يظهر الطبيب، وحُرم سامي من زيارة القسيس الذي يأتي كل أسبوع في سيارة مرسيدس للاطمئنان على أرواح رعاياه. وارتفعت درجة حرارة الغرفة فتخفف النزلاء من ملابسهم حتى أوشكوا على التعري، فيما عدا شرف الذي خجل من الكشف عن الدهون المحيطة بثدييه. ودب الشجار بين سامبو وصنقر، وبين

صلصة وبلحة، وبين عم فوزي وجابر، وأوشك سوزوكي أن يمسك في رقبة بطشة عندما لم يجد صابونته، وبدا بطشة نفسه مهتاجًا لا يستقر في مكان لأنه لم يعرف الحبس منذ دخل السجن، كان يهرع إلى الباب بين الفينة والأخرى فيقفز في الهواء ويمسك بقضبان الشراعة بأطراف أصابعه ثم يرفع جسده إلى أعلى ثانيًا ساقيه ويستدير بحيث يتكور في الفتحة مستندًا بساقيه إلى الحائط، ويبدأ النداء على الزنازين الأخرى والحراس متسائلًا عن الأخبار.

هكذا وصلهم نبأ الشجار الذي نشب في عنبر الملكية بين واحد من السُّنية وسجين مسيحي؛ بسبب تعليق أبداه الأول على ارتداء الثاني للشورت. وسرت إشاعة بأن السُّنية قرروا قتل جميع المسيحيين، فتجمَّع هؤلاء في فناء العنبر وهم في حالة فزع ورفضوا دخول الزنازين.

شحب وجه سامي عندما سمع بالأنباء فقال له: بطشة وهو يبتسم بخبث: إنت حتلاقيها منين ولا منين يا سامي!

تدخل جابر فجأة: متخفش يا سامي، طول ما انت معانا محدش يقدر يقرب منك.

لم يهدأ بال سامي إذ أخذ يرتعش. وعرض عليه سوزوكي نصف سيجارة ثم قال: أهو انت لازمك برشامة، تخليك فل، ولا يهمك، دواك عندي.

فتحداه بطشة: لأ عندي أنا يا سوزوكي.

رغم الصليب الصغير المدقوق في باطن رسغ اليد اليمنى لعم فوزي، فإنه لم يعر الأمر اهتمامًا؛ إذ كان منصرفًا بكل كيانه إلى الألعاب: قطع شطرنج من لباب الخبز، وعرائس من القماش على صورة ابنة أخته يجمع لها كل ما تقع عليه يده من فضلات من خرق وقش وورق صحف وعلب كرتون.

انتهت الأزمة الطائفية قبل التمام؛ إذ نفى أمير السُّنية للمأمور إشاعة المذبحة، فعاد المسيحيون إلى زنازينهم، وهدأ روع سامي قليلًا. ومع ذلك نشط سوق البرشام بعد العشاء وهبطت المنافسة بين بطشة وسوزوكي بالأسعار.

عند ظهر اليوم الثالث أخذوهم إلى الطبيب الذي فحص أصابعهم ثم ألقى نظرةً عجلى على عوراتهم وأصدر حكمه بالبراءة.

في طريق العودة إلى الزنزانة تداولت القيادة في الأمر وقال صنقر مستوحيًا تجاربه: أنا خايف نكون اتعدينا بصحيح!

صاح بطشة الذي راوده نفس الشك: أما ابن قحبة صحيح! الراجل قالك مفيش حد اتعدى.

قال صنقر: ولو كان كداب؟

خبط بطشة كفًّا بكف: سبحان الله! ويكدب، ليه؟

قال صنقر: عشان سمعة السجن.

تدبر بطشة الأمر طويلًا بحثًا عن ثغرة في تحليل معاونه حتى وجدها أخيرًا في شخص عامل الصرف الصحي: ويعمل ايه في البكبورت؟ حيقول كمان، إنه مش عيان؟

– لا. يقول إن عنده هرش عادي.

نوع من أنواع الهرش العديدة.

٦

أخذني الحارس مع عم فوزي إلى المطبخ لنحل محل مسجونَين خرجا إلى محكمة الاستئناف، كان هناك أربعة مساجين من الذين صدرت عليهم أحكامٌ متفاوتة، وحارس وأسطى بدين في جلباب بلدي، عهد إلينا الأسطى بتنظيف جدران المراجل وأواني الطهي الضخمة ودلاء التوزيع ثم تنظيف الأرض، وأثناء ذلك وضع أحدهم كمياتٍ كبيرة من نبات الرجلة في أحواض الغسيل ثم رفعها ونقلها إلى طاولة خشبية عريضة وما زال الطين يسيل منها. رأيته يقطعها بسرعة إلى أجزاء صغيرة يزيحها بالسكين إلى حافة الطاولة لتسقط في دلو، وتولى سجينٌ آخر رفع الدلو وأفرغ محتوياته في مرجلٍ كبير يتصاعد منه البخار فوق شعلةٍ قوية تغذيها أنبوبة غاز.

انصرفنا إلى تفريغ محتويات عدة أجولة من الفول الناشف في دلاء وُضعت تحت الماء. وعكف آخران على تفريغ جوالين من الأرز في إناءٍ كبير وضعاه تحت حنفية المياه، وبعد أن قاما بتقليبه عدة مرات أفرغا مياهه وأضافاه إلى مرجل الرجلة دون أن يعنيا بتنقيته من الشوائب.

أعد الأسطى برادًا من الشاي فوق نارٍ صغيرة، ووزع علينا أكوابه، ثم انتحى جانبًا هو والحارس وجلسا يشربان الشاي ويدخنان وهما يثرثران. ظهر سجينان بعد قليل يحملان عجلًا كبيرًا مذبوحًا تتساقط منه الدماء، فألقيا به فوق طاولةٍ خشبية وانصرفا، نهض الأسطى فاستبدل ملابسه بإحدى بدل السجن وشمر كمَّيه، ثم تناول سكينًا كبيرة وتقدم من الذبيحة بعد أن استدعاني وطلب مني أن أمسك بها.

خلص اللحم من عظام السيقان وانتزع الكبد والكلوتين والقلب ووضعهم جانبًا، ثم أضاف إليهم قطعًا من الفخذين والكتفين، وكون كومًا ثانيًا من اللحم الخالص، وسرعان

ما تحول العجل إلى شبه هيكلٍ عظمي فقطعه إلى أجزاء صغيرة انتقى منها قطع الدهن والجلد وألقى بها في دلو حمله عم فوزي وألقى به في مرجل الرجلة.

وجَّه الأسطى اهتمامه بعد ذلك إلى الكوم الأول فانتقى أفضل أجزائه ووضعها في كيس بلاستيك وعهد إلى أحد المساجين بأن يحملها إلى نوبتجي سيادة المأمور، ثم ألقى بالباقي في حلة متوسطة الحجم وطلب مني أنا وفوزي أن نقشر له كميةً كبيرة من البصل، وسخر منا عندما انهمرت دموعنا.

مسحت دموعي ومخاط أنفي في كم سترتي وقلت له: أنا عمري ما قشرت بصل.

لوى شفته المتهدِّلة في احتقار: وعامل راجل؟

انتهينا من تقشير البصل فطلب منا أن نغسله جيدًا وانصرف إلى توزيع كوم اللحم الثاني في أكياس بلاستيكية مختلفة الأحجام. ألقينا البصل في أحد الأحواض ودعكناه جيدًا تحت الماء، ثم تعاونا أنا وفوزي في تقطيعه إلى أجزاء دقيقة وأضفنا إليه حفنة من الملح وأخرى من الفلفل الأسود وثالثة من البهار. ثم أسقطنا الخليط في حلة الكبد، وقلَّب الأسطى المحتويات بمغرفة كبيرة ثم وضع الحلة فوق شعلةٍ صغيرة.

قلت له: بقى الحلة دي حتكفي المساجين؟

أجابني هازئًا: إنت فاكرها عشانكو؟

تناول أحد الأكياس وأعطاها لحارس الفرن الذي حمل إليه كومًا من أرغفة الخبز الطازجة المعتنى بها والتي تختلف تمامًا عن كتل العجين التي توزع علينا تحت هذا الاسم. وبعد قليل جاء حارس المستشفى وأخرج من جيوبه كومًا من البيض المسلوق أعطاه للأسطى الذي أعطاه كيسًا من اللحم مقابله. وتلاه أمين المخازن الذي أحضر كيسًا من العجوة وآخر من الحلاوة الطحينية، وكان حارس المطبخ يتابع من مقعده باهتمام هذه العمليات.

تتابع مجيء حراس السجن المختلفين، وكان حراس العنابر والعاملون في المكاتب يقدمون للأسطى السجائر، بينما كان البعض لا يقدم شيئًا مثل حراس المغسلة وورشتي النجارة والسجاد، ولم يكن من الصعب عليَّ أن أتصور الخدمات التي سيقدمونها لأسطى المطبخ وحارسه مقابل ما يأخذونه من لحم. واكتشفت أنه جنَّب أيضًا قدرًا من الفول نظفه بعناية ثم وضعه في قدرة تدميس كبيرة أقامها فوق شعلةٍ خافتة.

أذن المؤذن لصلاة العصر فمضى الأسطى إلى المسجد وعند عودته عكف على التقاط قطع اللحم والعظم من حساء الرجلة ووضعها جانبًا، أزلت آثار الدماء من فوق الطاولة

والأرض ثم مسحتهما جيدًا. وانضم إليَّ عم فوزي ووقفنا إلى جوار الأسطى وعيوننا على كوم اللحم المسلوق. ناداه الحارس فمضى إلى باب المطبخ واشتبك معه في الحديث هو وحارسٌ آخر، ثم طلب من عم فوزي أن يناوله أحد الأكياس، وبقيت بمفردي إلى جوار كوم اللحم.

تلفتُّ حولي في حذر، كان المساجين الأربعة منهمكين في تعبئة الدلاء بالحساء، مددت يدي في خفة والتقطت أقرب قطعة إليَّ ودسستها في صدري وحركتها حتى استقرت فوق دكة السروال.

عاد الأسطى ليستأنف تقسيم اللحم إلى أكوام متباينة الحجم، وأعطى لكلٍّ منا قطعة في رغيف خبز رشنا فوقها الملح والفلفل. تذكرت أمي عندما تطهو دجاجة وتخصني وحدي دونًا عن أختيَّ بالكبدة والقلب وبقية الأحشاء بعد أن ترشها بالملح والفلفل.

أتيت على الرغيف بسرعة، كانت أول مرة أذوق فيها اللحم منذ يوم المحكمة. وكنت ما أزال جائعًا. وانتظرت أن يعطينا الأسطى شيئًا لكنه لم يفعل. لم يفارق طاولة اللحم؛ ولهذا لم أتمكن من اختلاس قطعةٍ ثانية ولا من التهام القطعة التي خبأتها في ملابسي.

عدنا إلى العنبر قبل موعد التمام بقليل. كنت جوعان لكن نفسي عافت حساء الرجلة. ولم أتمكن من التهام قطعة اللحم؛ فلو أبرزتها سيدركون كيف حصلت عليها، ولا يُستبعد أن يبلغ بطشة عني. وقررت أن أنتظر حتى ينام الجميع لآكلها.

لاحظت أن بطشة في حالة انسجام. وكان يرميني بنظراتٍ غامضة بين الحين والآخر. وروى لنا وهو يستنشق مسحوقه الأبيض نكتة فحواها أن اثنين من إياهم رغبا في الشفاء فذهبا إلى الطبيب، وبعد شهر التقيا فوجد أحدهما الآخر يُقلِّم عودًا من القصب ويقشره ثم يقطعه قطعًا صغيرة متساوية في حجم الأصبع.

خبط صنقر على فخذيه منفجرًا في الضحك واستعد الآخرون لأن يحذوا حذوه لكن بطشة صرخ في معاونه: لسه يا بن القحبة، النكتة مخلصتش.

كفَّ صنقر عن الضحك وانتظر.

دعك أعلى صدره بأصبعه الوسطى من اليمين إلى اليسار في بطء مستخرجًا فتلةً سوداء طويلة تأملها بإمعان قبل أن يلقي بها جانبًا ويستأنف الحكاية: لقاه بيقشر القصب ويعمله عيدان صغيرة فزعق فيه: الله، مش قلنا حنبطل؟ رد عليه الثاني: أصل أنا ما استريحتش على علاج الدكتور وعاوز أجرب العلاج بالأعشاب.

ارتجت الزنزانة من الضحك وتطلع إلينا بطشة في زهو.

تتابعت النكات وشارك الجميع ما عداي. كنت عاجزًا عن التركيز من الجوع، أفكر في قطعة اللحم وأنتظر الفرصة لالتهامها. وروى سوزوكي نكتة عن أبناء المنوفية أدركت أنها موجهة ضد بطشة الذي وُلد ونشأ في شبين الكوم: واحد منوفي دراعه مقطوع أبوه مات. الناس جم يعزوه، تفتكروا أخد العزا ازاي؟

تطلَّعنا إليه متسائلين، فقال وهو يرمق بطشة بركن عينه: خده على قفاه.

كانت نكتته التالية ضد سامبو: واحد أسود غطيس عنده عشر أولاد سود وفجأة مراته خلفت واحد أبيض، قعد مستغرب. وكان متأكد أنها متعرفش حد. استشار واحد صاحبه، صاحبه سأله: ازاي بينام معاها؟ قال له: زي الناس، قال له: يعني بقك على بقها؟ قال له: أيوه، فضل يسأله عن كل حتة في جسمه. الراجل زهق وزعق فيه: أنا مش عارف إنت عاوز توصل لإيه؟ التاني قال له: عاوز أعرف الحتة اللي خدت منها نور.

شاركنا سامبو الضحك، وقال مجاهد الذي لقبناه بـ «ضاعت القيم»: لو خرجت من هنا حازوَّر باسبور واطلع على بلد عربي.

كنا قد ألفنا تدخلاته المفاجئة التي لا تربطها علاقة ما بالحديث الجاري.

– معدش الوقت غير الأردن. العراق خلص والخليج ميبخدش، وليبيا مش مضمونة، مرة واحدة يروحوا مرحلينك من غير متاخد فلوسك.

روى صلصة قصص المصريين في العراق وفهلوتهم وتحايلهم على الرزق. فعندما يفشل الواحد منهم في إيجاد عمل يقف أمام إدارة الجوازات والبصمة حاملًا منشفة ودلوًا به مياه وصابون ليغسل أيدي الخارجين مقابل دينار للشخص، وأخيرًا زهقت منهم الحكومة فصارت المخابرات تتصيدهم وتشحنهم إلى القاهرة في توابيت.

التفت بلحة إلى مجاهد قائلًا: متروح إسرائيل؟ فيه ناس راحت وبتشتغل هناك حلو. بيدوا الواحد حقه على داير المليم!

قال ضاعت القيم: يا ريت!

تدخل سوزوكي في الحديث: اسمعوا دي ... واحد عايز يتجوز واحدة خام متعرفش حاجة خالص، الناس دلُّوه على واحدة منقبة. اتجوزها. وفي أول ليلة مرضتش تخليه يقرب منها. يهديكي يرضيكي تقول له: عيب وحرام. الليلة الثانية نفس الحكاية. بعد أسبوع زهق. راح لشيخ الجامع وحكى له الحكاية. قال له: طب هاتها الجامع وقت الصلاة في الأودة اللي ورا. جابها. شيخ الجامع قال خطبة حولين ازاي المرة لازم تطيع جوزها وتسمع كلامه ومتتأخرش عن طلباته، وقال إن المجامعة لها مقام كبير جدًّا وثواب عظيم زي

ميكون الواحد قتل يهودي، الاثنين رجعوا بيتهم. وبالليل الراجل قال لمراته يللا نقتل واحد يهودي، وافقته. عجبتها الحكاية فقالت له بعد شوية متيجي نقتل واحد تاني. التاني جاب ثالث لغاية ما الراجل فرهد. الولية دي كانت مكارة. بعد شوية قالت له: بقولك إيه ... متيجي نحرر القدس بالمرة.

ضحكت وأنا أتثاءب، ولم يلبث النعاس أن استولى عليَّ. استيقظت خلال الليل لأتبول ورأيت بطشة يتبادل حديثًا هامسًا مع صنقر وسامبو. استأنفت النوم بعد لحظات ثم انتبهت فجأة على تأوهات وحشرجات بالقرب مني، رأيت الشاب الفلسطيني الذي انضم لنا أخيرًا، واحتل مكان حسن بكبورت، يحرك رأسه يمينًا ويسارًا وقد تجمَّع الزبَد على شفتيه، هززته حتى استيقظ ونهض جالسًا وهو يلهث.

زحفت إلى جردل الماء وملأت له الكوب المعدني فتناول منه رشفتين ثم استأنفنا النوم. واستيقظت مرة أخرى لأرى مشهدًا غريبًا: بطشة واقفًا في منتصف الحجرة، رافعًا ذراعه إلى أعلى وقد أطبقت يده على المصباح الكهربائي. كنت أشبه بالمخدَّر ولم يجلب هذا المشهد أي معنًى لمخي فاستأنفت النوم، وإذا بي أستيقظ فجأة مفزوعًا لأجد شخصًا جاثمًا فوقي وملمس حاد في عنقي، بينما غرقت الغرفة في ظلام حالك. جاءتني رائحة فم عفنة وسمعت صوت بطشة يهمس في أذني: إذا فتحت بقك بكلمة حادبحك. وضغط بشيء حاد على عنقي شعرت أنه حافة مشرط، وامتدت يده إلى ملابسي.

خطر لي أنه يسعى وراء قطعة اللحم التي خبأتها في صدري ففتحت فمي لأعرض استعدادي للتنازل عنها دون قتال، لكني فوجئت به يحاول نزع سروالي، تجمد عقلي من الرعب، وتابعت محاولاته كأني أتفرج على مشهدٍ بعيد عني، وفجأة سطع النور مرة واحدة فطالعني وجه بطشة القبيح فوقي ويده المستقرة على عنقي بنصف الموسى. ابتعدت يده في تردد واعتدل واقفًا فرأيت سوزوكي واقفًا أسفل المصباح الكهربائي يديره بيده المرفوعة إلى أعلى، تدفق سيل من السباب من فم بطشة واندفع نحوه وهو يرفع المشرط في الهواء، لكنه تعثَّر في أحد النائمين الذي هب صارخًا لاعنًا.

استيقظ آخرون وتصاعدت صيحات تطلب الهدوء، لم يعبأ بطشة وهجم من جديد على سوزوكي، لكن بلحة وآخرين حالوا بينهما وأمسكوا بطشة بقوة. ولم يلبث هذا أن أذعن وجلس فوق فرشة بلحة والشتائم والتهديدات تتدفق من فمه.

تقدم سوزوكي من فرشتي وسألني: الكلب دا عورك وللا حاجة؟

تحسست عنقي بأصابعي وقلت: ملحقش.

قال: الحمد لله اني شفته بيفك اللمبة فقلت ناوي على شر.

قلت: إنت أنقذت حياتى وشرفي كمان، الصبح حبلغ الإدارة.

قال: إوعى. دي حاجات متتقالش. مش حيحصل كويس. اسمع يا شرف. السجن ميحبش اللي يروح يشتكي، لا الإدارة ولا المساجين.

وافقته ووعدته بأن ألزم الصمت. وتجاهلني بطشة تمامًا في الصباح كما تجنب الحديث إلى سوزوكي.

انضم إلينا حجاج في طابور النظافة ووجدته قد سمع بما حدث. سألني عن التفاصيل وقال لي إن لبطشة سوابق كثيرة من هذا النوع. سألته عما إذا كان من الأفضل أن أشتكي للإدارة، فنصحني بألا أفعل وأن أعتبر الموضوع منتهيًا.

تصورت فعلًا أن الموضوع انتهى عند هذا الحد، لكني فوجئت بعد يومين أثناء تنظيف الفناء الخارجي بأحد الحراس يندفع جريًا إلى داخل العنبر. اقتربت من بابه فرأيت سيادة الضابط علي بلبل واقفًا في الفناء وهو يصيح بصوته الجهوري متوعدًا ومنذرًا كل من يخرق النظام. وسمعته يقول إنه لا تخفى عنه خافية وأنه قادر على الرؤية من كل أجزاء جسمه، بما في ذلك خرم ظهره.

عرفت ما حدث عندما ولجت الزنزانة قرب التمام؛ فتح بطشة رأس سوزوكي، وقال لي عم فوزي إن الشجار دبَّ بين الاثنين قبل صلاة الظهر مباشرة، وأنه شاهد سوزوكي واقفًا ممسكًا بوجهه وبطشة يضربه بماسورة حديدية في بطنه وصدره، فقلت له إنه يجب أن يذكر هذا للإدارة.

فتح علينا الحارس بعد ساعة وسأل إذا كان أحد منا قد شهد ما حدث، فقلت له: عم فوزي. طلب منه أن يتبعه فتردد. وعندئذٍ شجعته قائلًا إن الواجب يدعوه للذهاب والإدلاء بشهادته.

أذعن عم فوزي وغادر الزنزانة خلف الحارس. وبعد ساعةٍ أخرى ظهر حارسٌ جديد أجرى التمام للعنبر فيما عدا زنزانتنا. سألناه عن الحارس الأول فقال إنه في التحقيق، وفوجئت به يعود بعد قليل ويسأل عني قائلًا إني مطلوب عند سيادة المأمور.

دسست قدمَيَّ في الكوتشي وتبعته إلى صالة العنبر. بدا لي منظره غريبًا والأبواب مغلقة تتصاعد من خلفها الهمهمات، أغلق الحارس باب العنبر وخرجنا إلى الفناء الخارجي، كان الضوء يأتيه من المصابيح الكهربائية المعلقة فوق مداخل العنابر والمباني الإدارية وأبراج الحراسة. سرنا في صمت وسط هدوءٍ شامل لا يقطعه غير صوت احتكاك أقدامنا بالرمل، ولم يكن هناك مخلوق سوى ثلاثة حراس أمام مكتب سيادة المأمور. وصلت إلينا أصواتهم

واضحة في هدأة الليل، اتجهنا إليه وصعدنا أربع درجات، كان الباب مفتوحًا إلى نهايته لكن ساترًا خشبيًّا أخفى من بالداخل.

وقفنا في مدخل الغرفة، ومد الحارس ذراعه اليمنى وطرق مصراع الباب الذي استند إلى الحائط في رفق، أتانا صوت حازم: ادخل.

أمسك الحارس بذراعي وولجنا الغرفة سويًّا، طالعتني صورة رئيس الجمهورية، وأسفلها جلس خلف مكتبٍ خشبيٍّ كبير، رجلٌ قصيرٌ أشيب يرتدي قميصًا حريريًّا أسود اللون لعله من طراز «سلفيانو» ويمسك بغليون سميك في يده اليمنى، ولم أتمكن من تحديد طراز الساعة التي كانت تدور بمعصمه. وفي زاوية المكتب جلس أحد المساجين الذين يعملون في مكاتب الإدارة في احترام أمام مجموعة من الأوراق وهو يمسك بقلم «رينولدز» جاف استقر طرفه على ورقة بيضاء.

أدى الحارس التحية العسكرية وقال: النزيل أشرف سليمان يا باشا.

وجه إليَّ الباشا نظرةً فاحصة ثم سألني: إيه اللي حصل يا أشرف؟

أجبت: مفيش يا سعادة الباشا، بطشة ضرب سوزوكي.

– إنت شفته بيضربه؟

– لا يا افندم، أنا كنت في الشغل.

– أمال عرفت ازاي؟

– المساجين قالوا.

– تعرف سوزوكي من إمتى؟

– أنا تعرفت عليه هنا في الزنزانة.

– تفتكر ضربه ليه؟

– معرفش.

أضفت بعد لحظة: بطشة أخلاقه وحشة ودايمًا يتخانق.

– هو سوزوكي كان بيبيع برشام؟

– معرفش يا باشا.

سكتُّ لحظة ثم سألني بطريقة مفاجئة: إنت بتنام جنب سوزوكي؟

– لا يا باشا، بعيد عنه.

تدخل الحارس وشرح لسيادة المأمور ترتيب النمر في الزنزانة.

استأنف سؤالي: ألم يتحرش بك المسجون بطشة؟

ترددت ثم قلت: حصل. ورويت له محاولة الاعتداء عليَّ.

تصفح المأمور بضع أوراق أمامه ثم أخذ يملي الكاتب السجين: وبسؤال المسجون تحت التحقيق أشرف عبد العزيز سليمان، سن واحد وعشرين سنة، وتهمته القتل، قرر أنه لم يشهد الواقعة، وأنه تعرف على المسجونَين في الزنزانة، ولا يعرف سبب العدوان، وعلَّله بأن المسجون سالم عويضة وشهرته بطشة سيئ الأخلاق ودائم الاحتكاك بالمساجين.

أشار إلينا المأمور بالانصراف، فسحبني الحارس من ذراعي إلى الخارج وعدنا إلى العنبر. ألفيت عم فوزي قد سبقني، وتجمع حوله المساجين وهو يحكي لهم ما جرى في التحقيق. فهمت أن بطشة ادعى أن سوزوكي استفزه وحاول الاعتداء عليه بمشرط حلاقة وماسورة، ثم اعترف تحت الضرب بأنه هو البادئ بالعدوان وأنه أحضر ماسورة كان قد وضعها منذ أسبوع تحت بلاطة مكسورة في الصالة وضرب بها سوزوكي.

سألته عنه فقال إنه رآه وضمادة تحيط برأسه، لكنه يعتقد أن إصابته ليست خطيرة.

– طب ليه مجاش معاك؟

قال إنهم أخذوه إلى المستشفى.

– وبطشة؟

– في التأديب.

ظلت نمرتا سوزوكي وبطشة خاليتَين، وإن كنت لحظت أن الأعين تستقر عليهما بين الحين والآخر. كنا جميعًا نفكر فيما سيطرأ من تغيير على ترتيب النمر في حالة عدم عودة الاثنين.

روى ذوو الخبرة الأحداث المماثلة التي شهدوها أو كانوا طرفًا فيها، وقلت لصبري: أنا مش فاهم إيه اللي بين الاثنين، زي ميكون طار بايت!

هزَّ رأسه بهيئة العليم وهمس: التجارة.

تطلعت إليه متسائلًا: تجارة إيه؟

قال وهو يرمق صنقر بركن عينه: البرشام.

انتقل الحديث إلى سيادة المأمور. وذكر صبري أنه تعرَّف في الفسحة على سجين يعمل في حديقة منزله الواقع في أرض السجن، وأن هناك مساجين آخرين يعملون في حظيرة مواشٍ يملكها بها خرفان وبط ودجاج، وأن المفروض أن يتقاضى الواحد منهم ثلاثة جنيهات من المأمور نفسه طبقًا للوائح لكنهم لا يحصلون على شيء. وقال إن زوجة سيادة المأمور، حسب كلام السجين، فتاة صغيرة ترتدي البنطلونات المحزَّقة وتقضي الوقت كله في تسريح شعرها، ولا يوجد لديها أطفال، وتعامل المساجين بقسوة.

أضاف: الظاهر إنها مراته التانية وبيموت فيها.

٦

حكى بلحة قصة زوجة ضابطٍ كبير، كانت زوجته تتصيد المجندين الذين أخذهم للعمل عنده في المنزل، كانت تنادي الواحد منهم وهي في قميص النوم وتطلب منه إصلاح حنفية الحمام، وتقف خلفه وهو مُنحنٍ فوق الحنفية فيحتكُّ جسمه بها عندما يتحرك، ثم توجه إليه حديثًا موحيًا فتسأله مثلًا إذا كان لا بد من استبدال الماسورة بواحدةٍ جديدة، وكيف يمكن إدخالها في الحوض ... إلخ. وحكى آخر قصة ضابط وجد زوجته في حضن جندي مراسلة فقتلهما.

عندما هجعنا أخذتُ معي زوجة المأمور، وتصورتُني أمسح لها بلاط مسكنها وهي تروح وتجيء أمامي ببنطلون محزَّق وبلوزة تكشف عن صدرها. ثم أبدلت لها ملابسها وجعلتها في قميص النوم، وخارجة فجأة من مخدعها، فتتعثر في طرف السجادة وتقع على الأرض، وأهبُّ لنجدتها فأرفعها بين ساعديَّ، أدخل بها غرفتها وأمددها على الفراش وأُدلِّك لها كاحلها الذي الْتوى ثم أزيح الرداء عن ساقيها وأتحسسهما حتى فخذيها.

تذكرت سالي وكيف تعرفت بها عن طريق شلة المعادي إذ كانت تقف معهم، وكيف كنا ندبر لها كل ليلة مكانًا تبيت فيه؛ لأنها هربت من منزل أهلها وليس معها بطاقة أو نقود أو حتى حقيبة ملابس، وكيف نامت مرة في بلكونة عمرو حتى الصباح، ومرةً أخرى في سيارة هشام، وذهبنا مرة إلى منزلٍ عجيب عبارة عن فيلا فاخرة من طابقَين يعيش فيها شقيقان، كلٌّ منهما في طابق؛ لأن الأب والأم يعملان في الخليج. كانت البنت مرهقة فتمددت على كنبة وراحت في النوم، لكن الأخوين رفضا فكرة بياتها عندهما فأخذناها إلى شقةٍ أخرى اشتراها والد عمرو له، وكانت على البلاط فاقترضنا من الأخوين بطاطين ومخدات وانطلقنا بالسيارة. وفي الطريق قرر عمرو وهشام الانصراف، فبقيت مع الفتاة، فرشت البطاطين على الأرض فاستلقت فورًا وراحت في النوم. واحترت فيما أفعل فنمت إلى جوارها والتصقت بها فلم تستيقظ. كان الحر شديدًا ففككتُ أزرار بلوزتها ومددت يدي وتحسست ثدييها فلم تتحرك، أيقظتها قائلًا إن هناك فئران فقالت: مش مهم أنا متعودة عليهم، ورجعت نامت. وظللنا هكذا حتى الصباح.

يبدو أني رحت في النوم وسط ذكرياتي؛ إذ وجدت سالي تحتضنني، ثم ألفيتني أحدق في وجه هدى ويدي تتحسس صدرها العاري وتهبط على بطنها، وفوجئت بأن جسدها ينتهي عند السرة وأنها بلا حوض وساقين، وأن شخصًا ما يصرخ في رعب من المنظر. استيقظت على صوت حشرجةٍ مرعبة قريبة مني. ورأيت عم جابر منحنيًا على الفلسطيني يهزه بعنف ليفيق.

أفاق الفلسطيني، وساعده عم جابر على الجلوس، وناوله سامبو كوز مياه، وجلس عم جابر قبالته وأخذ رأسه في صدره وجعل يربت عليها وهو يقرأ سورة «يس». وبعد قليل لحظت أن حالة من الاسترخاء استولت على الفلسطيني وعاوده النعاس فمددناه فوق نمرته.

لم نخرج إلى الخدمة في الغد، وظلت زنزانتنا مغلقة إلى قبل الظهر، ونحن ندق الباب وننادي على الحارس كي نذهب إلى دورة المياه. وكان وجهًا جديدًا لم نره من قبلُ، يدعى صبحي، له بشرةٌ صفراء وصوتٌ مبحوح، وسمعناه يمر في الطرقة وينادي أمام كل زنزانة: اسحب، الفجل. كان يمطُّ الكلمات كما يفعل الباعة عندما ينادون على بضائعهم، ثم ظهرت في فتحة شراعتنا بضعة عيدان من الفجل اصفرَّت أوراقها، وكرر ندائه: اسحب الفجل، فسحبناها من يده.

كرر عم جابر رقْي الفلسطيني. وكان هذا في سني تقريبًا ومتدينًا للغاية حريصًا على أداء الصلوات الخمس خلف جابر، سألته عما إذا كان تعرض لكابوس بالليل فرمقني في حذر ولم يجب. وبعد قليل نجح جابر في إقناعه بأن يحكي لنا قصته.

قال إن مباحث أمن الدولة اعتقلته وخيَّرته بين سحب جواز سفره وبين التجسس على الجماعات الإسلامية التي كان يعرف بعض أفرادها. وعندما رفض التجسس ألقوا به في السجن، وبعد أربعين يومًا اقتادوه إلى مكتب المأمور حيث أجروا له محاكمةً سريعة وفوجئ بالحكم يصدر بإعدامه شنقًا. نقلوه إلى زنزانةٍ انفراديةٍ ضيقة امتلأت بالمواسير والخوابير الحديدية بحيث يضطر للجلوس والرقاد فوقها. وفي الصباح دخلوا عليه وألبسوه طاقية حتى الرقبة غطت عينَيه وقيَّدوا يديه إلى الخلف، ثم أخذوه إلى غرفة وأوقفوه فوق مستوى مرتفع عن الأرض ووضعوا أنشوطة في عنقه. وفي هذه اللحظة جاء من يستدعي الضابط فأمر بتأجيل الشنق إلى أن يعود بعد دقائق.

أبدى بلحة استنكاره: هو الشنق لعبة؟ مقالش إيه السبب؟

– قال إن عنده محضر مفتوح. ووقفت أستنى متغمي وأنا بترعش. بعد شوية لقيتهم بيفكوا الرباط وقالوا لي إن الضابط استُدعي إلى منطقةٍ أخرى ولا يمكن إتمام الإعدام في غير وجوده. كل ده محدش مد إيده عليَّ ولا حتى قلم. بعد الظهر ادوني سجاير وقعدوا المخبرين يتكلموا معايا بكل ود، وبعدين قالوا إن الضابط مش راجع والتنفيذ اتأجل لبكره، وودوني الزنزانة.

تكرر هذا السيناريو خمس مرات: في الصباح ينادون عليه ويغطون رأسه حتى الرقبة ويقيدون يديه إلى الخلف، ثم يأخذونه إلى غرفة الإعدام حيث يعتلي درجةً خشبية ويضعون

٦

أنشوطة حول عنقه وبعد فترة يحدث ما يعطل التنفيذ؛ إذ يتم استدعاء الضابط لأمرٍ ما، فينزعون غطاء رأسه وقيوده وينتظرون عودة الضابط، ثم يتأجل التنفيذ إلى اليوم التالي، وهكذا. وفي آخر يوم وضعوه في سيارة وقالوا سننقلك إلى سجنٍ آخر، وسمع أحدهم يقول إنهم سيغيرون طريقة الإعدام، وتصور أنهم سيطلقونه في الصحراء ثم يقتلونه، لكنه وجد نفسه معنا.

أجهش بالبكاء فربت جابر على ظهره. ولحظت أن بلحة وصنقر وصلصة يتطلعون إليه في شيء من العداء. اعتقدت أنهم لم يصدقوا قصته. أما أنا فكنت أميل إلى تصديقها بعد ما حدث لي مع المباحث.

ارتفعت درجة الحرارة حتى صار العرق يتصبب من وجوهنا، ورشَّ البعض المياه فوق نمرهم لتبريدها. وفتحوا لنا أخيرًا عند الظهر لنذهب إلى المراحيض. لم نلبث أن علمنا بنتائج التحقيق: أسفر عن مجازاة رقيب الدور بالحجز في الثكنة ثلاثة أيام؛ لعدم قيامه بواجبه في الحيلولة دون وقوع الاعتداء، وجوزي الضابط علي بلبل بالإنذار لعدم قيامه بتفتيش عنبرنا بنفسه وبدقة؛ الأمر الذي ترتب عليه وجود ممنوعات مثل المشرط ومفصلة الباب، ونال سوزوكي عشرة أيام في الحجز الانفرادي، أما بطشة فقد جوزي بثماني عشرة جلدة والحبس الانفرادي في التأديب لمدة أسبوعين والحرمان من الزيارة والفسح لمدة شهر.

٧

الخطوات القليلة المؤدية إلى عنبر الملكية التي قطعها أشرف برفقة حارسه حاملًا متاعه المؤلف من كيس ونمرة، كانت مصحوبة بموسيقى من النوع الذي رافق جنرالات إسرائيل وهم يجتاحون الأراضي العربية، أو الدكتور ثابت محفوظ عندما انتقل إلى قصره المشيد على ترعة المنصورية. مع الموسيقى مشاعر مختلطة لا بد عرفها كل من صعد من القاع بطريقةٍ مفاجئة، خاصة وأن الانتقال لم يكن سلسًا على الإطلاق؛ إذ شابته السلبيات في خطوط الإمداد.

فالطلب الذي قدمته الأم المتفانية وكان مصحوبًا بعامود أكل، تأجل النظر فيه بسبب قيام المأمور بمأمورية تستغرق عدة أيام، وأعيد إليها عامود الأكل وقيل لها أن تأتي بعد أسبوع. وفي اليوم التالي عاد المأمور من مأموريته بعد أن أنجزها بسرعة البرق؛ لينضم إلى زوجته الصغيرة، وكان ما زال تحت قوة الدفع التي أعادته فأنجز الأوراق المتراكمة. هكذا اقتيد أشرف إلى المكاتب في الصباح، حيث قرفص بجوار الحائط إلى أن انتهت الإجراءات الدفترية، وانتظر ساعتَين أخريَين إلى أن جاء أمين المخزن بعد صلاة العصر، فخلع ملابس السجن واستبدلها بالقميص والبنطلون المودَعين في أماناته. وهنا عبَر الفناء إلى العنبر الملكي دون لقمةٍ واحدة.

لم يكن ثمة شك في أنه حقق تقدمًا مهمًّا على الصعيد الاجتماعي. صحيح أنه لم يرتفع عن الطابق الأرضي، وأن رائحة الزنزانة الجديدة لم تكن أقل عفونة من تلك التي تركها وراءه، وأن مكانه تحدد إلى جوار دلو البول، لكن الديكورات كانت مختلفة؛ ابتداء من الجماهير التي راقبت الموكب والتي تبدَّت في ملابس متنوعة ليس بينها الزي الأبيض المعهود، إلى الزنزانة نفسها التي تدلت الحبال على جدرانها محملة بالسلال والأكياس وحلَّ فيها برميل كبير من البلاستيك محل دلو الماء، وسخان كهربائي صغير من الفخار محل

الخرق المبللة بالزيت. كما كانت هناك صناديق من الكرتون إلى جوار الحائط استقرت فوقها علب النيدو، وعدة ترامس وزجاجات كولا في أحجام سوبر، وزجاجات مياه وصحف ومجلات وكتب، ذلك بالإضافة إلى نوبتجي في جلابية يدعى توكل، أربعيني صغير الحجم عصبي الحركات ذي ندبةٍ عميقة في جانب وجهه، وجفونٍ منتفخة وأنفٍ متورم في رأسٍ ملفوف بشالٍ أبيض حال لونه، لوَّح بمبسم سيجارة تزينه حلقة معدنية، لتدل على أنه مستورد (من خارج السجن) معينًا له مكانه إلى جوار دلو البول المعهود.

ولج الزنزانة شابٌّ أسمر طويل القامة شديد النحافة، يعلو رأسه شعرٌ كثيفٌ مجعد، ويهزُّ في يده حزمة من الجرجير لينفض عنها المياه، خاطبه النوبتجي باسم ماكس، وبدا وجهه مألوفًا رغم هزاله الغريب، وما لبث أن تعرف فيه على عدَّاءٍ شهير احتكر بطولة الجمهورية وعناوين الصحف عدة سنوات حتى آخر بطولة وخبر: قام بتقليد مفتاح الشقة الخاص بأحد أصدقائه وسرق جهاز فيديو.

بسط شرف نمرته إلى جوار الدلو في استسلام، فهل يتركه النوبتجي في سلام؟ كلا وألف كلا.

خاطبه متفكهًا: مش انت الواد اللي سخمطه بطشة؟

أوشك الواد أن يومئ برأسه مومِّنًا ثم تذكر أن بطشة لم ينجز مهمته، وألفى نفسه مرة أخرى في منزلة بين المنزلتَين.

واصل النوبتجي: القروانة هنا بعلبة سجاير.

أعرب المسكين عن دهشته: مش السجن بيصرف لكل واحد قروانته؟ حسم النوبتجي الجدل: هو ده اللي ماشي هنا، أنا مبخدش لنفسي حاجة. شاويش العنبر هو اللي بيأجر القروان والبطاطين الزيادة.

تتابع وصول النزلاء، بعضهم قادم من فسحة بعد الظهر والبعض الآخر كان يقف في الخارج أو في زنزانة بالطابق الأعلى، والقليل منهم سبق أن لمحهم أثناء قيامه بتنظيف العنبر، وبرز بينهم النزيل الجديد/القديم محاطًا ببقية النزلاء يوزع عليهم السجاير، وما زال في ملابس الحرية الكاملة. وكان قصير القامة نحيفها يرتدي عويناتٍ طبية. ولم يلبث حامل المفتاح أن حضر وحصل من الاثنين على ضريبة الإيواء.

أحضر الخدم دلاء العشاء وإفطار اليوم التالي وتركوها وسط الطابق، بجوار مكتب الحارس، وأمام باب دورة المياه، فرغم أن عنبر الملكية يحصل على طعامه من خارج السجن فإن اللوائح تنصُّ على تقديم الطعام إلى سكانه ليتولوا بأنفسهم إلقاءه في دلاء البول، ولتسهيل هذه المهمة وُضعت الدلاء على مسافة خطوتين من المراحيض الرئيسية.

وسواء كان النوبتجي عليمًا بخلفية شرف بحكم منصبه، أو كان الأمر راجعًا لنظرته الثاقبة بحكم المنصب أيضًا، فإنه أدرك على الفور أنه أمام حديث نعمة لا يرتقي إلى مرتبة الملكيين الأصلاء، وبدافع من إحساسه بالمسئولية عن رعاياه قال له: روح هاتلك تعيين.

حمل شرف قروانته ومضى إلى البوفيه المفتوح. ملأ القروانة باليمك، وأشار له الحارس أن يأخذ قطعتين من الجبن القريش وثلاثة أرغفة، عاد إلى الزنزانة فاستقر فوق نمرته المطوية والقروانة بين ساقَيه بعد أن غطاها برغيف ليحميها من الذباب، وضع فوقه قطعتي الجبن وغطَّاهما بالرغيفَين الآخرين ليؤجل الكشف عن حقيقته الاجتماعية إلى آخر لحظة.

أجرى حارس الدور التمام وأغلق الباب، فأخلى الساحة للنوبتجي كي يؤكد حقوقه على الشبكة الكهربائية. فآخر دفعة من الشيوعيين — الذين تتيح لهم أفكارهم استشراف المستقبل — زودت المراحيض، على نفقتها، بسخاناتٍ كهربائية للمياه، أتيح استخدامها لجميع المساجين دون مقابل. وعندما أفرج عن أفراد الدفعة تركوها كما هي، لا عن أريحية وإنما لأنهم كانوا واثقين من عودتهم. وظلت السخانات في أماكنها إلى أن سمع توكل بانهيار الأيديولوجيات فأتلفها واحتكر تسخين المياه لمن يريد الاستحمام، مقابل سجائر بالطبع. ولم يعدم مصادر أخرى للجباية.

فك لفافة رأسه كاشفًا عن صلعة جرداء، واتجه إلى فرشته في الركن العميق (في مواجهة شرف) ثم صفق بيديه موجهًا الحديث لأهم الضيفين: سالمة يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة.

كان المعنيُّ قد استقر إلى جوار شرف مباشرة، وبسط نمرته في حركاتٍ متئدةٍ رزينة، ثم طوى بطانيتيه بعنايةٍ شديدة بحيث تطابقت حوافهما، ضحك برزانة وهو يرتب حاجياته ويستخرج منها المطلوب: ثلاث علب «كنت» قدمها إلى الزعيم. وتطلعت إليه الأنظار، مارة فوق شرف وتحته، شاملة النمرة وكيس حاجياته المتواضع والقروانة المنقبة.

هتف به توكل: بقوا كام دالوقت يا ابو السباع؟

رفع أبو السباع رأسه وقال في وقار: تلاتة وخمسين في وش العدو. صفق البعض مهللين. وهتف نزيل يحتل النمرة المواجهة للباب مباشرة، وهو رجلٌ خمسيني، لا تكف أطرافه عن الحركة، أبيض شعر الرأس، يضع نظارةً طبية مذهبة الإطار، تطل من ورائها عينان تشويهما حمرة ويتجمع العماص في ركنيهما: يا كريم ابعت.

رد عليه أبو السباع معاتبًا: لا يا عزت بيه. كفاية كده.

سأله شرف في حيرة: ثلاثة وخمسين إيه؟

التفت إليه أبو السباع وتأمله من فوق عويناته ثم أجاب وهو يستأنف ترتيب محتويات كيسه: حتكون إيه يعني؟ قضية.

– في إيه؟

تبرع بالإجابة جار أبو السباع الذي سمع السؤال، وهو خمسيني أيضًا مائل إلى السمرة، حريص على تصفيف شعر رأسه الخفيف، يرتدي شورتًا كاكيًّا، كثير الشرود والتمتمة لنفسه.

قال وهو يمر بيده فوق ما تبقى من شعر فوق رأسه ويبتسم: أبو السباع أكبر مزور في البلد.

أحنى أبو السباع رأسه في تواضع مصطنع: أشكرك يا دكتور، أنا مجرد بأدي خدمة قومية. البلد دي مش مأخرها غير البيروقراطية.

عقب الدكتور: الواحد فينا يا دوبك عنده قضية واحدة عمال يتخبط فيها، بتاعت إيه القضية الجديدة؟

قال أبو السباع في زهو وهو يسوي طرف نمرته الذي لا يحتاج إلى تسوية: دفاتر توفير البريد.

أذن للصلاة صوتٌ جهوري صادر من طابق الملتحين، فنهض الشيخ فتحي الذي احتل الركن الثاني. كان شابًّا بلحيةٍ مهيبة تصل إلى منتصف صدره، يرتدي جلبابًا حريريًّا سمني اللون تزينه زخرفةٌ ذهبية حول فتحة الصدر. تقدم من برميل الماء في وقار وتوضأ على مهل وهو يردد: الله أكبر، الله أكبر. حي على الصلاة. حي ع الفلاح. ثم اتخذ موقعه نحو القبلة واضعًا يديه على الجانب الأيسر من بطنه. واصطف خلفه الملاكان: الذي إلى يمينه (وهو شاب بدين تكاد عيناه الضيقتان تختفيان وسط بشرة وجهه المدهنة، يدعى رمضان)، والذي إلى يساره (وهو رجل متقدم في السن، ضخم الجثة، مهيب الهيئة، تكشف فانلته عن ثديين كبيرين بينهما كتلة من الشعر الأسود يمتد حتى يغطي كتفَيه وذراعَيه، له وجه ذئب، خاطبه الشيخ بسعادة السفير)، بالإضافة إلى عزت بيه.

قال توكل لأبو السباع مداعبًا: هو انت بطلت صلا وللا إيه؟

رد ضاحكًا: أصله منفعش.

واحد آخر لم يقلع عن الصلاة وإنما شاء أن يحتفظ باستقلاليته. كان جرمًا بلحيةٍ خفيفة، يضع نظارةً مقعرة العدستَين فتبدو عيناه واسعتَين غامضتَين، يلي الدكتور في ترتيب النِّمَر.

لم يكن قد تحدث مع أحد أو قام بأي حركة منذ دخل الزنزانة، إنما تربع في ركنه ودفن رأسه بين دفتي مصحفٍ كبير الحجم، انتظر حتى بدأ الآخرون الصلاة فقام إلى جردل المياه وتوضأ ثم عاد إلى فرشته ووقف فوقها متجهًا إلى القبلة، متوليًا إمامة نفسه.

انتهت الصلاة فبدءوا يحتشدون للأكل. لم يكن ماكس قد بسط نمرته، على عكس جارَيه، فتكوَّن مربعٌ خالٍ من الأسفلت العاري بين النمر الثلاث، صُف فيه طبق سلاطة، وسلطانية ملوخية، وطبق أرز، وآخر بيضاوي كبير الحجم من البطاطس والدجاج ونبات غريب أخضر اللون يشبه القرنبيط على شكل كراتٍ صغيرة. أضاف جار ماكس طبقًا ورقيًّا من أرغفة الكايزر، وكان شابًّا طويل القامة، أبيض البشرة، في الثلاثين أو يزيد، يرتدي شورتًا أبيض كشف عن ساقين ممتلئتَين يغطيهما شعرٌ قصيرٌ ملفوف، وجورب أبيض وكوتشي. بعد نظرةٍ واحدة لمحتويات الطبق البيضاوي أعرب النوبتجي عن رضائه: الله ينور عليك يا مستر تامر! اسمه إيه ده؟

قال مستر تامر برقَّة أبناء الذوات: بروكلي بالمايونيز والفراخ.

هتف توكل: يا عيني، واستدار متربعًا على حافة نمرته، وفعل مستر تامر المثل فتواجها عبر البروكلي. مدَّ توكل يده إلى إناءٍ زجاجي كبير وضعه بجوار رأسه فاستخرج منه بضع حبات من الفلفل المخلل أضافها إلى المائدة وأعطى الإشارة: بسم الله. اتفضلوا يا جماعة.

كان الشيخ فتحي قد كوَّن مجموعة طعام من الملاكَين اللذين صلَّيا خلفه. واحتفظ الملتحي ذو النضارة المقعرة بموقفه المستقل فأكل بمفرده من محتويات عامودٍ معدني، من طراز قديم للغاية، يحمل ثلاثة أوانٍ صغيرة، وتكونت مجموعة من عزت بيه وجارَيه من ناحية اليسار، (أحدهما قصير القامة أبيض شعر الرأس، والثاني في مقتبل الشباب، ذو بشرةٍ سمراء داكنة، تبدو عليه السماحة، مذكرة باسمه: سامح).

قرب شرف قروانة اليمك متحاشيًا النظر إلى محتوياتها. وطوى أبو السباع فرشته إلى الخلف ليخلي مكانًا للمائدة، وصفَّ لفافاته المغلفة بـ «الفويل» فوقها، تصاعدت رائحة الطعام الساخن عندما شرع في نزع الورق المفضض كاشفًا عن صينية مكرونة بالفرن احمرَّ سطحها والْتمع، وكشفت اللفافة الثانية عن صينية مسقعة، والثالثة عن بطةٍ ضخمةٍ محمرة.

مد أبو السباع يده فتناول قروانة اليمك من أمام شرف وصبها في جردل البول ثم جذبه من ذراعه ليستدير بحيث يشغل أحد أضلاع مربع المائدة مواجهًا الدكتور على الضلع المقابل وهو يقول: الخير كتير زي ما انت شايف، مش حنقدر ناكل كل ده، ولو سبناه لبكرة يحمض.

ولهذا خاطب الجميع قائلًا: اتفضلوا معانا. لم تكن عزومة مراكبية إذ مد يده وأمسك بالبطة وفصل أحد أوراكها ورفع يده بالورك إلى أعلى، مشهدًا الكافة، ثم انحنى ووضعه أمام النوبتجي الذي أبدى تمنعًا مصطنعًا.

فصل أبو السباع الورك الثاني في اللحظة المناسبة؛ إذ جاء حارس الليل على الرائحة.

أقبل شرف على الطعام بشهيةٍ بالغة لأنه لم يذق شيئًا منذ الصباح. وربما كان هذا هو السبب فيما وقع من تطورات تحتمل تفسيراتٍ أخرى: التلوث (ويمكن استبعاده طالما أن أحدًا غيره لم يشتكِ)، الحساسية المرهفة (بعد شهرين ونصف من تناول السوس والحجر الجيري بصورة مستمرة)، ضياع القيم (ذلك الداء المستشري)، التعبير عن الرأي (بالالتفاف حول قوانين الطوارئ)، المهم أن أمعاءه تحركت فجأة في مغصٍ حاد ولم يتمكن من المقاومة فأسرع إلى دلو البول وفكَّ سرواله وأنزله ثم أنزل الكيلوت واستدار مواجهًا الآكلين (بالرغم منه لا عن تعمد) ثم استقر فوق فتحته ومن موقعه الجديد المرتفع أمكنه أن يطل بصورةٍ أفضل على الموائد المنصوبة ويعقد المقارنات الضرورية.

تنوعت ردود الفعل لسلوكه من زمجرةٍ صادرة من سعادة السفير (الذي كان يأكل من صندوق تيك أواي ضخم انفرد به تمامًا رغم انضمامه الشكلي للكومونة) إلى نظرةٍ غامضة من المعتزل (لعلها نظرة تشفِّي) إلى تكشيرة استنكار من مستر تامر (بحكم موقعه القريب) إلى إيماءة متفهمة من أبو السباع وابتسامة تفكُّه من الزعيم، الوحيد الذي لم يلحظ ما حدث هو الدكتور الذي أفاق من شروده عندما رأى الكيس الأسود.

فعندما أراد أبو السباع وضع ما تبقى من البطة في كيس بلاستيكي أسود اللون اعترض الدكتور: ما قلنا الشنط دي بتجيب بلاوي.

استفسر شرف عن الأمر من عليائه فأوضح الدكتور: بيعملوها من الزبالة وأكياس المبيدات الفاضية. الأكل يتلوث أول ما يلمس الكيس وخصوصًا الأسود ده اللي بيحطوله فحم عشان يخبوا ريحته الزنخة.

اعترض جار عزت بيه قائلًا بصوتٍ أخنف: محنا بنسخن الأكل يا دكتور.

لم يهتز الدكتور: ولو. لا الحرارة ولا التبريد يموتوا الميكروبات، عشان كده الدول المتقدمة رجعت للأكياس الورق.

تدخل عزت بيه بدوي: يا دكتور رمزي. سيبك من الكلام ده. إحنا بناكل منها من زمان ومجرلناش حاجة.

رد الدكتور غاضبًا من الجهل: إنت فاكر السرطان بييجي للواحد في يوم ولا يومين؟

أتيحت له فرصتان أخريان للتعبير: الأولى عندما لمح شرف يتطلع في لوحة إلى «كوتشي» مستر تامر، فقال له: عارف سعره كام؟

كان شرف يحفظ كل الأسعار فوجدها فرصة لاستعراض معلوماته، وصبر عليه الدكتور حتى انتهى فاستعرض معلوماته هو: في أي حتة في الدنيا مش حيقلّ عن تمانين دولار، تعرف إنتاجه بيتكلف كام؟ بيتعمل في مصنع في إندونيسيا بيشغل نسوان بس، الواحدة منهم بتاخد على كل جوز ١٢ سنت. حوالي تُمن دولار.

لم يفهم شرف المقصود: يعني إيه؟

تطلع إليه الدكتور برهة ثم قال: ولا حاجة.

حانت الفرصة الثانية للدكتور عندما قضم توكل خوخة كبيرة الحجم فتفتت نواتها بين أسنانه؛ صاح به: بس. إرميها.

تطلع إليه النوبتجي في ذهول. أوضح الدكتور: دي فيها مبيدات كتيرة.

مرَّ توكل بلحظاتٍ صعبة كان ينقل فيها البصر من وجه الدكتور الغاضب إلى الخوخة الشهية المفشوخة بين أصابعه. وأخيرًا حسم أمره ونظفها من بقايا النواة ثم التهمها مرةً واحدة وهو يقول: قول يا باسط. خليها على الله.

جاءه الدعم على الفور من الصوت الجهوري الذي تلا الأذان: عنبر كله يسمع، بسم الله الرحمن الرحيم. الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، والأرزاق على الله، وحيث الفقر لا يأتي إلا لغياب الإيمان. أيها المسلمون، نقدم إليكم نشرتنا لأخبار المساء.

لم يكن فيها جديد سوى القليل من الإضافات النوعية (دعوة للتبرع من أجل غرضَين ساميَين؛ مساندة المسلمين اليوغوسلاف وترميم دورة المياه).

وبالمثل كانت الألعاب التي بدأت بمجرد انتهاء الآكلين من التهام طعامهم وشرف من التخلص منه. فبعد الشاي، دار أبو السباع بعلبة سجائر «كنت» على الجميع ثم أخرج زجاجة دواء قدمها إلى توكل الذي قفز واقفًا وهو يهتف: كودافين!

قال أبو السباع بأربعة وتلاتين جنيه وحياتك ... من أجزاخانة في عين شمس ... تصور ... سعرها الأصلي ميزيدش عن تلاتة جنيه. إنما تلاقيها فين!

صاح توكل: دي ليلتنا فل ... يللا يا ماكس. دمغنا.

دب النشاط في ماكس فاستخرج من أحد الأكياس المعلقة فوق رأسه علبةً صغيرة من الصفيح، فتحها وأخذ منها قرصين وهو يردد على وزن «الليلة الكبيرة»: دمغنا ... دمغنا.

قال توكل في عظمة: تفضل عندنا يا أبو السباع.

نهض أبو السباع وأخذ علبة سجائره وانتقل إلى نمرة توكل الذي أفسح له مكانًا بجواره بحيث استند بظهره إلى الحائط.

تصاعدت ضجة من مجموعة عزت بيه التي كانت تلعب الورق، وصاح عزت بيه في جاره القصير: هو كل حاجة عندك دوبل؟ تاخد ورقتين ليه؟

قال هذا بصوته الأخنف: مخدتش حاجة.

مدَّ عزت بيه يده وبسط الأوراق التي أمام جاره وتناول منها واحدة: يا راجل يا ضلالي ... إنت فاكرنا هنا زي الغلابة اللي ضحكت عليهم وبعتلهم شقق عمارتك مرتين؟

قال صاحب العمارة وهو يتطلع ببرود إلى الورقة التي في يد عزت بيه: عمارتي وأنا حر فيها.

لم يواصل عزت بيه جدلًا عقيمًا ووجَّه اهتمامه إلى الحديث الدائر بين رمضان وسعادة السفير حول قانونية التسجيلات التليفونية التي تقوم بها الشرطة. كان الأخير يقول: التسجيلات دايمًا ضعيفة لو كانت هي الدليل الوحيد.

علق رمضان بلهفة: يعني المحكمة متخدش بيها؟

تدخل الدكتور الذي كان قد شرع يلعب الشطرنج مع الشاب الهادئ سامح فوق رقعةٍ صغيرة وبقطعٍ دقيقة الحجم من البلاستيك صنعت في الصين: لازم كل شريط يكون فيه رقم التليفون اللي بيسجل والتاريخ. أراد رمضان الاستزادة: متأكد؟

قال الدكتور: أيوه. أنا كمان عليَّ تسجيلات. هم مسجلين لك حاجة؟

أطرق رمضان برأسه ثم قال: أيوه. مقابلة مع مدير مدرسة عاوز تصريح تعلية.

سأله صاحب العمارة: طلبت منه كام؟

أسرع رمضان ينفي: مطلبتش منه حاجة. الرسوم وبس.

– طب وإيه المشكلة؟

أطرق الداهية الحريص بعينيه وقال: التسجيل اللي قدمته النيابة بيقول إني طلبت منه حداشر ألف.

انتزع الرقم صاحب العمارة من طموحاته الكوتشينية وصاح: يا مفتري، حداشر ألف عشان يعلي دور؟

دافع المفتري عن نفسه: ده كان عاوز يطلع ست ادوار. ومدينة نصر ممنوع فيها أكتر من أربعة.

وجَّه صاحب العمارة الحديث للبكوين اللذين على يمينه: يا سعادة البيه أنا مش فاهم المنع ليه؟ قال وعندنا مشكلة إسكان! طب سيبونا نبني ونعلي. يا سعادة البيه البلد عاوزة مدارس، أنا موجه في وزارة التربية وعارف بتكلم على إيه.

عارضه رمضان مثبتًا أنه لا يوجد منع: مدينة نصر كلها أدوار مخالفة. فيها أبراج خمستاشر دور. وأضاف مدافعًا عن المظلومين: يعملوا إيه إذا كان سعر المتر بقى تلات آلاف جنيه، لازم يعوضوا فلوسهم.

تذكر الشاب سامح الذي تابع الأرقام باهتمامٍ شديد، أنه قرأ في الصحف قصة مهندس بلدية رفض رشوة مقدارها ١٥ ألف جنيه تُعادل مرتبه في خمس سنوات وهو ٢٥٠ جنيه بعد خدمة ٢٢ سنة، والأغرب من هذا أن سيارته من طراز سيات وموديل قديم وتحتاج عمرة.

بدت علامات عدم الفهم على الوجوه فخفَّ الشاب لمحاولة الإيضاح: قال للجرايد إن أبوه رباه على القيم وإنه اشترك في حرب أكتوبر.

رمضان المعادي للرومانسيات كان له رأيٌ آخر: لازم كان عاوز أكتر.

كان سعادة السفير قد ابتلع حبتين من دواء الضغط وأشعل سيجارًا وتمدد على فرشته واضعًا ساقًا فوق ساق، مستندًا برأسه إلى صندوق من زجاجات المياه «بركة» تعلوه صورةٌ عاليةٌ ملونة، ثم تناول صحيفة وأخذ يتصفحها. وإذا به يهتف: والله جدع! ومضى يقرأ مقالًا يندد بصحيفة معارضة تنتقد امتلاك عدد من الأثرياء للمرسيدس الشبح التي يصل ثمن الواحدة منها إلى ١٫٣ مليون جنيه.

قرأ: «إن مثل هذا الانتقاد يؤدي إلى تغذية التناقض الطبقي في المجتمع وإثارة الأحقاد بين القادرين وغير القادرين، ويعيد مناخ عهد سابق من مصادرة الثروات والتأميم.»

توقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم واصل القراءة بتأنٍّ: اسمعوا دي … «إن البحث والتنقيب عن كل صاحب ثورة يمثل تهديدًا لمناخ الأمان الذي وفَّرته الدولة في عهد مبارك لكل راغب في الاستثمار.»

عقب الدكتور الذي لم يمنعه الانشغال بنقل الفيل الصغير عن الاستماع إلى تعليقات أخيه الكبير: طب اقرا الخبر اللي في الصفحة اللي بعديها … عن حجم التهرب من الضرايب … ألفين مليون جنيه في ست شهور منها ٤٣ مليون جنيه للسيارات الفاخرة بس.

أنزل السفير ساقه واعتدل جالسًا: والضرايب لزمتها إيه؟ يقولوا عاوزين إصلاح اقتصادي ويعملوا زي أوروبا وأمريكا لكن تبص تلاقيهم نازلين فينا ضرايب.

رد الدكتور: ما هي أوروبا وأمريكا فيها ضرايب برضه ... إنت فاكرها سايبة.

قال السفير منفعلًا: مخربْش البلد إلا الناس اللي بيتكلموا زيك.

صاح توكل: صلوا ع النبي يا جماعة ... النهارده عندنا عيد.

انصاع الاثنان فانصرف الدكتور إلى أفياله الصغيرة، والسفير إلى صحيفته دون أن يستسلم لليأس؛ فقد هتف بعد لحظات: أسمع كلامك أصدقك، أشوف أمورك أتعجب.

استفسر رمضان: ليه ... في إيه؟

– يقولك إحنا بنشجع الاستثمار ويروحوا مطلَّعين قانون ضد الغش التجاري.

– طب وفيها إيه؟

ما هو لو طبقوه بصحيح كل الشركات حتقفل.

– ازاي؟

– أهو بقولك ... مصانع اللبان والشوكولاتة والحلويات والألبان، الآيس كريم والشيبسي والحلاوة الطحينية والسمن والزيوت وجمعيات المستثمرين والأطعمة المحفوظة والثروة الحيوانية ... لو اطَّبَّق على كل دول مش حيستنوا لتاني يوم.

إشكاليةٌ معقدة لم يعبأ السفير بإيضاحها لأن اهتمامه انتقل إلى موضوعٍ آخر؛ خبر في صفحة أنباء المجمع قرأه مستنكرًا لا بدافع الاعتراض وإنما من باب الحسد.

«وكانت العروس تلبس تاجًا مرصعًا بالزمرد، كما كان فستانها مرصعًا باللؤلؤ والجواهر، وحُملت على هودجٍ مطليٍّ بماء الذهب. وكانت التورتة تتحرك بالريموت كنترول. ويقول العارفون إن ضفاف النيل لم تشهد شيئًا مماثلًا من قبلُ إذ تكلف الفرح مليون جنيه، وضم العشاء كل ما لذَّ وطاب بما في ذلك الفواكه المستوردة من الخارج، وأحيته فرقة حضرت خصوصًا من البرازيل قوامها ٢٥ راقصًا وراقصة، ووزعت عشرات الألوف من الجنيهات كبقشيشات على خدم الفندق وسُيَّاس الجاراج والسائقين.»

لم يثر النبأ دهشةً كبيرة بين الغالبية وإن أثار الرغبة في المعرفة: من هو؟ وتنوعت الإجابات وإن أجمع الكل على أنه، أيًّا كانت شخصيته، سبق ولهف. عندما وصلوا إلى هذا الاستنتاج رفع توكل زجاجة الكودافين إلى فمه، معلنًا عن فقرةٍ جديدة في السهرة بقوله: في صحة أبو السباع.

قال أبو السباع بصوتٍ مبحوح من تأثير الدواء: الحلو ميكملش؛ لو واحدة بانجو كمان كنا عملنا دماغ هايلة.

ألقى عزت بيه بأوراق الكوتشينة جانبًا وزحف إلى حافة فرشته. ناوله ماكس دلوًا صغيرًا من البلاستيك وضعه مائلًا في حجره، وتناول علبتَين فارغتَين من العلب المحفوظة

فأعطى واحدة لرمضان والأخرى لسامح. ثم زودهما بشوكتَين معدنيتَين، ونقر عزت بيه على قعر الجردل بأصابعه عدة مرات ثم تنحنح وانطلق.

كانت مناحة امتدت من أم كلثوم متمردة «متصبَّرنيش ماخلاص أنا فاض بي ومليت»، ثم مستسلمة «على بلد المحبوب ودِّيني، زاد وجدي والبعد كاويني»، إلى عبد الوهاب متسائلًا «يا وابور قولي رايح على فين»، وعبد الحليم حافظ متفلسفًا «مشاني زماني سواح»، ومن شادية متدلِّلة «سلامات سلامات يا غايب عني»، وليلى مراد متألمة «من بعيد يا حبيبي بسلِّم»، إلى أسمهان مستنجدة «يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرالي».

أثار الشكل (صوت مشروخ أنهتكه السجاير) والمضمون (مناخ عهدٍ سابق) استنكار سعادة السفير: بكره يرجَّعوا الراديوهات ونترحم.

أوضح أبو السباع لشرف: كان هناك راديوهات ومسجلات في كل زنزانة تقريبًا، قطاع خاص وليس ملكية دولة، وأربع تليفزيونات في كل عنبر، لكن الإخوة الملتحين اشتكوا من وصول الصوت إليهم لأنهم لا يرغبون في سماع الأغاني. وأعلنوا أن التليفزيون ينشر الفسق. وخضع لهم المأمور فبعث بضابط ومعه عدة صناديق من الكرتون جمع فيها كافة الأجهزة الصوتية، وهو إجراء لم يستفد منه سوى أمثال عزت بيه الذي عاد الآن إلى اللحن الأساسي: الشاطر اللي سبق ولهف، وأكل النبق.

٨

انتظرت طويلًا في دورة المياه إلى أن يخلو مرحاض، وظهر الدكتور ثابت محفوظ عند المدخل، كان يرتدي روبًا من الحرير المشجَّر وخفًّا جلديًّا فاخرًا، يحمل صابونته في يده ومنشفةً ملونة فوق كتفه، وأحدث دخوله نشاطًا غير عادي بين المساجين المتجمعين فأفسحوا له الطريق إلى المرحاض الأخير، وأسرع إليه أحد السجناء بدلو من المياه ليستعين به في حالة انقطاعها.

عدت إلى الزنزانة فألفيت أبو السباع ما زال نائمًا والباقين انتهوا من إفطارهم، ما عدا سعادة السفير ومجموعته الذين تحلقوا حول طبقٍ كبير توزعت في أنحائه الدوائر الصفراء للبيض المقلي. كان رمضان والشيخ مجدي يأكلان بتمهل ويلتقطان نتفًا صغيرة من البيض فوق لقماتٍ كبيرة من الخبز على عكس السفير الذي كان يلتقط قطعًا كبيرة من البيض ويمضغها بسرعة وهو يلهث دون أن يرفع عينيه عن محتويات الطبق إلى أن اختفت تمامًا. استدار إلى صندوق زجاجات المياه خلفه واستخرج منه علبة من البلاستيك رفع غطاءها والتقط منها قطعة من الجبن الرومي ألقى بها في فمه ثم أعاد العلبة مكانها دون أن يعبأ بزميلَيه.

طويت فرشتي وحملت بطانيتي إلى الفناء الخارجي، وفي الطريق التقيت بأفراد طابور الخدمات الذين يأتون كل صباح من عنبر الميري لرفع البول والمخلفات ومسح الزنازين وكنس الفناء. لمحت بينهم صبري وفوزي فتجاهلتهما، ولم تفتني نظرة الحسد التي ألقياها عليَّ.

خرجت إلى الفناء فشعرت كأني خرجت إلى الطريق العام، كان مزدحمًا بالرائحين والغادين من النزلاء في ملابس متنوعة الأشكال والألوان، منها جلاليب أو قمصان

وبنطلونات نظيفة مكوية وأحذية لامعة، بانص أو كوتشي، ونظارات شمسية، ومنها ملابس مهدلة، أو فانلات على اللحم تغير لونها من عدم الغسيل، وصندل جلدي أو شبشب من البلاستيك، سار أصحابها برءوسٍ مدلاَّة، يتأملون الرمال كأنما يبحثون عن شيءٍ ضائع. وكان هناك أيضًا بعض السجناء في ملابسهم الخضراء المميزة، وكثير من الملتحين في ملابس ناصعة البياض تتألف من قمصانٍ طويلة حتى الركبة فوق سراويل، ولاحظت أنهم لا يختلطون بالآخرين.

فرشت البطانيتَين في الشمس وقرفصت إلى جوار الحائط. رأيت الدكتور رمزي منهمكًا في تمارينَ رياضيةٍ شاقة جعلت عضلاته تنفر والعرق يتصبب على جسده الذي عرَّاه حتى الوسط، وانضم إليه مستر تامر بعد قليل في بلوزةٍ بيضاء وشورتٍ ضيق، بألوان العلم الأمريكي، أظهر تفاصيل مؤخرته. ولحظت نظرات الاستياء توجه إليه من معسكر الملتحين. ثم ظهر السفير وقد غطى عينيه بنظارةٍ شمسية من طراز كارتييه، وارتدى قميصًا مشجرًا بنصف كم، وخلفه رمضان يحمل كمية من البطاطين ألقى بها فوق الرمل، انتظر السفير حتى بسط رمضان إحداها، فاقتعدها مستندًا بظهره إلى حائط العنبر، ممددًا ساقيه أمامه.

لحظت سجينًا آخر انتحى جانبًا ووضع أمامه صندوق مسح الأحذية المعهود. وتقدم إليه واحد وأعطاه بعض السجائر ووقف يمسح حذاءه. كان إلى جواره سجينٌ ثالث يرتدي فانلة حمراء أمامه دلو ماء وعلبة صابون «تايد». وأعطاه أحدهم ملابسه وعلبة سجائر فعكف على غسلها بنشاط.

ترامى إلى سمعي صوت السفير يحكي لرمضان عن ابنته: كان عندها سنتين ومتنامش إلا وصباعها في بقها، كنا وقتها في النمسا، الدكتورة الله يمسيها بالخير قعدت تلاغيها، سألتْها: اسمك إيه؟ قالتلها اسمها بالكامل ومسكتتش ... أخويا اسمه يوسف وبابا اسمه قاسم وماما ليلى ومعانا كمان نبيلة، دي واحدة قريبتنا عايشة معانا. الدكتورة قعدت تقولها انت حلوة، وبعدين خليتها تبص في مراية وقالتلها: شوفي إنتي حلوة ازاي، وراحت موريإها صور أطفال شفايفهم وأسنانهم مشوهة، وسألتها: إيه رأيك، وحشين؟ قالت: قوي، قالت لها: تعرفي ليه؟ عشان بيحطوا صوابعهم في بقهم، وإنتي كمان حتبقي زيهم لو فضلت تعملي كده، البنت سألتها: طيب وأعمل إيه؟ قالتلها: بطلي حالًا، قالت: حاضر. الدكتورة إدتها شكولاتة، وإحنا مروحين كانت سرحانة بتفكر. بالليل رقدت أنا وأمها على الأرض جنب سريرها نراقبها، مسكت صباعها بإيدها التانية وراحت في النوم. بعد شوية

لقيناها بتفك إيدها، وبعد شوية مدت إيدها ناحية بقها وقبل متلمسه انتبهت وبعدت إيدها وكملت نوم. من ساعتها محطتش إيدها في بقها تاني.

سمعت ضحكةً أنثوية بالقرب مني فالتفتُّ نحو مصدر الصوت، رأيت شابًّا في ملابس السجن جالسًا قرب الحائط مع عدد من السجناء وكان يحكي شيئًا وهو يشير بأصابعه أمام فمه كما تفعل نساء الأحياء الشعبية. ولحظت أن أصابعه ازدانت بالخواتم الذهبية.

ظهر أحد السجناء قادمًا من الإدارة يحمل في يده بضع أوراق ويسير بخطواتٍ سريعة تعكس أهميته. اتجه إلى عنبرنا وولجه، وقدرت أنه يحمل قوائم الأكل الخاص بسكان عنبر الملكي. نهضت مسرعًا على أمل واقتربت من باب العنبر حيث وقف السجين ونادى الأسماء ولم يكن اسمي من بينها.

عدت إلى مكاني بجوار الحائط بخطواتٍ متثاقلة. كنت قد شرحت للدكتور أني أنتظر طعامًا من أهلي فطمأنني قائلًا إن أغلب النزلاء لا يحضرون الطعام بصفةٍ يومية وإنما يرتبون مع بعضهم البعض بحيث يتناوبون ذلك ويتشاركون في الأكل، وأن بوسعي أن أتفق مع أهلي على إحضار الطعام مرتين فقط في الأسبوع ويتولى هو وأبو السباع بقية الأيام.

راقبت شابًّا لبنانيًّا ممتلئ الجسم عرَّى ساعديه وكتفَيه وشمر شورتًا رياضيًّا أسود اللون عن فخذَين ممتلئتين غطَّاهما زغب أصفر. كان لبشرته تلك اللفحة التي يحدثها التعرض طويلًا لأشعة الشمس. ويبدو أنه كان معجبًا بها فلم يكف عن تأملها باستغراق وهو مستلق إلى جوار الحائط.

أصبحت الشمس عمودية وأذَّن الظهر فالْتجأتُ إلى المسجد، خلعت حذائي ووضعته في المدخل وعبرت الحاجز الخشبي. توضأت وانضممت إلى المصلين، عندما انتهيت دعوت الله أن يظهر براءتي. وبقيت جالسًا وقد استولى عليَّ شعور جارف بالكآبة والوحدة.

اقترب مني أحد المصلين وسألني وهو يتطلع ناحية المدخل: مش انت اللي كنت في زنزانة بطشة؟

أومأت بالإيجاب.

قال إنه يريدني في كلمة، وطلب أن ننتحي جانبًا بعيدًا عن المدخل، تبعته إلى ركن.

خاطبني بصوتٍ منخفض: أنا عاوزك تكتبلي جواب.

أعطاني ورقة وقلمًا صغيرًا وطلب مني أن أكتب ما يمليه عليَّ. أسندت الورقة على ركبتي وكتبت:

«**السيد اللواء مدير مصلحة السجون**

تحية طيبة وبعد:

مقدمه لعدالة سيادتكم المسجون عبد الهادي فرج، وهو ترزي إفرنجي وأصبح الترزي الخاص لمأمور السجن والسادة الضباط وأصدقائهم من كبار تجار المخدرات وأصحاب الأعمال الكبرى مقابل باكو شاي أو السماح له بسرير دون أن يدفع ثمنه لبلطجية الأدوار أو الذين يتاجرون في الأسرَّة، وقد وصل ثمن السرير إلى ٢٠٠ جنيه وذلك لحساب مأمور السجن، كما أن الضباط يقومون بصرف حصص الخبز للمسجونين خلاف الواقع ويتم بيع الباقي لحسابهم.»

انتبهت فجأة إلى خطورة ما كتبته، وشعر هو برد فعلي فقال وهو يتناول مني الورقة: متخفش؛ محدش حيعرف إنك اللي كتبتها.

أعطاني علبة سجاير وأضاف وهو يتفحص ملابسي: لو عزت أي حاجة أنا تحت أمرك. سألته عن مكانه فقال إنه في الطابق العلوي المخصص للمخدرات وجرائم النفس.

غادرت المسجد وانتظرت حتى مرَّ من أمامي كهلان في القميص والبنطلون انهمكا في حديث بصوتٍ عالٍ عن احتمالات الإفراج، كان أحدهما يضع عدساتٍ داكنة فوق نظارته الطبية التي شبكها بسلسلة تدلَّت فوق صدره، وهو وضع طالما أثار أعجابي.

اتجهتُ إلى مساحة من الظل في الناحية الأخرى من الفناء قرفص فيها الشيخ فتحي، فقرفصت إلى جواره وأخذت أعبث بأصابعي في الرمل وأرسم مربعات ودوائر، كان الزحام قد خفَّ بسبب الشمس، ومدَّ ذو الفانلة الحمراء حبلًا من حائط العنبر إلى سور من السلك يفصلنا عن فناء العنبر الآخر، ونشر فوقه الملابس التي انتهى من غسلها.

لمحت ملتحيًا يطوف بالفناء ورأسه مدلاة يتأمل الأرض، وكان ينحني بين الحين والآخر ليلتقط قصاصات الورق فيتصفحها ويضعها في جيب سرواله كانت ملابسه بيضاء مثل زملائه، لكنها كانت أقل بهاء ويبدو عليها القِدم وضِعة الحال. استفسرت من الشيخ فتحي عن الأمر فقال لي إنه مكلف من زملائه السُّنية بجمع كل القصاصات التي تحمل اسم الله أو الرسول عليه الصلاة والسلام كي لا يدهسها أحد بدون وعي، وبعد ذلك تحرق. سألني عن قضيتي فرويت له قصتي، وسألته عن جريمة الدكتور فقال: أفتكر رشوة.

– وسعادة السفير؟

ضحك: ده بتاع الفراخ والكبدة.

تشجعت وسألته عن قضيته؟

قال: موضوع كيدي.

قلت: متهمينيك بإيه؟

قال: العلاج الروحاني.

– ودي تهمة؟

هزَّ كتفه ولم يعلق.

أضاف بعد لحظة: أنا أصلًا موظف، ويوم كنت راجع من الشغل وطلبت من مراتي تحضر الأكل. وقعدت أقرا في المصحف. وفجأة لقيت نفسي في عالم آخر غير عالمنا، بعديها قالت لي زوجتي وأهلي إني فضلت في الحالة دي ست ساعات.

قاطعته: مكنتش واعي بحاجة خالص؟

قال: أبدًا كنت في حالة هدوء غريب وسكينة. وبعدين جاني هاتف طلب مني التسول في الشوارع. مرضيتش. قاموا شكِّلوا محكمة روحانية من خمسة أعضاء شفتهم زي ما أنا شايفك كده. المحكمة بعد مدة في المداولة والمشاورة أصدرت ضدي حكم بالسجن المؤبد. ثم ظهرت لي الملكة سالي رئيسة المملكة الطبية الروحانية واتفقت معي إنها تسكن جسمي، والناس فوجئتْ بصوتها يخرج مني مؤكدًا أنها الملكة سالي، وأنها من قوم صالحين من الجن يعالجون كل الأمراض، ما عدا الشلل والعمى، في دقيقتين.

قلت مندهشًا: وهي مين سالي دي ... إنس ولا جان؟

ضحك: جن طبعًا. ملكة كبيرة عندهم، وتحت إيدها اتنين مليار جن سخرتهم لعلاج العيانين من بني الإنسان.

كان الدكتور رمزي قد انضم إلينا وهو يمسح عرقه واستمع إلى العبارات الأخيرة وعلى شفتَيه ابتسامةٌ ساخرة، سأله: والجن بتعمل معاهم إيه؟

قال: أنا بقدر أشم ريحة الجن في أي حتة وأحرقه في الحال، الوزرا نفسهم اعترفوا بقدرتي، أيوه أنا عارف انك مش مصدقني. آخر حالة خففتها قبل ما يتقبض عليَّ كانت واحدة ست مرات وزير مات من سنتين، حطيت إيدي على إيدها وبدأ العلاج. ساعتها مبدراش بنفسي. الست جالها تشنج وخرج منها صوت راجل يقول: أنا الشيخ عبد الله وقد تلبستُ جسد هذه السيدة لأني أحببتها بعد وفاة زوجها وأريد أن أتزوجها. قلت له أنت مسلم فلماذا تتلبس أختًا لك في الإسلام. اخرج من جسدها وإلا أحرقتك بآيات الله.

توقف لحظة ووجه إليَّ الحديث متجاهلًا الدكتور رمزي: الجن لازم الواحد يكون حازم معاه ويوريه إنه أقوى منه؛ يعني يفرض إرادته عليه. أصريت إنه يخرج من جسمها وحدِّدتله المكان اللي يخرج منه وهو قدمها اليسرى. وفعلا مافاتش خمس دقايق إلا ورجعت الست لحالتها العادية والناس هللت وكبرت. سألتها إنتي حاسة بإيه؟ قالت زي ما أكون اتولدت أول مرة.

سأله الدكتور: وهي كانت بتشتكي من إيه؟

– بعد موت جوزها على طول بدأت تشعر بحاجات غريبة، أول ما الساعة تبقى اتناشر بالليل تلاقي حاجة تشدها تخليها تقف قدام المراية وتحط مكياج وبعدين تمدد على السرير. وبعد شوية تحس بالسرير بيتهز وحدّ بيضغط عليها. قلتلها المسألة واضحة؛ الشيطان كان عاوز يجامعها.

قال الدكتور: وأنا صغير كان ساكن جنبنا واحد زيك كده. بقَّال اسمه بولس، الناس كانت تجيله عشان تطلع الجن اللي لبسها. كان يحط العيان في أودة ضلمة وهو شايل الصليب ويطلب منه انه يقوله على الحتت اللي بيتنقل فيها الجن في جسمه عشان يحاصره في مكان ويطلعه.

لوى الشيخ فتحي شفته في استياء ثم لزم الصمت، ونادانا الحارس لنصعد فنهضنا متثاقلين ودخلنا العنبر. وأمام زنزانتي استوقفني شابٌّ صعيدي أسمر البشرة يرتدي جلبابًا نظيفًا تبدو من فتحة صدره صديرية موشَّاة بالقصب.

مد إليَّ يده قائلًا: خدامك عبد الفتاح.

صافحته وعندئذٍ طلب مني أن أكتب له خطابًا.

أبديت موافقتي فعرض أن نذهب إلى زنزانته، رافقته إليها وكانت في نهاية الطابق. ولم تكن تختلف عن زنزانتنا سوى في غلبة أبناء الصعيد على نزلائها.

بسط نمرته وجلسنا فوقها. أخرج سيجارة ومبسمًا خشبيًّا، وقطع السيجارة نصفين ثبَّت أحدهما في المبسم وقدَّمه لي. أشعلت السيجارة وجذبت نفسَين عميقَين أصاباني بالدوار ثم ناولته المبسم.

لاحظت أن يديه كبيرتين وأظافره واسعة ومفلطحة. وعندما تربع أمامي رأيت نفس الظاهرة في قدميه. وكانت له عينان عسليتان واسعتان وشعرٌ أسود ناعم.

قال: أنا شفتك بتكتب جواب لواحد في المسجد.

أملاني رسالةً طويلة امتلأت بالسلامات للأهل والأقارب وكل من يسأل عنه وتضمنت أنه في أحسن حال ولا يشكو من شيء ولا يحتاج إلى شيء وأن موعد ترحيله لم يتحدد بعدُ.

سألته: ترحيلك لفين؟

قال إنه أصلًا من سوهاج لكن قبض عليه في القاهرة، ولا بد أن يرسلوه إلى بلدته لتتم محاكمته هناك، وإنه ينتظر هذا الترحيل منذ أربعة شهور.

تعجبت من أن لهجته لا تدل على أميته، فأوضح لي أنه قادر على فك الخط لكن خطه رديء للغاية، كما أنه ترك المدرسة خلال المرحلة الابتدائية وأوشك أن ينسى الأبجدية كلية.

اقترب منا أحد نزلاء الزنزانة الصعايدة وصافحني مرحِّبًا، ثم قدَّم إليَّ سيجارة فقسمها عبد الفتاح وقدم لي نصفًا لأشعله ثم حكى لي قصته؛ في قريته مسجدٌ عتيق يقوم على خدمته عمه الذي يستيقظ في الفجر ليصلي بالناس ثم يتجه إلى حقله ولا يعود منه إلا لصلاة الظهر. وفي أحد الأيام عاد من القاهرة أحد أبناء القرية بعد أن أتم دراسته بكلية الآداب وكانت هيئته غريبة؛ أطلق لحيته وشاربه وارتدى جلبابًا قصيرًا وسروالًا طويلًا، وأخذ يتحدث عن ضرورة تطبيق الأحكام الشرعية وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح على شكل الخلافة، ويأمر بطقوسٍ خاصة في الصلاة، وينهى عن إقامة المآتم والأفراح وبناء المقابر. حتى الآن لا بأس. لكنه بدأ يعتلي منبر المسجد قبل وصول الشيخ فيدعو للجهاد ضد الحكام ابتداء من الخفراء، إلى تحريم التعامل مع النصارى ومع الجمعية الزراعية، ويهاجم خروج الفتيات للدراسة، وينادي بالامتناع عن أكل الخيار والباذنجان.

أبديت دهشتي لمسألة الخيار والباذنجان وسألته عن السبب؛ فاحمر وجهه وتحاشى النظر إليَّ وهو يقول: لأنها بتجيب أفكار وحشة.

استأنف عبد الفتاح قصته وكيف أخذ الجانبان يتبادلان الاتهامات؛ الشيخ يتهم الشاب بالتطرف في فهم الشريعة، بينما الشاب يعتبره متواطئًا مع الحكام. وبالتدريج اكتسب الشاب أنصارًا من الشبان والعاطلين الذين أُغلقت أبواب الهجرة في وجوههم بعد حرب الخليج. وخلع عليه الأنصار لقب الأمير. وفي أحد الأيام عقد مجلس شورى قرر اعتبار الشيخ مرتدًّا لأنه يتقاضى راتبًا من الدولة؛ أي أموالًا حرامًا هي حصيلة الربا، ولأنه ينكر فضيلة الجهاد وهي أحد أركان الإسلام. وعلى هذا الأساس أباحوا دمه.

– قتلوه؟

– ربنا نجده، لبدوا له في الدرة وهجموا عليه بعد المغرب ونزلوا فيه ضرب بالعصي والجنازير. وكان حيخلص منهم لولا جماعة كانوا فايتين.

لزم الشيخ الفراش شهرًا دون أن يجرؤ على إبلاغ السلطات حتى لا يُتهم بالاستعانة بالشرطة أعداء الله، وخلال ذلك كانوا قد أفتوا بعدم جواز الصلاة في المسجد لأنه مسجد

ضرار أقيم لأغراض الدنيا، واصطدموا بعبد الفتاح ومجموعة من أصدقائه، وأصيب أحدهم بضربة طائشة من عبد الفتاح توفي على أثرها.

رويت له قصتي بالمثل وأجمعنا على أننا — نحن الاثنان — ضحيتان بريئتان وأكد لي أنني لا بد سأحصل على البراءة قائلًا في حزم: كله إلا الشرف.

حكيت له عن معاناتي في عنبر الميري وما جرى لي مع بطشة وقصة الميدان. ضحك وقال: حظك كان كويس إنك وقعت في إيد علي بلبل. ده راجل طيب وغلبان. متأخر في الترقية وعنده سبع عيال مش ملاحق على أكلهم.

حل موعد التمام فودعته وأصرَّ على إعطائي علبة سجائر مقابل كتابة الخطاب، تمنعت في البداية ثم اكتفيت بنصفها، ومضيت إلى زنزانتي وأنا أفكر فيما وقع لي من أحداث وما كسبت من سجائر وما جرى بيني وبين عبد الفتاح من حديث، شعرت فجأة بصداعٍ عنيف لازمني طول المساء وصدَّ نفسي عن الطعام، فأعطاني الدكتور رمزي قرص أسبيرين ونمت.

استيقظت في الفجر شاعرًا بالبرد رغم حرارة الجو، فبسطت فوقي بطانية وأحطت جسمي بها في عناية، لكن إحساسي بالبرد استمر، وبدأت تنتابني رعشاتٌ خفيفة، فقمت واقفًا ونزعت البطانية الأخرى من تحتي وبسطتها فوق زميلتها، دون جدوى، ظللت أرتعش من البرد حتى أقبل الصباح. وما إن فتحت الزنزانة حتى تدافع الجميع إلى دورة المياه فأخذت أئن بصوتٍ عالٍ، لم ينتبه إليَّ أحد فرفعت صوتي بالأنين وأنا أتطلع حولي لأرى إذا كان أحد قد سمعني، كانت الزنزانة خالية، فانتظرت حتى عاد الدكتور رمزي وعاودت التأوُّه بصوتٍ أعلى.

خفَّ إلى جواري ووضع يده على جبيني ثم أعطاني حبتين أسبيرين تناولتهما مع رشفة ماء، لم تتحسن حالتي إذ انتشرت الآلام المبرحة في عظام ساقيَّ وذراعيَّ والتهب حلقي، ولم أقدر على ابتلاع أي طعام، كما استمرت حرارتي في الارتفاع؛ فأعطاني قرص «باراسيتامول». وعندما لم تهبط الحرارة صب في قروانة ماء مثلجًا يحتفظ به في ترموس. تناول من حقيبته منديلًا نظيفًا فبلَّله بالمياه المثلجة ووضعه على جبهتي إلى أن فقد برودته. كرر هذه العملية إلى فرغت المياه الباردة في ترموسه فاقترض ترموس قاسم بيه.

ظهر عبد الفتاح على باب الزنزانة قائلًا إنه عرف بمرضي فأحضر لي ثلاث ليمونات عصرهم لي في كوب به قليل من الماء، وأصرَّ على أن أجرعه. وظل إلى جانبي مضحِّيًا بطابور العصر، حتى بدأت الحرارة في الهبوط واستسلمت لنومٍ متقطع تخللته الأحلام والتخيلات.

كنت أتخيل لنفسي مصائر متنوعة: طالبًا في كلية الطب ثم طبيبًا متخصصًا في أمراض النساء، أو طالبًا في الجامعة الأمريكية ثم سفيرًا في السويد. وقضيت وقتًا طويلًا في محاولة إنفاق عدة آلاف من الدولارات عثرت عليها صدفة: حسبت الإقامة في الشيراتون عدة ليال وسيارة بي إم دابليو ثم شقة في المهندسين أو على النيل، وعندما لم تنتهِ النقود صرفت عدة آلاف على الملابس وأكسسواراتها وفي النوادي الليلية، وأخيرًا ضقت بالأمر عندما لم أتمكن من تخيل أوجهٍ جديدة للإنفاق، ففكرت في هدى وكيف أن غيابي سيكشف لها حقيقة مشاعرها، وعند خروجي سترسل لي موعدًا للقاء في كازينو على النيل وتعترف لي بحبها.

عدت بعد ذلك إلى مغامرةٍ مفضلة لديَّ تبدأ في مترو الأنفاق عندما يصل إلى محطة المعادي. تخيلت نفسي واقفًا إلى جوار الباب وكانت هناك فتاةٌ جميلة للغاية ذات جسمٍ مثير وصدرٍ نافر تستعد للنزول، وعندما توقف المترو فقدت توازنها فسقطت في حضني وشعرت بثدييها على صدري. احمرَّ وجهها وتبادلنا الاعتذارات وغادرنا القطار معًا فتعرفت بها، ودعوتها إلى شقتي حيث قدمت لها الكباب والكفتة والتفاح والبرقوق وحكت لي حكايتها. كانت يتيمة اختُطفت من أهلها في الصغر واستقرت عند أسرة مبسوطة تولت تعليمها. دمعت عيناها فاحتويتها بين ذراعيَّ، وأخذت أربت عليها، فقبَّلتني، وانتهزت الفرصة فتحسست صدرها وفخذيها، وصرنا نلتقي كل يوم في شقتي، وعملت معها كل شيء دون أن أمس بكارتها. وفي نفس الوقت بدأت أبحث عن أهلها. وقادتني الصدف إلى أبيها فإذا به أميرٌ سعودي. هنا فضضت بكارتها وأخذتها إليه فكافأني بتزويجي منها وجعلني وكيلًا لأعماله في مصر.

تحسنت صحتي بعد يومين لازمني فيهما عبد الفتاح، ونودي عليَّ في اليوم الرابع للزيارة. أقرضني ماكينة حلاقته وشفرة «ناسيت» جديدة فأزلت شعر ذقني. وصحبني إلى دورة المياه حيث استحممت، وعندما عدنا إلى الزنزانة لم يكن بها أحد إذ خرج الجميع إلى الطابور، ناولني قميصي مكويًّا واكتشفت أنه قام بكيه بنفسه، قلت له وأنا أرتديى القميص: أنا مش عارف كنت حاعمل إيه من غيرك؟

احمرَّ وجهه وتشاغل بتسوية فتحة القميص، تطلعت إليه في حنان ثم ضممته إلى صدري.

صحبني الحارس مع عددٍ آخر من النزلاء إلى قاعة الزيارة. ومررنا بصالةٍ كبيرةٍ ملحقة بمكاتب الضباط، مخصصة للزيارات الخاصة، ظهرت من بابها دككٌ خشبية وبطاطين مفروشة على الأرض وازدحمت بالأهالي، مضينا إلى صالةٍ أخرى واسعة تعترضها في المنتصف شبكتان متوازيتان من السلك يفصل بينهما حوالي متر يقف فيه الحراس،

وقفنا خلف الشبكة وقد بلغ عددنا حوالي ستين سجينًا، ولمحتُ أمي بين الأهالي الذين تزاحموا على الشبكة الأخرى، كانت الضجة هائلة إذ كان الجميع يتكلمون في وقتٍ واحد وبأعلى أصواتهم ليتمكن ذووهم من سماعهم.

صحت بها بأعلى صوتي: فين الأكل؟

قالت شيئًا وهي تهزُّ رأسها، أشرت بيدي إلى فمي وحركت أسناني في مضغٍ وهمي، فصاحت بشيء لم أسمعه وأخيرًا فهمت أنها أحضرت الطعام وسلمته للإدارة.

حاولت أن أشرح لها الاتفاق الذي وصلت إليه مع الدكتور رمزي بشأن إحضار الطعام مرتين فقط في الأسبوع لكنها لم تسمع صوتي كما لم تفهم إشارات أصابعي.

صحت بها: المرة الجاية اطلبي زيارة خاصة عشان نعرف نكَّلم مع بعض.

لم تسمع وتطلعت إليَّ مستفهمة، ويئست أخيرًا من المحاولة فانصرفت إلى تأمل الزوار الآخرين إلى أن انتهت الزيارة.

أعطوني كيس الطعام وصندوق السجائر اللذين تركتهما أمي. كان الصندوق مفتوحًا وناقصًا علبتين. ومع ذلك حملته سعيدًا إلى العنبر لأهدي عبد الفتاح علبةً كاملة منه.

٩

إذا كان شرف موجودًا بجسده بين جدران الزنزانة الأربعة، فإن روحه كانت ترفرف في الخارج طول الوقت، ليلًا ونهارًا؛ فهو من سلالة شعبٍ عظيم فضَّل دائمًا أن يكون مستعبدًا كي لا يحرم من عشق الحرية والتطلع إليها.

حقًّا إن رحلات الليل كانت مختلفة عن رحلات النهار؛ بحكم تغير موقع الأرض من الشمس من ناحية، واختلاف موقعه هو من الأرض من ناحيةٍ أخرى. فالمعلوم أن الوضع الأفقي الليلي بتجلياته الرحمية والبطنية والظهرية يجلب صورًا مختلفة عن تلك التي يجلبها الوضع العمودي النهاري في تنوعاته من انتصاب وقرفصة وتربع وركوع. لم تكن لديه مشكلة بالنسبة للأول. وأمدَّته الزنزانة الملكية بوقود للثاني تمثل في إمكانية التخطيط للمستقبل وفقًا لأوبشنز متعددة لم تتوافر في زنزانة الميري.

فلم يكن هناك ما يغري في تسلق مواسير عمارة (بطشة أو صنقر)، الاعتداء على راكب مسالم (صلصة وبلحة)، الاستسلام للغضب (سامي عازر وعم فوزي)، قضاء الليل في ميدان العتبة (فلاح كفر الشيخ) حراسة الأبنية والمخازن (سامبو وصبري)، النزول إلى باطن الأرض (حسن بكبورت)، قيادة باصات لا تتوقف (عم جابر)، التمسك بجنسية خاسرة (الولد الفلسطيني)، أو حتى الدفاع عن الشرف (أشرف نفسه).

أما مع الملكيين فقد كانت هناك مثلًا فرصة للجمع بين رحلات الليل والنهار يقدمها الشيخ فتحي (بحكم قدرته على شفاء الأمراض من ناحية، وبراعته في إخراج الجان من أجساد السيدات من ناحية أخرى)، وقد أمدَّته بوقود لنشاطه الليلي إلى أن ضربته الشمس فتبين أنه لا يملك شيئًا من العدة الضرورية؛ فهو لا يحفظ من القرآن إلا ثلاث سورٍ قصيرة لزوم الصلاة: الفاتحة، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس. وكان الشيخ ضنينًا

بعلمه، يرى في شرف ما رآه أغلب رفاق الزنزانة؛ عيِّل مشكوك في رجولته. كما أن هذا سريعًا ما اكتشف أن دروب العلم غويطة، وأن الأرواح أنواع كما طُرق إخراجها أيضًا.

فقد تعجب مرة من أمر السجين المنعزل ذي العوينات المقعرة الذي يدفن نفسه في الركن والمصحف، فاستفسر من جاره؛ الشاب الهادئ سامح (الذي يثور مع ذلك إذا لمس أحد حاجياته أو حتى صابونته) قائلًا: راجل غريب! هو أخرس؟

قال سامح: أبدًا. دا مهندس محترم في شركة الألومنيوم.

– وإيه اللي جابه؟

ليس لأنه متزوج من مهندسة محترمة مثله؛ زميلته في نفس الشركة، ولا لأنه مرةً واحدة أطلق لحيته ونقب زوجته ثم تركا العمل ولزما البيت، وإنما بسبب الأرواح الشريرة.

– عندهم بنت سنها اتناشر سنة، حبوا ينقبوها مرضيتش؛ قاموا حجزوها في البيت ومنعوها من الخروج والمدرسة. فضل حبسها مدة والبنت راسها وألف سيف انها متتنقَّبش، واحد صاحبه قال له إن عليها أرواح من نوع ميخرجش إلا بالضرب، نزل ضرب فيها هو وأمها بخرطوم بلاستيك.

سأله شرف: وطلعت الأرواح؟

أجاب: لأ. روحها هي اللي طلعت.

لم يقلها بسخرية أو حزن وإنما بلهجةٍ تقريرية أثارت فضول شرف. وتكشف الشاب رغم واقعيته عن حالمٍ كبير بفضل شهادته الجامعية (بكالوريوس تجارة)، ووظيفته (أمين خزينة في عمر أفندي) (مما يفسر أيضًا احتياجه الدائم إلى تنظيف يديه)، أما الحلم فهو أسطول من سيارات نقل السائحين، يقترب ثمن الواحدة من رقم واحد وأمامه ستة أصفار، سجل الرقم على ورقة مذكرًا نفسه بأنه لا يملك صفرًا واحدًا. وتجلَّت له على الفور الإمكانيات التي تتفتح عندما يتغير موقع العلامة العشرية، فبوسعه أن يقترض خمسة آلاف من إحدى قريباته ويحصل على خمسة آلاف أخرى من جمعية يؤلفها مع زملائه في عمر أفندي ثم يدفع الآلاف العشرة لمعرض يبيع بالتقسيط ويحصل منه على سيارة فان تتسع لـ ١٦ راكبًا، ثم يسدد ثمن السيارة من سلفةٍ أخرى مؤجَّلة بالإضافة إلى عائد تشغيلها في نقل أطفال بعض معارفه إلى مدارسهم. وبعد ذلك يسدد السلفة المؤجلة ويؤجل قريبته إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. وما إن ينتهي من سداد ثمن السيارة يكرر العملية، وينتقل إلى سيارات أكبر حجمًا، وهكذا إلى أن يتكون أسطول الأحلام.

– متتصورش كنت عايش ازاي! كان لازم أكون في الشغل الساعة تسعة إلا ربع، وقبليها بساعة قدام مدرستين، وقبل كده بساعة تانية قدام بيوت التلامذة. مكنتش بنام

وطول الوقت على أعصابي، حاطط منبهين جنبي عشان أضمن أصحى الساعة خمسة الصبح، ويا ويلي لو تلميذ منزلش لأنه عيي أو راحت عليه نومة أو لو اتحرقت بوجيهات السيارة أو انفجر الكاوتش أو البطارية عطلت، المهم قدرت أسدد شوية أقساط لغاية ما العربية طارت.

حادثة؟ تقريبًا؛ فقد صادرتها الشرطة بعد أن تبين أنها مسروقة من الأساس وضاعت عليه الآلاف العشرة وما تلاها من أقساط، وانضم إلى ثلاثين حالمًا آخر قدموا بلاغات ضد صاحب المعرض الذي كانت كل جريمته هي العبث، مثلهم، بالعلامة العشرية.

هل يستسلم لليأس؟ ويظل قابعًا خلف خزينة عمر أفندي حتى يبلغ سن التقاعد؟

أجاب شرف على الفور: طبعًا لا.

التجأ سامح مرةً أخرى إلى تحريك العلامة العشرية، واختار مكان عمله مجالًا للمحاولة؛ فالثمن المقيد بقسيمة البيع إذا كان مثلًا ٢٣ جنيهًا و١٢ من مائة يسجله على شريط ماكينة الخزينة جنيهين و٣١٢ من ألف، نجحت الطريقة نجاحًا باهرًا ولم يعبها سوى أمرين: الأول اضطراره لاقتسام الدخل مع زميل له. والثاني هو ما حدث في يومٍ موعود، فبدلًا من أن تتحرك العلامة العشرية، تحرك ضمير الزميل.

اكتشف شرف بالتدريج أن محاولة تحريك العلامة العشرية هي القاسم المشترك الأعظم بين زملائه في الزنزانة. لكن الحساب، بكل تجلياته من جمع وطرح وقسمة وضرب، كان أضعف نقاطه في المدرسة؛ ولهذا استبعده من مخططاته، وخاصة بعد أن علم ببعض مضاعفات الأرقام كما في حالة توكل الذي يحتل أهم نمرة في الزنزانة ولا تنتظره أي نمرة في الخارج. فعندما خرج من أول سجن على الحديدة، التجأ إلى أبيه الذي جمع ثروةً كبيرة من التسول وتقاعد بعد أن بلغ السبعين، طلب منه قرضًا بسيطًا ستة آلاف من الجنيهات، ليستأنف بها تجارة المخدرات لكن الأب البخيل رفض. عندئذٍ انهال عليه بالشاكوش حتى مات، وحفر له مقبرة داخل غرفته دفنه بها وقام بتبليط الغرفة، لكن الرائحة فضحته ورافقته حتى الزنزانة. وبسبب هذه الرائحة انجذب شرف إلى مستر تامر.

فبهدف مكافحتها جلب الأخير أسطوانةً معدنيةً أنيقة، نُقش عليها شعارٌ غامض: «حلٌّ خاص لمشكلةٍ عامة من جونسون»، ووعدٌ براق: «يقضي على رائحة الدخان فورًا وينشر رائحةً عطريةً هادئة تعطر الجو في الصباح.»

ضاعف هذا التصرف الشيك من جاذبية مستر تامر في نظره، إلى جانب ملابسه الكاجوال ورقَّته المنحدرة من ملوك ومماليك أحسن الخدم تربيتهم، وبيجامته الحريرية

الـ «بيزيك ثينكينج» التي يصرُّ على ارتدائها قبل النوم، وهالة العطور التي تحيط به دومًا (من دهان الشعر «كازوريل»، إلى مضاد العرق، مرورًا بأفتر شيف «سبورت»)، والكلمات الإنجليزية التي تقفز إلى شفتَيه عن غير قصد، وأنواع الأطعمة التي تأتيه يوميًّا معجنات وفطائر، كرواسون وسابليهات، ألبان طازجة، شرائح أناناس لزوم الاستعمال مع «كلوجز» الذي اصطف خلفه بتجلياته المتنوعة («هوني سماكس»، «رايس كريسبيز»، «فروستيز»، «كورن فلاكس»، «كورن بويس»)، مربات وأجبان فرنسية كريهة الرائحة، قلوب النخل بالدريسنج، كشك الدجاج والتوست، دجاج مخلي بالزيتون، دجاج شركسية، دجاج بالكاري، سمك باللبن، سمك بالجمبري، جمبري بالشامبينيون، جمبري بالجمبري، ومن الحلويات ألماظية الشوكولاتة وطورطة «بلاك فورست» وتارت جلاسيه دون أن ننسى شاي الساعة الخامسة مع الكوكيز.

كانت كل هذه الخيرات تأتي في صناديق تحمل اسم فندقٍ مشهور من فنادق الخمسة نجوم؛ سرعان ما تبين أن مستر تامر ليس غير مديره الإقليمي. وارتفع قدر مستر تامر أكثر عندما عرف شرف أنه يدير بالإضافة إلى الفندق، شبكة دعارة من ممثلات الإعلانات التليفزيونية. ثم هوى بسبب الألعاب المحلية.

لم تكن كوتشينة أو دومينو أو سيجة (سيتعلمها أشرف بعد ذلك على يد عبد الفتاح) ولا حتى شطرنج، وإنما «سكرابل»، أخرج رقعتها من أحد صناديقه ليلاعب من يستطيع تكوين كلمات بالإنجليزية انطلاقًا من أحد حروف كلمةٍ قاعدية يصفها بنفسه بحروف جاهزة.

كان مستر تامر ذا فراسة فاختار لمنازلته اثنين فقط لمس إجادتهما للإنجليزية هما الدكتور والسفير، ورفض أن يسمح لشرف بملاعبته رغم تأكيدات الشاب أنه يجيد اللغة «في الحقيقة».

لم تمضِ اللعبة في سلاسة. فلم يكن هناك قاموسٌ مشترك، وكان كل واحد يختار مفرداته من قاموسٍ خاص يجهله الآخران؛ فيثور الجدل، لكن اختلاف القواميس لم يكن السبب الوحيد في تخريب سكرابل. فعلى عكس مستر تامر الرقيق المهذب، كان سعادة السفير، في الفانلة التي كشفت عن شعر كتفيه وثدييه، والكلسون البلدي الفضفاض الذي يبلغ ركبتيه، وبصوته الجهوري؛ فخورًا بتاريخه الذي امتد من العسكرية إلى الخارجية ثم الفراخ والكبدة؛ فأتاح له مكانةً مرموقة ومعرفةً شاملة؛ مما جعل الاصطدام بالدكتور رمزي أمرًا محتومًا.

فالدكتور رمزي (رغم شروده المتواتر)، كان مغرمًا بإيضاح الأمور، والتعليق على القضايا المثارة، مستعينًا بكوم من الجرائد والمجلات العربية والأجنبية تصله بانتظام (المحلية عن طريق الكانتين، والأجنبية تحضرها سكرتيرةٌ مخلصة مع الطعام والملابس المغسولة) فضلًا عن الكتب التي يستعيرها من مكتبة السجن. كما كان عاجزًا عن السيطرة على انفعالاته، جاهزًا للانفجار عند أدنى معارضة، على عكس السفير البارد الأعصاب غير المستعد (بحكم تاريخه العسكري الحافل بالانتصارات) لقبول الهزيمة؛ لهذا أثارت نتيجة موقعة «إيزالو» حفيظته.

فقد شاء السفير أن يكافح الناموس الهائج بالقرص الساحر، وتصدى له الدكتور مؤكدًا أن القرص يؤدي للإصابة بالسرطان، وعلى الأقل تضخم الرئتين واحتقان الطحال.

قال له سعادة السفير في بروده القاتل: وانت إيش عرفك؟

لم يكن الدكتور رمزي طبيبًا وإنما صيدليًّا؛ ولهذا كانت مصداقيته أكبر (بسبب الجرائم التي لم يتمكن الصيادلة بعدُ من ارتكابها). ولم يكن السفير يتمتع بشعبية، كما أن توكل رأى ببعد نظره أن تشغيل الجهاز سيفتح بابًا لتبديد التيار الكهربائي الذي يتولى مسئوليته. لهذا كله انتصر الدكتور في معركة إيزالو، واستعوض السفير هزيمته في معارك سكرابل.

ففي إحدى المرات تشكلت على الرقعة عبارة «سيتي بنك» وبينما كان الدكتور رمزي يفكر في كلمة تنطلق من أحد حروفها، وجد سعادة السفير الفرصة لتعليق اقتصادي: فهذا البنك الذي سيبدأ نشاطه في مصر بطرح سندات قيمتها ٢٠٠ مليون جنيه هو دليل على صحة الاقتصاد المصري وعلى نجاحه في اجتذاب الخواجات. وما كان الدكتور رمزي ليترك تعليقًا كهذا يمر في بساطة فقال للسفير إنه يتذكر أن هذا البنك كان موجودًا من عشر سنوات واستفاد من الاعفاءات التي قررتها الدولة بهدف جذب الاستثمارات الأجنبية ثم أوقف نشاطه بعد انتهاء مدة الإعفاء وحوَّل أرباحه للخارج ومضى.

– طب وفيها إيه؟

ولا حاجة، سوى أن البنك، في رأي الدكتور، يعود الآن ليكرر ما فعله من قبلُ فيستفيد من الإعفاءات دون أن يجلب استثمارات ولا يحزنون، وإنما يستعين بقرض من جمهور المصريين على تمويل نشاطه في امتصاص استثماراتهم.

كفر وتجديف بالطبع في نظر السفير؛ لأن مجلس إدارة البنك مكون من ناس محترمين هم رؤساء «بيبسي كولا»، و«بوينج» و«بيكتل» للمقاولات، التي كان يرأسها «شولتز» وزير

الخارجية الأمريكية، فاكره؟ أما أكبر مساهم فهو أمير سعودي وهذا وحده أكبر دليل على سلامة البنك.

من وجهة نظر الدكتور رمزي كان هذا دليلًا دامغًا وإنما على العكس؛ فانفجر السفير موجهًا شتى الاتهامات للدكتور، وكاد الاثنان يتماسكان بالأيدي لولا توكل الذي تدخل مكررًا نداءاته بضبط النفس.

شيئًا فشيئًا كان اللون الأبيض يزحف إلى شعر سعادة السفير لا نتيجة زوال الصبغة وإنما بسبب معارك سكرابل، وفقد مستر تامر حماسه للعبة فقد السيطرة على تجلياتها، وكان هناك ضغط غير ملحوظ من الرأي العام الذي كان مستبعدًا من معاركها، هكذا تراجعت سكرابل لصالح لعبةٍ أخرى أكثر شعبية، تدعى «عروستي».

كانت بسيطة للغاية: يختار الواحد كلمة لا يفصح عنها للآخرين، ثم يقدم معلومات مبهمة عن مضمونها مبتدئًا بالتصنيفات الرئيسية لأنواع الموجودات: إنسان، حيوان، جماد. ويتبارى اللاعبون في التخمين متقدمين على طريق المعرفة.

سبق لأشرف أن جرب هذه اللعبة مع أخته وأمه وأولاد خالته في دمنهور، وكان الرصيد من الأغاني والأفلام المصرية أساسًا ومسلسلات التليفزيون وبرامجه ثم بضاعته الخاصة التي أفحمهم بها والمؤلَّفة من نينا ريتشي كريستيان ديور شانيل كارفن جيفنتشي لاروش لانفان تيد لابيدوس باكورابان،

كارتييه بوشرون دوبون إيف سان لوران بيير كاردان هرمس،
وستنجهاوس يونيون إير فيلكوساس ميركو كاريير،
سوني بوش سامسونج جنرال إلكتريك أريستون فيلييس،
شارب كريازي سيتيزين كلفينيتور ناشيونال،
يورك هوفر هيتاشي طومسون أكاي،
شيراتون هيلتون سوفيتل موفينبيك أوبروي هينان،
إنتركونتينتال سويس أوتيل سونستا،
فولكس فاجن سكودا فيليشيا،
فيات أونو بونتو دوجان ألفاروميو،
أوبل كورسا فيكترا بيجو،
هيونداي لادا داتشيا نيسان كيا بيتسا كيا سيفيا نوشا،
ميتسوبيشي لانسر سوزوكي ماروتي مازدا تويوتا كرولا ستارليت،

فالكون كريست نوتس لا ندنج دالاس بولد آند بيوتيفول،
لانس آبي ريتشارد جير ريدج.

لكن ملكيِّي السجن غير مثقفي دمنهور. وكما يحدث في التحولات الثورية، سرعان ما وقعت اللعبة التي استوعبت جميع الطبقات والاتجاهات في البداية، في قبضة مراكز القوى وأصبحت مجالًا للتنافس بين الأقطاب الثلاثة. فارتفعت إلى مستوياتٍ عالية بعيدة عن مدارك أمثال شرف. صحيح أنه سجل نقطتَين ساحقتَين؛ فهو الوحيد الذي عرف أن «كورونا» تؤكل وتُركب (الأولى شكولاتة والثانية طراز لتويوتا) وأن سيارة «دوجان» من فيات مثل مواطني الكويت نوعان؛ واحد بمحرك «تمبرا» بالباور والثاني بدون. لكن معلوماته كانت مليئة بثغراتٍ واسعة مثل الثقوب الكونية السوداء. فمن أين له أن يعرف فضيات «ريجالي»، جلود «بوزانو»، حقائب سيدات «أوريالي»، أو «جاكوزي» التي ثبتها السفير في حمامه، أو ملوك ملابس الرجال مثل «ماريان بيك»، «غولدستين»، «سرج غيور»، «تيدي كنوف» الذين يعرفهم مستر تامر معرفة شخصية، أو الشخصيات الأخرى التي لا يعرفها الدكتور رمزي شخصيًّا مثل «دورينمات» و«إبسن»، «مصطفى النحاس» و«عبد المنعم رياض»، «نور الهدى»، و«مارلين ديتريش»، ابن رشد و«باسكال» الفيلسوف لا المجوهراتي، فضلًا عن طراز «موستانج» في السيارات، وعاصمتي باراجواي وأوروجواي وبضع عشرات من الأمراض والأوبئة والأدوية؟ وفي النهاية تكفلَّت قضية الشرق الأوسط بنسف اللعبة نسفًا تامًّا.

والذي حدث أن سعادة السفير اختار كلمة وأعطى الإشارات الضرورية التي حددتها كاسم دولة في الشرق الأوسط، وأضاف مجموعة من الإشارات توجت بحاصل جمع الفَلَس والطين، فانفجرت ثائرة الدكتور رمزي.

لم يكن السبب سياسيًّا أو أيديولوجيًّا وإنما تقنيًّا بحتًا: فلسطين ليست بعدُ دولةً رغم كل الاتفاقيات التي عُقدت بشأنها. فنَّد السفير هذا الزعم من واقع نصوص مدريد وأوسلو، عارجًا على دوره في حرب أكتوبر مقاتلًا في قيادة اللواء الثالث، وفي مباحثات السلام سفيرًا في كامب ديفيد، متفرعًا إلى نتائج الصلح مع إسرائيل (الأموال ستتكدس لدينا ويتم حل مشاكلنا) الأمر الذي عارضه الدكتور مستشهدًا بنتائج الخبرة الإسرائيلية في الزراعة؛ خيار بطعم البلاستيك، وفراولة بطعم اللفت، وتفاح بطعم قشر البطيخ، وخوخ مفعوله أقوى من الحقنة الشرجية، وبيض بلا طعم، ونحل بلا عسل.

التفرعات تطرقت إلى محطاتٍ متوقعة: جمال عبد الناصر، الاتحاد السوفييتي، وأخرى غير متوقعة.

ففي غمرة انفعاله تخلى السفير عن نقطة البداية في عروستي معلنًا أن فلسطين هي أرض اليهود طبقًا للقرآن: عاشوا فيها من قديم ثم تشتتوا وآن لهم أن يعودوا.

– يبقى لهم حق في مصر كمان ... مش عاشوا فيها؟

– مصر حاجة تانية.

– ازاي؟

لا إجابة وإنما تفريعة جديدة: التقدم العلمي والتكنولوجي.

عدد الدكتور (مستشهدًا بمجلة أمريكية إلى جواره) المساعدات التي حصلت عليها إسرائيل من الغرب والتي تفوق مائة مرة ما حصل عليه جميع سكان العالم الثالث مجتمعين، وقال ملوِّحًا بالمجلة: أمريكا نفسها تقدم ألف دولار سنويًّا لكل فرد إسرائيلي. ووجد السفير في هذه الأدلة تأكيدًا لوجهة نظره: شاطرين.

كان شرف من الجيل الذي شكله سعادة السفير ورفاقه باسم «جيل السلام» و«مصر أولًا» واشتهر بالاسم الكودي «جيل أكتوبر». وكانت للدكتور رمزي آراء غير حداثية من قبيل معارضته لشامبو الشعر على أساس أنه مجرد صابون تضاف إليه مواد تضر بجلد الرأس، هكذا وجد شرف نفسه ميالًا إلى وجهة نظر السفير ومنحازًا إليه بكل عواطفه وبفكره الاستراتيجي، خاصة وأنه وجده يحوز مجموعة «ستينج» الكاملة؛ النظارة وجرابها وسلسلتها، فشرع يتقرب إليه منافسًا في ذلك رمضان بلدية. لكن طموحات شرف تحطمت على صخرةٍ صغيرة للغاية لا من الحجر الرملي أو الجيري وإنما من الحلاوة الطحينية.

رغم المساحة الكبيرة التي احتلَّها قاسم بيه في كل من الزنزانة والمجتمع إلا أنه كان تقليديًّا محافظًا متمسكًا بالتراث. الملوخية والبامية والقلقاس والخبيزة والأرز المفلفل العادي والفول المدمس والبصارة والكنافة والبقلاوة والبسبوسة (يتخللها أحيانًا البودنج بالمكسرات من ذكريات أيام السفارة) مرددًا بمناسبة وغير مناسبة: «إحنا شعب يهضم الزلط»، كما أَلِف أن يفعل زميله بائع المكرونة. لكن متعته الرئيسية، للعجب، كانت الحلاوة الطحينية، بالفستق بطبيعة الحال.

وتصادف أن هذا النوع المتخلف من الحلوى كان عشق شرف من الصغر، وأجمل ذكريات طفولته هي المصحوبة بساندوتش منها (من الخبز الفينو) وأروعها هي المرات المعدودة التي وسدت فيها فوق طبقة من الزبد. وقد تداعت هذه الذكريات في كل مرة يلتهم فيها السفير قطعة منها.

وتصادف أيضًا أن النمل هاجم نمرة سعادة السفير ونجح في التسلل إلى علبة الحلاوة. التجأ إلى علبة «بيروسول» رش منها حول نمرته فذكر له الدكتور رمزي أن المبيد لا يحل

المشكلة وأن النظافة التامة هي التي تمنع توالد الحشرات. لم يحفل السفير بالرد عليه وإنما قال في سخرية: «وإيه كمان يا دكتور؟» قال الدكتور إن البيروسول بالذات يؤثر على العصب البصري ويمكن أن يؤدي إلى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وتضخم الكبد، كما أنه يضرُّ بالقدرة الجنسية.

كانت الحجة الأخيرة هي التي أقنعت السفير. فكفَّ عن الرش في صمت، وتنافس شرف ورمضان على إخراج نمرته إلى الفناء وصناديقه إلى الطرقة، واستدعى واحدًا من الخدم لمسح الزنزانة جيدًا ورشها بالجاز. اختفى النمل يومًا واحدًا ثم ظهر من جديد، فتفتق ذهن السفير عن حل من التراث. وضع علبة الحلاوة في قروانة مليئة بالماء ووضع القروانة في منطقة البلل؛ أي عند المدخل، إلى جوار الدلوين والأحذية ورأس شرف.

كان الإغراء أكثر مما يحتمل الشاب المسكين، فانتظر إلى أن نام الجميع، ومد يده إلى العلبة فرفعها من المياه في خفة وأزال غطاءها، وجانبًا من محتوياتها.

لم يكن البيروسول قد أثر بعدُ على نظر السفير فاكتشف العدوان في الصباح التالي مباشرة، ووقف وسط الزنزانة ممسكًا بالعلبة في يده وهو يزأر: مين الكلب اللي أكل من الحلاوة دي؟

لم يفه أحد بكلمة، وتحاشت الأنظار الاتجاه إلى توكل وربيبه ماكس (وهما مرشحان للاتهام بسبب موقعهما الاجتماعي والدلوي) وتركزت على شرف (أضعف الحلقات).

كرر السفير: حد قام بالليل وأكل منها؟

بدافع الكيد للسفير أو إشفاقًا على الشاب المسكين تدخل الدكتور: محدش. أنا معرفتش أنام طول الليل ومشفتش حد قرب منها.

وجه إليه السفير نظرات الاتهام ثم نقل البصر، بين شرف وقروانة الماء والعلبة مستعيدًا القواعد الرئيسية للتحصينات الدفاعية كما درسها في كلية أركان الحرب، ثم رفع العلبة إلى فمه وبصق فيها. ووسط ذهول الموجودين انطلق يوزع بصقاته على أركانها قائلًا وهو يبتسم في خبث، مخاطبًا شرف: كده محدش حيقرب منها غيري.

دفعت الحادثة شرف في اتجاه الدكتور الذي لم تكن تفصله عنه غير نمرةٍ واحدة. وكان الدكتور بعد انهيار سكرابل قد انصرف إلى مجلاته وكتبه، ولم يبخل على شرف بالمعرفة فأقرضه ما شاء منها؛ الأمر الذي أصابه بالإحباط.

فالمجلات كانت خالية تمامًا من «الصور». ذلك أن الملتحين ألحقوا بإدارة السجن نوباتجيًّا من بينهم، من المعجبين بالرقيبة على المصنفات الفنية: لا بجمالها وإنما بمهنتها، فمارسها على ما يصل السجن من مجلات، مستخدمًا قيعان البطاريات القلمية في مسح

صور النساء والرجال أيضًا، تجنبًا لكل صور الانحراف، أما الكتب فكانت نوعين: اقتصادية وعلمية فوق مدارك أشرف، أو روايات مسرحية لا طاقة له على قراءتها.

أبدى شرف تعجبه من اهتمامات الدكتور، فاعترف هذا بأنه كان عضوًا في جماعة المسرح بالمدرسة وأضاف: المسرح حلو.

وافقه شرف قائلًا إنه يحب المسرحيات التي يشهدها في التليفزيون ويتولى بطولتها «فؤاد المهندس» و«عادل إمام» و«محمد صبحي» و«أحمد بدير»؛ لكنه يفضل أفلام «فان دام» و«شوارزينجر»، لم يعلق الدكتور وإنما استعار له من مكتبة السجن مسرحية توفيق الحكيم «رصاصة في القلب» التي أعجبت شرف (فلم يكن قد نسي هدى بعدُ)، أو تظاهر بأنها أعجبته كي يحظى بتقدير صديقه الجديد، حتى إنه اقترح عليه محاولة تمثيلها.

التمعت عينا الدكتور وقال وهو يتحسس شعر رأسه بأصابعَ طويلةٍ رشيقة ليتأكد من وجود كل شعرة متبقية في مكانها: يا ريت. أنا قلت للمأمور نألف فرقة مسرحية من المساجين، مرضاش.

أن يتبادل سجين الحديث مع الباشا المأمور نبأٌ مثير. الأكثر إثارة تفاصيل الحديث الذي تناول موضوعاتٍ عديدة؛ طلب الباشا خلاله من الدكتور أن يصف له بعض الأدوية المنشطة.

استفسر الشاب الغر: منشطة لإيه؟

ضحك الدكتور: تفتكر لإيه؟

تأخر شرف في الإدراك لأنه شخصيًّا لم يكن يحتاج إلى تنشيط. ولهذا السبب انتهز الفرصة ليستفسر عن الموضوع الذي يؤرقه. وأتحفه الدكتور بعرضٍ علميٍّ رصين: ليست هناك أضرار، وعلى العكس؛ أي عضو في الجسم لا يُستخدم يتعرض للضمور، لكن المشكلة في وتيرة هذا الاستخدام.

– تصور أنك بتشوف كل يوم فيلم لفان دام بتاعك أو جيمس بوند وتعيش في عالم السوبرمان؟ ازاي تكون علاقتك بالواقع؟ (لم يفهم شرف المقصود) الأهم من كده الإحساس اللي بتسيبه جواك، إن فيه حاجة نقصاك لأنك بتحضن صورة في الهواء، مفيش أجمل ولا ألذ من حضن الجسم الحي.

لم تكن تجربة شرف في الحياة تتيح له فهم الجانب الحسي فضلًا عن الفلسفي من حديث الدكتور، الذي لم ينتبه للأمر؛ وانتقل بسرعة إلى حديث الذكريات قبل أن يفقد مستمعه: لما بلغت عملت المناولة، رحت الكنيسة مع أبويا يوم حد. وبعد الوعظ القسيس

قرا أجزاء من الإنجيل. وبعدين صلى على القربان. القربان ده حتة عيش ناشفة، كسرها فوق فوطة بيضة وقرب الفوطة من بقي فتناولت الكسر.

كانت هذه هي الفاتحة. فبعد شهور استمنى الدكتور لأول مرة، انتابه الرعب وذهب للاعتراف. طلب منه القسيس أن يقرأ «السلام عليك يا مريم» عشرين مرة ويصوم يومين، وأن يمتنع عن العادة الخبيثة. وعده بذلك وانصرف مشيعًا بالمطلوب: «اذهب مغفورة لك خطاياك.» بعد يومين ضعف. ذهب إليه مرةً أخرى. وتكرر المشهد. يعترف ويتوب فينال الغفران ويعود إلى البيت مصممًا على الامتناع، وفي مساء نفس اليوم يضعف فيذهب إلى القسيس في اليوم التالي، وهكذا، وبعد عدة مرات خطر له أنه طالما يحصل على الغفران دائمًا فلا بأس أن يذهب إليه مرةً واحدة في الأسبوع، ثم جعلها مرة في الشهر. وأخيرًا انقطع عن الذهاب نهائيًّا.

لم يكن شرف هو الوحيد الذي لجأ إلى الدكتور في شئون الجسد؛ فقد حرص كل واحد منهم على أن ينفرد بالدكتور ويقود الحديث بمهارة إلى بيت القصيد، مع تنويعات. فإذا كان شرف يشكو من كثرة القذف فإن رمضان شكا من سرعته، وسامح عمر أفندي شكا من بطئه، وأبو السباع من انعدامه. وأسرَّ عزت بيه، وهو يمسح العماص من طرفَي عينَيه، لا بحقيقة التهمة الموجهة إليه وهي اختلاس أموال جمعية إسكان، وإنما بأن زوجته تتهرب دائمًا من ممارسة الواجب الشرعي، وأدار مستر تامر معه حديثًا علنيًّا بالإنجليزية حول الأفروديسيات المساعدة، انضم إليه السفير بأسئلةٍ محددة عن الرويال جيلي والجينيسنج والمخدرات (فاضحًا نفسه دون أن يدري) ثم تظاهر بالموافقة مع الدكتور على أنه لا يمكن إحياء العظام وهي رميم (مؤكدًا بذلك ما فضحه). اثنان لم يحفلا باستشارة الدكتور لأن مشاكلهما كانت محلولة بفضل الأرواح، هما بالطبع المهندس والشيخ فتحي. اثنان آخران التجآ للدكتور وإنما في مشكلة من نوعٍ آخر.

كان ماكس دائم الشرود مثل الدكتور، لكن شروده على العكس من الأخير، كان مصحوبًا بالتدخين المتواصل وبابتسامةٍ سعيدة. وفي أحد الأيام قامت مباحث مصلحة السجون بحملة تفتيشية واسعة بحثًا عن الممنوعات. في اليوم التالي تغير ماكس وأصبح شديد العصبية وأخذ العرق يتفصد من جبينه وامتنع تقريبًا عن الأكل مكتفيًا بالشاي والقهوة. وأعلن توكل لمن سأل أنه يعرف ما يحتاج إليه ماكس، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، وأخيرًا لجأ للدكتور.

قال توكل إن الدكتور يملك مساعدة ماكس ومساعدة نفسه في آنٍ واحد، كيف؟

الولد سيجن إن لم يحصل على حاجته.

– طب وأنا أقدر أعمل له إيه؟

– مش حضرتك برضه أجزجي؟ إحنا عاوزين الأوزان وبس.

فالتركيبة والمواد متوافرة؛ ماء يود، فوسفور أحمر، إفدرين، كحول، جليسرين، إكرار فيلافين، بيكربونات صوديوم لكن النِّسَب لا يعرفها غير المعلمين الكبار ولا يكشفون عنها لأحد إلا مقابل مبالغَ ضخمة تصل إلى ربع مليون جنيه.

أكد توكل أن اقتراحه ذو طابع استثماري: الميه النضيفة غالية. الحقنة بـ ٦٠ جنيه والوسخة الحقنة بـ ٣٠ جنيه، ده برة السجن فما بالك جوة؟ إذا كان على الغلابة كيفهم برضه موجود. العشرة سنتي بخمستاشر جنيه، وفيه سنتي واحد باتنين، نعمللنا مطرح. مسمعتش عن المطرح؟

تولى ماكس الشرح وعلى وجهه نظرةٌ حالمة: الواحد يروح مع مجموعة من خمسة لتسعة ويمر عليهم واحد بالوسكاية؛ قزازة فيها تلات أربع لتر ورخيصة جدًّا، تمنها ميت جنيه أو مية وخمسين. كل واحد يتحقن سنتي سنتي على المهل لغاية ما تنتهي الوسكاية بعد ست ساعات.

ثم انتهز الفرصة ليوضح أنه لم يسرق إلا بسبب المخدر؛ ولهذا فهو على ثقة من الإفراج؛ لأنه من نجوم المجتمع ويجب أن يعامَل مثل ممثلي السينما الذين يُفرَج عنهم في قضايا المخدرات.

أبدى الدكتور تفهمه للإيضاح الاجتماعي واعتذاره عن السؤال الاقتصادي متحجِّجًا بقسَم أبقراط الذي لم يسمع به توكل ولا ماكس بالطبع، اعتقدا أنه يسخر منهما أو ينوي العمل لحسابه، فأسرَّاها في نفسيهما وانضما إلى السفير في حلفٍ مُعادٍ بعد حادثة الهامبورجر.

ففي إحدى المرات أرسلت أم شرف إلى حبة عينها ساندوتشات الهامبورجر التي يعشقها، ووجدها الدكتور فرصة لمحاضرة عن أضرار اللحوم غير المطهية جيدًا: طفيل اسمه التكسوبلازما يُحدث تشوهات في العصب البصري وخلايا المخ، ويعرض المرء لأمراض الكبد والطحال.

وسواء عن قصد أو غير قصد، ندد الدكتور بصوت لم يحرص على خفضه، بأولاد الحرام الذين يستوردون اللحوم الملوثة.

كانت الإشارة الأخيرة كفيلة بإثارة سعادة السفير. لكن فمه كان ممتلئًا ساعتها. فانتظر إلى أن حانت فرصة الرد عندما تحدد يوم الاحتفال بعيد ميلاد الدكتور جريًا على عادة الزنزانة في الاحتفال بأعياد ميلاد نزلائها.

ففي اليوم المحدد، ظهر رمضان عند التمام ومعه مسجلة وشريط. حصل على المسجلة من الدكتور ثابت وعلى الشريط من الطابق الثاني.

بعد العشاء بدأ الحفل وافتتحه ماكس بإدارة المسجلة والشريط. وانطلق صوت الشيخ عمر عبد الكافي في فضاء الزنزانة:

«واحد بيقول إحنا جيراننا وزمايلنا في الشغل مسيحيين ... نصارى ... بتيجي لهم أعياد، نروح نهنيهم؟ ... كل سنة وانت طيب يا بطرس ... كل سنة وانت طيب يا إسحاق ... يا وليم ... آه ... ينفع الكلام ده؟ الإسلام يقولك ما ينفعش ... ليه؟ لأن انت لما ... هو عنده عيد مثلًا ... عيد القيامة، عندهم عيد اسمه عيد القيامة اللي قام فيه السيد المسيح ... زي ما بيقولوا يعني، فإذن إنت لما تروح تقول له في عيد القيامة كل سنة وانت طيب، أقرِّيت من نفسك إن إيه؟ إن فيه حاجة اسمها قيامة المسيح ... صح وللا لأ؟ يبقى هذا إقرار ضمني من جواك إن فيه للمسيح قيامة ... وإنه مات وصحي ... وإنه بُعث لكي يحكم العالم لأنه ابن الرب أو لأنه ابن الله، والكلام ده كله حرام ... ما ينفعش إنك تروح للمسيحي وتقول له كل سنة وانت طيب ... لكن لو شفته في السكة قوله ازيك. يقولك يا سيدي أنا زعلان منك ... ليه؟ زعلان مني ليه يا بطرس؟ يقولك ما جِتش تعيِّد عليَّ ليه؟ الله ... هو انتو كان عندكم عيد؟ آه امبارح كان عيد القيامة ... يا راجل ... هـ ... توهه ... المهم متقولُّوش كل سنة وانت طيب ... العب معاه ... المهم ماتقولش إن عنده عيد.»

ساد الوجوم الزنزانة. ورفع مهندس الأرواح الشريرة رأسه من القرآن وقد التمعت عيناه وارتسمت على شفتَيه ابتسامة لأول مرة، وعلت وجه السفير، الذي كان يحتسي الشاي من مجٍّ خزفيٍّ مزركش، ابتسامة صفراء انتقل لونها إلى وجه الدكتور رمزي.

لم يكن الدكتور رمزي مسيحًا ولا كان يأمل في أي قيامة، لكن الرسالة وصلته فلم يحتفل بعيد ميلاده في تلك الليلة ولا في الليالي التالية، وكفَّ عن عرض أفكاره وتعليقاته إلى حين، منصرفًا إلى تدوينها في أوراقه، وانغمس في مجلاته وكتبه وعزف عن الاستماع لشرف أو الحديث إليه، فدفع به، عن غير قصد بالطبع، إلى أحضان عبد الفتاح.

١٠

نادوا عليَّ للزيارة وأخذني الحارس إلى المكاتب، وجدت المحامي الذي وكلته أمي في انتظاري. كان قصير القامة، ممتلئ الجسم يرتدي ملابس كاملة رغم حرارة الجو: سترة كاروهات رمادية اللون من صناعة المحلة، فوق بنطلون من الصوف الخفيف، داكن اللون وقميص من قماشٍ أبيضَ لامع، يبرز منه كرشه، وكرافتة ذات ألوانٍ صارخة. وكان يضع فوق ركبتيه حقيبةً جلدية من النوع المزود بقفل يعمل بالشفرة، تبدو عليها الجدة، وتشبه حقائب السامسونايت، لكنها لم تكن تحمل علامتها المميزة، وكان يرتدي حذاءً أسود اللون بلا رباط، من نوعٍ رخيص، انبعجت جوانبه عند الأصابع وتآكل جانب من نعله.

جلستُ أمامه على مقعد فتلقيتُ هواء مروحةٍ قديمة من إنتاج المصانع الحربية كئيبة الشكل، وُضعتْ فوق خزانةٍ معدنية. وكانت هناك واحدةٌ أخرى حديثة من طراز توشيبا فوق المكتب. لكنها كانت متوقفة.

قال لي: احكيلي يا أشرف كل حاجة من طأطأ لسلامو عليكو.

حكيت له كيف تعرفت بجون ودخلنا السينما، وانتبهت إلى أنه لا ينظر إليَّ وإنما يتطلع إلى النافذة المسورة بنظرةٍ شاردة، فكففت عن الكلام. ولم يعد يتردد في الغرفة سوى الطنين المرتفع للمروحة.

قال دون أن ينظر إليَّ: كمِّل، أنا سامعك.

أكملت قصتي وعندما انتهيت ظل صامتًا دون أن يرفع عينَيه عن النافذة.

تشجعت وسألته: رأي سعادتك؟

قال: خير إنشا الله.

تطلعت إليه مستفسرًا.

قال: الجلسة الجاية تقول للقاضي إن الاعتراف بتاعك كان تحت التعذيب، وتنكر كل حاجة.

قلت: وتفتكر ياخد بكلامي؟

نهض واقفًا في نشاط وهو يقول: ربنا يسهل.

أعادني الحارس إلى العنبر. لم أدخل زنزانتي، وتابعت السير حتى زنزانة عبد الفتاح، وجدت صديقَيه شحاتة وزغلول يجلسان أمامها في الطرقة يلعبان القمار بأغطية الكوكاكولا. كان الأول قصير القامة يعتني بشاربه الكث وملابسه الريفية، ويكبرني في العمر بعدة أعوام، ويتميز بالتحفظ الشديد، على عكس الثاني الحليق المهزار والودود الذي تجاوز الثلاثين، كانا من قريته ومشتركَين معه في نفس القضية. هتفا في نفسٍ واحد عندما رأياني: عاوز عبده؟ شوفه جوه، يمكن نايم.

وقفت مترددًا في مدخل الزنزانة. كان أحدهم قد حاول حجب الضوء ببطانية ثبتها فوق النافذة لكن طرفها تدلى كاشفًا عن النزلاء الغارقين في نوم القيلولة، وسقط جانب من أشعة الشمس بجوار عبده الذي رقد على ظهره، وغطى وجهه بقطعة من قماشٍ خفيف يشبه الناموسية لكيلا يزعجه الذباب. كان قد خلع جلبابه مكتفيًا بفانلة بحمالتَين من النوع المخرَّم وسروال فلاحي فضفاض يصل إلى ركبتيه.

ناديته بصوتٍ خافت فهبَّ جالسًا وهو يتلفت حوله مبهوتًا. انطرحت الناموسية عن وجهه واستقر الضوء عليه، كان خداه متوردَين من أثر النوم. كذلك كانت شفتاه. وكان كتفاه ممتلئَين مدورَين يهبطان إلى ذراعين نحيلين، وظهرت حلمتا ثدييه من بين خروم الفانلة.

أشحت بوجهي بعيدًا وسألته إذا كان يريد مواصلة النوم فأجاب بالنفي. نهض واقفًا فاستدرت وغادرت الزنزانة. انتظرت في الخارج حتى ارتدى جلبابه.

قال بمجرد خروجه: ولع لنا نص.

كان يحتفظ بسجائره معي وعندما نفترق في نهاية اليوم يأخذ لنفسه سيجارة واحدة يدخنها على عدة مرات بالاشتراك مع أصدقائه، أشعلت نصف سيجارة وانتحينا جانبًا، حكيت له ما دار بيني وبين المحامي من حوار، فبدا عليه عدم الارتياح.

قال: تفتكر البوليس والنيابة يسكتولك أو القاضي يصدقك؟

– أنا قلت له كده.

– وقالك إيه؟ كان لازم تاخد وتدي معاه.

قلت: مكنش سامعني خالص.

كنت فعلًا قادرًا على تمييز من يتظاهرون بالإصغاء إليَّ بينما هم يفكرون في شيءٍ آخر، حتى وهم يواجهونني بنظراتهم. كان الدكتور رمزي واحدًا منهم؛ فعندما ينظر إليَّ مباشرة ألاحظ أنه يحلِّق في مكانٍ آخر.

عبد الفتاح كان مختلفًا؛ كان يصغي إليَّ بكل جوارحه، ويشعرني بأن كل كلمة أقولها مهمة للغاية، وقد أدركت هذا كله يوم زيارة أمي وصرت أستريح للحديث معه.

قال: على العموم من هنا لساعتها تتحل. ع الأقل حتشوفه يوميها قبل الجلسة.

قلت متشككا: إن جه.

كانت أمي قد وكلته قبل أكثر من شهر ونصف ومع ذلك لم أقابله أو حتى أره سوى اليوم.

نادى الدهشوري علينا كي نخرج إلى الفناء، ولمحت الدكتور ثابت محفوظ يغادر زنزانته بمشيته المتخشبة. كان يرتدي قميصًا أبيض اللون بنصف كم، من طراز «سان ميكل»، وشورتًا مخططًا بالطول من طراز «هارتفورد» ونظارةً شمسية من طراز «ماتسودا».

أشار عبد الفتاح إلى حذائه وسألني: «ميستر» وللا «بالي»؟

كنت قد اكتشفت أنه لا يعرف الكثير من الأشياء مثل بعض أنواع السيارات والفروق بين ماركاتها وبالطبع لا يفهم في الملابس وأكسسواراتها، فحدثته عن هذه الأمور وهو يصغي مبهورًا، واستغرب أن تكون للأحذية ماركات.

تفحصت النقوش التي تغطي حذاء الدكتور ثابت وقلت: لا ده ولا ده، شايف التمساح. يبقى «لاكوست».

لمحت مستر تامر يؤدي التمرينات الرياضية فوجدتها فرصة لإبهار عبد الفتاح، شرحت له أسماء الملابس التي يرتديها: «سويت شيرت» وشورت «برمودا» وكاب «يا ماموتو» الجبردين.

تشابكت يدانا كالعادة وأخذنا ندور حول الفناء، انطلقت أحكي له قصة فيلم أحبه لشوارزينجر، تختطف فيه عصابة ابنته الصغيرة ويأخذونه في طائرة إلى أمريكا اللاتينية. لكنه يقفز من الطائرة في اللحظة التي ارتفعت فيها عن الأرض ويبدأ مطاردة أفراد العصابة ليعرف مكان ابنته ويقتلهم واحدًا بعد الآخر. وخلال ذلك يقتحم سوبر ماركت ببلدوزر ويهرب من الشرطة مرتين، ويسرق طائرةً برمائية يذهب بها إلى الجزيرة التي حُبست ابنته في أحد قصورها، ويتسلل إلى القصر حاملًا مدفعًا رشاشًا وراجمة صواريخ

وعدة آليات فيتصدى لجيشٍ كامل من الحراس المسلحين ويقتلهم واحدًا بعد الآخر، إلى أن يواجه عدوه القديم رئيس العصابة فيدور بينهما قتالٌ دموي ينتهي بانتصاره وتحرير الطفلة. وهنا يصل جنرال الجيش المكلف بمطاردة العصابة فيقول له: هل تركت لنا شيئًا فيرد عليه شوازينجر بعبارته المشهورة: بعض الجثث فقط. فيعلق الجنرال: كالعادة.

أعجب بالفيلم فحكيت له فيلمًا آخر لـ «فان دام» يستأجر فيه حجرة لدى أرملة تعيش وحيدة مع طفليها. وتهددها عصابة تريد ضم المنطقة إلى مشروعٍ مشبوه، ولا يتورع أفرادها عن كل وسائل التهديد والضغط بل حتى القتل. وتبدو لحظة المواجهة غير متكافئة؛ فالشريف نفسه يقف إلى جانب الأشرار، أما الأرملة فليس إلى جوارها غير فان دام بقبضته الفولاذية وطفلٍ صغير ذي أفكارٍ شيطانية، ثم يخرج فان دام في النهاية منتصرًا ويفوز بقبلة من البطلة، لكن القيود توضع في يديه تمهيدًا لمحاكمته في قضيةٍ سابقة تتعلق بسرقة بنك!

روى لي هو قصة فيلم يقوم فيه «عادل إمام» بدور عامل في السكة الحديد يلتقي بـ «يسرا» التي رفضت التفريط في شرفها عندما حاول رجل أعمال استغلالها في صفقاته. أعجبتني قصة الفيلم جدًّا كما أعجبني تمسك يسرا بشرفها، والحب الذي نشأ بينها وبين عادل إمام.

لمح السجينَ الذي يتولى توزيع الخطابات فأفلت يده من يدي وجرى نحوه، اقتربت من الحائط ووقفت مستندًا إليه. مرت جماعة من السجناء أمامي بينهم السجين الذي يزين أصابعه بالخواتم، كان معروفًا باسم عزيزة ويمشي بطريقةٍ فاضحة متلويًا كالنساء. رآني أتأمله فغمز لي بعينه وهتف: أمال فين الفردة بتاعتك؟

أشحت بوجهي متجاهلًا. لم يكن أول من أطلق على كلٍّ منا أنا وعبد الفتاح لقب فردة الآخر. فقد صار تلازُمنا موضع حسد الكثيرين.

عاد عبد الفتاح كسيف البال. رويت له ما حدث فعلق في اشمئزاز: مش عزيزة؟ سيبك منه، مفيش جوابات، لا لي ولا لك.

أشعلنا نصف سيجارة وقلت: أنا مش مستني جوابات من حد.

لم يكن هناك ما يدعو أحدًا من أهلي للكتابة إليَّ، وسيد اختفى، أما هدى فيبدو أنها نسيتني.

حدق فيَّ بعينَيه العسليتَين الواسعتَين غير مصدق: يا راجل!

كنت قد حكيت له كل شيء بصراحة، من أول قصة الحلاوة الطحينية إلى أبي الذي لا يكف عن نهري وإهانتي، وهدى التي أُغرمتُ بها، وكيف تعارفنا والتقينا، وكيف كنا نمشي بالساعات ويدها في يدي، ثم كيف تغيرت فجأة دونما سبب وأصبحت تتهرب مني.

قلت: مش قادر أفهم ازاي اتغيرت؟!

سألني إذا ما كنت قد عرضت عليها الزواج؟

تأملته مدهوشًا: الجواز؟ لا طبعًا، ازاي أقولها ع الجواز وأنا أهلي بيصرفوا عليَّ؟!

هزَّ رأسه في حكمة المجرِّبين: البنات تحب تسمع كلمة الجواز.

شردتُ قليلًا أحاول أن أتذكر تعبيرات وجهها وكلماتها ومراحل تغيرها، ثم سألته إن كان قد أحب أو فكر في الزواج، قال إنه يحب إحدى فتيات القرية لكن أهله مصرُّون على تزويجه لابنة عمه في صفقةٍ تبادلية تتضمن زواج أخته هو لابن العم. ورقَّت نظراته لذكر أخته وجعل يصفها لي بطريقة حببتني فيها.

حدثته عن أختي عايدة وكيف أنها تزوجت مبكرًا، ولم تعرف السعادة لأنها اضطرت للسكنى قرب مصنع الكيماويات الذي يعمل فيه زوجها، وأصيبت بالحساسية نتيجة الأبخرة المتصاعدة منه، وعندما فشل علاجها كان لا بد من مغادرة المنطقة والإقامة مع أمه التي دأبت على إساءة معاملتها. ثم وصفتُ له فاطمة التي تعمل في البوتيك وخُطبت عدة مرات دون أن تنجح واحدة منها. سألني عنها فوصفتها له. وأضفت أني أتمنى أن أُعرِّفه بها. قال إنه يود نفس الشيء بالنسبة لي وأخته.

قلت: إن شاء الله أول ما نطلع تزورنا.

قال في وجوم: ادعي ربك.

حكيت له عن شلة المعادي: عمرو طالب الهندسة الذي يقود السيارة واقفًا، بحيث يكون جسمه خارجها وقدمه اليمنى على البنزين. وهشام طالب الشرطة الذي زود سيارته الجيب بكافة أنواع السرينات ويهوى إطلاقها متتابعة، ووصفتُ له الموتورسيكل الغريب الذي يشبه سيارة جيب صغيرة والذي أهداه أبوه لشقيقه الأصغر في عيد ميلاده الثالث عشر وثمنه ١٠ آلاف جنيه، وشرحت له لعبة البولينج التي يلعبونها في صالة مخصوصة، ثم حكيت له قصة سالي فتعجب من أمرها وسألني عن عملها؟

قلت: ماكانتش لاقية شغل. كانت بتقول إنها خريجة سياحة وفنادق وتعرف إيطالي.

منين هي؟ فين أهلها؟

كانت بتقول إنهم ساكنين في الزمالك وإنها متخانقة معاهم وسايباهم.

– تبقى كانت بتستغلكم.

– لا والله. كانت كريمة جدًّا لما يكون معها فلوس، مرة عزمتنا كلنا في «بيتزا هت» وصرفت علينا متين جنيه حتة واحدة. كانت أول مرة أشوفها بتاكل. دايمًا يا إما بتدخن أو بتشرب شاي.

قال: يبقى كانت بتاخد أقراص.

تدبرت قوله فوجدته معقولًا، ورويت له آخر مرة رأيتها فيها. كنت قد ذهبت بالليل إلى الشارع الذي نقف على ناصيته في المعادي، ووجدت وفيق معها وكان مخدرًا تمامًا مضطجعًا فوق ظهر سيارة تحت شجرة، وقفنا نتحدث في انتظار أن يأتي أحد من الشلة، ثم قالت إنها تريد سجائر وليس معها نقود، وقلت لها إنه ليس معي أنا الآخر، وبعد قليل قالت إنها تريد أن تقضي الليلة عند صديقة لها وإنها لا تستطيع المشي لآخر الشارع. سألتها عن السبب. أجابت بحدة: دي حاجة شخصية! قال وفيق إنه ليس معه نقود هو الآخر، فقلت ننتظر حتى يأتي واحد من الشلة. فجأة لمحت عمرو خارجًا من فيلته وركب سيارته ومرَّ من أمامنا، قلت له رايح فين؟ فقال: محطة البنزين على الكورنيش عشان بيبيعوا هناك المارلبورو اللي في علبة مثل الكنت. لاحظت أنه مخدر جدًّا، قلت له: سالي عايزة تروح عند صاحبتها، فوافق على توصيلها. ركبت معهما وقاد ببطء شديد وأنا أنبهه للطريق، لغاية ما وصلناها ورجعنا.

أشعل عبد الفتاح نصف سيجارة وقدَّمه لي. قلت: تعرف يا عبده إني حاسس زي ما نكون اتولدنا مع بعض أو نعرف بعض من زمن بعيد، قال إنه يشعر بنفس الشيء وتعاهدنا على ألا نفترق أبدًا.

أضاف بعد لحظة: حظنا كويس إن عندنا نفس التهمة، فبعد شوية حيوزعوا الإيراد: الحرامية في زنزانة، وبتوع النفوس زيِّنا في واحدة غيرها. يمكن يحطونا سوا.

قلت: ولما نطلع نهاجر سوا.

قال: أنا خلاص تعبت من الهجرة، أنا عاوز أرجع بلدنا وأزرع.

قلت: آجي معاك وأزرع أنا كمان.

قال: حد يسيب مصر وييجي في الهوِّ اللي احنا عايشين فيه؟

حكيت له عن منطقة سكني وكيف أطلُّ على ترعة أصبحت مقلبًا للزبالة. وكيف نشرب من مياه الطلمبات الجوفية رغم علمنا التام بأنها مختلطة بمياه الصرف الصحي؛ لأننا لا نقدر على شراء المياه النقية التي يحضرها بعض الأشخاص في جراكن ويبيعون الواحد بربع جنيه. فلو اعتمدنا عليها لكلفتنا ٧٥ جنيهًا في الشهر.

قال: يبقى تعالى شوفنا بنشرب منين.

قلت له إن المواصلات العامة عندنا تنقطع بعد الساعة الرابعة عصرًا. وإن كشف الطبيب بالوحدة الصحية قيمته جنيه من غير السماعة وثلاثة إذا استخدمها. وإنه لا يوجد بالمنطقة سوى فرنين اثنين يخدمان ١٦ ألف نسمة فلا نجد الخبز إلا في الصباح.

رمقني بنظرةٍ جانبية وقال: برضه أحسن من عندنا، رغيف العيش بخمسة قروش وعندنا رسمي بسبعة. وكل حاجة عندنا ثمنها دوبل. ولو حبيت أشتري حاجة حلوة ملاقيش غير ملبن مفعص وحلاوة طحينية، إنتو هنا عندكو كل حاجة، البيوت عندكو طين؟ أنا كنت عايش في مطرح واحد من الطين مع أمي وأخواتي. مقدرتش أبني بيت زي الناس، عشان كده سافرت واتبهدلت. نمت في شوارع عمان وبغداد.

– وبنيت البيت؟

– لا. رجعنا كلنا بعد حرب الخليج، كان القطن نزل لخمس قناطير في الفدان. تصور بعد تمن شهور شغل في الأرض ... اللوز ما فتحتش ... ما كانش فيه مية واضطرينا نروي بمية المجاري. ودي كانت مصيبة. الدود زاد. والمبيد مكنش موجود في الجمعيات، مرشيناش. وحتى لو كان موجود ... الموتورات خلصانة.

– محاولتش تسافر تاني؟

سافرت، جبت عقد السعودية بعدما رهنت القيراطين اللي حيلتنا. مكملتش سنة، ربنا ما يوريك؛ المصري هناك عبد تحت رحمة الكفيل السعودي، الباسبور بتاعك معاه، متقدرش تخرج من المدينة اللي هو فيها ولا حتى للحج أو العمرة من غير موافقته. السفارة بتاعتنا نفسها تطلب مننا موافقة الكفيل لما نيجي نجدد تصريح العمل.

– ومشيت ازاي؟

أنا حظي وحش دايمًا، قبل ما السنة تخلص راح الكفيل للشرطة وقالهم إني سرقت منه بضاعة. دخلوني السجن من غير ذنب، وبعدين الشرطة قالتلي إنهم ممكن يفرجوا عني بشرط إني أتنازل عن كل مستحقاتي عند الكفيل. أعمل إيه؟ وافقت ... وأول ما خرجت رحلوني على مصر في أول طيارة من غير حتى ما آخد هدومي.

ذاب قلبي إشفاقًا عليه، ووضعت ذراعي على كتفه شاعرًا بالرغبة في أن أضمه إلى صدري.

انضم إلينا الدكتور رمزي وسمع عبارة عبد الفتاح الأخيرة فعلق قائلًا: وإيه اللي جبرك على كده؟ مش كان أحسن تزرع في بلدك؟ يعني كان لازم تليفزيون وفيديو وسهر لغاية الصبح؟

ردَّ عليه منفعلًا يعني انتو مش بتسهروا في مصر؟ وبعدين حقولك حاجة: إحنا بنبيع قنطار القطن بخمسمية جنيه. تعرف بيطلع لي كام فيهم؟ مية وخمسين. تعرف الشركات اللي بتشتريه بتبيعه بكام في أوروبا؟ بألفين وخمسمية؟ ده يرضي ربنا؟

قال الدكتور: بس لما كل الفلاحين يسافروا مين حيزرع؟

– وانتو بتسافروا ليه؟ إحنا مش بنسافر عشان نشتري شقق تمليك وفيلات وشاليهات وعربيات أو عشان نحط كذا ميت ألف عند الريان والسعد، بنسافر عشان نخرج من فقرنا، عشان ناكل. ماهاجرناش عشان نبعت لبيوتنا الآلافات كل شهر يشتري بيها الأولاد الهيروبين، وإنما عشان نجيبلهم جزمة وجلابية. ليه تبقى الثلاجة والغسالة والتليفزيون الملون والتكييف وحمامات السباحة حلال ليكم وحرام علينا؟

ارتبك الدكتور أمام عنف الهجوم وقال: أنا مقلتش حاجة. أنا ببص للنتيجة. إحنا مضطرين نشتري القمح من بره.

– طيب هي فين الأرض دي اللي نزرعها قمح؟

– هو انتو خليتو أرض. ما انتو بتبنو عليها.

– سبحان الله! يعني مش من حقنا نسكن زيكم في بيوت زي الناس وللا عاوزينا نفضل عايشين في عشش طين، في الوقت اللي عندكو بدل الشقة اتنين وتلاتة؟ طب إدونا أرض نبني عليها، فين هي الصحرا اللي انتو بتتكلموا عليها في التليفزيون؟

لاحظت أن الدكتور رمزي لم يغضب وإنما كان يفكر، ونادى علينا الدهشوري لنعود إلى العنبر فاتجهنا إلى بابه بخطًى متثاقلة. لمحت سامح ممسكًا بالحافظة الجلدية الصغيرة التي تضم علبة الشطرنج. كان قد شرح لي قواعد لعبها فقلت لعبد الفتاح، تحب أعلِّمك الشطرنج؟

قال: يا ريت.

لحقت بسامح وسألته إذا كان يمكن أن يقرضني علبته لأعلِّم عبد الفتاح، اعتذر بأنه سيلعب الآن مع الدكتور رمزي. عدت لعبده وقلت له إني سأحصل على قطع أفضل من العنبر الآخر. كنت أقصد التي يصنعها عم فوزي من لباب الخبز، أما الرقعة فيمكن رسمها فوق غطاء صندوق «نيدو» أو «تانج».

هزَّ رأسه قائلًا: منصحكش.

قلت: ليه؟

قال مشيرًا إلى أعلى: الجماعة مانعين الحكاية دي هنا؛ أي حاجة معمولة من العيش حرام.

وقفنا في الطرقة لا ندري ماذا نفعل، واقترح أن نذهب إلى زنزانته لنلعب الورق. لعبنا البصرة مع صديقيه إلى أن حان موعد التمام، وشعرت بالاكتئاب عندما تصورت زنزانتي.

وكأنما قرأ أفكاري إذ قال: يا ريتك تفضل معانا للصبح.

قلت: اسمع. عاوزك تروح لتوكل وتقوله إن عيد ميلادك النهارده وإنك عازمني عندكم. شوف حيقول إيه.

لم أشأ أن أذهب بنفسي؛ إذ سبق أن تحدثت معه في شأن الانتقال كليةً إلى زنزانة عبده لكنه رفض الفكرة متذرِّعًا بأن كشوف التسكين في المكاتب ولا يستطيع التدخل فيها.

انطلق عبده يبحث عنه، واتجهتُ أنا إلى زنزانتي فوقفتُ في مدخلها وقلبي يدق، ترددت صيحات التمام، ورأيت عبده يقترب ووجهه طافح بالبِشر.

قال لي عندما أصبح بجواري: كله تمام. عاوز علبة.

قلت وأنا أستدير داخلًا الزنزانة: علبة عشان ليلة واحدة المفتري؟ زي بعضه.

– ولازم واحد من عندنا ييجي مكانك. عشان كشوف التمام.

– والنبطشي بتاعكم؟

– متشيلش همه.

أحضرت السجاير وحملت نمرتي وبطانيتي وانتقلت إلى زنزانة عبده. وحل أحد بلدياته مكاني.

كان عبده يحتل الركن الذي يشغله عزت بيه في زنزانتي، بين صديقَيه شحاتة وزغلول. ورحب الاثنان بي وأفسحا لنمرتي مكانًا بجوار عبده، بينه وبين شحاتة. كانت هناك بضعة سنتيمترات من الأسفلت العاري بين كل نمرة وأخرى فلم يزد النزلاء على عشرة. وكنت أعرف من عبده حكايات أغلبهم.

كانت هناك أسرةٌ كاملة من تاجر مخدرات وابنَي أخيه، واحتل الركن الذي يلي نمرة شحاتة رجلٌ متين البنيان، شديد الاعتناء بملابسه ومظهره، مارس الطب بدون شهادة لمدة ١٧ سنة في المستشفيات الخاصة والحكومية، بينها مستشفى الشرطة والقصر العيني والسلام الدولي، وذلك بعد أن زور جميع مسوغات تعيينه وخطابات توصية من وزير الصحة ونقيب الأطباء. وبعد الحكم عليه وارتدائه الملابس الخضراء قُدِّم للمحاكمة من جديد، فأثناء وجوده في السجن زوَّر عدة توكيلات لشقيقته لصرف مستحقاته من المستشفيات التي عمل بها.

وكان هناك اثنان لهما قصةٌ غريبة، الأول معلم صاحب مصنع للحلاوة الطحينية في باب الشعرية يستخدم موادَّ فاسدة في صناعتها. والثاني هو مفتش التموين الذي قبض

عليه، فبعد ذلك بأيام ضبط ٧٠٠ صفيحة جبن فاسد لدى بقال وتحفَّظ عليها في ثلاجة بباب اللوق ثم طلب من البقال عشرة آلاف جنيه له ولأمين الثلاجة مقابل تمكينه من سحب كميات الجبن من الصفائح وملئها بموادَّ أخرى. والظاهر أن شخصًا ثالثًا لم يحصل على نصيبه أبلغ عنه، واجتمع مفتش التموين بصانع الحلاوة بالصدفة البحتة في نفس الزنزانة.

رحب بي النوبتجي وكان صعيديًّا متقدمًا في السن، يقضي عقوبةً مؤبدة في قضية ثأر، وجيء به من سجن قنا إلى القاهرة ليجري عمليةً جراحية في القصر العيني. ألحف عليَّ بسيجارة وأصرَّ أن أتعشى فوق نمرته، وتمسك عبده بأني ضيفه ولا بد أن يتكفل هو بعشائي فدعانا نحن الاثنين. وتبين أن عبده لا يأكل بمفرده وإنما مع صديقيه، وفي النهاية تعشينا نحن الخمسة سويًّا، وتكونت أمامنا مائدةٌ حافلة بها نوعان من سمك البلطي، واحد مقلي والآخر مشوي، وطاجن من الأرز المعمر أرسله إليه أهله من سوهاج مع أقاربه القاهريين الذين يحضرون له طعامه مرتين في الأسبوع، وبعد العشاء قدم لي النوبتجي الشاي وسيجارة.

اشتدت حرارة الجو فخلع عبده جلبابه وبقي بالفانلة والسروال. وخجلت أن أفعل مثله. وجلست فوق نمرتي المبسوطة إلى جواره سعيدًا بالحفاوة التي قوبلت بها. كان كل من يشعل سيجارة أو نصف واحدة يصر على أن يكون لي النفَس الأول. وتمنيت لو كنت أعيش معهم دائمًا.

طلب مني شحاتة أن أقصَّ عليهم أحد الأفلام التي رأيتها، واكتشفت أن عبده ينقل إليهم ما يسمعه مني. حكيت لهم قصة فيلم أمريكي سمعتها من مستر تامر، عن سكرتيرةٍ أمينةٍ مجتهدة وطموح رغم أنها لا تحمل شهادة عليا، تُطرد من عملها لأنها تمسكت بشرفها، وتجد عملًا كسكرتيرة لمديرة في شركة استثمارات، تقدم السكرتيرة لمديرتها مشروعًا جريئًا يدر عمولةً ضخمة؛ يقوم على إقناع مليونير يتميز بالاستقامة والأمانة بشراء محطة راديو. تتظاهر المديرة بأن المشروع لم يعجبها، بينما تعمل على تنفيذه في السر بالتعاون مع شركة استثمار أخرى، ناسبة فكرته إلى نفسها. تكتشف السكرتيرة الأمر فتقرر الانتقام. تنتحل شخصيتها وتتصل بمدير شركة الاستثمار الأخرى الذي يقع في غرامها ويحتالان حتى يلتقيا بالمليونير في حفل زفاف ابنته فتقنعه أثناء الرقص معه بشراء محطة الراديو، لكن المديرة تكتشف الأمر وتتهمها بالاحتيال والكذب. وتعجز السكرتيرة عن الدفاع عن نفسها فتترك الشركة وتوشك المديرة على إنجاز الاتفاق لمصلحتها، لولا أن المليونير الأمين يكتشف الحقيقة فيعيِّن الفتاة مديرة لشركاته، وتتزوج مدير شركة الاستثمار الأخرى، وتتحقق كل طموحاتها.

علق تاجر المخدرات: لو مكنش المليونير أمين مكنتش البنت كسبت، آدي الفرق بينا وبين بلاد برة.

قال الدكتور: إحنا معندناش أمانة خالص. شوفوا دكاترة الطب واللي بيعملوه في الناس.

ضحك عبده فاحتدَّ الدكتور: بتضحك؟ أنا مفيش حد مات مني، ولا اتسرقتْ منه كلوة، أو واحدة قلتلها إن عندها ورم وهي معندهاش. أنا اللي متخرجتش من كلية الطب كل اللي عالجتهم خفُّوا.

سألته عن تخصصه فقال إنه باطني وأطفال في الأساس، لكن يعالج أيضًا أمراض الصدر والقلب والحساسية والنفسية، وأضاف ضاحكًا: زي ما بيعمل الدكاترة التانيين بالضبط.

أثارت شخصيته فضولي فسألته عن قصته، وعرفت أنه أصلًا من أسرةٍ فقيرة جدًّا ويحلم من الصغر بأن يصبح طبيبًا. كان يعيش في منطقة الهرم وتعلم اللغة الإنجليزية في الشارع من احتكاكه بالسياح، ثم تعرَّف على ثريٍّ عربي عرض عليه السفر معه إلى بلاده للعمل عنده؛ فتعلم الإنجليزية في معهد متخصص، وبعد عمل ٦ سنوات سافر إلى ألمانيا والتحق بمعهد تمريض لمدة سنة عاد بعدها ليمارس الطب.

اشتبك عبده مع زغلول في مصارعةٍ عنيفة. تحاشيت النظر إلى صدره العاري وتأملت عضلات زغلول النافرة في قلق، لم يعد لديَّ شك في انتصاره رغم ما أبداه عبده من جرأة وعنف. وبالفعل ألقى به أرضًا وبرك فوقه وأجبره على أن يعلن هزيمته بصوتٍ مرتفع ثم رأيته ينحني فوقه كأنما يريد أن يهمس له بشيء والتقط أذنه بشفتيه وامتصها من أعلى إلى أسفل وعبده يقاوم ضاحكًا ويحاول دفعه عنه.

شعرت بالضيق والتقت نظراتي بعيني مفتش التموين. كان في سن سامح تقريبًا وإن كان اللون الأبيض غزا شعر رأسه الغزير، قال لي: كان عندكم قاسم بيه.

سألت: إنت تعرفه؟

ضحك وقال: أعرفه كويس.

لم أكن قد رأيتهما معًا، كما أن السفير لم يشر إليه بالمرة.

قال: أنا قبل ما اشتغل في التفتيش كنت في إدارة اللحوم، حظه حلو إنه خرج بكفالة.

تردد لحظة ثم غير الموضوع: أنا نفسي تقرا حيثيات الحكم بتاعي.

غير صوته مفخمًا إياه واستطرد: «هذه العقوبة رادع لكل من يسقط عنه ضميره فجأة فيصبح لا يجد خيرًا في هذه الدنيا غير جمع المال بأية وسيلة ولو كان هذا على حساب هذا الشعب وصحة أبنائه.»

لوى شفته ثم قال: كل ده عشان حتة جبنة.

كنت أستمع إليه بغير تركيز شاعرًا بالإحباط، وتمنيت لو لم أكن جئت. وشرع البعض بالغناء. وجاء الدور على النوبتجي فغنى بعض المواويل الصعيدية التي لم أفهم منها كلمةً واحدة، أتبعها بأغنيةٍ قديمة لم أسمعها من قبلُ عن أبي العيون السود والوداد الذي ضاع ومتى يعود. كانت الأغنية جميلة وحزينة. وشعرت فجأة بالرغبة في البكاء.

استولى النعاس على البعض فأعلن النوباتجي نهاية السهرة وخلع المصباح الكهربائي. استلقى كل واحد فوق نمرته ورقدت على ظهري أحدق في السقف بينما رقد عبده على بطنه مديرًا وجهه ناحية زغلول، وتردد تنفسه في عمق وانتظام، وسرعان ما انضم إليه شخير زغلول المرتفع.

رفعت رأسي بعد قليل وأمعنت النظر إليهما. كان زغلول يرقد على جانبه الأيسر معطيًا ظهره لعبده، وتفحصت المسافة الفاصلة بينهما من الأسفلت العاري على ضوء مصباح الطرقة.

كان نومي متقطعًا وفي الصباح كنت في حال سيئة. أردت أن أذهب إلى زنزانتي فقال عبده: تمشي من غير فطار؟ لا يمكن.

أعدَّ طَبَقًا من المِشِّ الصعيدي استخرجه من برطمانٍ زجاجيٍّ كبير خلف نمرة شحاتة. وأضاف إليه قليلًا من الزيت وبضع قرون من الفلفل المخلل الحامي.

أكلت بدون حماس متحاشيًا النظر إليه فسألني: مالك؟

لم أرد.

أصرَّ: فيه حاجة حصلت؟

قلت: مفيش.

بدت عليه الحيرة وتشاغلت أنا بالأكل ثم سألته بعد لحظات: إنت تعرف زغلول من زمان؟

قال: لا. أنا اتعرفت عليه في اللومان.

كان قد قضى به عدة أسابيع في زنزانة مجاورة لزنزانة الربان المشهور.

١٠

قال: نفسي كنت تشوف زنزانته. متقوليش المخزن بتاعنا اللي فيه الدكتور ثابت. دا حاجة تانية خالص. ولا الهيلتون، موكيت ومروحة كهربا وتليفزيون ملون وتلاجة فيها كل حاجة تيجي على بالك من أكل أو شرب وتلفون دولي.

سألته: وعشان إيه التليفون الدولي؟

– بيضارب في البورصات بفلوس الغلابة اللي لمها وطلَّعها بره.

– وازاي السجن سمحله بكل ده؟

هزَّ كتفيه: الفلوس تعمل كل حاجة. دا حتى مراته كانت بتزوره كل خميس وجمعة.

– بتبات؟

– كل شيء ممكن، على العموم هي خلفت وهو في السجن.

ساد بيننا الصمت حتى انتهينا من الأكل، قلت وأنا أشعل سيجارة: قولي يا عبده. إنت حكيتلي عن اصحابك بس مقلتليش أنهو واحد فيهم كان عزيز عليك.

تأمل طبق المش الفارغ ثم قال: كتير.

ترددت قليلًا ثم قلت: أكتر واحد.

– عويس. كان معايا في المدرسة. وفضلنا على طول مع بعض بعد كده. ورحنا الأردن، سوا.

– رجع معاك؟

– لأ. مرضاش. قال ازاي يرجع من غير الريكوردر والفيديون.

شربنا الشاي ثم ذهبت إلى زنزانتي، وعندما حان موعد الطابور خرجنا إلى الفناء سويًّا وسرنا متجاورَين في صمت، وفجأة نادى أحد الحراس على عبده قائلًا إنه مطلوب في الإدارة، اضطربت أمعائي وعجزت عن التفكير.

مشيت خلفهما حتى بوابة الفناء، ولحق بي شحاتة وزغلول. قال الأول: يمكن ترحيل.

قال زغلول: لوحده؟ طب وإحنا؟

قال شحاتة: يمكن يندهولنا الوقت.

قضينا الساعة المخصصة للطابور واقفين بجوار البوابة دون أن يظهر أثر لعبده أو الحارس الذي صحبه، ونادى الدهشوري معلنًا انتهاء وقت الفسحة فاتجه الجميع إلى بوابة العنبر في بطء وتكاسل، وبقيتُ في مؤخرتهم أتطلع خلفي طول الوقت، مضيت إلى زنزانته وألقيت نظرة داخلها كأنما لأتأكد من غيابه ثم عدت إلى زنزانتي فوقفت في بابها. وانضمَّ لي شحاتة بعد قليل.

قلت له إني أخشى أن يكون قد رحلوه فعلًا، طمأنني قائلًا إنه لا يمكن أن يأخذوه مباشرة؛ فلا بد من أن يأخذ حاجياته الموجودة في الزنزانة ويتسلموا منه نمرته. وقفنا سويًّا حتى اقترب موعد التمام. وأحضر نوباتجية الخدمة دلاء الطعام ووضعوها أمام مدخل دورة المياه.

حاول شحاتة محادثتي لكني كنت مضطربًا عاجزًا عن متابعته. وهتف الدهشوري طالبًا دخول الزنازين ليقوم بالتمام وهنا لمحت عبده يلج العنبر. ورآني فلوَّح لي مبتسمًا. جريت نحوه واحتضنته ثم قبلته في فمه.

أبعدته عني وأنا أتأمل وجهه: كانوا عاوزينك ليه؟

قال: ولا حاجة، يملوا شوية أوراق.

– ترحيل؟

– مقالوش.

تعالت صيحات الحراس في الطوابق المختلفة: التمام.

شرع الدهشوري في التتميم على الزنازين وإغلاقها مبتدئًا من دورة المياه. سحبت عبده من ذراعه وأردت أن أدخل الدورة لنكسب بعض الوقت معًا لكن الدهشوري رآنا فنادى علينا لندخل زنزانتينا.

مضيت معه إلى زنزانته في نهاية الطرقة. في هذه الأثناء وصل الدهشوري إلى زنزانتي فوقف أمامها ونادى عليَّ غاضبًا. ثم خطا نحونا منفعلًا، جذبت عبده من ذراعه نحو زنزانتي لكن الدهشوري صاح به: ارجع زنزانتك.

توسلت إليه: معلهش يا حضرة الصول ربنا يخليك. حادِّيله سجاير. قال في حدة: لا، خلاص التمام، ابقى ادِّيله بكره.

توسلت إليه فقال لي: روح انت هات السجاير وهو يفضل هنا.

طرت إلى زنزانتي فأحضرت ثلاث سجاير ناولتها لعبده فقدم واحدة للحارس.

أخذ الدهشوري السيجارة وتشاغل عنا.

قلت لعبده: اسمع. بعد أدان العشا على طول تولع سيجارة وأنا أولع واحدة ونفكر في بعض.

أطرق برأسه وناداني الدهشوري للمرة الثانية فمضيت إلى زنزانتي.

١١

سواء أكان السبب هو الفراغ الروحي الذي شعر به شرف بعد رحيل عبد الفتاح، أم الرغبة في الإتابة والإنابة عن آثامٍ متعددة بعضها في مقدمة الوعي مثل النشاط الليلي والبعض الآخر في خلفيته مثل قبلة ساعة التمام (التي أوشكت أن تدخل باب اللسانيات)، فإن سقوطه في شباك أصحاب اللحى كان محتومًا بحكم التطور الطبيعي للأمور، وبصرف النظر عن الدور الذي لعبه الشيخ عصام في هذا الشأن.

حقًّا إن وجود الملتحين وما يعدون به لم يغب عن فطنته ولا فطنة غيره. وغالبًا ما كانوا يخطرون على باله قبل النوم في خانة التمني. لا بسبب مبادئهم وإنما لما يتمتعون به من امتيازات بسبب علاقة أحد أمرائهم بالرائد الجوهري؛ المغرم بالجلوس إلى جوار الزهور؛ فالملل الذي كان يعاني منه هذا الضابط الوديع أوقعه هو الآخر في الشباك. فدأب على استعارة الكتب الدينية من الأمير المذكور، وسواء أكانت هذه الكتب قد رققت قلبه الرقيق من الأصل، أم أنه كان ينفذ تعليماتٍ سرية من مباحث أمن الدولة، في إحدى مراحل لعبة القط والفأر الدائرة بين الطرفين، فإنه أعطى لإخوة الأمير حق التحكم في تسكين إخوانهم، وزاد لهم الوقت المخصص لنزهة الفناء، وسمح لهم بشراء وتخزين أجولة من الأرز والمكرونة وعلب الصلصة، وصرح لهم باستخدام زنزانة مهجورة كمطبخ، وبحيازة السكاكين والأكواب الزجاجية والسخانات الكهربائية والمراتب الإسفنجية، وساعدهم على ترويج مشغولاتهم الخشبية من لعب أطفال ومساند للمصاحف وبيعها لزوار السجن.

لم يكن شرف وحده هو الذي اهتم بتتبع هذه الظواهر؛ فقد تابعها توكل أيضًا باهتمام رجل الأعمال الذي يبحث عن فرصة للاستثمار، وتضاعف اهتمامه عندما بدأت تحركات الشيخ عصام.

فلم ينقضِ على انتقال شرف إلى عنبر الملكية سوى أسبوعين عندما انطلقت بعد العشاء والنشرتين الإسلامية والمحلية، أصواتُ التهليل والتكبير من الطابق الثاني المخصص للملتحين. ومن الزنزانة التي تعلو شرف مباشرة، دوَّى صوتٌ جهوري ينادي كافة المسجونين طالبًا منهم أن يصلوا لله شاكرين! لماذا؟ لأن الشيخ عصام تخلى عن أفكار «الإخوان المسلمين» واعتنق أفكار «الجهاد». وتبع ذلك آيات من القرآن عن الذين اهتدوا وآمنوا، وأطباقٌ صغيرة من الأرز باللبن أُعدت على عجل، وساهم حارس الليل في نقلها إلى المؤمنين وحدهم.

وفي الصباح انتقل الشيخ عصام بنمرته وحاجياته، في موكب من الأنصار، إلى زنزانة أفكاره الجديدة.

وسرعان ما عُرف السبب؛ فقد أفتى بعض الإخوان بأن الذين قتلوا جنود الأمن المركزي في أسيوط يجب أن يتوبوا ويكفِّروا عن الجريمة، فثار أنصار الجهاد ودار صراعٌ أيديولوجيٌّ مكثف بين الجانبَين أسفر عن عدد من الجرحى والمنتقلين.

وبعد أسبوعَين بالضبط وفي نفس الموعد، انطلق التهليل والتكبير من زنزانةٍ جديدة في الناحية المقابلة ودعا صوتٌ جهوري إلى صلاة الشكر؛ لأن الله أنار فؤاد الشيخ عصام، وهداه فتبين ضلال الفكر الذي اتبعه واهتدى إلى الفكر الحق. وتلا ذلك الأرز باللبن. وفي الصباح شوهد الشيخ عصام حاملًا نمرته وحاجياته منتقلًا إلى موقعه الجديد، وفي هذه المرة لم يُعرَف السبب.

تكرر الأمر ذاته بعد أسبوعين بالتمام والكمال، وبعد أسبوعَين آخرَين انتقل الشيخ عصام إلى جماعةٍ جديدة، وأصبح انتقال الشيخ عصام من جماعة إلى أخرى طقسًا مألوفًا مثل التمام اليومي وصيحات حراس السور الخارجي وأذان الصلاة، تضبط الأحداث عليه فيقال مثلًا: الزيارة أو الجلسة القادمة ستكون قبل أو بعد يوم كذا الذي سينتقل فيه الشيخ عصام.

مرةً واحدة فقط انكسر فيها هذا الانتظام وتحرك الشيخ عصام في غير الموعد المقرر؛ وذلك عندما انتقل إلى صفوف جماعة «العزماوية» الذين يرفضون العمل؛ على اعتبار أن الرزق من عند الله ومكتوب على الإنسان تمامًا مثل الموت؛ أي إنه قضاء وقدر، بالإضافة إلى هذا كانوا يحرمون قتل الحشرات لأنها روح خلقها الله ولا يجوز قتلها بأي حال. لم يكن لدى الشيخ عصام اعتراض على الشق الخاص بالرزق، لكن شيئًا آخر غيره كان مكتوبًا عليه هو حساسية جلده الشديدة للحشرات، قرصًا ولمسًا. وتكفَّلت بعوضةٌ واحدة فعصها بكفه قبل النوم في إلقائه هو ونمرته إلى الطرقة بمجرد فتح الزنازين في أول صباحية.

سعى توكل إلى التعرف بالشيخ عصام أثناء نزهة الفناء، استمع منه إلى عرضٍ أيديولوجيٍّ مطوَّل، كان فيه غذاء أكيد لروحه وإن لم يفهم منه شيئًا. ولهذا السبب استجاب عندما دعاه إلى صلاةٍ مشتركة، في اليوم الوحيد الذي تتم فيه داخل العنبر: يوم الجمعة.

في الموعد المقرر توافد النزلاء على فناء الطابق الأرضي في ملابسَ نظيفةٍ مكوية (غسلها غير القادرين بأنفسهم على البلاط أسفل صنابير المياه بالدورة، ثم طووها تحت النمر وناموا فوقها) بينما غطى الريفيون رءوسهم بعمائمَ بيضاء ولفُّوا شيلانًا من نفس اللون حول رقابهم. وبسط الجميع بطاطينهم على الأرض في انتظار الشيخ الذي أرسلته مصلحة السجون ليعتلي منبرًا خشبيًّا وُضع في نهاية العنبر، ويطالبهم بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر (ابتداء بالدهشوري).

استعد توكل للمناسبة؛ فتوضأ على رءوس الأشهاد في الدورة، وخرج منها إلى الطرقة والمياه تقطر من يديه ووجهه، وصاح في ماكس ليحضر له المنشفة التي نسيها، كان ماكس في إحدى لحظاته التعيسة فقام شرف بالمهمة. جفف وجهه وساعدَيه وولج زنزانته حيث ارتدى جلبابًا نظيفًا ثم خرج إلى الطرقة حاملًا بطانيته وبدلًا من أن يتخذ لنفسه مكانًا بين الجالسين خطا فوقهم نحو الدرج وارتقاه إلى الطابق الثاني.

مرَّ بالزنازين المفتوحة التي بدت منها صناديق الخضراوات والفاكهة والمعلبات وكسرات الخبز الجاف، ولج زنزانةً واسعة، أُسدلت على حائطها الخلفي قطعةٌ عريضة من القماش كتب عليها بخط جميل آية من القرآن الكريم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ صدق الله العظيم. وغطيت أرضها بالبطاطين استعدادًا لإقامة صلاة الجمعة على الأصول: نفس عدد الركعات ونفس البرنامج الذي يبدأ بالقرآن الكريم ثم الخطبة وفاتحة الكتاب، بل نفس الموضوع وهو الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر (ابتداء بالأمير).

بعد الصلاة أدار البصر في الوجوه المحيطة به؛ كانت من كل لون، متوترة بنظراتٍ نارية، مكتئبة ساهمة، أو حائرة تساورها الشكوك. لكنهم أصغوا جميعًا عندما تحدث الأمير. كان شابًّا في منتصف عشرينياته، غزير اللحية والشارب، بادي العصبية، يغطي رأسه بعمامةٍ بيضاء غريبة الشكل، تنعقد خلف رأسه، ويتدلى طرفها فوق ظهره. قال إن درس اليوم هو تفسير آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، صدق الله العظيم.

وسرعان ما أثبت أن الآية ليست بالبساطة التي تبدو عليها وأن هناك أعماقًا وأغوارًا لا ينتبه إليها إلا صادقو الإيمان. على وجه التحديد: إن الجاهلية ليست فترة من التاريخ وإنما الجاهلية في كل عصر، وهي موجودة الآن في كل بلاد المسلمين دون استثناء؛ فالحكام العرب يحكمون بالقوانين الوضعية، وإذا أرادت الشعوب أن تحتكم إلى شرع الله، أُودع المطالبون في السجون وقطعت رقابهم.

النتيجة؟ ليس من حق الناس أن يسنُّوا قانونًا ثم يلزموا الناس بالتحاكم إليه، ومن أراد أن يتحاكم إلى هذه القوانين الوضعية فليبحث له عن أرض غير أرض الله، أما الجماعة فقد حملت أمانة تطبيق الشريعة الإسلامية ولن تتورع عن تقطيع الرقاب حتى يتم ذلك.

تحسس، توكل رقبته بيده؛ لا خوفًا عليها مما قد يصيبها في غمار النضال من أجل تطبيق الشريعة، وإنما لأنه اطمأن على مصيرها. إذ تصور أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى الإفراج عن كل من حوكم وفقًا للقانون القديم، وفتح صفحةٍ جديدة للجرائم التي سيرتكبها بعد ذلك.

كان في حاجة الآن إلى مزيد من التحديد الدقيق كي يتمكن من تخطيط حياته، فرفع يده متجرئًا على السؤال: متى تطبق؟

ولم يكد يطمئن إلى أنه ليس هناك موعدٌ محدد وأن ذلك يمكن أن يحدث في أية لحظة حتى زعزعت الفقرة التالية في الدرس رغبته في الإبقاء على رقبته؛ فقد كانت عن المرأة؛ التي حيرت الرجال منذ بدء الخليقة.

تحدث الأمير عن سلبيات عمل المرأة خارج البيت من أول الاختلاط بالرجال والتعرف بهم والتعطر لهم، إلى الخلوة بهم وارتكاب الفاحشة، ثم قال إن البقاء في البيت ليس سداحًا مداحًا، فله آدابه وقواعده. وكان يملك في جعبته ما يناسب المقام من أقوال منسوبة إلى الرسول وصحابته من أول: «علقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم» إلى: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدي حق زوجها.»

ظهر الوجوم على وجوه الحاضرين إذ تذكروا نساءهم وسياطهم. وسارع الأمير إلى علاج الأمر مستعينًا بجعبته: «يكون للرجل في الجنة سبعمائة زوجة، ويعطيه الله القدير من القدرة ما يمكنه من مجامعتهن جميعًا كل يوم، مرة في الصباح ومرة في المساء، وتعود الزوجة بكرًا في كل مرة.» هنا كفَّ توكل عن تحسس رقبته فلم يعد يعبأ بمصيرها.

أطلق توكل لحيته وحرص على الاشتراك في صلاة الجمعة بانتظام بعد أن يتوضأ خصيصًا ويخرج من المراحيض والمياه تقطر من وجهه ويديه وينادي على ماكس ليحضر

له المنشفة التي نسيها، ثم يرتدي جلبابًا نظيفًا ويرتقي السلم إلى الطابق الثاني وإلى زنزانة القتال من أجل منع الفتنة؛ ليجلس في وقار إلى جوار الشيخ عصام ثم يوجه سؤالًا واحدًا لا يتغير: متى تطبق؟

خلال ذلك كان الشيخ عصام منتظمًا في مسيرته بين الجماعات الممثلة في السجن من «التكفير والهجرة» إلى «القطبيين»، ومن «التبيين» إلى «الجماعة الإسلامية»، ومن «الناجين من النار» إلى «الشوقيين»، متوقفًا بين الحين والآخر فوق نمرة توكل (حيث توثقت علاقته بشرف) من أجل التقاط الأنفاس. ذلك أن الشيخ عصام، بصفته من بني البشر، كانت له رذائله وعلى رأسها التدخين الذي تُحرِّمه الجماعات بمختلف أسمائها واتجاهاتها.

الاسترخاء الذي مارسه الشيخ عصام فوق نمرة توكل كانت له مظاهره الأيديولوجية. ففي إحدى المرات أسرَّ لشرف في تردد بما يساوره من شكوك: إذا كان الناس في عهد الرسول استعملوا نقودًا من شقاف الحجر، فهل نفعل مثلهم ونتخلى عن استخدام الجنيه من أجل التمسك بالسُّنة وبكل ما كان الرسول يفعله؟

كان للمرأة، بالطبع، مكانها في تساؤلاته: ألم تمارس سيدتنا عائشة الحكم والفقه، وألم يعطِ الإمام أبو حنيفة المرأة حق القضاء في غير المسائل الجنائية؟ وهل يقصد بالاختلاط المحرم بين الرجال والنساء تواجدهم معًا في الجامعة والأماكن العامة؟ أم أنه لا يتحقق إلا عندما ينفرد رجل بامرأة ويلحق بهما الشيطان؟

تساؤلاتٌ أخرى أكثر حميمية كانت تدور برأسه وقادته إلى الدكتور رمزي، لا بصدد الأوزان والسرعات، وإنما الهرمونات. فكيف يمكن التأثير في لحيته التي لا تتجاوز بضع شعيرات أسفل الدقن وخطًّا خفيفًا على الوجنتَين، كي ترقى إلى مصاف لحية الأمير الكثة التي تكاد تغطي صدره وتصل إلى بطنه؟

كان يلقي بكل تساؤلاته جانبًا عندما يستعيد أمجاد الجماعة التي شارك في صنعها: قررنا نعمل نفقًا في عرض طريق صلاح سالم ونحشيه متفجرات. قعدنا نحفر شهرًا، وحفرنا حوالي ١٢٠ مترًا. كنا عشرة لابسين لبس العمال. والقائد بتاعنا كان يقعد أول الطريق على كرسي لابس بدلة ضابط شرطة. لما حد يسألنا بتعملوا إيه يقوله إحنا بنحفر عشان المية، ومرة يقول عشان المجاري أو التليفونات.

لكن اهتمامات الشيخ عصام كانت تتسع للكثير من أمور الدنيا، يرويها مع سيجارة وسط حلقة متزايدة من المستمعين: إنتو عارفين مدير الليمان اتشال ليه؟ أنا عرفت الحكاية النهارده من الزيارة، سنية وداد الرقاصة هي اللي شالته.

– وإيه اللي وداه عندها؟

– هي اللي جتله، الظاهر اتمسكت في خناقة ولا دعارة ... المهم في يوم بص لقى وكيل مصلحة السجون بيكلمه ويقوله يخلي مدير فندق شيراتون يزورها بشكل استثنائي. وإن الزيارة متوصي عليها من رئيس الوزراء. المأمور قال اللائحة تمنع. الوكيل قاله انت حر، الراجل جايلك في السكة. جاله فقاله أنا معنديش مانع لكن اللايحة بتشترط تصريح من المصلحة وإذن من النيابة، يهديك يرضيك. حكّم راسه يمشي باللايحة، فمشوه هو كمان بيها: طلعوه معاش برتبة لوا.

نتيجةٌ أخرى استخلصها وأمن عليها الجميع: الرقاصات هم اللي بيحكموا البلد.

بالإضافة إلى الأنباء المحلية وخلفياتها، كان الشيخ عصام يحتفظ بأرشيفٍ شامل لكبار موظفي وزارة الداخلية من أول من تاجر في إنتاج السجون، وزميله الذي خرج من الوزارة بعشرة ملايين من الجنيهات من وضع اليد على الأراضي، والثالث الذي كوَّن شركة أمن ضمت أربعمائة من قيادات الشرطة ولم يدفع فيها مليمًا واحدًا مكتفيًا باسمه، إلى من أعدَّ مشروعًا وهميًّا لإسكان الضباط ودفع من صندوق الشرطة ٤ ملايين جنيه ونصف لمكتب استشاري واشترى متر الأرض بسعر ٣٠ قرشًا وباعه بـ ٤٣ جنيهًا للضباط و١٥٠ جنيهًا للمستثمرين، وزميله الذي شارك بعدة ملايين في شركة صرافة وشركة تسفير عمالة للخارج، وطبعًا في شركة الأمن إياها، والثالث الذي اختلف مع زميل له على عمولة صفقة سلاح فهاجم بيته بالصواريخ.

استجاب شرف بسرعة للشيخ عصام الذي كان وسيم الطلعة، ذا هيئةٍ أبوية، وعينَين واسعتَين صافيتَين، (عسليتَين أيضًا). وكان الاستلطاف متبادلًا، فأقدم الشيخ عصام على خطوة غير مسبوقة.

لم يكن الملتحون يعبئون بدعوة النزلاء إلى أفكارهم ومحاولة ضمِّهم لأنهم كانوا يعتبرون السجين شخصًا مسلوب الإرادة وبالتالي لا تجوز دعوته. لكن الشيخ عصام لمس في شرف استعدادًا للهداية، ولما كان الله تعالى يهدي من يشاء، فقد أعطاه اختبار القبول في التنظيم:

> «بسم الله الرحمن الرحيم، استطلاع رأي، رجاء منك أخي الحبيب أن تكتب ورقة تحتوي على المعلومات الآتية: (١) الآفات والسلوكيات الخاطئة التي تعتقد أنها موجودة بيننا. (٢) الموضوعات التربوية والسلوكيات التي تعتقد أنها موجودة بيننا. (٣) الموضوعات التي تقترح أن نتناولها خلال المواعظ والنشرات والأنشطة

الأخرى. (٤) أسماء كتب الرقائق التي تملكها. (٥) أجب على الأسئلة الآتية بلا أو نعم: هل لك قدرة على إلقاء المواعظ؟ هل تجيد التلاوة؟ هل ختمتَ القرآن؟ هل تحسن الخط؟ هل لك قدرة على تجميع بعض الموضوعات التربوية من كتب الرقائق؟

تذكير: الإجابة من السنن. التوقيع: لجنة التربية.»

كان هناك الكثير مما يدعو للإعجاب في سلوكيات الإخوة الملتحين: ذلك النظام الصارم الذي يسمح بانقضاء اليوم دون أن يشعر المرء (تمامًا مثل أبي صليبة): الاستيقاظ لصلاة الفجر ثم العودة للنوم حتى يحين موعد الخروج إلى الدورة، وبعد ذلك التدريب على الكاراتيه والكونغ فو، ثم المحاضرات الدينية وتحفيظ القرآن وبقية الصلوات الخمس فضلًا عن الإضافات؛ تعاونهم وتكافلهم وتضامنهم (الذي تجلى في المطبخ المشترك العارم وصناديق الفاكهة الموسمية التي تصلهم بانتظام وتوزَّع فيما بينهم بالعدل والقسطاس).

ومن ناحيةٍ أخرى لم يكن شرف، المؤمن بالتعددية في الزي، راضيًا عن ملابسهم المتماثلة، التي تساوي بين فقيرهم وغنيهم، (فيما عدا تريننج لأحدهم وبنطلون وفانلة أيضًا من اللون الأبيض لآخر)، ولم يكن يملك كتابًا واحدًا من كتب الرقائق ولا كان يعرف المقصود بالكلمة، ولم يكن قد ختم القرآن ولا كان يجيد التلاوة أو إلقاء المواعظ، ولا كان يعرف شيئًا عن الآفات والسلوكيات الخاطئة الموجودة بينهم: مرةً واحدة فقط، أثناء الزيارة، لمح أحدهم يلتهم دجاجة بدلًا من أن يحملها إلى زملائه ليتم توزيعها بالعدل، ومرةً أخرى وجد أحدهم يحاول أن يسبق الآخرين داخل الدورة بالقوة، ثم كان هناك الأمير الذي ظهرت عليه أعراض الجنون بعد تعرضه لتعذيبٍ وحشي في أقبية وزارة الداخلية فقرر أتباعه اختيار أمير غيره، ولم يعجبه هذا القرار فحاول قتل الأمير الجديد.

وازن أشرف طويلًا بين الإيجابيات والسلبيات، وبعد تدبرٍ وتفكيرٍ عميقَين اتخذ قراره، وكان على وشك كتابة المطلوب عندما استدعاه الرائد «إدكو».

لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي وإنما اسم شهرة. وكان طويل القامة رفيع الجسد أصفر الوجه، يتميز بمشيةٍ مستهترة، وشراسةٍ وقسوةٍ بالغتَين. فلا يمر يوم أو يومان إلا ويضرب سجينًا أو يوقع عليه عقوبة ما.

صرف إدكو الحارس الذي أحضر السجين الشاب وخاطبه وهو يقلب في ملف ذي غلافٍ وردي اللون: إنت بتعرف تقرا وتكتب، مش كده؟

رد الشاب بوجل: أنا أخدت الثانوية العامة يا سعادة الباشا.

– ودخلت الجامعة؟ لا ... إنت في معهد تجاري.

أخرج ورقةً من الملف وناولها لأشرف: عارف الورقة دي؟

تعرف شرف على خطه والخطاب الذي كتبه للترزي. دوَّت القنابل في معدته وأحسَّ أنه على وشك أن يفعلها أمام الباشا الذي وجه إليه نظرةً باردة كالثلج وأبرز ورقةً أخرى، رسمية هذه المرة، مكتوبة على الآلة الكاتبة ومدموغة بشعار مصلحة السجون، ناولها له وطلب منه أن يقرأها بصوتٍ مرتفع.

قرأ شرف: «بسؤال المسجون أنكر قيامه بأي شكوى وأنه لم يقع عليه أي ضرر من مأمور أو ضباط السجن، وعلل إرسال هذه الشكوى بأن يكون أحد المسجونين يريد الإضرار به وتخزينه من العمل بالورشة فأرسل هذه الشكوى.»

توقف شرف عن القراءة فصاح به إدكو: كمِّل!

أكمل: «تحريات المباحث: المسجون محكوم عليه بالحبس لمدة ٦ سنوات و٧ شهور في جملة قضايا سرقات وقد ضبط في ٢٥ / ١١ / ١٩٩٣ وبحوزته ٢ طربة حشيش بعد عودته من جلسة نيابة، يعتبر من المسجونين المنحرفين وله نشاط في الاتجار بالممنوعات داخل السجن وخاصة المواد المخدرة، وقد سبق أن أرسل شكاوى عديدة تبين عدم صحتها وتم تغريبه إلى ليمان طرة بالإضافة إلى أن السيد مأمور السجن والضباط العاملين معه يتمتعون بسمعةٍ طيبة.»

لم يجد شرف ضرورة لقراءة السطرين الأخيرَين لكن الضابط وجَّه إليه نظرةً صاعقة؛ فواصل القراءة: «النتيجة: ثبت من الفحص عدم صحة ما جاء بالشكوى وأنه يهدف منها إلى النيل من الضباط الذين ضبطوه محرزًا مادةً مخدرة.»

قال الضابط: واحد زيك مستني حكم إعدام مش يخليه في حاله؟

– سعادتك أنا مقصدتش. أنا أصلي ...

– وكمان رايح تنضم للإرهابيين؟!

هنا وجد شرف لسانه: يا سعادة الباشا أنا ما انضميتش لحد.

– أمال بتقعد معاهم ليه؟

– أنا مليش دعوة بيهم.

– والشيخ عصام؟

– ولا حاجة، إحنا صحاب، بندخن سوا.

– بس؟ ولا بتعملوا حاجات تانية؟

أوضح سيادة الضابط إدكو ما يقصده بحركة من أصابعه؛ احمرَّ لها وجه الشاب البريء.

– وبتقولوا إيه؟

– مفيش. بيقول الشريعة سمحة. وكل زمان له احتياجاته. حاجات زي كده.

نهض إدكو وأدار المروحة بعيدًا عنه وهو يقول: سيادة المأمور كان عاوز يحطك في التأديب لكن أنا اتشفعتلك على أساس انها أول مرة تخش السجن، وكمان سنك صغير.

– الله يخليك يا سعادة الباشا.

لكن رحمة الباشا لم تكن من أجل الفوز بدعاءٍ نابع من القلب.

– بص. إحنا عارفين كل حاجة بتحصل في السجن. مين اللي حشش ومين اللي بيبيع مخدرات ومين اللي اتسخمط. كل حاجة.

تمامًا مثل علي بلبل الذي يرى بخرم مؤخرته.

إذن ما هو المطلوب؟

خدمة بسيطة تتيح لأشرف التكفير عن ذنبه لها فوائد أخرى كثيرة؛ معاملة جيدة في حالة الحكم عليه والخروج بربع المدة على أساس التقرير الذي سيكتبه الضابط.

بالتحديد شوية معلومات.

الملتحين؟

قال الضابط بغير اهتمام: لا. إنت خليك مع الشيخ عصام ولو عرفت حاجة مهمة إبقى قولنا عليها.

إذن ماذا؟

– الدكتور رمزي، متعرفش بيكتب إيه كل ليلة؟

– لا يا باشا. هو محرَّص قوي على ورقه مبيخليش حد يشوفه. وما يسيبوش بعيد عنه حتى لما يلعب رياضة أو يروح الحمام، يكون لفه في كيس بلاستيك ويلفّ عليه القميص بتاعه ويخليهم قدام عينيه. ولما ينام بيحطه تحت دماغه.

– أنا عاوز أعرف اللي في الورق ده.

ما الذي يمنعه؟

– سعادتك تقدر تفتشه وتاخده.

وفي الحال ندم على تهوُّره فقد رمقه إدكو بنظرته الباردة: لأ فكيك يا روح أمك. ثم أوضح في اقتضاب: أنا مش عاوزه يحس بحاجة.

أصرَّ شرف على تقديم عونه: سيادتك تقدر تفتش الزنزانة كلها؛ أظنك بتدور على مخدرات وتاخد ورقه تقراه على مهلك وبعدين ترجعهوله.

– إنت متعرفوش، دا شيطان. حيفهم على طول.

وجد شرف الشيخ عصام في انتظاره عندما عاد إلى زنزانته فروى له الجزء الأول من لقائه مع إدكو الخاص بشكوى الترزي. وبالمقابل روى له الشيخ عصام تاريخ الضابط المسجل في أرشيفه، فاسمه الحقيقي هو رشدي سلامة. وكان رئيسًا لمباحث مركز إدكو برتبة نقيب عندما ذهب إليه تاجر ماشية كبير بتوصية، ودون أية وثائق اتهم شقيقَين من إحدى عائلات البلدة بأنهما استوليا منه على ٤٢ ألف جنيه؛ فركب النقيب سيارته ومعه زمرة من رجال المباحث وأحضر أحد الأخوين إلى المركز، طلب منه رد النقود فأنكر أنه أخذ شيئًا من المليونير فبدأت عملية إقناعه، وقبل أن يقتنع سقط فوق مكتب النقيب بعد أن نزفت الدماء من فمه وأذنَيه فنقلوه إلى مستشفى البلدة دون جدوى؛ فقد كان اقتناعه حاسمًا لا رجعة فيه.

أثار اقتناع المسكين أهالي البلدة فتجمعوا رجالًا ونساءً وصبية، وزحفوا على المركز يريدون الثأر من النقيب الجلاد كما وصفوه، وانتزعوا الباب الخارجي للمركز في محاولة لاقتحامه. ولم تفرقهم سوى طلقات الرصاص التي انهمرت عليهم من قوة المركز وصرعت أحدهم، هنا انفجر غضبهم فهاجموا كل الأبنية الحكومية؛ المخبز الآلي والسنترال، ثم أشعلوا النار في مبنى مجلس المدينة الذي يعانون من فساد رئيسه وهاجموا الفيلا الحكومية المخصصة لسكنه لكنه أفلح في الهرب بسيارة هو وأسرته.

طبقًا للتقليد المصري، لم تستمر انتفاضة إدكو طويلًا؛ إذ وصلت سيارات الأمن المركزي العملاقة، تقلُّ مئات من الجنود المصابين بالأنيميا والضباط السمان المفتولي العضلات، ببنادقهم ورشاشاتهم، وتحولت المدينة إلى ثكنةٍ عسكرية تنطلق في سمائها القنابل المسيلة للدموع لتسقط بين المنازل وعلى أسطح البيوت وتعبئ الجو بالغاز الحارق الملهب للجفون، ثم ظهر رجال مكافحة الشغب في الشوارع المؤدية إلى قلب المدينة يمسكون بمن يضعه حظه العاثر في طريقهم من شباب ورجال عُزل فيوسعونهم ضربًا ويحملونهم في سيارات إلى المركز.

وكما يحدث في هذه الحالات، ما إن انتهى إقناع أهالي البلدة، حتى بدأ توزيع الجوائز والمكافآت، فنُقل النقيب رشدي إلى مصلحة السجون. كيف يمكن أن يكون العمل في هذا المكان الكئيب مكافأة؟ سؤال رد عليه الشيخ عصام بسؤالٍ آخر على طريقة أهل

ملوي: وما الذي يدعو خريج كلية الشرطة لأن يطلب العمل في مصلحة السجون؟ بص مثلًا المسائل المالية؛ المفروض إن للمسجون غيارين داخليين في الشتا واتنين في الصيف، شُفت حد بيستلمهم؟ المفروض أيضًا إن له كمية معينة من اللحم والعدس والفول والجبن. والعيانين لهم بيض ولبن ولحم. كميات هائلة بتشتريها المصلحة ومحدِّش بيشوفها. الانتفاع من فوق لتحت.

مزق شرف استطلاع الرأي، وتفرَّغ لدراسة المشكلة التي استعصت على إدكو، لم يستغرق طويلًا في البحث عن حلٍّ لها؛ إذ قدمه له الدكتور رمزي نفسه قبل أن ينتهي اليوم. فقبل التمام بنصف ساعة انتحى بالشاب جانبًا وقال له: وهو يناوله كيس البلاستيك والمفكرة، أنا داخل آخد دوش وعاوزك تاخد بالك من الحاجة دي. متخليش أي حد ياخدها منك أو يبص فيها.

تسارعت دقات قلب شرف وهو يفكر بسرعة: دش المرحاض لا يستغرق أكثر من عشر دقائق، وأغلب نزلاء الزنزانة لم يخرجوا بعدُ إلى الفسحة، أين إذن يختلي بالأوراق ليلقي عليها نظرة؟

أثبت شرف ما يتمتع به إدكو من فراسة، فقد؛ فقد حمل الكيس في يد وانطلق إلى المرحاض. تبين على الفور شبشب الدكتور رمزي أمام كابينة الاستحمام الأخيرة: ساعده الحظ فوجد الكابينة الأخيرة من الناحية الأخرى خالية فولجها واتخذ وضع قضاء الحاجة، فضَّ محتويات الكيس وأقبل يتفحص محتوياته في اطمئنان. فلو خرج الدكتور قبله سيقول له إنه اضطر لدخول المرحاض فأخذ الأوراق معه، وتأخر به لأن ولادته كانت متعسرة أو مستفيضة، حسب الحال.

طالعه المشط الذي يحرص عليه الدكتور رمزي من أجل تنظيم الشعيرات الباقية فوق رأسه ثم صورةٌ فوتوغرافية ملونة لامرأة وطفلتَين وصورة لكل طفلة على حدة، وأدرك شرف بذكائه الذي شحذته التطورات أن اهتمام إدكو موجَّه إلى بقية المحتويات فركز عليها؛ قصاصات صحف ومذكرات بخط اليد تتضمن وقائع القضية المتهم فيها سعادة السفير، قصاصة من صحيفة تشتمل على قائمة بممتلكات الدكتور ثابت محفوظ، قصاصات تتضمن إعلانات عن أجهزة التكييف (طبعًا، ليه لأ؟) والقرى السياحية (إجازة بعد انتهاء المحاكمة؟ أو مشروع؟)، تصريحات لكبار المسئولين عن الاقتصاد والأمن، تقارير لهيئات أجنبية (له اتصالات)، أسماء شركات أجنبية (ومصالح)، مقالات بالفرنسية والإنجليزية عليها سطورٌ مخططة وبجوارها تعليقات بالعربية (اهتمامات واسعة) إحصائيات ودراسات وأرقام (علاقة بجهاتٍ أجنبية؟ في الغالب لأنه شخصٌ

محترم)، مفكرة بها ما يشبه مذكراتٍ شخصية أو خطاب طويل، بضع صفحات تحمل سطورًا قصيرة على هيئة أبيات الشعر أو المسرحيات.

تعجب لما يمكن أن يثير اهتمام الضابط في هذه الأشياء غير المترابطة؟ وأخيرًا في لحظة تجلٍّ خطر له أن الدكتور رمزي زميل له في المهنة. احتار في تحديد الجهة التي يعمل لحسابها، فمن الواضح أنه لا يعمل لحساب السجن ولا لحساب إسرائيل التي يحتل جواسيسها زنازين معروفة، فلمن إذن؟

بعد أربعة أيام نودي عليه للزيارة، وانتظر طويلًا في الردهة المؤدية إلى قاعتها إلى أن اتضح أن لبسًا قد وقع في الأسماء وأعيد إلى زنزانته. وخلال ذلك التقى به إدكو (الذي رتب الأمر كله لهذا الغرض) ليستمع إلى عرضه لمحتويات الأوراق على قدر استيعابه لها.

استمع إدكو في اهتمام ثم أعرب عن رغبته في رؤيتها بنفسه لتصويرها ثم إعادتها إلى مكانها دون أن يشعر صاحبها. كيف يمكن تدبير ذلك دون أن يتسرب الشك إلى الدكتور؟

قضى شرف، هو وحضرة الضابط إدكو، ليالي عديدة يفكران معًا (من مكانَين متباعدَين) في المشكلة دون جدوى إلى أن تكفَّل الملتحون بحلها.

١٢

أقرضني سامح إحدى قصص الألغاز البوليسية التي يحتفظ بمجموعةٍ كبيرة منها ويشاركه مستر تامر قراءتها، رغم أنها باللغة العربية وموجهة للصغار، استلقيتُ فوق نمرتي وبدأت القراءة، وإذا بي أسمع ضجة في الطرقة. خرجت من الزنزانة أستطلع الأمر فوجدت توكل محاطًا بعدد من النزلاء وقد بدا الانفعال على وجوه الجميع، وعرفت أن وفدًا من الطابق العلوي قد قابل سيادة الضابط إدكو وطلب منه تشغيل التليفزيون ليتمكن النزلاء من مشاهدة مباراة الدوري بين الأهلي والزمالك. ووافق إدكو على وضع التليفزيون في الطرقة وتأخير التمام ساعتَين لهذا الغرض.

بحثت عن شحاتة وزغلول وأبلغتهما النبأ الذي انتشر بسرعة البرق. وخرج نزلاء الزنازين المجاورة إلى الطرقة وعلى وجوهم مظاهر الانفعال والبهجة، وفوجئت بجارنا الطبيب يحزم وسطه بشالٍ أحمر اللون ويرقص معلنًا تأييده للأهلي، فصفقت له مشجعًا، ورقص زغلول أيضًا رغم أنه لا ينتمي لأي نادٍ.

لم أتمكن من معاودة القراءة ولا من عمل أي شيء، وأخذت أدخل الزنزانة وأخرج منها بلا سبب وفي إحدى المرات رأيت اللبناني الذي يسكن الزنزانة المقابلة قادمًا من الزيارة. وكالعادة التفَّ معارفه حوله يسألونه عن الأخبار ويتلقون تعليقاته الظريفة، وسمعته يقول إنه شهد ثلاثة من أمراء السُّنية يدخلون للمأمور، وفهم أنهم طلبوا مقابلته بخصوص موضوع التليفزيون.

استولى الوجوم على الجميع. وتطلعت إلى الطابق الثاني بحثًا عن الشيخ عصام لكني لم أرَ له أثرًا. وبعد قليل عرفنا من الدهشوري أن السُّنية احتجوا على تشغيل التليفزيون وطالبوا المأمور بإلغاء قرار إدكو لكنه رفض.

قبل التمام بساعة ظهر أحد السجناء في باب العنبر يحمل جهاز تليفزيون من طراز «جولدستار» الكوري، صفقنا له جميعًا وساعدناه على وضع الجهاز مكان المنبر الخشبي الذي يعتليه خطيب الجمعة، كما عاونوه في تثبيت الإيريال.

ظهر عددٌ إضافي من الحراس عند باب العنبر، وتجمع أغلب النزلاء في الطرقة فوق بطاطينهم. لم يكن الدكتور رمزي بينهم؛ فقد فضَّل البقاء في الزنزانة والقراءة؛ مما أكد لي أنه شخصٌ غريب. لم يظهر الدكتور ثابت أيضًا؛ فلديه تليفزيون خاص به في زنزانته، ولزم السُّنية زنازينهم وارتفعت منها أصوات قراءة القرآن.

كان الجو حارًّا مرتفع الرطوبة، ورغم ذلك بدا منظر السماء من خلال قضبان السقف رائعًا. وتمنيت لو كان عبد الفتاح بجواري. ثم نسيت كل شيء عندما بدأت المباراة التي سارت في البداية ببطء وملل إلى أن بدأ فريق الأهلي يسجل انتصاراته التي تُوِّجت بفوزه.

جمعنا بطاطيننا في غاغةٍ هائلة وكوَّن نزلاء الطابق العلوي مظاهرة صعدت السلم تُلوِّح بعلمٍ أحمر وهم يهتفون للأهلي، والتفَّ مؤيدوه وأنا منهم حول الطبيب الذي استأنف الرقص وهو يسخر من أنصار الزمالك.

بدأ التمام وانصرف الجميع إلى زنازينهم، كنا في حالةٍ غير طبيعية نضحك لأي سبب رغم الجو الخانق. استعدنا وقائع المباراة عدة مرات وامتد بيننا الحديث لساعةٍ متأخرة وتطور إلى شجار بين عزت بدوي وأبو السباع الذي كشف عن تأييده للزمالك. وعجبتُ كيف أن رجلًا في سنه وخبرته بالحياة يعجز عن اختيار الفريق الأفضل، وانقسمت الزنزانة إلى فريقَين أيضًا عدا مهندس الألومنيوم والدكتور رمزي، وتوتر الجو عندما هاجم أبو السباع حكم المباراة الأجنبي واتهمه بالتحيز للأهلي. وقال إن الزمالك يلعب جيدًا، لكن كان هناك اتفاقٌ سري على أن يخرج الفريقان متعادلَين دون نقاط استعدادًا لمباراة الكأس، وأن الأهلي خرق الاتفاق. أثارنا هذا الاتهام وأوشك عزت بيه أن يمسك بخناق أبو السباع لولا تدخل توكل.

لم يتبدد التوتر الذي خلقته المباراة في الصباح. انتظرنا الصحف في لهفة لنقرأ التعليقات الرياضية. وكانت زنزانتنا تحصل على صحيفتَين يوميتَين بشكلٍ منتظم؛ واحدة لعزت بيه والثانية للدكتور رمزي، وفي العاشرة وصلت الصحيفتان وكانت إحداهما تحمل في صدر صفحتها الأولى عنوانًا كبيرًا: «ضربة أمنية كبرى». قرأ لنا عزت بيه النبأ بصوتٍ مرتفع: «في مطاردة داخل جبل سمالوط بمحافظة المنيا لقي اثنا عشر إرهابيًّا مصرعهم وكانوا قد اشتركوا في اغتيال عشرين مواطنًا ورجل شرطة، وعثر بحوزتهم على تسعة

مسدسات وبنادقَ آلية ومائة وخمسين كيلوجرامًا من الديناميت ومائة من البارود الأسود، وقنابلَ مجهزةٍ للتفجير وكمياتٍ ضخمة من المسامير مختلفة الأحجام، وعبوات فارغة معدة لملئها بالمواد المتفجرة، وعدد من الدراجات البخارية وخرائط ورسوم كروكية لعدد من الأهداف والمنشآت الشرطية.»

انفرد كلٌّ من عزت بيه والدكتور رمزي بصحيفته، وحاولتُ أن آخذ من الأخير الصفحة المخصصة لأخبار الرياضة لكنه رفض، كان يحب أن يمسك بالصحيفة كاملة ويُقلِّب صفحاتها على مهل ويتوقف طويلًا عند بعض الأخبار والإعلانات.

انتظرت حتى فرغ من القراءة وناولني الصحيفة، قرأت التعليقات الرياضية ولم أجد بها إشارة إلى اتفاق ما بين الناديين، وإن كان أحد المعلقين عدَّد بعض الفرص التي أضاعها لاعبو الزمالك دون مبرر. وكان إلى جانب التعليق نبأ عن نشاط السُّنية في محافظة المنيا؛ إذ اقتحم أربعة منهم بنك التنمية والائتمان الزراعي في إحدى قرى مركز أبو قرقاص وأطلقوا الرصاص على أسقف وحوائط البنك لإرهاب الموظفين والعملاء الذين انبطحوا أرضًا أسفل المكاتب، ثم انتزعوا الخزينة وفرُّوا بها داخل سيارة كانت تنتظرهم على مقربة.

أعجبتني جرأتهم وذكرت الخبر لتوكل الذي غمغم: ولاد الجنِّية. بحثت عن الشيخ عصام في الطابور لأعرف إذا كان قد قرأ الخبر، لكني لم أره بين السُّنية الذين تجمعوا في ركن الفناء وانهمكوا في نقاشاتٍ حادة. وما لبثنا أن عرفنا أن سجينًا بالطابق العلوي سبَّ واحدًا منهم أثناء نقاش حول تشغيل التليفزيون.

ظهر الشيخ عصام في مدخل زنزانتنا مع أذان العصر. انفلت داخلًا وانزوى في ركن توكل الذي لم يكن موجودًا. كان منفعلًا، ورفض أن يجلس، انتقلت إلى جواره فأسر إليَّ أن أميرهم أصدر فتوى بإهدار دم ثلاثة من السجناء بينهم السجين الذي سبَّ السُّني في الصباح.

تطلعتُ إليه غير مصدق وقلت: جد؟!

قال: طبعًا جد، كان لازم تشوف الإخوة وهم بيبوسوا إيده عشان يسمح لواحد منهم بشرف التنفيذ، حيدخل الجنة لو القتل تم بخمس طعنات ورا بعض.

خطر في بالي على الفور أن أحاول الاتصال بإدكو لأنقل إليه هذا الخبر الخطير. لكن السُّنية كانوا أسرع مني.

كنا نستعد للخروج إلى الفسحة حين سمعنا فجأة ضجة في أحد الطوابق العليا وأصوات صياح وصفافير ثم أقدام تجرى. وصاح فينا الحارس أبو حسين على الفور: ارجع زنزانتك انت وهو، بسرعة.

رأيته يدفع نزلاء الزنزانة المجاورة داخلها بما فيهم النوبتجي الذي كان غطى رأسه بطاقيةٍ حمراء، وكان بينهم صاحب فرن ضخم الجثة يمر من فتحة الباب بصعوبة. وتابعت محاولات أبو حسين لإدخاله الزنزانة، وضحكت وأنا أراه يكاد يحمله حملًا ممسكًا بفلقتَي مؤخرته الضخمتَين، جاء دورنا فدفعنا إلى الداخل وأحصى عددنا في هرولة ثم أغلق علينا الباب دون أن يحفل بالرد على استفساراتنا، وانتقل إلى الزنزانة التالية. وكان حارسٌ آخر يقوم بالمثل على الناحية المقابلة.

انصرف الحارسان بعد التمام فقفز توكل إلى شراعة الباب وهو يلفُّ جسده ويثني ركبتيه بحيث استقر في فتحتها مستندًا بظهره إلى جدار وبقدمَيه إلى الجدار الآخر الذي رُكِّب فيه الباب، نادى على الحارس فلم يعبأ بالرد عليه. وقفت تحته وأحنيت رأسي لأضع عيني على النظارة. مددت إصبعي فأزحت غطاءها لكني لم أرَ شيئًا. كانت أصوات الصباح والشتائم تصلنا بوضوح من الطابق العلوي لكننا لم نتمكن من تمييزها وتبيُّن ما يجري، وما لبث مساجين العنبر كله أن شاركوا في الهيصة بالدق على الجدران والدلاء.

دوَّى فجأة صوتٌ جهوري كالرعد في مدخل العنبر غطى على الضجة: انتباه!

أدركنا أن ضابط العنبر أو المأمور وصل، ساد الصمت لحظات ثم علت الضجة من جديد، وسمعنا صوت أقدام تجري على السلم. لمح توكل الدهشوري فناداه، لكن هذا لم يحفل به. ورأيناه بعد قليل يتحدث مع نوبتجي الزنزانة المقابلة الذي تعلق بنافذة بابها مثل توكل ثم انصرف بسرعة.

صاح توكل في النوبتجي يسأله عما حدث فقال إن جماعة من السُّنية هاجموا زنازين الطابق العلوي وانهالوا على سكانها ضربًا بالأسلحة البيضاء والمطاوي وقطع الأخشاب وحنفيات المياه.

غمغم توكل في انفعال: ولاد الجنيِّة.

نادى على ماكس ليشعل له سيجارة، وعندما شرع الأخير في قطعها نصفين صاح به أن يعطيها له صاحية.

ذكرت ما قاله لي الشيخ عصام واستمع لي توكل باهتمام ثم ردد: ولاد الجنية. يكونوا حيطبقوها.

لم أفهم ما يعنيه، وأنصتنا لأصوات الصياح والضرب. ترددت صيحات الحراس وأوامرهم بوقف القتال دون جدوى، وفجأة دوَّى صوت بوق بطريقةٍ معينة وعلق توكل: نفير الكبسة.

أضاف أبو السباع: الحراسة من حقها الوقت تضرب في المليان.

دوَّت بضع طلقات، قال توكل إنها خارج العنبر. توقفت الضجة لحظة ثم اشتعلت من جديد. انطلقنا نتكلم جميعًا في وقتٍ واحد ونحن نحاول استخلاص حقيقة ما يجرى. وتعب توكل من تعلقه بنافذة الباب فهبط وصعدت مكانه.

سألني توكل من مجلسه في الركن: شايف حاجة؟

أجبت بالنفي، كان مجال رؤيتي يمتد من قاعدة السلم المؤدي إلى الطوابق العليا على يميني حتى الحائط الذي تنتهي عنده الطرقة على يساري. وكانت الطرقة خالية وقد تناثرت فوق أرضها شباشب وأحذية وأكوابٌ معدنية ومواسيرُ حديدية. ولم أتمكن من رؤية شيء في طابق السُّنية الذي يعلونا فلم يظهر منه سوى جانب من قضبان السور الحديدي الذي يحيط به.

سمعت توكل يقول: فاكر يا أبو السباع السنة اللي فاتت لما خطفوا ضابط وأخدوا سلاحه وحجزوه في زنزانة؟ دول ولاد جنية. قعدوا يتفاوضوا مع الإدارة طول الليل لغاية ما وافقت على كل اللي طلبوه.

قال أبو السباع: أنا حضرتهم في الليمان لما مسكوا السجن ومحدش قدر يعمل لهم حاجة لغاية ما جت القوات الخاصة اللي بتلبس أسود ورمت عليهم القنابل المسيلة للدموع. تعرف عملوا إيه؟ ملوا جرادل مية وأول ما قنبلة تدخل الزنزانة يلقفوها على طول ويرموها في المية فيطفوها.

غمغم توكل: ولاد جنية.

قال أبو السباع بأسفٍ حقيقي: وفي الآخر سلموا.

– تفتكر يحرقوا السجن؟

قال توكل: دول يقدروا يعملوا أي حاجة.

علق سامح: يمكن عايزين يهربوا.

قال: مفيش حاجة تعصى عليهم. لما كنت في سجن بني سويف الأمير بتاعهم هرب بمنتهى السهولة. تعرف عمل إيه؟ لبس هدوم واحدة منقبة جابوها له في الزيارة وخرج مع الزوار.

جاءنا صوتٌ غريب من خارج العنبر، أخذ يعلو بالتدريج مقتربًا منا، وتبينتُ فيه بعد لحظات صيحة جنود الأمن المركزي المعروفة: «هوه، هوه» وتردد نباح كلاب، ثم لمحت من طرف النافذة جنديًّا في ملابسَ سوداءَ متحصنًا بدرعٍ بلاستيكي.

صحت: أهم وصلوا.

انتشر الجنود في الطرقة مكوِّنين صفَّين متقابلَين، ودوَّت انفجاراتٌ عاصفة فوق رءوسنا مباشرة وملأ الدخان العنبر. وتلا ذلك أصوات تكسير وتحطيم وانهالت أكوام من الكتب والعلب المحفوظة والبطاطين والأحذية وسط الطرقة.

التهبت جفوني وتابعتُ بعينَين دامعتَين حوالي عشرة من السُّنية يجرون بين صفَّي الجنود الذين انهالوا عليهم بالهراوات الكهربائية حتى وصلوا إلى نهاية الطرقة. أجبرهم الجنود على العودة فواصلوا الجري والهراوات تنهال على رءوسهم وظهورهم كيفما اتفق، وقبل أن يصلوا إلى قاعدة السلم أمرهم الجنود بالجلوس على الأرض ووجوههم إلى الحائط، واستأنفوا ضربهم ثم سحبوهم على الأرض والدماء تنزف منهم إلى خارج العنبر.

ظهرت مجموعةٌ جديدة من السُّنية تجري بين صفَّي الجنود. وتكرر معها ما جرى مع المجموعة الأولى وأَحصيتُ ست مجموعاتٍ مماثلة قبل أن يتوقف التأديب ويسود الهدوء، وفجأة سمعنا صوت فتح زنزانة في طابقنا، وصاح صوتٌ آمر: انتباه!

جذبني توكل إلى أسفل وصعد مكاني ثم هبط مصفرَّ الوجه: تفتيش.

أخذ يقلب في حاجياته بسرعة ويتبادل الهمس مع ماكس، بينما بدا التوتر على الدكتور رمزي وشحبت وجوه الآخرين، الوحيد الذي احتفظ برباطة جأشه هو مهندس الألومنيوم الذي لزم ركنه ودفن رأسه في المصحف كأن الأمر لا يعنيه. وضع توكل شيئًا في فمه واكتشفت بعد ذلك أنه نصف موسى وضعه لصق خده. وناول ماكس أنبوبةً رفيعةً ملفوفة بورق السوليفان. وعلى الفور قرفص وفك الشورت الذي يرتديه وأنزل الكيلوت ودس الأنبوبة في مؤخرته.

راقبت الدكتور رمزي في اهتمام، أخذ يتحسس كيسه البلاستيكي في ارتباك ثم وضعه داخل بطانية طواها على شكل وسادة وعاد فاستخرجه ودسه في صدره.

أرهفنا السمع للأصوات القادمة من الخارج، كانت تقترب منا إلى أن أصبحت عند الزنزانة المجاورة، وساد السكون بضع لحظات، وفجأة اصطدم المفتاح بقفل بابنا وفتح في حركةٍ واحدة، ودوت الصيحة المعهودة: انتباه.

اعتدلنا واقفين فوق نمرنا، كان الذي فتح الباب هو الشاويش عبد الغفار الذي اشتهر بشاويش التأديب؛ إذ كان له تاريخٌ حافل بالاعتداء على المسجونين، وكان معه الشاويش بعجر وعددٌ آخر من الحراس لم نرهم من قبلُ، وخلفهم ظهر إدكو مختالًا بمشيته المشهورة.

اقتحم الحراس الزنزانة في سرعة، وانتشروا في أرجائها يقلبون النمر ويرفعون البطاطين ويهزُّونها ثم يلقون بها جانبًا ويبعثرون صناديق الطعام ثم يفتشون الأشخاص.

تطلعت ناحية إدكو لكنه تجاهلني تمامًا، ووقف في مدخل الزنزانة يتابع ما يجري ويده في خاصرته.

ناول الحارس الذي فتش نمرة توكل علبة شاي لعبد الغفار فقدمها هذا لإدكو الذي ألقى بها في صندوق كرتون أحضره الحراس معهم، ولمحت الحارس يستدير بجسده ليحجب يديه عن نظر إدكو. ورأيته يعيد لتوكل علبة الصفيح التي يحتفظ فيها بأقراصه، ولاحظت أن هذه الحركة لم تغب عن عبد الغفار.

انتقل الحارس بعد ذلك إلى ماكس ثم مستر تامر. وعندما أراد أن يأخذ صندوق سكرابل احتجَّ صاحبه.

تدخل إدكو: متخفش عليه، حنحطه في أماناتك. لما تيجي تخرج تبقى تاخده.

أشار بيده فوضع الحارس علبة سكرابل في صندوق الكرتون. وأتبعها بالشطرنج ومروحة قاسم بيه التي تركها لمستر تامر وعلب الكبريت وصندوق الكوتشينة...

احتج مستر تامر مرةً أخرى فأوضح إدكو بلهجة ساخرة: التعليمات اللي عندنا إننا نمشي باللايحة، ولايحة السجون لا فيها سكرابل ولا فيها كولمان.

فقدنا طاولةً خشبية تلقاها عزت بيه قبل أسبوع وتبعتها الكوتشينة وقصص الألغاز. ولم ينجُ سوى المصحف الذي كان يمسك به مهندس الألومنيوم.

جاء الدور على الدكتور رمزي، انحنى الحارس على نمرته وفتَّشها بدقة ثم اعتدل واقفًا ومرَّ بيدَيه على ذراعَيه وسيقانه وظهره، استخرج الكيس البلاستيكي من صدره وناوله لإدكو.

قال الدكتور: دي أوراق شخصية.

تناول إدكو الكيس وألقى به في صندوق الكرتون دون أن يحفل بالرد.

قال الدكتور: دي مذكرات بكتبها عشان الدفاع بتاعي، اللايحة متمنعهاش.

رد إدكو دون أن ينظر إليه: اللي مش ضد اللايحة حنرجعه.

لم يستغرق تفتيش أبو السباع وأنا بعده غير دقائق ثم غادر الحراس الزنزانة. وانهمكنا في إعادة ترتيب نمرنا وحاجياتنا التي تبعثرت في أنحائها. وعندما انتهى تفتيش الطابق واطمأننا إلى خروج الضابط والحراس صعد توكل إلى شراعة الباب ليأتي بآخر الأخبار، عرفنا أن المعركة التي دارت بين السُّنية والسجناء، وبينهم وبين الحراس أسفرت عن ثلاثة من القتلى وحوالي المائة من المصابين والجرحى.

كان نومنا قلقًا غير منتظم ضاعفت منه الحرارة والرطوبة، وعندما استيقظنا سأل عزت بيه صاحب العمارة عن سر التأوهات التي كانت تصدر منه أثناء النوم، فقال إنه تعرض لكابوس، سأله عن طبيعة الكابوس، قال بصوته الأخنف: كنت باحلم إني نايم مع مراتي.

لم يفتحوا لتوكل كي يخرج قبلنا كالعادة. وتأخر فتح الزنازين فأخذنا ندق على الباب كي نذهب إلى المراحيض، وفتحوا علينا قبل الظهر بقليل. كان الحارس هو صبحي ذو الصوت المبحوح الذي لقبناه باسحب الفجل في عنبر الميري. وعرفنا منه أن بعض المصابين نُقلوا في الفجر إلى مستشفى القصر العيني كما نُقل قادة السُّنية إلى عنبر التأديب، ووضعوا في زنازين منزوعة البلاط أُغرقت بالمياه. أما الباقون في العنبر فقد طُبِّقت عليهم أقصى درجات التكدير فلم تفتح زنازينهم إلا واحدةً واحدة ولمدة خمس دقائق فقط، وأُجبروا على إخراج نمرهم ووضعها في الطرقة والبقاء على الأرض طول اليوم حتى موعد التمام، كما منعت عنهم الأطعمة والزيارات وصودرت متعلقاتهم الشخصية، ولم يُسمح للواحد منهم بغير حذاء ومنشفة.

شملت إجراءات تطبيق اللائحة منع بيع السكر في الكانتين حتى لا يستخدم في عمل الشاي في الزنازين؛ لأن إشعال النار ممنوع. ولهذا السبب أيضًا مُنع التدخين داخل الزنزانة ليلًا، كما حُددت كمية السجائر التي يمكن شراؤها من الكانتين بحيث لا تزيد عن ثلاث علب في الأسبوع.

طلب عزت بيه من الحارس أن يذهب إلى الكانتين ليشتري سجائر لأن سجائره نفدت فأخبرنا أن الكانتين مغلق بسبب التكدير. وهنا وعده توكل بأن يحل له المشكلة بعد التمام. وأبرز توكل نفوذه. فلم تمضِ ساعتان إلا وأحضر له أبو حسين كوبًا كبيرًا من الشاي تناوله من نافذة الباب شربه باستمتاع دون أن يبالي بأحد منا ولا حتى بماكس.

استُدعي الدكتور رمزي لمقابلة إدكو، وعاد حاملًا كيس أوراقه؛ كيسه البلاستيكي، انزوى فوق نمرته وأخذ يتصفح محتويات الكيس إلى أن اطمأن على أوراقه.

سألته: كله تمام؟

فوجئ بسؤالي وقال: آه، تمام.

شعرت بلذةٍ غريبة. كنت الوحيد بين النزلاء الذي يعرف ما حدث لأوراقه. وفكرت أن ذلك قد يعني انتهاء مهمتي. ووجدتني آسَف على ذلك. انتظرت أن يستدعيني إدكو ليخطرني بما عمله. لكنه لم يفعل أبدًا. فبعد يومين نُقل إلى سجن قنا، وسمعنا أن لجنة

تحقيق من مصلحة السجون اعتبرته مسئولًا عما حدث لأنه سمح بتشغيل التليفزيون. دفعني هذا إلى التفكير في سبب تصرفه، وعما إذا كان تعمَّده ليتمكن من وضع يده على أوراق الدكتور رمزي بطريقة لا تثير الشك.

علق توكل على نقل إدكو قائلًا: الدور ع المأمور، تلاقيه الوقت بيرعش.

قال زكي عز: وهو ذنبه إيه؟

أجاب توكل: هو المسئول عن الظبط والربط.

حلَّ محل إدكو ضابطٌ آخر برتبة رائد، اشتهر بالقسوة وعُرف باسم «خضرة»؛ فقد كان له شعرٌ مُجعَّد بقصة، وأظافر لامعة مصقولة منمقة، ووجه يخلو من الشعر، وصوتٌ رفيعٌ حاد. وكانت ملابسه العسكرية أنيقة، والمدنية من أقمشةٍ فاخرة وتنبعث منه دائمًا رائحة العطور الغالية. وعلق الدكتور رمزي على شخصيته قائلًا إنه خجول ويخفي خجله بالصراخ وأوامر الضرب.

نفذ توكل وعده بعد التمام فبعث بحارس الليل إلى سجين بالطابق العلوي محكوم عليه بالإعدام في قضية تجسس لإسرائيل يُدعى مصطفى، وكان ينتظر تنفيذ الحكم منذ سبع سنوات ويتمتع بمجموعة من الامتيازات تعطى للمحكومين بالإعدام؛ ومنها حصةٌ مجانية من السجائر على حساب المصلحة. لم يكن يدخن فتاجر فيها وأصبح يبيع الخمسة منها بسبعة ارتفعت طبعًا بسبب الظروف إلى تسعة.

حُرمنا من الطابور لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أبلغنا الضابط خضرة أننا سنخرج لمدة ربع ساعة فقط. وعندما هبطنا إلى الفناء فوجئنا بالمأمور جالسًا فوق مقعد وضع في الظل وقد مدَّ ساقَيه أمامه، كان يرتدي قميصًا كاكيًّا بكمَّين قصيرَين على كتفَيهما النجوم الدالة على رتبته، ويغطي عينَيه بنظارةٍ شمسية من طراز «فريري» ذي الزوايا الغريبة.

التفت المأمور ناحيتنا ثم أشار إلينا بغليونه أن نقترب؛ قادنا الحارس إليه وأدى التحية العسكرية.

تجاهله المأمور وخاطب الدكتور رمزي: إزيك يا رمزي، عاملين إيه؟

كان لمخاطبة الدكتور رمزي باسمه الأول هكذا دون لقب الدكتور وقعٌ غريب على أذني. لكنه لم يهتم وسارع بالرد: تعبانين يا باشا، حنتخنق من قفلة الزنزانة طول النهار، الدنيا حر وعددنا كبير، ثم احنا ملناش ذنب في اللي حصل.

– السجن كده يا رمزي، الغلط يحط الكل.

قال الدكتور: سيادتك احنا محرومين من كل حاجة. من لعب الرياضة ومن المكتبة ومن الكانتين. مش عارفين نشرب كباية شاي، ولا عارفين نتسلى!

– ليه؟ مبتحكوش حكايات؟
– حكينا لما قلنا يا بس.
– مبتلعبوش حاجة؟
– ما انتو أخدتم مننا كل حاجة في التفتيش ... الشطرنج والطاولة.
– كان عندكو كمان سكرابل. أنا وريتها للمدام وعجبتها خالص.

سارع مستر تامر قائلًا: يا باشا اعتبرها بتاعت سيادتك. ع العموم أنا في أول زيارة حابعت أجيب واحدة جديدة لسيادتك.

قال المأمور: المدام تعرف لغات وتحب تتسلى.

سكت لحظة كأنما نسي الموضوع الذي كنا نتحدث فيه ثم قال: العبوا استغماية. ونظر إليَّ فجأة ثم خاطبني قائلًا: مش انت بتاع بطشة؟

اندفعت الدماء إلى وجهي وأجبته: أيوه يا باشا.

سألني: تعرف تلعب صلح؟

لم أصدق أذني. كنا نلعب هذه اللعبة ونحن صغار فيقف أحدنا معطيًا ظهره لنا ويغمض عينَيه ويعقد ساعديه بحيث يبسط إحدى كفَّيه أسفل كتفه ثم ننهال على كفه بصفعاتنا ويتعين عليه أن يعرف من الذي ضربه.

قلت في تردد: أعرف سعادتك.

انفجر ضاحكًا، وحِرت: هل أضحك معه، وعلى ماذا؟ وخطر ببالي أنه يعرف بأمر علاقتي بإدكو وانتظرت أن تبدر منه إشارة لكنه لم يفعل.

كفَّ مرةً واحدة عن الضحك وتحول للدكتور رمزي: إنت لسه عاوز تعمل مسرح؟

قال الدكتور: يا ريت.

قال المأمور: ومين اللي حيشترك معاك؟ كلهم هنا بهايم. وأشار بيده إشارة شملتنا جميعًا بما فينا الدكتور.

فتح فمه ليرد فاستوقفه المأمور: لأ. مسرح لأ. وسكت لحظة، ثم قال: على العموم أنا بفكر نعمل حفلة، عاوز أغير الجو اللي في السجن. ستة أكتوبر داخل، والمصلحة عاوزانا نحتفل.

وفجأة فقد اهتمامه بالحديث وحدق في حذائه، وقبل أن أحدد نوعه أشار للحارس كي يصرفنا قائلًا: زود لهم الطابور نص ساعة.

استُدعي الدكتور لمقابلة المأمور بعد الظهر وغاب لديه حوالي الساعتين، وعندما عاد بدا منفعلًا.

قال: من بكره الطابور حيرجع زي الأول.

بدا الضيق على توكل الذي يمثل حلقة الصلة بيننا وبين إدارة السجن، سأله في لهجةٍ عدائية: والسكر والسجاير؟

أجاب الدكتور: الراجل وعدني إن كل حاجة ترجع زي ما كانت لكن بالتدريج. بشرط نساعده في الاحتفال بستة أكتوبر.

– نعمل إيه يعني؟

– هو كان عاوز حد يغني، قلت له أبو السباع صوته يجنن، وكمان عاوز يعمل مسابقات في الورش ويوزع جوائز من الترفيه. وحاجات زي كده.

قلت نبطشي الزنزانة اللي جنبنا بيغني صعيدي حلو.

قلت له نعمل كمان مسرحية. الراجل مقالش لا. إنما قال لي حتجيب ممثلين منين؟ وعاوزين مخرج. قلت له: أنا المخرج، وحجيب الممثلين.

– إنت تعرف تخرج؟

– شوية.

انطلقت التعليقات الساخرة؛ قال توكل مقلدًا أغنيةً قديمة: مدام مخرج تنكر ليه؟

وعلق رمضان بخبث: سبع صنايع.

لزم الدكتور الصمت ولم يستجب للاستفزازات، وبعد العشاء لجأ إلى أوراقه ثم وضعها جانبًا وشرد، لاحظت أنه يتأمل وجوه زملائنا في الزنزانة واحدًا واحدًا، ثم سألني عن نزلاء زنزانة عبده والزنزانة التي كنت فيها في عنبر الميري، حكيت له عن الولد الفلسطيني الذي أعدموه عدة مرات، وعن سامي عازر والصورة التي يحتفظ بها في الإنجيل، وحسن بكبورت والهرش الذي عاني منه، وبطشة وخلافه مع سوزوكي، وعم جابر الذي دخل بالأتوبيس في المحطة، وسامبو الذي قتل زوج عشيقته، وعم فوزي الذي قتل ابنة أخته ويقضي الوقت في عمل عرائس على شكلها وهيئتها، وبلحة وزميله الذي بدأ حياته بسرقة علب الصلصة، ومجاهد الذي نشرت الصحف قصته تحت عنوان ضاعت القيم وجاء الحقد.

كان يستمع إليَّ شاردًا ثم انفعل فجأة وسألني أن أصف له العرائس التي يصنعها عم فوزي وكيف يصنعها. قلت له إنه يجمع كل ما تقع عليه يديه من فضلات أثناء عمله في الخدمة، من خرق قماش وقش وورق جرائد وعلب كرتون. كل شيء وأحيانًا يسرق القطن من العيادة، وإذا لم يجد قطنًا حشا العروسة رملًا.

قال: تعرف أرشميدس اللي قال: وجدتها؟

قلت: سمعت عنه.

قال: أنا كمان وجدتها.

– إيه هي؟

– عمك فوزي. هو لسه هنا؟

– أنا لسه شايفه من يومين. كان بينضف الحوش، ليه؟

– كان بياخد وقت قد إيه في عمل العروسة؟

حاولت أن أتذكر: ليلة أو ليلتين، على حسب.

قال: تعرف أنا فكرت في إيه؟ عمرك شفت مسرح عرايس؟

قلت إنني ذهبت مع تلاميذ المدرسة مرة من عدة سنوات إلى مسرح العرائس في العتبة.

قال: نعمل واحد.

سألته في استغراب: هنا؟

قال في حماس: أهو ورشة النجارة موجودة، وعندنا ترزية كمان وعم فوزي. مش كان معاكم عامل صباغة؟

قلت: أيوه، سامي عازر.

قال: المأمور يجيبلنا القماش وإحنا نخيطه ونصبغه في المطبخ بالألوان اللي تعجبنا. نقدر نلون الوشوش بأقلام الفلوماستر أو بهباب الحلل والطباشير. ويجيبلنا كمان قش وكرتون نقدر كمان نعمل حاجات كثير من الورق المفضض. ونآخد كذا بدلة من بدل العساكر والسجانة.

سكت وأمسك بورقة وقلم وكتب بضعة أسطر ثم وضع طرف القلم بين شفتيه وحدق في السقف، وأخذت أتأمله شاعرًا أنه غير طبيعي بالمرة.

التفت إليَّ وقال وهو يقرأ من الورقة: شوف يا سيدي، حنعوز اتنين ثلاثة جدعان زيك يعرفوا يقروا كويس، واتنين ثلاثة تانيين عشان يحركوا العرايس. ممكن واحد بس. وساعة منعرض ناخد كرسي وللا اتنين من كراسي المعوقين اللي في المستشفى ونركب كشافين وللا ثلاثة من كشافات الحراسة.

قلت: ومين اللي يخرج؟

نظر إليَّ وقال: أنا، مش مالي عينك؟

مش قصدى. إنت تعرف؟

قال: مش قلت لك أنا كنت بأمثل في المدرسة؟

– هو اللي يمثل يقدر يخرج؟

أجاب في ضيق: أنا كمان اشتركت في الإخراج.

تردد لحظة ثم أضاف: في الكنيسة.

شرح لي أن كل الكنائس تحتفل بعيد القيامة قبل شم النسيم بتمثيل قيامة المسيح. فتُظلم الكنيسة وتنشد التراتيل التي يرددها الكورس والحاضرون ثم يسود الصمت ويدق القسيس باب الهيكل خلفه عدة مرات بعنف قائلًا: «افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد.» وعلى الفور تفتح أبواب الهيكل وتضاء الكنيسة في نفس اللحظة فتنطلق الزغاريد وتبدأ الأناشيد.

قسيس الكنيسة بتاعتنا في بورسعيد كان عجوز ومدهول، عمره ما عرف يخرج المشهد مظبوط. ساعة ما يخبط ويزعق ويقول افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد يتهيأ له أنه حيدخل حقيقي. فتجيله حالة ذهول وينسى يولع النور. أبويا الله يرحمه قاله: ما تخلي رمزي يساعدك، بقيت أقف جنبه عشان أولع النور في اللحظة المناسبة.

– وده يعملك مخرج؟

قطب جبينه: لأ. تقدر تقول مساعد مخرج.

شعرت أنه غضب فسكتُّ.

القسم الثاني

١٣

أوراق رمزي بطرس نصيف
(القصاصات)

⋆⋆ فقرات تتخللها خطوط بقلمٍ أحمر من عرضٍ كبير بإحدى الصحف اليومية لمحاكمة قاسم بيه وزميلَين له، أحدهما وكيل وزارة الصحة، في قضية الأغذية الفاسدة المستوردة:

... بعد أن واجه رئيس المحكمة المتَّهمين بالتهم الموجهة إليهم، طلب الدفاع الإفراج عنهم بدعوى أنهم مرضى ومن عِلية القوم وطلب التأجيل.

رد الادعاء بأن مبررات الدفاع واهية وعدم الإفراج من مصلحة مصر التي تنتظر حكمًا رادعًا، وطلب استمرار حبسهم خشية هروبهم، خاصة والمنافذ كثيرة وبالاتصالات والنفوذ قد يتمكن بعضهم من الهرب إلى خارج البلاد.

... نودي على شهود الإثبات فتقدم ممثل الرقابة الإدارية، وبعد أن حلف اليمين سأله المدعي عن معلوماته فقرر أن المتَّهمين عرضوا عليه شيكًا بمليون دولار مقبول الدفع يوضع باسمه في أي بنك في العالم.

سأله المدعي: وماذا كانوا يريدون منك؟

– لفلفة الموضوع.

– ماذا تقصد؟

– لازم أحكي الحكاية من الأول.

– تفضل.

– في ٣٠ يناير ١٩٩١ وصلتْ إلى ميناء الإسكندرية سفينةٌ بنمية اسمها تروبيكا قادمة من أمريكا وعلى متنها ٨ رسائل من الكبدة عددها مائة ألف و٣٨٥ كرتونة، رسالة واحدة من الكلاوي بعدد ٤ آلاف و٨٠٩ كراتين، صُرِّح لها بالدخول بعد عشرة أيام بضمان معامل وزارة الصحة بالإسكندرية، ونقلت بالكامل فجر اليوم التالي إلى الثلاجات. بعد ثلاثة شهور وردت إلينا شكاوى تفيد احتواء هذه الرسائل على مادة B. C. B السرطانية السامة. سحبت الرقابة عينات من الرسائل الباقية في الثلاجتَين وأرسلتها إلى معامل وزارة الصحة التي تعطَّلت فجأة، تحفظنا على الشحنة، لكنها تسربت إلى الأسواق.

سأله المدعي: وكيف تسربت؟

هزَّ كتفَيه وضحك: سيادتك تعرف كيف تسير الأمور.

قال المدعي في صرامة: لا ... أنا لا أعرف شيئًا.

– إذن أنت لا تعيش في هذا البلد.

– المتهم قرر في التحقيقات أنه التزم بالمواصفات القياسية.

– المواصفات القياسية الخاصة بالكبدة المجمدة تنص على وجوب تخزينها في درجة حرارة لا تزيد عن ٢٥ درجةٍ مئوية تحت الصفر، في رطوبةٍ نسبية لا تقل عن ٩٠ بالمائة، على ألا تزيد فترة التخزين على أربعة شهور منذ بدء التجميد حتى فترة الاستهلاك. لكن في فبراير؛ أي بعد وصول الشحنة بأيام أرسل **وزير الصناعة مذكرة إلى كافة الإدارات تطلب مد فترة صلاحية الكبدة إلى ٧ شهور بدلًا من ٤!**

نودي على الشاهد الثاني فأدلى باسمه وحلف اليمين.

سأله المدعي: أنت مدير معمل أغذية بورسعيد التابع لوزارة الصحة؟

– كنت.

– قصدك إيه؟

– المعمل تمت تصفيته وجرى توزيع العاملين به على المستشفيات.

– لماذا؟

– لا أعرف.

– ماذا تعرف عن نشاط المعمل قبل التصفية؟

– ضبط في ثلاثة شهور أغذيةً فاسدة قيمتها تزيد على ٢ مليون جنيه. كما تم إعدام صفقة بُن مطحون تقدر بـ ٢٢٢ طنًّا وصلت قيمتها إلى مليونَي جنيه.

– ما رأيك في أن المعمل أفرج في أغسطس ١٩٩٢ عن شحنة من اللحوم المجمدة مستوردة من ألمانيا تتكون من ٢٤ طنًّا قيمتها ٥٠ ألف جنيه وهي غير صالحة للاستهلاك

الآدمي، وأنه أفرج عن أربعة آلاف طن من الأسماك المجمدة قيمتها ستة ملايين من الجنيهات وتبين من العبوات أنها منتهية الصلاحية، وأنه أفرج في بداية ٩٢ عن خمسة أطنان شوكولاته باللوز باسم ناتوكا، ثم اتضح أنها غير صالحة للاستهلاك؛ إذ كان التاريخ الحقيقي للإنتاج مختفيًا أسفل البطاقة الملصقة عليها. كما أفرج عن رسالة لحومٍ فاسدة مستوردة من أيرلندا على أنها غذاء للكلاب وعبئت في ٥٦٨٠ كرتونة وأخفيت بثلاجة ثم ظهرت في الأسواق على أنها صالحة للاستهلاك الآدمي.

– لا أعرف، وفيما يتعلق بغذاء الكلاب الأيرلندي فقد تنازل المستورد عن الكمية لوزارة التموين مقابل حفظ الموضوع وتولَّت الوزارة توزيعها على المجمعات.

– بصفتها غذاءً للكلاب؟

– كلاب إيه يا سعادة البيه. دي كانت بتتباع في الأحياء الشعبية.

... استدعت المحكمة شاهدًا من معامل وزارة الصحة وبعد حلف اليمين سألته: ما هي قصة الجبن الفلمنك الهولندي «إيدام»؟

– في مارس ١٩٩٣ رفضت معامل وزارة الصحة كل رسائل الجبن إيدام الهولندي التي يجلبها المتهم؛ لتلوثها بميكروب الليستريا .LISTERIA SP العدو الأول لمنتجات الألبان والذي عرفه العالم ١٩٨٥ عندما أدى إلى حالات وفاةٍ جماعية في الولايات المتحدة وسويسرا وفرنسا. تم استثناء رسالتَين من الفحص، والإفراج عنهما؛ بسبب انقطاع المياه عن معامل التحاليل ببورسعيد رغم بقائهما لمدة ١٥ يومًا. ثم ضبطت الكمية بعد توريدها إلى معسكر الأمن المركزي في بورسعيد وتسمم ١٠ آلاف جندي وتبيَّن تواطؤ مسئول التغذية بالأمن المركزي. وحضر وفد من هولندة يمثل الشركة المنتجة وتأكد أن وسائل الكشف هي المتبعة عالميًّا. وتدخل الملحق التجاري الهولندي فاقترح أخذ عيناتٍ مكملة من الرسالة وتحليلها في معاملَ محايدة، وتدخل السفير الهولندي لدى وزير الصحة لدعم هذا الاقتراح. تم إعادة الفحص بواسطة خبيرةٍ فرنسية من معهد باستير فأوصت برفض إحداها مع السماح بالإفراج عن الرسائل الباقية. وللحق فإن مديرية الصحة بالإسكندرية قدمت تقريرًا بأن الأغلفة الخارجية للجبن وهي ما زالت داخل الحاويات بها بعض الفطر؛ الأمر الذي يجعل فحصها دون جدوى، بل كان المفروض ألا يُسمَح بدخولها أصلًا.

وكان الشاهد التالي طبيبًا متخصصًا في علوم التغذية، وجَّه إليه الادعاء السؤال التالي: ما معلوماتك عن ميكروب الليستريا؟

– هو أخطر ميكروب في عائلة تضم ست سلالات؛ لأنه يسبب إجهاض السيدات نتيجة موت الأجنة، كما يؤدي إلى التهاباتٍ حادة بأغشية المخ وإلى الالتهاب السحائي، ويتحمل

درجات حرارة مرتفعة مثل درجة بسترة اللبن، وينمو بمعدلاتٍ مرتفعة في درجات الحرارة المنخفضة بالثلاجة، وتستمر فترة حضانته من أسبوع إلى ستة أسابيع؛ مما يصعب عملية اكتشافه، واحتمالات علاج المرضى عند ظهور أعراض الإصابة شبه منعدمة؛ لطول فترة حضانة الميكروب، ولأنه تخصص في منتجات الألبان دون أن يغير خواصها الطبيعية فإن الأطفال وكبار السن أكثر الفئات تعرضًا للإصابة به.

⋆⋆ **قصاصة صحيفة تضم جانبًا من كلمة الادعاء في قضية قاسم بيه:**

... في نهاية الثمانينيات انخفضت أسعار اللحم البلدي بعد النجاح المذهل لمشروع إنتاج البتلو، وكان آخرون، منهم المتهم، يستوردون لحوم التصنيع لزوم الهامبورجر واللحوم المصنَّعة المثلجة؛ فانخفضت مبيعاتهم، وفجأة أصدر وزير التموين آنذاك قرارًا بحظر استيراد اللحوم عدا المستخدمة في التصنيع، ثم امتنع وزير الزراعة عن تمويل مشروع البتلو فتوقف. هكذا خلا السوق للمتهم وصديقَيه وارتفعت كميات المستورد من اللحوم المخصصة للتصنيع والمحظور استخدامها مباشرة؛ إلى آلاف الأطنان، وتسربت إلى الأسواق بأسعارٍ زهيدة لا تزيد عن ٤ جنيهات للكيلو، بينما ارتفعت أسعار اللحوم الحية إلى ثلاثة أضعاف ذلك.

من ناحيةٍ أخرى هاجمت مافيا المستوردين **المواصفات القياسية الجديدة** للسلع المستوردة، والتي تشترط احتفاظها بنصف مدة صلاحيتها على الأقل عند دخولها البلاد، وأثاروا ضجة بدعوى أن هذه المواصفات تمثل قيدًا على حرية التجارة الخارجية، ونجحوا في تعطيل تنفيذها. واستغلوا الفرصة فاستوردوا آلاف الأطنان من اللحوم والدواجن والمواد الغذائية، وبعد ٦ شهور اكتشفت السلطات أن اعتراضات المستوردين لا تشكل سببًا قويًّا لوقف المواصفات الجديدة، كما أنها مطبقة في دول العالم، فأعادوا العمل بها!

سطور من مجلة أسبوعية بدون عنوان: «... هو الوحيد الذي يمتلك شركة مقرها في شمال أوروبا، مهمتها شراء وتجميع الكميات المختلفة من اللحوم المجمدة وما يطرح في مزادات قوات حلف الأطلنطي قبل انتهاء صلاحيتها بأربعة شهور، فمدة صلاحية هذه اللحوم وفقًا للمقاييس الأوروبية ٢٤ شهرًا، وبعد مرور ١٨ شهرًا بدون استخدام تدخل المزاد الذي يحضره عدد من السماسرة. آخر مزاد رسا عليه بسعر ألف دولار للطن، وتصل للمستهلك بسعر ٥ جنيهات وربع جنيه للكيلو؛ أي يكسب في الطن ٢٨٨٦؛ وبالتالي مليونين و٨٨٦ ألف جنيه لكل ألف طن، وأقل رسالة يستوردها يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن (من أربعة آلاف شهريًّا).

... حصل على فرصة احتكار سوق اللحوم المجمدة والانفراد بها منذ ثلاثة أعوام، قبل إغلاق باب الاستيراد بوقتٍ وجيز حين حصل على الأذونات الاستيرادية المجمدة، وبعد أن انتهى من تنفيذها تم إغلاق باب الاستيراد، ولم يفتح من جديد إلا بعد أن انتهى من تصريف كل بضاعته.

... يمتلك أسطول شاحنات بالثلاجات قيمته أكثر من ١٠ ملايين جنيه وثلاجة تسع ٤ آلاف طن في دمياط ثمنها لا يقل عن ٥ ملايين جنيه، بخلاف شبكة موزعين تجار جملة في مختلف أنحاء مصر. يبلغ حجم أعماله ٣٠٠ مليون جنيه.»

⋆⋆ **قصاصة صغيرة من صحيفةٍ يومية بعنوان:** «براءة المتهمين الثلاثة في قضية الأغذية الفاسدة» **خط باللون الأحمر أمام السطور التالية:** ... بعد أن ثبت للمحكمة بالتقارير المعملية أن اللحوم ليست فاسدة أو مغشوشة بل صالحة للاستهلاك الآدمي، وأن القيود الواردة بالمواصفات القياسية قد تم تخفيفها بناءً على طلب القوات المسلحة والفنادق السياحية وبعض شركات الطيران، وكلها تُعنى بصحة زبائنها.»

⋆⋆ **عدة قصاصات من الصحف وضع خطٌّ أحمر تحت عناوينها هي كالتالي:**
براءة محافظ المنوفية مما نسب إليه ... براءة محافظ الجيزة الأسبق مما نسب إليه. محكمة أمن الدولة العليا تقضى براءة المهندس «نبيل خضير» نائب رئيس هيئة المواصلات اللاسلكية و«رءوف غبور» وكيل شركة «إريكسون» السويدية من تهمة رشوة قدرها ربع مليون جنيه بعد أن أمضيا ٦ شهور محبوسَين على ذمة القضية ... برأت محكمة أمن الدولة العليا «أحمد وفائي سعيد» و«محمود أبو الوفا» وكيل وزارة الاقتصاد و١٢ تاجرًا متهمين في قضية رشوة ... برأت محكمة جنايات دمياط ٢٢ متهمًا في قضية بنك دمياط الوطني، منهم رئيس مجلس إدارة البنك السابق والمدير العام ونائبه وجميع أعضاء مجلس الإدارة من تهمة تسهيل حصول ١٦ عميلًا للبنك على قروض، بدون ضمانات كافية ... برأت محكمة أمن الدولة العليا برئاسة المستشار «سعيد العشماوي» الدكتور «ممدوح فخري» مدير عام مستشفى الخليفة السابق الذي نسبت إليه تهمة اختلاس معدات وأدوية قيمتها ١٧٠ ألف دولار من المعونة الأمريكية لمشروع العناية المركزة للعيون ... برأت المحكمة نائب وزير الصناعة وعددًا من وكلاء الوزارة في قضية الرشوة الكبرى ... برأت المحكمة ١٥ من كبار مسئولي البنوك اتُّهموا بتسهيل استيلاء «محيي الدين ترك» على ٥٥ مليون جنيه من البنوك دون ضمانات.

⋆⋆ **قصاصة من مجلة بعنوان: ممتلكات حوت الأسمنت الدكتور ثابت محفوظ رئيس المكتب الحكومي لتوزيع الأسمنت:** فدان و١٥ قيراطًا بمنطقة كبريت

بالسويس عليها فيلا سكنية قيمتها نصف مليون جنيه، ٢١٨ فدانًا بسرابيوم بالإسماعيلية عليها فيلا سكنية قيمتها مليون و٣٤٧ ألف جنيه، ٦٣ فدانًا بمركز كفر الدوار، ٣٧ فدانًا بنفس المنطقة، ٥٤ فدانًا أرض زراعية بالزقازيق، فيلا بنفس الناحية بها تشوينات رخام، ١٦٠٠م بالعاشر من رمضان عليها مبانٍ، ٦٠٠ متر مربع بجمعية صحراء الأهرام بجوار مدينة ٦ أكتوبر، العقار ٢٦ شارع الشهيد عبد المنعم حافظ بمصر الجديدة، العقار رقم ٢٥ شارع عمر بن الخطاب بمصر الجديدة، العقار رقم ٢٠ شارع ٢٣ بالمقطم، العقار رقم ١ شارع عبد القادر المربي مصر الجديدة، العقار ٦٣ شارع بيروت بمصر الجديدة، الدور الحادي عشر بعمارة لؤلؤة جليم ويضم ٨ شقق، فيلا رقم ١ شارع بلبيس بالعجمي، العقار رقم ٤ شارع سامي رءوف بالإسكندرية، شقة بالدور الرابع بالعقار رقم ١٩ بالمقطم، شقتان بعمارة زهرة جليم، الشقة رقم ٦٧ بلؤلؤة جليم، شقة بالطابق الثالث عشر بعمارة رقم ٣٧٣ بشارع الجيش بالإسكندرية، عدد من السيارات هي فولكس موديل ١٩٩٣، فولكس موديل ٩٠، مرسيدس ٢٣٠ موديل ١٩٨٠، هوندا سيفيك موديل ٩٠، شيروكي موديل ٩١، مرسيدس ٥٠٠ بالتليفون، أموال سائلة نحو مليونين و٢٠١ ألف جنيه.

إضافة بخط اليد: لغز أزمة الأسمنت؟ الإنتاج المحلي أكثر بكثير من الاستهلاك ومع ذلك نستورد. والمستوردون يحتكرون السوق ويتحكمون في الأسعار يرفعونها عن طريق التخزين واصطناع الأزمات فتصل أحيانًا إلى الضعف، وتفوق أرباحهم أرباح المخدرات، وأكثرهم لواءات شرطة سابقون يتنازل بعضهم عن ترخيصه مقابل مائة ألف جنيه ويحصل المتنازَل له على ربح لا يقل عن خمسين ألف جنيه في الشهر.

⋆⋆ **قصاصة من صحيفةٍ مصرية:** «كشفت وول ستريت جورنال في يوليو ١٩٩٤ أن كبير المحلفين بولاية أطلنطا اتهم شركة لوكهيد واثنين من كبار الموظفين السابقين بإرسال أموال تجاوزت المليون دولار إلى مصرية عملت كاستشارية للشركة في مصر وكانت عضوًا بمجلس الشعب، وذلك مقابل مساعدة الشركة في صفقة مبيعات لمصر شملت ثلاث طائرات شحن قُدرت قيمتها بـ ٧٩ مليون دولار. وقال الاتهام إن النائبة السابقة والتي تقوم بنشاطٍ نسائيٍّ واسع وتتحدث باسم مصر في المؤتمرات الدولية الخاصة بالسكان، أنشأت شركةً مصرية وضعتها تحت الإدارة الصورية لزوجها الموظف الكبير لإخفاء الأموال التي حصلت عليها، شملت عمولات بـ ٦٠٠ ألف دولار أي ٢ مليون جنيه مصري مقابل كل طائرة مباعة إلى مصر.»

⋆ ⋆ **قصاصتان من صحيفةٍ يومية في تاريخَين متباعدَين:** الأولى عن حريقٍ هائل في مصانع الشركة الشرقية للدخان والسجائر (قطاع عام) الْتَهم طابقًا كاملًا من مخازن الشركة وكمياتٍ ضخمة من السجائر المصرية المغلفة ومن التبغ، وقدرت الخسائر بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات، والثانية عن افتتاح خطَّي إنتاج جديدَين لسجائر «مارلبورو» بنفس الشركة، وكلمة لوزير الصناعة أشاد فيها بدور رجل الأعمال مصطفى البليدي والسفير الأمريكي في إنجاح المشروع.

⋆ ⋆ **قصاصة من صحيفةٍ مصرية بعنوان نهب ٢٢ مليون دولار:** «أجبرت الجهات القانونية والرقابية رئيس شركةٍ قابضة على رد مبالغ تتجاوز ٢٢ مليون دولار حصل عليها بالتعاون مع وكيل أول وزارة ورؤساء عدد من الشركات الأخرى من خلال عملية خصخصة وتقييم ١٩ شركة. وقد تبين أن ثروته تجاوزت ٦٠ مليون دولار.»

⋆ ⋆ **إعلانٌ كبير على نصف صفحة من مجلةٍ مصرية تتوسطه صورة لشاطئٍ ساحر تتناثر فوقه فيلاتٌ أنيقة وأسفل الصورة عنوان بخطٍّ كبير:** الحق بالصفوة ... امتلك.

⋆ ⋆ **قصاصتان من صحيفة مطويتان سويًّا الأولى إعلان نصه:** «اضمن المستقبل لطفلك، مدرسة ليدرز للغات، لأول مرة في مصر نظام التعليم الأميركي بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية إلى جانب العربية، إشراف دولي، نموذج حي لأنشطة الحياة المختلفة لتدريب الطفل عليها، لكل طفل شجرة تحمل اسمه إلى الأبد، ٥٠ ألف متر مربع حدائق بواقع ٥٠ مترًا مربعًا لكل طفل.»

والثانية من صفحة الحوادث في صحيفةٍ يومية: «توفي الطفل عيد أحمد كامل بمؤسسة الأحداث الضالين ببولاق الدكرور بعد إصابته بحالة صرع أودت بحياته، وتبين أن الفئران الْتهمت أجزاءً كبيرة من وجهه وصدره. قرر مدير المؤسسة أمام النيابة أن نظام المؤسسة يمنع قبول الأطفال الضالين المصابين بحالة الصرع، إلا أن إدارة تصنيف الأحداث بالأزبكية لا تقوم بالكشف الطبي الدقيق على الأطفال عند تصنيفهم وتكتفي بالكشف الظاهري، فلا يكتشف المسئولون بالمؤسسة أمراض الأطفال إلا متأخرًا، أما بالنسبة لوجود القطط والفئران فهو أمرٌ عادي؛ لأن المؤسسة توجد في منطقةٍ عشوائية وقريبة من مصرفٍ صحي وسوق خضراوات.»

⋆ ⋆ **صفحة بالآلة الكاتبة يعلوها العنوان التالي بخط اليد:** «من التقرير القومي المصري عن البيئة لسنة ٩٣»: يبلغ عدد حالات الوفاة بمصر نتيجة الأمراض المنقولة

عن طريق المياه الملوثة ٩٠ ألفًا في العام، وذلك طبقًا للإحصائيات الرسمية المسجلة لدى منظمة الصحة العالمية. يتلقى النهر في العام ٣١٢ مليون متر مكعب من السموم عبارة عن نفايات وكيماويات ٣٣٠ مصنعًا والصرف الزراعي المحمل بآثار المبيدات والأسمدة الكيماوية (في عام ٩١ ثلاثة ملايين ونصف مليون طن أسمدة و٢٠ ألف طن مبيدات وجدت طريقها في نهاية الأمر إلى المصارف ومنها إلى النهر ثم الأراضي الزراعية مرةً أخرى)، والصرف من محطات الكهرباء والقوى ومحطات معالجة المجاري، هذه السموم تلقى في النيل مباشرة وتنتقل إلى قنوات الري. وعلى سطح النهر تسبح وابورات النقل والبواخر السياحية والعوامات والكازينوهات والفنادق وورد النيل والقمامة والحيوانات النافقة ونفايات المستشفيات وغبار الأسمنت، وتنتقل أخطار هذه الملوثات أيضًا إلى مياه الشرب فبعضها يلقى في نقاطٍ قريبة من مأخذ مياه الشرب، والطرق التقليدية في التنقية لا تقضي على كل أنواع الملوثات؛ فالعضوية منها تتفاعل أحيانًا مع الكلور المستخدم في التعقيم منتجة موادَّ كربوهيدراتيةً كربونية من مسببات السرطان.

⋆⋆ **قصاصة من صحيفةٍ يومية بها تصريح لوزير الصحة:** «مصر خالية من الأمراض المعدية؛ وحالات القيء والإسهال التي ظهرت في بعض المناطق مجرد حالاتٍ فردية وتمت السيطرة عليها تمامًا، أما الحالات التي ظهرت مؤخرًا في الفيوم ووصلت إلى ٩٠ حالة فسببها يرجع إلى **أن مياه الشرب تصل في فناطيس تُستغل في نفس الوقت في عمليات الصرف الصحي، وقد اتخذت الوزارة عدة إجراءات لمنع انتشار المرض، أهمها استخدام عربات فناطيس خاصة لنقل مياه الشرب فقط** وزيادة نسبة الكلور.»

⋆⋆ **سطور بخط اليد:** الأرض الزراعية تشبعت بالمبيدات والأسمدة وأصبحت في خطر. والحل هو تشجيع استخدام المخصبات الطبيعية، يمكن بسهولة الاستغناء عن المبيدات الحشرية التي تلوث طعامنا وتصيب الآلاف بالتسمم بالتعاون وتنفيذ قانون ري البرسيم بعد الأول من شهر مايو؛ لأن ذلك يقضي على آفات القطن دون حاجة للمقاومة الكيماوية أو اليدوية، مع جمع اللوز الأخضر والجاف من أحطاب القطن بعد الانتهاء من جني المحصول مباشرة أو التخلص منه بالحرق، واستهلاك حطب القطن قبل بداية أبريل؛ مما يحول دون حدوث إصابة بديدان اللوز القرنفلية، ثم التخلص من شجيرات الكركديه والتيل والباميا الخطمية والجوت بعد انتهاء موسم زراعتها وعدم تركها بالأرض للعام التالي لأنها المصدر الرئيسي لديدان اللوز الشوكية.

ثم سطران منفصلان تحتهما خط: لا بد من إلغاء الزراعة المحمية لخطورتها على الزراعة، وإلغاء استعمال مياه الصرف الزراعي في تغذية المزارع السمكية.

⋆⋆ **نص إعلان بإحدى الصحف بعنوان ثلاثون عامًا من النجاحات والتقدم والتنمية:** «تحتفل شركة أمريكانا الكويتية للأغذية بمرور ثلاثين عامًا عام ٩٤ على تأسيسها، تميزت بالنمو والتطور المتواصلَين؛ فقد أصبحت الأولى في تصنيع اللحوم والكيك وتسويقهما وفي خدمة مطاعم الوجبات السريعة؛ فهي التي أدخلت مطاعم الويمبي البريطانية ودجاج كنتاكي التي باعت حتى الآن ثلث مليار من قطع الدجاج في العالم العربي من مسقط إلى القاهرة في ١٩٧٣ والبيتزا هت في ١٩٧٩ وسبارو الإيطالية وهارديز الأمريكية للهمبورجر ودجاج تيكا بخلطتها الشهيرة وتوابلها الشرقية وآيس كريم باسكن روبنز (٦٠٠ نوع بـ ٣١ نكهة لذيذة مختلفة يوميًّا) وحلويات الصمدي اللبنانية الشرقية وبانيلا سويس المتخصصة في صنع وبيع الخبز الأوروبي والحلويات والشكولاتة السويسرية، مساهمة بذلك في توفير الخيارات المتنوعة أمام المستهلك، ومصنع لحوم ينتج الهامبورجر والنقانق والمرتديلا والكفتة، مضيفة بذلك بُعدًا جديدًا إلى النمط الغذائي العربي. ومصنعًا آخر لإنتاج الكيك على أنواعه من السويس رول إلى الباوند كيك والميني رول والكرواسان والكوكيز، وباعت منها في نهاية ٩٣ ما يزيد عن ١٠٨ ملايين قطعة بالمنطقة العربية. وفي ١٩٩٠ أنشأت بالتعاون مع «فارم فريتز» العالمية شركةً كويتية مصرية هولندية متخصصة بتصنيع البطاطس المصرية الشهيرة تهدف إلى تغطية الأسواق العربية والخليجية. في ٨١ أنشأت شركة «بيفي» وأول مصنع ينتج اللحوم المعلبة، ومصنع «جلفا» للمياه المعدنية، وفي ٩١ أدخلت إلى مصر «كادبري» أشهر اسم في صناعة الشكولاتة، وشركات لإنتاج الدواجن وجدودها، وسلسلة محلات «فاشن واي» لتسويق الأزياء العالمية، وشركة «حدائق كاليفورنيا» في دبي لإنتاج البقول المعلبة وخاصة الفول، وفي ٩٢ أحضرت إلى مائدة المستهلك العربي ماركة «كتش آب هاينز» الشهيرة.»

⋆⋆ **سطور بخط اليد وإشارة إلى أنها منقولة من كتاب باسم صناعة الجوع** (للبريطانيَّين فرانسيس مور لابي وجوزيف كولينز، ١٩٨٠، ترجمة أحمد حسان): ... العالم يجوع ليشبع الغرب لحمًا: تعتبر شريحة اللحم الطبق المفضل الذي يشيع جوًّا من البهجة في الجزء الثري من العالم. فمنذ الحرب العالمية الثانية تضاعف استهلاك اللحوم في الدول الغربية ثلاثة أضعاف، ولا يتخيل أحد أن ماشية أوروبا الغربية تلتهم خبز أفريقيا، كيف؟ تسيطر احتكارات أوروبا الغربية على ٢٣ مليون هكتار من الأراضي الزراعية في

البلدان النامية لاستثمارها في انتاج العلف لماشية الغرب؛ وبذلك تحرم شعوب العالم الثالث من زراعة المحاصيل الغذائية التي تكفيها، ويكسب الغرب كل عام ٢٥ ألف مليون دولار نظير صادراته من الغذاء لإطعام ألف مليون نسمة في العالم الثالث.

... روبرت تسفاريتوس رئيس شركة **أميركان فودز شير** المتعددة الجنسية ذات الأساس السويدي (التي اكتشفت أن للكلب ثلاث مراحل حياتية لكل منها أنواع مختلفة من أطعمة الكلاب «تصنعها الشركة بشكل ملائم»): «أي شخص يقول لنا إننا نذهب لإثيوبيا لكي نساعد تلك المخلوقات البائسة كاذب ... إننا نبحث عن مواقع لإمداد أوروبا بالخضراوات ولعلنا نفضل بلدانًا مثل مصر.»

... هناك شركات تحتكر المحاصيل الزراعية والمواد الأولية في العالم الثالث وتحصل عليها بأبخس الأثمان، خذ مثلًا شركة نستلة التي تصنع الشكولاته السويسرية الفاخرة: إنها لا تملك شجرة كاكاو واحدة، ولا بقرةً حلوبًا واحدة، لكنها تحتكر شراء الكاكاو واللبن والبن في عدة بلادٍ نامية، وتدين مزارعي هذه البلدان مهما أعطوها من محاصيل، ويباع البن المحمص في أسواق الدول المنتجة بعشرة دولارات للكيلو بينما سعر البن الأخضر هو دولارٌ واحد فقط للكيلو، فأين تذهب الدولارات التسعة؟

... تحارب شركات المياه الغازية العالمية الإنتاج المحلي من العصائر الطبيعية والأعشاب في الدول النامية؛ كيما تروِّج هي مشروباتها الخالية من الفيتامينات والعديمة الفائدة. هل تصدق مثلًا أنك لا تستطيع أن تحصل على كوب من عصير البرتقال في البرازيل مع أنها من أكبر الدول المصدرة للبرتقال؟ وأن كوب عصير البرتقال الطبيعي في مصر يبلغ ثمنه ثلاثة أضعاف ثمن زجاجة من المياه الملونة بطعم البرتقال: سكر وماء ومواد غازية ومكسبات لون ورائحة مسببة للسرطان، وكذلك الأمر بالنسبة للألبان.

... المجاعات ليست غضبًا من الله وليس سببها الجفاف أو كسل السكان وخيبتهم، البلاد الجائعة في آسيا وأفريقيا كانت غنية في يومٍ ما، ثم هبطها المستعمر الأوروبي وفرض على سكانها الضرائب من أجل تغطية نفقات الإدارة والجيش الاستعماريين، وعندما عجزوا عن دفعها أجبرهم على أن يتخلوا عن المحاصيل الغذائية المحلية؛ ليركزوا على محاصيل تصدير تخدم صناعاته؛ مثل الكاكاو والمطاط والفول السوداني والقطن، وأعطاهم مقابلها نقودًا سددوا منها الضرائب واشتروا بما تبقى البضائع التي أحضرها لهم؛ أي عادت إليه نقوده!

... الخدعة الأمريكية الكبرى اسمها السوبر ماركت؛ فهو يعطي انطباعًا بالوفرة والتنوع الهائل في السلع. في الولايات المتحدة تسيطر خمسون شركةً كبرى على صناعة

الغذاء، إنهم يبيعون تحت مئات الأسماء التجارية المختلفة فلو وضعوا أسماءهم الحقيقية على السلع لأدرك الناس الحقيقة، ثمانية بالمائة فقط مما يبيعه السوبر ماركت منتجاتٌ طازجة (فواكه خضراوات بيض) الباقي مرَّ خلال الآلات اللامعة للشركات التي تشترى ٩٠ بالمائة من الغذاء المزروع للاستخدام المحلي في الولايات المتحدة لتقوم بتصنيعه. فلماذا تبيع بضع أوقيات من البطاطس الخام إذا كان بإمكانها أن تجففها وتعيد بلها ثم تلقي عليها بعض المواد المضافة وتقطعها إلى أجزاء متطابقة ثم تقليها جيدًا وترش عليها بعض مكسبات الطعم وتعبئها في علب من الصفيح أو أكياس من البلاستيك؟ وذلك كله بتكلفة تزيد عشرات المرات على تكلفة البطاطس الأصلي المسكين.

إن التليفزيون يستطيع إقناعك بأن تنفق أكثر مما يجب على الحلوى واللبان والبسكويت والزيوت والمشروبات الغازية.

ملحوظة بخط اليد على هامش الفقرة السابقة: سوق المشروبات الغازية المصري أصبح حكرًا على البيبسي والكوكا بعد تصفية القطاع العام.

⋆⋆ **سطور بخط اليد بعنوان: «من يحكم العالم؟»** خمسمائة شركة عالمية كبرى متعددة الجنسية حققت تريليونَي دولار زيادة في أصولها عام ١٩٩٥ بالنسبة للعام السابق، وارتفعت إيراداتها تريليونًا وأرباحها ٢٤ مليارًا. زادت الإيرادات من سنة إلى أخرى بنسبة ١١ بالمائة والأرباح بنسبة ١٤ بالمائة ولم تزد العمالة إلا بنسبة ١ ونصف بالمائة؛ متحررة من نفقاتٍ كثيرة؛ لأنها تستغني عن الجيش والشرطة والقضاء بلجوئها للتحكيم. مشغولة بالدمج والاستيلاء والمضاربة أكثر من الاستثمار في الإنتاج، وسوف تصطدم في النهاية ببطء نمو الأسواق لانتشار البطالة والفقر واتجاه الطبقات الوسطى للحد من الاستهلاك لمواجهة احتمال فقدان الدخل، أعلنت صراحة أن نسبة الربح التي تحققها في البلدان النامية ٢٤ بالمائة، على رأسها خمس وعشرون شركة هي: شل (إنجليزية هولندية، بترول)، فورد (أمريكية، سيارات)، جنرال موتورز (أمريكية، سيارات)، إكسون (أمريكية، بترول)، كوكاكولا، أي بي إم (أمريكية، كمبيوتر)، بريتش بتروليوم (بريطانية، بترول)، نستلة (سويسرية، أغذية)، أونيليفر (بريطانية هولندية، أغذية)، آسيا براون بوفرى (سويسرية سويدية، كهربائيات)، فيليبس (هولندية، إلكترونيات)، ألكاتل الثوم (فرنسية، اتصالات)، موبيل (أمريكية، بترول)، فيات (إيطالية، سيارات)، سيمنز (ألمانية، كهربائيات)، هانسون (بريطانية، متنوعة)، فولكسفاجون (ألمانية، سيارات)، إلف أكويتان (فرنسية، بترول)، ميتسوبيشي (يابانية، تجارة)، جنرال إليكتريك

(أمريكية، متنوعة)، ميتسوبيشي الكهربائية (يابانية، إلكترونيات)، نيوزكوربوريشن (أسترالية، صحف وتليفزيون)، فيروزي مونتيديسون (إيطالية، متنوعة)، باير (ألمانية، كيماويات)، روش (سويسرية، أدوية).

⋆⋆ **ملحوظتان بخط اليد على هامش القصاصة السابقة:** ٢٥ بالمائة من إجمالي التجارة العالمية هو مبادلات بين شركات تتبع شركةً كبرى واحدة، و٥٢ بالمائة أخرى بين الشركات المتعددة الجنسية؛ أي إن هذه الشركات تسيطر فعليًّا على أكثر من نصف التجارة الدولية؛ مما يتيح لها تحديد أسعار السلع المتبادلة بين الشركة الأم وفروعها وتحديد أسعار المواد الخام، المثال التقليدي هو الموز المنتج في أمريكا الوسطى؛ حيث يباع في جواتيمالا مثلًا بحوالي ٨ في المائة من ثمن بيعه في نيويورك، والفارق يذهب إلى شركاتٍ دولية النشاط عاملة في مجالات النقل والتأمين والإعلان والتسويق والدعاية والأعمال المصرفية، وبصفةٍ عامة لا تحصل الدول النامية من تصديرها للمواد الأولية إلا على ١٠ بالمائة من الثمن الذي تباع به في الدول الصناعية المتقدمة، أما المنتجات المصنَّعة في الدول النامية فلا تحصل منها هذه سوى على ١٣ بالمائة من الثمن المدفوع فيها في الدول المتقدمة، ويذهب الفرق في الثمن إلى الشركات الدولية.

... إذا كتبت أسماء الصناع في مجال السيارات الذين يرتبطون بمشروعات مشتركة أو باتفاقيات في التصميم أو الأبحاث أو إنتاج المكونات أو التجميع الكامل أو التوزيع أو التسويق لمنتجٍ واحد أو عدد من المنتجات في أي مكان في العالم، سيتحول المربع إلى شبكة من الخطوط المتداخلة غير المفهومة. إنها نفس القصة في الكمبيوتر والطيران والأدوية والدفاع.

⋆⋆ **قصاصةٌ مرفقة بالقصاصة السابقة:** تتنازع مجموعة تتألف من سبعة إلى عشرة تكتلاتٍ دولية السوق العالمية للمشروبات غير الكحولية؛ الشاي والبنُّ والمشروبات الغازية، وتكمن قوتها في قدرتها على التحكم في أكبر عدد ممكن من الحلقات التي تؤلف سلسلة تسويق منتجاتها، ابتداء من المزارع حتى متاجر البيع، تمتص وتشتري الشركات المنافسة ... تخرج الشركات الأصغر من المنافسة بسبب نقص السيولة وضآلة التمويل المصرفي؛ مما يمنعها من تنظيم حملات الترويج لإيصال منتجاتها إلى رفوف المتاجر. إيرادات التبغ هي التي سمحت لشركة **فيليب موريس** (مارلبورو) برصد المبالغ للترويج لبيرة ميلر التي تحتل المرتبة الثانية في السوق الأمريكية، المنتجات الاستوائية الثلاثة وهي الكاكاو والبن والشاي، تحت سيطرة شركاتٍ تجارية عملاقة أبرزها الشركات اليابانية وشركة كارنيل ثم مجموعة الشركات عبر الوطنية؛ **يونيليفر** البريطانية الهولاندية التي

تعتبر منذ عدة عقود أكبر موزعٍ عالمي للشاي (ليبتون وبروك بوند)، و**نستلة**، **كوكاكولا**، **فيليب موريس**، **بروكتر/جامبل**.

... احتكار الكاكاو في يد شركات **نستلة وفيليب موريس وهيرشي ومارس وكادبوري شويبس** التي تمثل مجتمعة أربعة أخماس الإنتاج الدولي من الشوكولاتة، التهمت **نستلة** في ١٩٨٤ شركة **كارنيشن** عملاق الحليب الأمريكي (٢٠٠ منتج) التي كانت الأولى في سوق الكاكاو سريع الذوبان.

... الماء العادي أكبر عدو للشركات وخاصة الكوكاكولا (٩٧ بالمائة من سكان العالم يشربون ماء الحنفية) ...

مع إلغاء الضوابط على الأسواق وتحرير الاقتصاد اللذين يشقان طريقهما في العالم فإن آفاق التسويق أصبحت وردية تمامًا؛ فقد انهار الأعداء القدامى وألغى مجلس التعاون الخليجي نفسه الحظر المفروض على **الكوكاكولا** في ١٩٩١ عقب تحرير الكويت، ويفخر مدير الكوكاكولا بأنها ستصبح بحلول عام ٢٠٠٠ في متناول جميع سكان هذا الكوكب البالغ عددهم ستة مليارات شخص، وهي تسيطر الآن على ٤٦ بالمائة من السوق، وتبذل جهدها للسيطرة على كل سلسلة التسويق، فتدخل إلى سوق المطاعم السريعة التي توسعت بشدة. فشركة مكدونالد التي بلغ رقم أعمالها ٧ مليارات دولار في ١٩٩١ لا توزع سوى كوكا وفانتا وسبرايت، وتمثل مبيعاتها ٢٠ بالمائة من رقم أعمالها، بينما تملك **بيبسي** مراكز الطعام السريع مثل **بيتزا هت**، **كنتاكي فرايد شيكن**، حيث لا يقدم غير البيبسي. وأدى نجاح كوكا وبيبسي إلى توحيد وتطبيع الاستهلاك على المستوى العالمي وإبعاد المشروبات المحلية والقومية.

.... ارتفعت أرباح «**يونيليفر**» عام ١٩٩٤ إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار، رغم الاتهامات التي وُجهت لمسحوق التنظيف «برسيل» (بسبب احتوائه على موادَّ كيماوية تلحق أضرارًا فادحة بالإنسان) وأفشلت طرحه في بعض الأسواق الأوروبية، وهي تسوق منتجاتها في الشرق الأوسط عن طريق شركتَي ليفر وليبتونز في السعودية اللتين تملكهما شركة بن زقر السعودية، وتملك يونيليفر أربعين بالمائة من ليفر المختصة بالمنتجات الشخصية و٤٩ بالمائة من ليبتونز المختصة بالأغذية. تشكلت يونيليفر قبل ٦٢ عامًا من اندماج شركة الصابون البريطانية ليفر وشركة الزبدة النباتية مارجرين يونيون الهولندية، وتمتلك حاليًّا ما يزيد عن ٥٠٠ شركة في ٧٥ بلدًا وعددًا كبيرًا من العلامات التجارية المشهورة مثل **برسيل وليبتون وإليزابيث آردن وكالفن كلاين**.

⋆⋆ صفحة من مجلة تايم الأمريكية تتوسطها صورة لزحام آلاف الحجاج المسلمين أثناء طوافهم حول الكعبة التي تحولت في الصورة إلى صندوقٍ كبير من زجاجات الكوكاكولا.

⋆⋆ **سطور بخط اليد:** ديزني اشترت شبكة إيه بي سي الأمريكية للتليفزيون، جنرال إلكتريك اشترت شبكة إن بي سي، وستنجهاوس اشترت شبكة سي بي إس، ميكروسوفت اشترت إم إس إن بي سي، وقبل ذلك اشترت سي إن إن متروجولدين ماير سنة ١٩٨٦ بمبلغ مليار دولار، واشترت مجلة تايم سنة ١٩٨٩ شركة إخوان وارنر للسينما (استفاد حاملو أسهم وارنر بينما استدانت تايم ١١ مليار دولار فتخلت عن أجزاء من الشركة الجديدة لشبكةٍ معقدة من الشركات جلبت لها عدة مليارات لكن قيدت أصولها)، وأخيرًا اندمجت تايم/وارنر مع محطة سي إن إن الشهيرة وأصبحت تايم/وارنر/تيرنر أضخم مؤسسة ميديا في أمريكا والعالم بمبيعات تصل إلى ٢١ مليار دولار. دفع جيري ليفين رئيس تايم وارنر في شراء سي إن إن ١٧٨ مليون سهم من أسهم المؤسسة تساوي أكثر من سبعة مليارات دولار. وأصبحت المؤسسة الجديدة تضم تايم/وارنر وشركات السينما والتليفزيون التابعة لها (بما فيها وارنر بروذرز، إتش بي أو سينيماكس) والنشر (تايم، كتاب الجيب وارنر، كتاب نادي الشهر، وكتب ليتل براون) والموسيقى (أتلانتيك وإلكترا) ثم سي إن إن، تي بي إس، تي إن تي، ومجموعة هائلة من الأفلام، وحوالي ٢٨٥٠٠ برنامج تلفزيوني. ماذا يريد تيرنر؟ غالبًا رفع أسعار أسهم شركته بشكلٍ مصطنع، عن طريق بيع أصولها وتخفيض الديون والتكاليف. في ١٩٩٢ أدمجت تايم وارنر شركة الكابل التابعة لها مع الأخرى التابعة لوارنر وإتش بي أو في شركة جديدة باسم وارنر إنترتينمينت ثم باعت ربع الشركة الجديدة لشركة يو إس وست مقابل مليارين ونصف مليار دولار.

يعتقد ليفين أن الاندماجيات، التي قام بها تتيح منفذًا لمنتجاته، ما تحقق على الفور هو فصل ألف من العاملين في سي إن إن لضغط الإنفاق.

خريطة الإمبراطورية الجديدة (تايم) **مجلات:** تايم، بيبول، سبورتس الليستريتور، لايف، فورتشن، موني و٢٠ مجلةً أخرى، **كتب:** كتاب نادي الشهر، ليتل براون، وارنر، أوكسمور هاوس، سانست. (وارنر بروذرز) **تسجيلات:** وارنر بروذرز ريكوردز، أتلانتيك جروب، إليكترا، وارنر شابل ميوزيك، وارنر ميوزيك إنترناشونال. **تليفزيون**، شبكة، الفيديو المنزلي، للسلع الاستهلاكية وشركات أخرى. (إتش بي أو): سينيماكس. تايم وارنر سبورتس وشركات أخرى **تايم وارنر كابل** (حوالي ١٢ مليون مشترك)، **استثمارات أخرى:** شبكة تليفزيون المحاكمات، كوميدي سنترال، إى! إنترتينمنت، قناة ساجا،

(تيرنر): **برمجة وإنتاج:** كاسل روك إنترتينمنت، أفلام تيرنر، مكتبة فيلمية تضم أفلام مترو وروارنز، كارتون هانا باربيرا، نيولاين سينما، وغيرها. **هوم إنترتينمنت:** فيديو تيرنر العالمي، تيرنر للنشر، تيرنر للتجزئة، وغيرها. **رياضة:** أتلانتا بريفز. أتلانتا هوكس، جودويل جيمز، بطولة المصارعة العالمية، **الأنظمة المتعددة:** سي إن إن إنترأكتيف، تيرنر نيو ميديا وغيرها.

شركات الكابل: سي إن إن، شبكة الكارتون، هيدلاين نيوز، ت ب س سوبر، ت ن ت، سي إن إن إنترناشيونال، تيرنر كلاسيك موفيز، وسبع شركات أخرى.

إلى أي مدًى يتيح تركيز هذه القوة الهائلة التلاعب بعقول ملايين البشر؟

⋆⋆ **فقرة من مقال بالفرنسية بغير عنوان:** في الوقت الذي تستعين فيه ٥١ دولةً أفريقية بحوالي ٨٠ ألف خبير أجنبي يحصلون على عوائد وأرباح ضخمة، يوجد حوالي ٧٠ ألف خبير أفريقي يساهمون في تقدم أوروبا.

... في ١٩٨٧ كانت حوالي ثلث قوة العمل الأفريقية المتخصصة قد هاجرت إلى أوروبا، وخسر السودان نسبةً هامة من قوة عمله المتعلمة في تلك السنة وحدها؛ ١٧ في المائة من أطبائه وأطباء أسنانه، ٢٠ بالمائة من أعضاء هيئات تدريس جامعاته، ٣٠ في المائة من مهندسيه و٤٥ بالمائة من مسَّاحيه، وتؤدي هذه الهجرة إلى ما هو أكثر من تجريد أفريقيا من قوة العمل؛ إنها تقلل كذلك قدرتها على تدريب أجيالٍ جديدة من الكوادر، ومما يدعو إلى السخرية أن هذه المهمة تعود أكثر فأكثر إلى الخبراء الأجانب الذين تستخدمهم البلدان الأفريقية بتكاليف ضخمة وأعداد ضخمة؛ فعددهم اليوم ٣٠ ألفًا؛ أي أكثر بكثير من عددهم قبل أربعين سنة.

... ذكر البنك الدولي في ٨٤ أن الولايات المتحدة وفرت ٨٨٢ مليون دولار عام ١٩٨٣ وحده نتيجة هجرة العقول والمهارات إليها، بينما خسرت الدول النامية ومن بينها مصر ٣٣٠ مليون دولار هو ما أنفقته على تعليم وتربية هؤلاء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة، فضلًا عن خسارتها بفقد العناصر البشرية القادرة على الإنتاج والعمل. وكسبت كندا بين ألف مليون دولار وألفين في الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٣ لنفس السبب وهو مبلغ يساوي عشرة أضعاف ما أعطته كندا من مساعدات للتعليم والتدريب في الدول النامية، وهي مساعدات تصب مرةً ثانية لديها، وكسبت ثلاث دول هي الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا خلال الفترة من ١٩٦١ و١٩٧٢ ما يزيد على ٤٤ ألف مليون دولار للسبب نفسه.

⋆⋆ **سطور متفرقة من مقال في صحيفةٍ مغربية بعنوان: الفرانكفونية** «... يزعم أنصار الفرانكفونية أنها مجرد تنظيمات ثقافية تهدف إلى ترسيخ اللغة الفرنسية،

أما الحقيقة فإن أهدافها اقتصادية وسياسية؛ فهي تطرح الفرنسية كبديل للغة الأم في أفريقيا ... تعني الفرانكفونية السكان الناطقين بالفرنسية؛ أي خمسين مليون فرنسي + ١٣٠ مليونًا في القارات الخمس (٥٢ دولة) ... في سنة ١٩٦٩ قال الشاعر السنغالي سنجور إن اللغة الفرنسية منتشرة في أفريقيا ليس فقط نتيجة استعمار فرنسا لدولها بل لتمتع هذه اللغة بحسناتٍ خاصة جعلت منها ظاهرةً عالمية: «الفرنسية هي الأرغونات الكبرى الأكثر عذوبة، مثل إبراقات العاصفة ... إن الكلمات الفرنسية تشع من ألف نار، مثل شهب تضيء ليلنا.» وبعد ذلك بعشرين عامًا كان الرئيس الفرنسي ميتران أكثر واقعية: «الفرانكفونية ليست هي فقط اللغة الفرنسية ... إنها انتماءٌ سياسي واقتصادي وثقافي.»

... إذا كانت أفريقيا تعاني من التأخر وتموت من الجوع ومن الأوبئة فإن السبب في ذلك هو الفرانكفونية؛ فقد خلقت فرنسا وتساند نخبة في الحكم منفصلة تمامًا عن احتياجات السكان، هناك بلدان في القارة الأفريقية إذا لم يدفع فيها المكلفون أجور الموظفين في نهاية الشهر فإن المساعدة الفرنسية تأتي لذلك، بدءًا من الدرك والعسكريين ورجال الجمارك بل والوزراء أنفسهم؛ لأن أموال الخزانة حولت إلى حساباتٍ بنكية في سويسرا. وإذا وقع أقل تحرك فإن الجيش الفرنسي موجود وكل قواعده العسكرية على أهبة الاستعداد للتدخل.

وقد اضطر الرئيس الفرنسي ميتران للاعتراف بالوجه الآخر للحضارة الفرنسية عندما قال: «كما كان لفرنسا الفضل في الأخذ بيد دول أفريقيا ودفعها على طريق التقدم والحضارة فإن **لأفريقيا أيضًا دورها في إثراء فرنسا وفيما يتمتع به شعبها من رخاء ورقي.**» ولهذا تقاوم فرنسا إنشاء سوق أفريقية مشتركة؛ لأنه سيضيع عليها فرصًا كثيرة، فمنتجات أفريقيا الضخمة من المحاصيل والخامات (أكبر احتياطي من اليورانيوم في النيجر؛ ولهذا تهتم فرنسا بإبعاد القذافي عن تشاد) والأخشاب ما زالت تشحن لأوروبا على سفنٍ أوروبية حيث يعاد بيعها أو تصديرها للمشترين حتى ولو كانوا من نفس القارة، الطيران بين الدول الأفريقية يتم عن طريق باريس وروما، الإعلام ومجالات الخبرة المختلفة.

ملحوظة بخط اليد: المصالح الفرنسية في أفريقيا: وجود ربع مليون فرنسي، تحكم القارة في طرق المواصلات الهامة للنفط والمواد الأولية اللازمة للصناعة الفرنسية، تجربة الأسلحة والمعدات الحربية، مبيعات الأسلحة، دفن النفايات النووية الضارة، قواعد عسكرية في السنغال، الكوتدافوار، الجابون، جيبوتي، أفريقيا الوسطى، جزر رينيون، استخدمت

في التدخل العسكري الفرنسي في الجابون وزائير وتشاد وأخيرًا رواندا (١٩٦٨، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٣، ١٩٨٦، ١٩٩٠).

⋆⋆ **فقرة من مجلةٍ عربية بعنوان صفحة من تقرير مقدم إلى كلينتون:** «لقد اتخذت العديد من الدول في الشرق الأوسط وفي مقدمتها مصر، مفتاح الشرق الأوسط، خطواتٍ جادة في سبيل فتح أسواقها أمام الصادرات الأمريكية (بلغت ٢٫٨ مليار دولار عام ١٩٩٣) بعد أن قامت بتصحيح المسار الاقتصادي واتباع سياسة الخصخصة؛ وبذلك تم إزالة كافة العقبات والحواجز التي كانت موجودة في العصور الماضية أمام حركة التجارة والاستثمارات الأمريكية في المنطقة، وأصبحت مصر أهم الأسواق للمنتجات الزراعية الأمريكية، كما أنها الدولة الوحيدة التي لم تتمسك بسياسة المقاطعة التي قادتها الجامعة العربية ضد إسرائيل. بل وأصدرت تشريعات من شأنها حماية الممتلكات الفنية والثقافية وبراءة الاختراعات. وبذلك تصبح مصر فرصة عظيمة لفتح أسواقٍ جديدة في منطقة الشرق الأوسط.»

ملحوظة بخط اليد: قرر الشيخ جاد الحق، شيخ الأزهر، في رسالة إلى مجلس الشعب، أن أحكام قانون الإصلاح الزراعي لسنة ٥٢ غير مقبولة شرعًا؛ وعليه فهو قانونٌ باطل يقوم على قواعدَ فاسدة.

⋆⋆ **قصاصةٌ صفراءُ قديمة، من صحيفةٍ مكسيكية بتاريخ أكتوبر ٨٣:** «تحدثت القديسة ماريا العذراء لطفلٍ يتيم في شيلي قائلة إنها تكره الماركسية والاتحاد السوفييتي، وانتشرت الرسالة في أنحاء البلاد بسرعة، وقد جاءت في الوقت المناسب؛ إذ يضاعف الدكتاتور بينوشيه حملاته المعادية للحزب الشيوعي الممنوع منذ سنة ٧٣؛ فقد أعلن الراهب «لويس فيرنانديس» أن العذراء تحدثت إلى الطفل ميجيل أنجل بويليت البالغ من العمر ١٥ سنة والموجود تحت رعايته منذ عدة سنوات، وتكرر ظهور العذراء وكان في انتظارها آخر مرة مائة ألف مواطن شيلي اتجهوا منذ الصباح الباكر إلى قرية «فيلا أليمانا»، وكان الأب الناطق باسم الطفل في انتظارهم. وعندما لم تتمكن الجماهير من رؤية العذراء طلب الأب منهم أن ينظروا إلى الشمس، فرآها بعضهم خضراء والبعض الآخر حمراء، وتمخض اللقاء عن لجنة لجمع التبرعات لصالح إنشاء إذاعةٍ حرة خاصة بالعذراء. وكانت العذراء قد ظهرت سنة ١٩١٧ لراعٍ برتغالي وتحدثت له عن روسيا القيصرية المهددة بالشيوعيين. وتكرر ظهورها في البرتغال عام ١٩٤٢ في بداية عهد الدكتاتور سالازار لتتحدث مرةً أخرى ضد الاتحاد السوفييتي.»

⋆⋆ **قصاصة من صحيفة سودانية في ديسمبر ٩١:** في جلسة مناقشة ورقة الاستراتيجية القومية تحدث الدكتور «عمر أحمد فضل الله» عن إيمانه بإمكانية الاستعانة بالجن السوداني المؤمن في كافة مجالات التطور والنهضة، فطلب منه الفريق عمر البشير إعداد ورقة شاملة عن الجن.

⋆⋆ **قصاصة من جريدة الشعب المصرية المتحدثة باسم التيار الإسلامي، تتناول الحرب الدائرة في جنوب السودان بين حكومة البشير والمتمردين:** «وقد روى لنا أكثر من فرد من قوات الدفاع الشعبي حكايات متعددة عن الكرامات الإلهية التي شاهدوها بأنفسهم؛ فالبعض تحدث عن استجابة الله تعالى لدعاء المجاهدين بإنزال المطر ليرووا عطشهم، ووقفه إذا كان يعوق سيرهم، والبعض تحدث عن طيور كانت تنقضُّ على الألغام التي تركها المتمردون لتفجرها.»

⋆⋆ **فقرة من صحيفة إسبانية:** أعلن الأب بيير بنوا الذي يُعدُّ من أكثر الشخصيات الدينية احترامًا وشعبية في فرنسا ومن قادة حركات مكافحة العنصرية ومعاداة السامية أن العرب لم يرتكبوا جرائم في حق اليهود، بل ارتكبها هتلر الأوروبي، وأضاف: «عندما أردنا أن نكفر عن هذا الذنب قدمنا أسهل الحلول وهي طرد الفلسطينيين من أراضيهم كي يستقر فيها اليهود.»

⋆⋆ **قصاصة من صحيفة فرنسية قاصرة على عنوان نبأ:** بيني غاوون رئيس مجموعة شركات «كور» الإسرائيلية الضخمة يقول: «ستكون لدينا سوق تضم ٣٠٠ مليون مستهلك وسندخل عصرًا جديدًا.»

⋆⋆ **سطور متفرقة من مقال بعنوان منطق الإنتاجية الشيطاني. بالطبعة العربية لجريدة موند ديبلوماتيك، يوليو ١٩٩٤:** الأزمة التي يتخبط فيها النظام الرأسمالي الآن بعد عقدَين من البذخ (١٩٥٥–١٩٧٥) يحاولون حلها على حساب العمال ... آن الأوان للتساؤل عما إذا كانت البطالة مرضًا يتصل بطبيعة النظام الذي أصبح يغطي جميع بلدان الأرض. إن مثل هذا النظام المؤسس على تراكم رأس المال يعتبر عبارات «الادخار» و«الاستثمارات» و«الأرباح» كلمات مفاتيح، ويقيم بنيانه على علاقاتٍ ممتازة بين أصحاب الثروات. وفي مثل هذه الظروف ينبغي أن توجد البطالة للتحكم في ضغوط التضخم والحفاظ على سوق عمل «طيعة». فالعرض الزائد من اليد العاملة يمكِّن من جعل التخفيض في الأجور مقبولًا بسهولة، ولم يحصل أبدًا منذ الانهيار الاقتصادي في الثلاثينيات أن كانت أرقام البطالة بمثل هذا الارتفاع الرهيب في العالم الغربي؛ ففي كل

مكان يكثر الحديث عن إعادة الهيكلة و«استعادة القدرة على المنافسة» ولو كان الثمن عشرات الآلاف من المطرودين، في ألمانيا ١٩٩٤ نسبة البطالة ١٢ في المائة، وفي إسبانيا ربع القوة العاملة محرومة من العمل، وفي إيطاليا يفخر رئيس شركة «أوليفيتي» بأنه تخلص منذ ١٩٨٩ من ٢٢٠٠٠ وظيفة من جملة ٦٠٠٠٠ وهو يفكر بالإضافة إلى ذلك في مواقع إنتاج بها أيدٍ عاملةٌ رخيصة مثل بنجلاديش وفيتنام، ويشتكي رئيس مجلس أصحاب الأعمال الفرنسيين من أن بلاده تعيش بوسائل أكبر من إمكانياتها، وهي تخسر بذلك امتيازاتها التكنولوجية وتحرم من القدرة على مواجهة المستقبل أي المنافسة العالمية. بينما يتوقع لأوروبا عام ١٩٩٥ عشرين مليون عاطل ربعهم بين ١٨ و٢٥ سنة. وإجمالًا إذا كانت الرأسمالية في أزمة فإن الخطأ هو خطأ العمال. ففي نفس الوقت زادت معاملات أكبر شركتين عالميتين بين ١٩٨٢ و١٩٩٢ من ثلاثة مليارات دولار إلى الضعف. ومع ذلك لا تتردد هاتان الشركتان في القيام بعمليات تسريحٍ جماعي للعمال.

⋆⋆ **سطور بخط اليد:**

٥٠٠ مليون نسمة في دول الشمال السبع الأكثر تقدمًا يستهلكون المواد الأولية التي يملكها ٤ مليارات نسمة يعيشون الكفاف في الجنوب.

النيجر أفقر دول العالم مع أنها ثاني منتج لليورانيوم في العالم.

الحد الأدنى لأجر العامل الأميركي ٤ دولارات في الساعة أي ٣٢ دولارًا في اليوم.

في الصومال يموت خمسة آلاف طفل يوميًّا من الجوع، ويضطر الأفارقة لأكل جذور وأوراق الشجر، بينما يتكلف إطعام كلاب أمريكا سبعة مليارات دولار، وتشترى لها أربطة عنق بـ ٧٥ مليون دولار وأدوية ٩٢ مليونًا ولعب وملابس خاصة بمليونَين.

⋆⋆ **مقتطف بخط اليد عن كتاب مقرضو النقود لـ «أنتوني سامبسون»:**

«معدلات الفائدة المرتفعة أعطت مكاسب هائلة للبنوك من الحسابات الجارية للعملاء الصغار التي لا تدفع عنها البنوك أي فوائد.»

⋆⋆ **عدة صفحات من مجلة فورتشن الأمريكية بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٨٧:** تضم قائمة بأغنى أغنياء العالم ومصادر ثرواتهم تبدأ بسلطان برونوي حسن بلقاية الذي تبلغ ثروته ٢٥ مليار دولار، ويليه مباشرة الملك فهد؛ ملك السعودية الذي تقدر ثروته بمبلغ ٢٠ مليار دولار، ويليه بين الأغنياء العرب الشيخ جابر الصباح أمير الكويت (٥ مليارات دولار)، ويأتي المصري عثمان أحمد عثمان في ذيل القائمة بمليار ونصف مليار دولار.

⋆⋆ **بيانات بخط اليد عن شركات الأدوية العاملة في مصر، صفحات منتزعة من كتاب عن صندوق النقد الدولي وأخرى من مجلة تضم قائمة بشركات القطاع**

العام المعروضة للبيع، قائمة بالشركات التي أُممت في الستينيات، أرقام عن توزيع الدخل القومي وبيانات أخرى من تقريرين للبنك الدولي عن الوضع الاقتصادي في مصر.

⋆⋆ **سطور بخط اليد:** «يا رفيقي الحاضر هنا، ما من أحد حملك على الفرار ولست مسئولًا عن ذلك. لقد بنيت سلامك بكثرة ما سددت بالملاط، كما تفعل حيوانات «السرف»، جميع منافذ النور. لقد تقوقعت في طمأنينتك البرجوازية، في رتابتك، في طقوس حياتك الريفية الخانعة، رفعت هذا السور المصطنع في وجه الرياح والمد والنجوم، إنك لا تريد الانشغال بالمعضلات الكبرى، كلفت نفسك ما يكفيها عناء لكي تنسى وضعك كإنسان.»
«أنطوان سانت أكسوبري» «أرض البشر»

١٤

أوراق رمزي بطرس نصيف
(مسودة لمذكرة الدفاع)

لو أن أحدًا ذكر لي أني سأنام ذات يوم على أرض زنزانة كهذه لكنت ضحكت، أنا أضحك الآن عندما أتأمل الأمر؛ فلم يكن هناك في أي مرحلة من حياتي ما يوحي بنهاية كهذه، إذا كانت هي حقًّا النهاية! فأنا ولدت في أسرةٍ مستريحة؛ أبي كان موظفًا كبيرًا في وزارة المالية يحتفظ بعدة أطقم من الملابس خاصة بالمناسبات والفصول المختلفة، كنا نسكن في شبرا بشقةٍ كبيرة من خمس غرف بواحدة من العمارات المتينة ذات المداخل الرحبة التي بُنيت في الأربعينيات أو الثلاثينيات، وكانت لدينا شقة في الإسكندرية نقضي بها شهور الصيف، وأحيانًا نذهب إلى أهل جدتي لأمي في بورسعيد الذين كانوا يعيشون في فيلا كبيرة تابعة لشركة القناة؛ فقد كان جدي من كبار موظفيها.

كنت الابن الأكبر على بنتَين، واحدة منهما الآن في كندا والثانية في أستراليا، لا بد أن طفولتي كانت عادية؛ فأنا لا أذكر منها بوضوح سوى زيارة القسيس التي كان يقوم بها لمنزلنا مرة في الشهر يباركني خلالها بأن يرسم الصليب على وجهي وهو يتمتم شيئًا ما بالقبطية ثم يضيف بالعربية: العدرا تحميك يا بني.

أذكر أيضًا بوضوح صالة شقتنا والحائط الذي يتصدره تقويم جمعية المحبة القبطية، بصورةٍ ملونة للمسيح وآية كل يوم، وأسفلها محرابٌ صغير به أيقونة العذراء وتحتها شموع مضاءة بصفةٍ مستمرة، كما أذكر الأعياد التي كنا نذهب فيها إلى الكنيسة ونطوف حول المذبح في موكب يحمل أيقونة قيامة المسيح، والصلوات التي نختمها بالدعاء للبابا وجمال عبد الناصر.

أحسب أن الدعاء لعبد الناصر كان من قبيل الشعائر الرسمية فقد كان الأقباط متحفظين إزاء عبد الناصر. الأسباب عديدة، منها أن كثيرين منهم كانوا منضمين إلى الأحزاب السياسية التي ألغاها وحرمها، كما أن مجلس قيادة الثورة لم يكن به قبطيٌّ واحد، فيما بعد أصبح عبد الناصر بطل مراهقتي أثناء العدوان الثلاثي في ٥٦، يوم اخترق القاهرة في سيارةٍ مكشوفة من بيته في مصر الجديدة إلى الجامع الأزهر واعتلى منبره وقال للعالم «سنقاتل ولن نستسلم.» استولى عليَّ يومها شعور بالاعتزاز والكبرياء رغم أن أبي بدا مهمومًا ومتجهمًا ولم أعرف منحى تفكيره ... على العموم أبي كان دائمًا متجهمًا، على الأقل في البيت؛ فعندما يأخذني في نزهة تنبسط أساريره ويضحك ... أمي أيضًا كانت متكدرة، وأظن أن الأمور بينهما لم تكن على ما يرام!

* * *

كان أبي يصحبني في العصاري إلى صيدليةٍ، أو أجزخانة كما كانت تسمى، قريبة من منزلنا في شبرا. كان صاحبها صديقًا له يجلس بطربوشه الأحمر خلف مكتبٍ صغير فوق قاعدةٍ خشبية، يحيط بسطحه سياج من القضبان الخشبية الدقيقة المتجاورة بارتفاع شبر، وخلفه مصراع زجاجي معتم تتوسطه جمجمة وعظمتان، ويعطيني قطعًا من حلوى الربسوس السوداء التي كانت تنتج أيامها بأشكالٍ مختلفة؛ على هيئة غليونٍ صغير أو حبل أو مربعات أو دوائرَ متتالية في حجم النصف ريال تتوسطها حمصةٌ ملونة. ويجلس أبي على أحد المقاعد المصفوفة أمام المكتب ويبدآن النقاش حول الأحداث السياسية والمعارف المشتركَين، ويتبادلان تعليقاتٍ غامضة تتخللها نظرات لها مغزًى إذا ما ولجت الصيدلية امرأةٌ جميلة، خصوصًا إذا كانت تغطي وجهها بالبرقع ذي الأسطوانة النحاسية فوق الأنف، وتلف جسدها بالملاءة السوداء في إحكام طاوية طرفها تحت إبطها.

الصيدلي هو ابن أخت صاحب الصيدلية؛ شابٌّ بدينٌ أصلع الرأس يرتدي عويناتٍ طبيةً سميكة، يعمل من خلف حاجزٍ زجاجي دُهن بطلاءٍ أبيض لا يكشف عما يدور خلفه، تتوسطه فتحة تسمح بتبادل الحديث مع الزبون وقراءة الروشتة قبل الاختفاء في الداخل لتحضير الدواء.

كنا ما زلنا في عصر تحضير الدواء قبل أن تتحول الأدوية إلى حبوبٍ ملونة والصيدلي إلى بائع بقالة كل مهمته هو أن يتناول الدواء من الرف ويقبض النقود. أثارتني هذه المهنة

منذ الطفولة وحلمت بأن أصير مثل ذلك الصيدلي الذي يقوم بأعمالٍ غامضةٍ مهمة خلف الزجاج المعتم بينما زبائنه ينتظرون.

* * *

كنا نلتقي في الصيدلية أحيانًا بصديق للصيدلي؛ شاب في العشرين من عمره يدعى «نسيم غبريال». كان وسيمًا أنيقًا ومصدرًا لكل جديدٍ مبهر، يحكي لأبي وصديقه ما يقرؤه في الصحف الأجنبية عن فضائح الملك، ويحمل معه دائمًا أشياءَ مثيرةً جديدة علينا، مستوردة من أمريكا، يعرضها للبيع؛ سلاسل، مفاتيح متصلة بنماذج لحيوانات تتألف من قطع منفصلة ذات ألوان خلابة يمكن فكها بسهولة لكن إعادة تركيبها تحتاج إلى مهارة، كرافتاتٌ فاخرةٌ عريضة ذات ألوان باهرة وبطانةٍ داخلية من الحرير الأبيض، وأشياء من هذا القبيل. وكان هو أيضًا الذي أبلغنا ذات مرة بأن مشروبًا جديدًا سينزل إلى الأسواق باسم بيبسي كولا لينافس الكوكا بزجاجة أكبر حجمًا بنفس الثمن وهو قرشان ونصف.

* * *

أتذكر أيضًا بواب منزلنا الذي كانت له ابنة في سني تدعى توحيدة. كنت أحب اللعب معها في مدخل المنزل، ولم تكن أمي ترحب بذلك، ويبدو أن البواب التحق بأحد المصانع في شبرا الخيمة؛ إذ بدأ يخرج في الصباح حاملًا رغيفًا من الخبز في منديل ولا يعود قبل المغرب، وقامت زوجته بعمله. كانت سمراء، فارعة القوام، ترتدي دائمًا ملابسَ نظيفة، شديدة الاعتزاز بنفسها، تعتني بنظافة ملابسها ومظهرها وترفض القيام بأي عمل داخل الشقق مثل الكنس أو المسح معلنة أنها سيدة منزل مثل بقية السكان وليست خادمة. وتتهرب من تلبية طلبات السكان بحججٍ مختلفة أو تغلق على نفسها باب غرفتها الكائنة أسفل السلم ولا ترد على نداءاتهم، ونشأ صراعٌ عنيف بينها وبين أمي التي قررت التوقف عن دفع القروش العشرة التي كان يعطيها كل ساكن للبواب. وأذكر أن شجارًا نشب بينهما مرة، وأهانتها أمي فردَّت عليها بوقاحة، وحرَّم عليَّ اللعب مع توحيدة فحزنت جدًّا.

أغرب ما في الأمر أني لا أذكر جيدًا شكل توحيدة على عكس أمها، وأتذكر يوم عدت من المدرسة واسترقتُ النظر إلى غرفتها فرأيتها ممددة على مرتبة فوق الأرض، وعرفت أنها مريضة، ثم رأيتها بعد أيام وهالني منظرها. كانت شاحبة الوجه شديدة الهزال محنية

القامة. وفي نفس اليوم صعدت إلى شقتنا وشاهدتها تقبل قدم أمي وتعتذر لها ثم تأخذ منها بعض النقود، وأصابني هذا المشهد بحزنٍ عميق.

* * *

في المدرسة كنت متفوقًا، انضممت إلى جماعة المسرح، واشتركت في إخراج مسرحية لشكسبير أظن أنها هاملت، وأخرى لموليير نسيت اسمها. أحببت المسرح جدًّا حتى إني في الجامعة ألَّفت مسرحية عن العدوان الثلاثي لا أذكر منها شيئًا. انتقلت من مدرسة «الفرير» إلى شبرا الثانوية، أذكر تلميذًا معي في الفصل نسيت اسمه أعطاني مرة درسًا تذكرته عندما دخلت السجن، وساعدتني الذكرى على تحمل التجربة، كان أكبر مني ربما بسنة، ضئيل الحجم، مدمن قراءة، وأظن أنه درس الفلسفة بعد ذلك، وفي يوم كنا وحدنا في معمل الفيزياء، ووقع مني إناءٌ زجاجي فانكسر. وعلى عجل دفعت الزجاج بقدمي لأخفيه أسفل دولاب، رأيته يبتسم في سخرية وقال لي: لن تصبح رجلًا إلا إذا تعلمت كيف تتحمل مسئولية أفعالك.

لم أفهم وقتها ما يعنيه بالضبط؛ فقد كنت في العاشرة من عمري على ما أظن. لا أعرف أين هو الآن، على العموم كنت مبسوطًا في المدرسة. فقط درس الدين كان يشعرني بالحرج. فقد؛ فقد كان الفصل ينقسم ساعتها إلى قسمَين ويتجه القسم الأصغر وأصحابه — وأنا منهم — مطأطئ الرءوس كاللصوص إلى قاعةٍ خاصة حاملين الأناجيل، ونحن نحاول إبعادها عن أنظار زملائنا المسلمين.

في السنتَين الأخيرتَين من المدرسة الثانوية توطدت العلاقة بيني وبين تلميذ اسمه سمير صبحي يقطن فيلا قديمة من طابقَين قريبة من منزلنا. وكانت له أخت تدعى سارة تكبره بسنة. سمراء دقيقة الحجم جميلة العينين. كان جو بيتهما مختلفًا عن بيتي، به قدرٌ أكبر من التحرر، وعن طريقهما تعرفتُ بابن خالتهما لبيب وصديقه حلمي الذي أصبح من أعز أصدقائي.

التحقت بكلية الصيدلة. وسافر سمير للدراسة في الخارج، ودخلت سارة وحلمي ولبيب كلية الطب، كنا نلتقي يوميًّا؛ أخرج من الكلية في شارع القصر العيني ويخرجون هم من المستشفى ونجلس في مقهًى شعبيٍّ صغير في «المنيرة» نشرب الشاي أو القرفة، ثم نعود كلٌّ إلى كليته. وخلال ذلك كانت تدور المناقشات الحامية بيننا حول كل شيء؛ القصص والأفلام والموسيقى … لم نكن نهتم كثيرًا بالسياسة (ربما بسبب الجو البوليسي

الذي ساد الجامعة والبلاد كلها) رغم المناقشات الواسعة التي دارت بين الأقباط حول التأميمات لأنها شملت أوقاف الكنيسة، لكننا تحمسنا للميثاق الوطني عندما نص على حق كل مواطن في الرعاية الصحية بأن العلاج والدواء يجب ألا يكونا سلعة وإنما حقٌّ مكفول غير مشروط بثمنٍ مادي وفي متناول كل مواطن في كل ركن من الوطن.

لم تكن هذه بالطبع آراء أهلنا، أبي مثلًا كان ساخطًا لأن التأميمات شملت الوكالة التجارية التي كونها صديقه صاحب الصيدلية بالاشتراك مع الشاب نسيم غبريال، والتي احتكرت تمثيل عدد من شركات الأدوية والعطور الأمريكية.

* * *

كانت سارة أكثرنا جرأة في المناقشات التي تمس التقاليد، أطلقنا عليها اسم الدكتورة درية شفيق التي اشتهرت في الخمسينيات بدفاعها عن حقوق المرأة. كانت تطرح تساؤلات من قبيل لماذا لا تكون هناك امرأة بين القسس؟ ثم تقول إن المرأة في نظر الكنيسة دون منزلة الرجل لأنها غير مؤتمنة على أسرار الدين وعلى رأسها سر إقامة القداس. فهي مثل أمها حواء قابلة للانجرار إلى الخطيئة، ناقصة عقل ودين كما قال المسلمون بعد ذلك. هذا بالرغم من أن الأناجيل الأربعة لا تضم كلمةً واحدة تفرق بين المرأة والرجل، فلم تكن العلاقة بين الاثنين ضمن رسالة المسيح التي كرسها للفقراء والعبيد. بعكس بولس الرسول، المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية؛ فهو يقول في إحدى رسائله التي تقرأ أثناء عقد الزواج: «أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب؛ لأن الرجل رأس المرأة، كما المسيح رأس الكنيسة.»

كنا نسألها في سخرية: وليه كده يا دكتورة؟ فتقول: إن أمراء الكنيسة طوعوا التعاليم الأصلية لظروفٍ اجتماعية حطت من شأن المرأة وعلت من دور الرجل؛ لأنهم وجدوا مصلحة في ذلك.

كنا نلتقي أحيانًا في نهاية اليوم ونذهب إلى منزلها ونتجمع في غرفتها. نأكل أي شيء ونذاكر قليلًا ونسمع الموسيقى الكلاسيكية، كنت سعيدًا بهذا الجو الذي يختلف عن جو منزلي حيث أبي المتجهِّم وأمي المتكدرة. شيئًا فشيئًا وجدت نفسي أفكر فيها طول الوقت، وقدرت أني وقعت في غرامها. ولم يكن عندي شك في أنها تبادلني مشاعري. كانت تنظر إليَّ بعينَيها الجميلتَين اللامعتَين نظراتٍ طويلة، وعندما كنا نعزف على البيان سويًّا كانت تترك يدها أحيانًا فوق يدي، ولم يخطر ببالي مطلقًا أن حلمي يحبها هو الآخر إلى أن فوجئت

بهما يبلغانني بعزمهما على الزواج بعد التخرج مباشرة. أعتقد أنها أقوى صدمة تلقيتها في حياتي.

* * *

تزوج حلمي من سارة، وأقاما في منزلها. وتخرجت أنا فأخذت أبحث عن عمل. كان غبريال قد أفاق من صدمة التأميم واشترى صيدليتَين فالتحقت بإحداهما، وكنت أخرج منها إلى منزلهما مباشرة، ونسهر الثلاثة نثرثر وندخل في نقاشاتٍ ملتهبة أو نسمع رحمانينوف وبرامز أو أشترك أنا وسارة في العزف على البيان، لم يخطر لي أبدًا أن أسألها لماذا فضلت حلمي عليَّ. اعتبرت اختيارها لحلمي منطقيًّا؛ فهو أكثر مني وسامة وخفة دم، وأبوه طبيبٌ كبير وسيخلفه في العيادة، قنعت بأن أراها كل يوم وألبي طلباتها، وأدركت هي مدى نفوذها عليَّ. كانت تمتحنني أحيانًا، فتتمطى كالقطة وتقول إنها ترغب في أكل كباب أبو شقرة، وبسرعة البرق أكون في الطريق إلى محله في القصر العيني لأحضر لها طلبها، وكان حلمي يذاكر للماجستير فنخرج وحدنا ونذهب إلى نادي السينما. وكثيرًا ما كانت ترتمي إلى جواري على الأريكة وتنهمك في القراءة وتستند برأسها على كتفي.

لم أتحمل الموقف ففكرت في السفر، كانت هناك أسبابٌ أخرى بالطبع؛ فقد ضُبط غبريال في محاولة تهريب مبلغٍ ضخم من العملات الأجنبية للخارج ودخل السجن، بينما وُضعت أملاكه ومنها الصيدلية تحت الحراسة. وفي ظل الإدارة الحكومية الجديدة بدأت تتداعى؛ فلم يهتم أحد بإمدادها بالبضاعة، فضلًا عما كانت تشكو منه البلاد كلها من نقصٍ دائم في الأدوية الأجنبية بعد التأميم. وأصبح العمل بها يبعث على الملل، وفي نفس الوقت كنت أحلم بالحياة الرغدة وأهوى جمع المعلومات عن السيارات الجديدة، وأواظب على قراءة مجلة «بلاي بوي» لما بها من صور الموديلات الجديدة من الفتيات والسيارات، وكان الجو حولي وسط الأقباط مشحونًا بهاجس الهجرة؛ فتأميم الأوقاف أثار غضب البابا كيرلس وعداء الكنيسة. وشاعت قصة مؤداها أن البابا كيرلس زار عبد الناصر في الحلم وتوعده قائلًا: أبعد يدك عن أملاك الرب. فاستيقظ عبد الناصر مريضًا، وطلب أن يأتي كيرلس لزيارته فرفض، واضطر أن يذهب هو إليه، ألبسه البابا أبيض في أبيض ومسح عليه بالزيت المقدس فشفي، وبعدها تبرع عبد الناصر لبناء البطريكية الجديدة في العباسية.

أيا كان نصيب هذه القصة من الصحة، فإن بناء البطريركية الجديدة لم يخفف من قلق الشعب القبطي، كان الأغنياء الذين تعرضوا للتأميم أو يخشونه يغذون هذا القلق

ويهاجرون بالمئات، وازداد المعدل بعد النكسة في ٦٧ إذ بدا المستقبل أمام الجميع غير مضمون، وخيم على البلاد جوٌّ ثقيل من الكآبة.

* * *

عبد الناصر كان مهتمًّا ببناء دولةٍ عصرية، وكانت أمامه فرصةٌ ذهبية للقضاء على التمييز بين المسلمين والمسيحيين، لكنه لم يفعل. بناء الكنائس مقيَّد بقانون يعود إلى أيام الخلافة العثمانية، مادة التاريخ في المدارس تتجاهل الحضارة القبطية، أي مسلم الأبواب مفتوحة أمامه ليصبح وزيرا أو سفيرًا أو محافظًا أو حتى مأمور مركز، بينما هناك قانون غير مكتوب يضع القيود في وجه الأقباط ... مثلًا بالنسبة لدخول كليات بعينها مثل الشرطة والكليات العسكرية ثم مدارس المعلمين. ومع ذلك يقال إن هناك مساواة وإن مصر بلد التسامح ... إلخ.

* * *

تقدمت للعمل في فرع بيروت لإحدى شركات الدواء الإنجليزية، كانت صناعة الدواء تزدهر بسرعة، وشركاتها الكبرى تدفع مرتباتٍ أعلى من المرتبات التي تدفعها شركات النفط. قبلوني وسافرت على الفور. كانت بيروت في عزها، مدينةً أنيقة، قطعة من أوروبا، أو «باريس الشرق» كما كانوا يقولون، أحدث موديلات السيارات، مقاهي الروشة الواحد إلى جوار الآخر. كل شيء نظيف وله لمسة فينيس. في الصيف زحام السواح العرب وترش الملح مينزلش. أصبحت عندي سيارة ومسكنٌ جميل في حي الظريف الراقي، ولم أشعر بالغربة، وخُيل إليَّ أني تمكنت من القضاء على شبح سارة. وبعد علاقتَين عابرتَين؛ واحدة بفتاةٍ إنجليزية والأخرى بواحدةٍ لبنانية، تزوجت قريبة لإحدى زميلاتي اللبنانيات؛ فتاة مرحة واجتماعية ومن عائلة معروفة.

بعد سنتَين تلقيتُ عرضًا من شركةٍ سويسرية منافسة اسمها «كوش» لوظيفةٍ إدارية أعلى، كان العرض مغريًا؛ فالشركات السويسرية تفضل دائمًا السويسريين في المناصب الإدارية العليا. وكان عقدي ينص على أن أقضي ثلاثة شهور في «بازل» لأتعرف على إمبراطورية كوش ثم أتولى إدارة أحد فروعها في الخارج، وكان الراتب كبيرًا بالنسبة لسني، كما أن عبد الناصر كان قد مات، فتقطعت بشكلٍ ما الخيوط التي بقيت بيني وبين مصر.

* * *

... ذهبت لعمل مقابلة في بازل BASLE بسويسرا، وفوجئت بأن لديهم ملفًّا كاملًا عني. بعد ذلك اكتشفت أن بازل تضم ملفاتٍ كاملة عن رجالات الدواء في العالم والمصريين منهم، كل شيء عنهم؛ هواياتهم وأمزجتهم الخاصة وأسرارهم الحميمة، وهو أمرٌ طبيعي؛ لأن مصر كانت تشتري كيماويات وخاماتٍ دوائية كل سنة بمائتي مليون جنيه، وأدوية بمائة مليون جنيه.

كانت المقابلة صعبة، استقبلني رجلٌ بارد بعينَين ضيقتَين وفمٍ مقوس مثل رقم ٨. قدم إليَّ بعض المقتطفات من المجلات وطلب مني أن أقرأها وأعلق عليها تعليقًا فوريًّا.

الفقرة الأولى كانت للفيلسوف الألماني نيتشه NIETZSCHE يقول فيها: إن أخلاق التجار ليست سوى صورةٍ محسنة من أخلاق القراصنة. علقت على هذه الفقرة بقولي إن نيتشه فيلسوف لا يعرف شيئًا عن الحياة الحقيقية؛ فلم يكن من المعقول أن أوافق على كلامه، كما أني لم أكن فكرت في هذا الموضوع من قبلُ. أبديت تعليقًا مماثلًا على الفقرة الثانية وكانت لفيلسوفٍ آخر هو أوجست ببل AUGUST BEBEL يقول فيها إن كل أشكال البيزنيس تقوم على الغش والخداع، وقبل أن يناولني الفقرة التالية سألني فجأة: ما هو رأيك في النظام الرأسمالي؟ أجبته على الفور: له عيوبه ولكني لم أجد بعدُ أفضل منه. وكنت صادقًا في ذلك القول.

ودون أن تتغير ملامحه عاد يسألني: وقال، والاشتراكي؟ أجبته على الفور. له محاسنه لكني لم أجد أسوأ منه. وكنت أيضًا صادقًا في القول.

كان هذا السؤال فيما يبدو توطئة لما جاء بعد ذلك؛ فقد كانت الفقرة التي حملتها في يدي من مقالٍ طويل عن مصر في مجلةٍ أمريكية، بمناسبة وفاة عبد الناصر. وكانت تسخر من مصر وجمال عبد الناصر الذي، على حد قولها، قاد بلاده إلى الهاوية بسلسلة من القرارات الخاطئة بدأت بالتأميمات التي قام بها في مطلع الستينيات. هنا ألفيت نفسي في موقفٍ صعب ولم أدرِ ماذا أقول. كنت عاجزًا عن تأييد المجلة في سخريتها، رغم أني كنت أوافقها لدرجةٍ ما على انتقادها لسياسة التأميمات والدكتاتورية، وأنقذني الرجل من حيرتي بأن قال إنه لا يطلب مني تعليقًا وإنما الإجابة على السؤال التالي: لنفترض أنك أصبحت مسئولًا عن فرعٍ كبير للشركة في أحد البلاد، وحدثت به اضطراباتٌ سياسية هددت مصالحنا، فما هو التصرف الذي تقترحه؟

كانت لحظةً صعبة لكني تخلصت ببراعة. قلت له إني سأقترح الالتزام بالوقوف إلى جانب الحق.

إجابةٌ دبلوماسية. لا أعرف إذا كانت هي التي أدت إلى تعييني. المهم أنهم أعطوني الوظيفة، وعندما انتهت الشهور الثلاثة فوجئت بهم يستكملون تدريبي في كافة الأقسام مثل الإدارة المالية والأدوية والصناعة والتحليل والتغليف والشحن.

استأجرت منزلًا جميلًا بحديقة في ضاحيةٍ راقية من بازل وانضمت زوجتي إليَّ. استمتعنا بحياتنا؛ تنس وحفلات وعطلات نهاية الأسبوع في الجبال، بل بدأت أتلقى دروسًا في الطيران، بينما كان راتبي في ازدياد، وكنا نقضي عطلاتنا في لبنان إلى أن نشبت الحرب الأهلية فصرنا نقضيها في أماكنَ مختلفة من العالم.

* * *

بعد ثلاث سنوات بدأت أشعر بالرغبة في الحركة، ضقت بجو سويسرا الرمادي وبالسحابة الكثيفة من الأدخنة التي تغطي سماء بازل منبعثة من مصانع كوش و«روش» وغيرهما، طلبت منهم أن يجدوا لي عملًا في الخارج فعهدوا إليَّ أن أقوم بمسحٍ شامل لسوق أمريكا الجنوبية (٢٠٠ مليون شخص يقل دخل الواحد منهم الشهري عن ٦٠ دولارًا، وعشرة ملايين عاطل) استغرق مني تسع سنوات سافرت خلالها إلى كل بلدانها ومعي زوجتي، وكانت سعيدة بالسفر ومستوى الحياة، كما أن لبنان كانت تفترسها الحرب الأهلية.

لقد حضرت عن قرب أهم الأحداث التي شهدتها أمريكا اللاتينية في العقدَين الماضيَين، فلم تنقطع صلتي بهذه القارة بعد أن انتهيت من مهمتي، بدأت بشيلي وحضرت قتل رئيسها الليندي في سبتمبر ٧٣، وبعد ثلاث عشرة سنة رأيت المتظاهرين في بناما يجرُّون دمية من القش في ملابس عسكرية تمثل رئيسها نوريجا NORIEGA ويغزُّونها في مؤخرتها بعصًا خشبية. شاهدت القسس يقودون المظاهرات التي ترفع شعاراتٍ ثورية وتهتف باسم فيدل كاسترو، لمست كيف تحارب الولايات المتحدة بارونات المخدرات لتنفرد هي بسوقها. كنت في كراكاس عاصمة فنزويلا في ١٩٨٩ عندما فرض عليها صندوق النقد الدولي خطة تقشف رفعت أسعار الطاقة بنسبة ٨٠ بالمائة والمواصلات بنسبة ٥٠ بالمائة، فثار الأهالي وخرجوا إلى الشوارع، وشاهدتهم ينهبون المحلات التجارية بينما العسكريون المدربون على حرب العصابات يحصدونهم بالمدافع الرشاشة، رأيت إسرائيل تزود سوموزا سفاح نيكاراجوا بالسلاح والخبرة، وحكام الأكوادور الدمويين بطائرات كافير وتدرب فرق الموت التي اغتالت ٤٠ ألف مواطن في سلفادور، كما تدرب الكتيبة رقم ٣١٦ التي قامت بعملٍ مماثل في هندوراس، ورأيتها تتولى الحراسة الخاصة لنوريجا بارون المخدرات ثم تشترك مع السعوديين في تمويل ودعم الكونترا المناهضة لحكومة نيكاراجوا الشرعية.

والأهم أني رأيت كيف تعمل كوش والشركات الدولية.

* * *

في الماضي كانت شركات البيزنيس تقصر نشاطها على مجالاتٍ ضيقةٍ محددة. صناع الصلب ينتجون صلبًا، تجار التجزئة للملابس يبيعون الملابس للجمهور، وعندما كانت شركة ترغب في التوسع، كانت تفعل ذلك في مجالها، فيبتكر صناع الصلب عمليات تصنيع جديدة، ويزيدون طاقتهم الإنتاجية ويتوسع باعة الملابس في الموديلات والتصميمات، أو يفتتحون حوانيت جديدة وبالطبع كان البعض يتوسعون عن طريق ابتياع المنافسين. ثم كان هناك أولئك الذين سعوا إلى بناء عملياتٍ متكاملة بأن يمتلكوا مصادر المواد الخام لصناعاتهم ونشاطهم، والتسهيلات الإنتاجية ومنافذ التوزيع والبيع، فمثلًا كان صناع الغذاء يتملكون المزارع من ناحية وسلاسل حوانيت البقالة من ناحيةٍ أخرى، أو العكس: تمتلك سلسلة لحوانيت البقالة مصانع التعليب أو مصانع الغذاء.

ثم تجمعت عواملُ عديدة لوقف هذا النوع من النمو أو تقييده، وخاصة القوانين المعادية للاحتكارات التي وضعها الرئيس الأمريكي روزفلت في الثلاثينيات لإنعاش الاقتصاد. حدَّت هذه القوانين من توسع الشركة في مجالها، لكن رجال البزنس لا يملُّون البحث عن مصدرٍ جديد للربح بأي ثمن، ويزعم فلاسفتهم أن هذه الخاصية بالذات هي المسئولة عن التقدم الحضاري، وسرعان ما ابتكروا مفهومًا جديدًا يسمح بتوسع لا حد له.

كلمة السر الجديدة كانت التنويع. فبوسع أي شركةٍ قابضة أن تمتلك أي عدد من الشركات العاملة في مجالاتٍ متباينة دون أن تخرق القوانين المعادية للاحتكار، فولكس فاجن مثلًا دخلت مجال اللحوم، ونستلة ضمت المخللات إلى اللبن والشيكولاتة. هذا المفهوم عبَّد الطريق لظهور ونمو شركاتٍ عملاقةٍ متعددة النشاط والجنسيات ذات إمكانياتٍ هائلة. هل يتصور أحد أن جنرال موتورز مثلًا دخلها أكبر من دخل سويسرا؟! في الأصل كانت الفكرة سليمة ومعقولة ومفيدة للبزنس والجمهور. فالإدارة المركزية غالبًا ما أدت إلى تحسين الأداء وتخفيض التكاليف. كانت الشركة الكبيرة تحصل على الشركات الأخرى مقابل أسعارٍ جيدة ثم تديرها من أجل توفير المزيد والأفضل من السلع أو الخدمات لمزيد من الناس بأسعارٍ أقل. لكن بالتدريج أصبحت عمليات الضم والإلحاق غاية في ذاتها. وظهر متخصصون في الدمج يصنعون الملايين زوجوا فيات FIAT لستروين CITROEN ودوجلاس للطائرات DOUGLAS لمكدونل MCDONNELL وبيجو لرينو، فعن طريق ضم

مزيد من الشركات، أمكن للشركة الأم أن تجعل بيانات موازنتها تعكس نموًّا مطردًا وهائلًا، والنتيجة أن ترتفع أسعار أسهمها ارتفاعًا هائلًا، وهنا اكتشفت الشركات التنويعية أنها تستطيع الحصول على شركاتٍ جديدة بمبادلة أسهمها بأسهم تلك الشركات، فإذا لم تتوفر لديها أسهمٌ كافية، استعانت بإصداراتٍ جديدة، ذات أسعارٍ أعلى بفضل المحاسبين وسماسرة البورصة، فإذا فشل السهم وحده في الإغراء، قامت السيولة، المقترضة في غالبية الأحيان، بالدور.

بالطبع يصعب على المواطن العادي فهم ذلك. أنا نفسي لم أفهم ما يحدث حولي إلا بعد مدة. كانت عملية مثل القرصنة؛ يشترون الشركات الناجحة بأسهم يصدرونها خصيصًا تكون قيمتها مرتفعة بتأثير الدعاية المحيطة بالعملية، ثم يجردون الشركات من السيولة النقدية والأرصدة الصلبة. هكذا اختفت المليارات، وفقد المدخرون الصغار كل ما كان لديهم. في أمريكا بالذات، كان بوسع أي شخص أن يشتري بنكًا دون أن يستثمر مليمًا واحدًا من نقوده؛ فهو يستطيع أن يقترض المبلغ كله من مؤسساتٍ ماليةٍ ضخمة، مستخدمًا البنك الذي يريد شراءه نفسه على أنه الضامن الوحيد، وعندما يصبح مسيطرًا على البنك، يقترض منه ما يكفي لسداد القرض، فضلًا عن مبلغٍ آخر يمكن أن يبتاع به بنكًا ثانيًا. ويمكن تكرار العملية إلى ما لا نهاية، عدة بنوكٍ أخرى، وبعد ذلك تأييد مرشح للرئاسة ثم يصبح وزيرًا للمالية أو يأخذ مكافأته بأن يلغي الرئيس الجديد بعض الضرائب أو يعطيه عقدًا بسيطًا لتزويد القوات الأمريكية المحاربة في مكانٍ ما، فيتنام أو الخليج، بزجاجات المياه.

* * *

عرفت كل هذا بالطبع من خلال العمل مع كوش ورؤيتها وهي تلتهم السوق والشركات الأخرى، وبالذات عندما تعرضت كوش نفسها للالتهام على يد شركة التليفون والتلغراف الدولية الأمريكية ITT آي تي تي؛ فقد اختارتني الإدارة عضوًا في فريق العمل الذي تولى دراسة الاندماج.

هذه الشركة هي ثامن أكبر شركةٍ أمريكية من حيث المبيعات، تستخدم حوالي نصف مليون موظف، نصفهم في أوروبا. أخذت بعد الحرب عشرات الملايين من الدولارات من الحكومة الأمريكية تعويضًا عن تدمير المصانع والمعدات التي كانت تملكها في ألمانيا النازية، نكتةٌ حقيقية. فالشركة زودت هتلر بمصانع الأسلحة التي قتل بها الجنود الأمريكيين،

وخلال الحرب ضربت الطائرات الأمريكية مصانع السلاح الألمانية، وعندما انتهت الحرب أعطتها الحكومة الأمريكية عشرات الملايين من الدولارات تعويضًا عن هذه المصانع! المهم أنها تضخمت بسرعةٍ مذهلة في الستينيات نتيجة ازدهار سوق البورصة في أعقاب تسريع الحرب الفيتنامية. وبلغت ذروتها في ١٩٧٢ عندما ابتلعت آفيس AVIS لتأجير السيارات التي كانت تملك أكثر من مائة ألف سيارة وتعمل في مائة بلد ... وشركاتٍ أخرى تشترك في أنها تحقق أرباحًا: كلية إدارة، مدرسة سكرتارية، شركات تأمين، شركة باركينج سيارات ثم موتيلات، وشركة لإعلانات السيارات، ثم شركة نشر، وبعدها شركة إذاعة. مخابز وأخشاب وأدوات كهربائية وطفايات حريق وبناء منازل وأدوات تجميل ومصابيح ومضخات وأجزاء سيارات وأغذية. إمبراطورية تمتد من طعام الكلاب إلى الترانزيستورات، ومن كريم الوجه إلى التليفونات. زبائنها وموظفوها يمكن أن يتم التأمين عليهم من المهد إلى اللحد بواسطة شركة التأمين التابعة لآي تي تي، ويقودون سياراتٍ مستأجرة منها، تقلُّهم من منازل بنتها آي تي تي إلى فندق تملكه آي تي تي.

فقبل سنوات، التفتت آي تي تي إلى صناعة الفنادق التي كانت تحقق مكاسبَ ضخمة. لم تتمكن من شراء الهوليداي إن وسبقتها شركة الطيران الأمريكية TWA إلى الهيلتون. وهنا عثرت على فندقٍ صغير في إحدى الولايات الأمريكية باسم شيراتون فاشترته ووضعت خطةً خمسية لإقامة شبكة فنادق في ٣٨ بلدًا. نوعٌ جديد من الفنادق وقتها لا توجد بها مشكلة لغة لأن عامليها يتحدثون الإنجليزية، ولا نقد لأن كل شيء ببطاقات الائتمان (تملك الشيراتون حصة في بطاقة DINERS CLUB)، ولا مشكلة نقل لأن أفيس تنتظر في الردهة. عادة ليست هناك ضرورة لمغادرة الفندق، فداخله توجد الحوانيت ومكاتب الطيران والمكتبات، وبواسطة قرص التليفون يمكن للنزيل أن يشاهد الفيلم الذي يريده وهو في فراشه، كما أن الفلكلور المحلي متوفر في مشاربها مثل النارجيلة مثلًا أو قدرة الفول. لم تكن في الواقع عمليةً مربحة، وهي الآن تفضل أن يبني الآخرون الفنادق بينما تتولى هي الإدارة وتضع اسمها.

ولأن آي تي تي كانت تبحث دائمًا عن الشركات الرابحة لتستولي على سيولتها فقد وقع بصرها على كوش، وفي نفس اللحظة بدأت متاعبها.

كانت آي تي تي قد اشترت أكبر شركة مخابز أمريكية في ١٩٦٨، مقابل ٢٧٩ مليون دولار، وهي شركةٌ ضخمة حقًّا يتنوع إنتاجها بين شيبس البطاطس والبونبوني والكيماويات. وكانت مشهورة بدعايةٍ تليفزيونية تقدمها عن منتج لها يدعى بالخبز الأعجوبة Wonder bread: يصور أطفالًا ينمون بقفزات بعد أن يأكلوا الخبز الثمين.

في أمريكا جهاز حكومي يتولى مكافحة عمليات الاحتكار في التجارة والصناعة، وكان هذا الجهاز يجمع المعلومات عن آي تي تي في محاولة لإثبات انطباق القانون على نشاطها، فشرع يستقصي حقيقة المزاعم التي تروجها شركة المخابز في إعلاناتها، وفي مارس ١٩٧١ أعلنت لجنة التجارة الفيدرالية أنها مزاعمُ كاذبة وأن الخبز العجيب لا يحتوي على غير المواد الموجودة في الخبز العادي، فماذا كانت النتيجة؟ هل أغلقوا الشركة أو فرضوا عليها غرامة؟ أبدًا، انتهى الموضوع بأن وقَّعت الشركة على تعهد بإصلاح هذا الخطأ، وفقط.

جهاز مكافحة الاحتكار يبدو مبعثًا للإعجاب كنموذج للديمقراطية الأمريكية. وشاهد على أن الرأسمالية تملك القدرة على تصحيح عيوبها، لكن الأجهزة الأمريكية لم تكن أبدًا عنيفة كما تبدو. والمواجهات الجريئة للحكومة مع البيزنيس دائمًا ما كانت تذوي بشكلٍ غامض؛ فالإدارة الأمريكية مدينة له دائمًا. كان الرئيس كينيدي KENNEDY الذي أحيط بدعايةٍ واسعة أعطته شعبية في العالم كله، من أشد أنصار الاحتكارات، وكذلك أخوه روبرت الذي كان يشغل منصب المدعي العام، وكان الأخير في صراعٍ دائم مع LEE LOEVINGER رئيس جهاز مكافحة الاحتكار؛ الذي أصبح هو نفسه بعد ذلك مستشارًا لآي تي تي! فلم تعجز آي تي تي أو الشركات المماثلة عن شراء أجدع جدع. اختار جونسون بعد ذلك رئيسًا جديدًا للجهاز هو البروفسور DTURNER DONAL الذي وضع كتابًا مشهورًا ضد الاحتكارات، لكنه أصبح أيضًا مستشارًا لآي تي تي. ودعا وزير ماليته JOHN CONNALLY صراحة إلى أن تتبنى الحكومة سياسة الاندماج بدلًا من مكافحته. وهي السياسة التي اتبعها نيكسون بعد ذلك.

انتهت مشكلة شركة المخابز. واستؤنفت الاتصالات لبيع كوش، وبدأنا نستعد للحدث القادم. وفجأة في مارس ١٩٧٢، نشر صحفيٌّ أميركيٌّ كبير في الواشنجتون بوست هو JACK ANDERSON مقالَين أعلن فيهما عن وثائقَ سرية لآي تي تي تبين أنها خططت في ١٩٧٠ لوقف انتخاب SALVADOR ALLENDE رئيس CHILE الماركسي. وأنها عملت بشكلٍ منتظم مع وكالة المخابرات الأمريكية لخلق فوضى اقتصادية في شيلي. كيف؟ تقوم البنوك بتأخير القروض وتتأخر الشركات في إنفاق النقود ويجري الضغط على بنوك الادخار ومؤسسات الائتمان لتغلق أبوابها ويتم سحب المعونة الفنية، وفي نفس الوقت تتضاعف القروض الموجهة إلى المؤسسة العسكرية الشيلية. ليس هذا فقط وإنما شجعت الشركة على قيام انقلابٍ عسكري وعرض رئيسها الذي ساهم من قبلُ بمبالغَ طائلة في إنجاح الرئيس نيكسون، عرض، من خلال مدير الوكالة جون مككون (الذي أصبح بعدها بسنة مديرًا لـ «آي تي تي»!)، تقديم مبلغ من سبعة أرقام للبيت الأبيض لهذا الغرض.

كان المقالان كافيين لإثارة البلبلة ولأن تهبط أسعار أسهم آي تي تي وتتوقف المفاوضات من جديد. لم يكن المقالان بالطبع ناتجَين عن حسن نية ولا تعبيرًا عن إخلاص للمبادئ. فهذا شيء لا يعرفه الغرب. حتى ما حدث بعد ذلك بسنة بالضبط (في مارس ٧٣)، عندما كون الكونجرس لجنة برئاسة سناتور اسمه CHURCII للتحقيق في عمليات المخابرات الأمريكية، وأحدثت ضجةً كبرى أيامها عندما أذاعت قوائم بأسماء عملاء المخابرات الأمريكية في البلدان المختلفة، ومنها مصر على ما أذكر رئيس تحرير صحيفةٍ يومية ومحرر كبير في صحيفةٍ أخرى. هذا غير كبار المسئولين، وبلغت الفضيحة ذروتها عندما ظهر مككون أمام اللجنة ليشهد بأنه انتقل من رئاسة السي آي إيه إلى آي تي تي في ١٩٦٥ وظل يعمل في وكالة المخابرات الأمريكية سرًّا في منصب مستشار، وأنه ناقش الانتخابات الشيلية مع خليفته في رئاسة المخابرات الأمريكية RICHARD HELMS وفيما بعدُ اجتمع به وبكيسينجر KISSINGER ليعرض المساعدة في إسقاط ألليندي.

المهم فشلت محاولة شراء كوش. وخرجت من التجربة بزاد من المعلومات الثمينة؛ تبينت مثلًا أن هناك مجموعة من الأسماء تدور في الحلبة الدولية مثل أوراق الكوتشينة. كأنما هناك قائمة من خمسين اسمًا يتم منها اختيار وزراء خارجية الدول الغربية ووزراء الدفاع وقادة حلف الأطلنطي وممثلي الدول الأعضاء فيه ومندوبيهم في الأمم المتحدة ومجلس الأمن ورؤساء الشركات الدولية العملاقة والبنوك ... إلخ، نفس الأسماء تتكرر دائمًا ويتم تغييرها على طريقة لعبة الكراسي الموسيقية، بول هنري سباك PAUL HENRI SPAAK، النائب السابق لرئيس وزراء بلجيكا أصبح مديرًا لشركة آي تي تي ومنها إلى حلف الأطلنطي أو العكس لا أذكر، EUGENE BLACK الرئيس السابق للبنك الدولي، الذي قاد معركة السد العالي ضد مصر، أصبح رئيسًا لآي تي تي ومثله المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية JOHN MCCON وروجرز، ماكنمارا، روكفلر، والتر مانديل شولتز وهيج ... كلهم ... كلهم.

* * *

... كنت قد بدأت العمل في قسم الخامات BULK VITAMINS. لم نكن نبيع حبوبًا وكبسولات وإنما أطنان من الفيتامينات والكيماويات لفروع الشركة والزبائن الخارجيين الذين يصنعون الحبوب، أو أطنان من فيتامينات أ، د، وH، لتوضع في الدقيق أو المارجرين، وفيتامين ج للمشروبات الغازية والبيرة والنبيذ أو للعلب المحفوظة واللحوم الطازجة، أو

كل الفيتامينات في الغذاء الحيواني. وكانت كوش وحدها هي التي تنتج كل الفيتامينات المعروفة، وعددها يصل إلى عشرين فيتامينًا.

إنتاج الفيتامينات يكلف كثيرًا. لهذا كانت أغلب الشركات الأخرى التي تنتج واحدًا أو اثنين من هذه الفيتامينات، تفضل أن تحصل عليها جاهزة منا بأسعارٍ منخفضة وتقوم بتعبئتها وبيعها تحت اسمها، بدلًا من إنتاجها بنفسها. وهذا ما كان يحدث طول الوقت. فخلال عملي مع الشركة أغلقت خمس شركات مصانعها واشترت منا؛ وبذلك تمكنت كوش من احتكار السوق والتلاعب بالأسعار كما تشاء.

كنا نجمع المنتجين الرئيسيين للفيتامينات والكيماويات في بازل ونناقش معهم الأسعار ونتفق على سعرٍ موحد؛ وبذلك تختفي المنافسة وتفرض على المستهلكين أسعارًا تحقق للمنتجين أرباحًا هائلة. فيتامين ج مثلًا يتكلف إنتاج الكيلو منه نصف دولار لكنه يباع بعشرة دولارات! والكيلو من فيتامين ب ٢ يتكلف دولارين ويباع بـ ٣٣ دولارًا! فيتامين ج يتكلف دولارًا واحدًا للكيلو ويباع بستة! ومن خبرتي عرفت أنه من الممكن تقدير حجم الطلب على منتجٍ معين في السنوات القادمة، وعندئذٍ يحدد سقف للإنتاج يكون أقل قليلًا من الاحتياجات العالمية بحيث تبقى الأسعار عالية حتى ولو أدى هذا إلى ألا تعمل المصانع بكافة طاقتها.

في النهاية يجد المستهلك نفسه مجبرًا على الشراء بالسعر المطروح. فإذا جرؤت شركة على تحدي هذا السعر يمكن قتلها عن طريق تخفيض الأسعار إلى مستوى يؤدي إلى إفلاسها ثم إعادة رفعها مرةً ثانية، وبعد ذلك يأتي دور المنافذ. فيمكن الضغط على كيماويي الجملة الذين يحققون جانبًا كبيرًا من دخلهم من هذه المنتجات. وهؤلاء يملكون وسائل الضغط على الصيدليات. وهذه بدورها تتكفل بالأطباء، فإذا وصف طبيب لمريضه دواءً منافسًا منخفض الثمن، أبلغته الصيدلية أن الدواء غير متوافر فيتوقف عن وصفه.

لم تكن هذه هي كل الحيل في جعبة كوش. فلديها وسيلةٌ أخرى تكشف أكذوبة حرية المنافسة؛ تتفق مع أهم المستهلكين على أن يشتروا كافة احتياجاتهم أو على الأقل تسعين بالمائة منها من كوش مقابل أن يستعيدوا — سرًّا — في نهاية كل عام ٦ أو ١٠ بالمائة من حجم مشترياتهم «مكافأة على الإخلاص» بحيث لا يدري المنافسون بهذا التخفيض وإلا نافسوا بعمل تخفيضٍ مماثل. أطلقت كوش على هذه الوسيلة اسم «عقود الإخلاص FIDELITY»، وزعمت أنها تهدف لتوفير الأمان للعملاء.

* * *

توجد بالطبع في سويسرا قوانين تكفل حرية المنافسة، لكن سويسرا ككل الدول الرأسمالية الغربية، دولةٌ منافقة. من يطبق هذه القوانين ضد شركةٍ عملاقة يمتد نفوذها في كل مكان وتؤوي أبناء الساسة وواضعي القوانين ومنفذيها، ترعى الفن والموسيقى وتتبرع للقضايا الهامة وإسرائيل؟ بازل نفسها كانت مدينة لكوش بالكثير؛ فهي تستجلب الفرق الموسيقية لتعزف لمواطني بازل، وهي تستخدم آلافًا من سكان المدينة، كما أنها مدينة لها أيضًا بسحابة الدخان التي تغطي سماء المدينة، وتتحمل المسئولية عن ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان، بين سكانها.

هل توقف جشع كوش عند هذا الحد؟ أبدًا. هنا يأتي دور الفروع المنتشرة في أنحاء العالم. فهي تبيع لفرعها في إنجلترا الكيلو الخام من مسحوق ليبريوم LIBRIUM بثمن ٣٧٠ جنيهًا إسترلينيًّا بينما يمكن شراؤه في إيطاليا بتسعة جنيهات (والفاليوم VALIUM بـ ٩٢٢ جنيهًا إسترلينيًّا مقابل عشرين في إيطاليا)! السبب هو أن إيطاليا لم تكن بها حماية لبراءات الاختراع؛ وبالتالي يتألف ثمن المنتج من التكلفة الحقيقية زائد ربحٍ بسيط.

ولكي تتفادى دفع الضرائب أقامت فرعًا في مونتفديو بالأوروجواي حيث لا توجد ضرائب على أية أرباح تحققها، وحيث لا يوجد لها أيضًا وحداتٌ إنتاجية. ويتم تحويل الزبائن في مختلف أنحاء العالم إلى شركة مونتفيديو: فإذا كان المنتج يتكلف مثلًا ثمانية جنيهات للكيلو والسعر العالمي عشرين، فإن الزبون يشتري من فرع مونتفديو بعشرين بينما تتقاضى كوش بازل من كوش مونتفديو ثمانية جنيهات ونصف جنيه للكيلو؛ وبذلك تبدو أنها حققت نصف جنيه ربحًا في الكيلو بينما تكون كوش مونتفديو قد حصلت على الجزء الرئيسي من الربح وهو ١١ جنيهًا ونصف جنيه.

* * *

كنا نحن المديرين الصغار، نجتمع برئيس الشركة في قاعة اجتماعات تتسع لألفين من الجالسين، بناطحة سحاب عملاقة من الزجاج والرخام الإيطالي الفاخر ترتفع ٣٨ طابقًا. قاعةٌ دائرية تتوسطها منصةٌ مرتفعة تحيط بها صفوف من المقاعد المغطاة بلون كوش المميز وهو الأحمر الدموي، وعندما ندخل نجد أنفسنا كأننا في قاعة رقص ملكيةٍ غارقة في الأضواء الساطعة التي ما تلبث أن تخفت، بينما يأخذ الرئيس، الدكتور لاندر، مكانه على المنصة. وما إن يبدأ الحديث حتى نكون جالسين في ظلامٍ دامس بينما هو وحده يقف في دائرة من الضوء الساطع القادم من كشافات في السقف، دائمًا نفس الحديث: «حققوا مزيدًا

من النقود لكوش.» «لم نبتكر شيئًا جديدًا منذ وقتٍ طويل.» «نحن نحتاج إلى مزيد من المنتجات ووسائل جديدة لكسب مزيد من النقود.»

مزيد من النقود لماذا ولأي هدف؟ تزعم كوش أنها تسعى وراء الربح من أجل دعم البحث العلمي. وهو زعم منافق أيضًا؛ فالبحث لدى كوش هو نوع من الاستثمار، سيقول البعض: وماذا في ذلك؟ إنه استثمارٌ مفيد للإنسانية، وهو منطق يمكن قبوله. سوى أن أبحاث كوش التي تنفق عليها الملايين لا تعبأ بتطوير عقاقير فعالة للأمراض المستعصية وإنما تركز على العقاقير الرائجة، التي غالبًا ما لا تكون لها فائدةٌ علميةٌ محققة.

لقد وضعت منظمة الصحة العالمية قائمة للأدوية الأساسية الضرورية وتضم ٢٠٠ دواء فقط رخيصة الثمن، لكن السوق به عشرات الألوف من الأدوية، وتنفق الشركات ٢٠ بالمائة من المبيعات لإقناع الأطباء بأفضلية منتجاتها، ومن ناحيةٍ أخرى فإن ما تنفقه الهند على الدواء يكفي لمد المياه النقية إلى سكان الريف؛ أي لاجتثاث أمراض الدوسنطاريا والكوليرا والتيفويد والإسهال التي تلتهم أكبر نصيب من الدواء.

لنأخذ حالة طفل أصيب بالإسهال في قرية من قرى الصعيد. غالبًا ما يكون السبب هو الماء الملوث أو زجاجات الرضاعة الملوثة. ستذهب أمه إلى أقرب صيدلية فيوصي البائع عادة بالمضادات الحيوية: تتراسكلين وكلورا مفينيكول وواحد أو أكثر من مضادات الإسهال مثل الميكسافورم MEXAFORM. لكن في بريطانيا مثلًا لا يمكن وصف التتراسكلين TETRACYCLINE لحالة إسهال إلا إذا شُخِّصت على أنها كوليرا، ولا يمكن إعطاؤه لطفل تحت ١٢ سنة بحال واستحالة للرضع؛ لأنه يمكن أن يعوق النمو وتكوين الأسنان. كما أن الكلورامفينيكول chloramphenicol لا يعطى إلا للتيفويد والعدوى الشديدة التي فشلت المضادات الحيوية الأخرى في علاجها؛ لأنه يمكن أن يسبب أمراضًا في الدم، أما الميكسافورم فغير موجود في السوق البريطانية إذ ثبت أن عنصره الأساسي الكليوكينول CLIOQUINOL يسبب دمارًا لا يمكن علاجه للجهاز العصبي. نفس الشيء ينطبق على مضادات مثل ستربتوميسين STREPTOMYCINE ونيوماسين NEOMYCINE وسلفوناميد SULPHONAMIDE. مات ملايين الأطفال في العالم قبل أن يقتنع الجميع بأن أعظم مضادٍ حيوي في العالم لن ينقذ الطفل، بل ربما قتله؛ لأنه يدمر البكتيريا الطبيعية في الأمعاء، لكن الأم تستطيع إنقاذه بكوب ماءٍ مغلي وملعقة من السكر وملء أصبعين من الملح.

أغلب الأدوية المتاحة لا قيمة لها، والمستوردون والصيادلة في بلدان العالم الثالث يفضلون التعامل في الأدوية الأجنبية الغالية ولا يحفلون بتوفير الأدوية الأساسية الرخيصة

بسبب هامش الربح الضئيل، روش مثلًا، المنافس الأكبر لكوش، تبيع بنجاح ريدوكسون REDOXON في المكسيك: الميكسيكيون يستطيعون الحصول على حاجتهم من فيتامين ج بشراء البرتقال وهو أرخص عشر مرات! كما تبيع هناك أيضًا باكتريم BACTRIM بثمن مائة بيضة للعشرين قرصًا ونفس العقار متوفر باسمٍ آخر من إنتاج شركةٍ أخرى بأقل من نصف الثمن. لكن الناس تُقبل على الأول بسبب الدعاية.

سعر كبسولة التتراسيكلين في الفيليبين أعلى ٨ مرات من سعرها في الولايات المتحدة، غريبة. مش كده؟ المفروض العكس، لكن هذه هي الحقيقة. الفقراء يدفعون أكثر.

تزعم النشرة المرفقة بدواء تنتجه شركة جلاكسو البريطانية، موجهة إلى المهن الطبية، أنه «يمكن أن يشجع عمليات النمو، وينشط الطاقة البدنية واليقظة والحالة الصحية العامة.» لكن الشركة لا توزعه في بريطانيا وإنما على حد تعبير مديرها «في بلاد معينة عبر البحار حيث تختلف المفاهيم الطبية والعلاجية لدى الأطباء والصيادلة والجمهور عن مفاهيمنا!»

اختلاف المفاهيم؛ أي إنه يمكن إقناع أي فلاح في بلدٍ متخلف مثل بلدنا بأن يشتري دواء معينًا إذا قلت له إنه يقوي «العصب»، وهي كلمة لا معنى لها طبيًّا.

منذ أكثر من عشر سنوات أعلنت شركة ميرك MERCK الأمريكية خطة إنتاج جاء بها «هدفنا الوصول إلى ٧٥ بالمائة من نصيب السوق ... ويمكننا الحصول على نتائجَ بارزة بالتأثير في السوق.» ما معنى التأثير في السوق؟ تقول الخطة أيضًا بصريح العبارة «الخطر الرئيسي على البيع هو أن تقوم حكومة ما بحظر استيراد أحد مستحضراتنا؛ لهذا يجب الاحتفاظ بعلاقاتٍ جيدة مع المسئولين في وزارات الصحة والتجارة لضمان استيراد منتجاتنا.»

لقد رأيت فقرًا شديدًا في العالم ورأيت الناس عاجزين عن شراء الفيتامينات والأدوية. ورأيت كيف أن كوش عندما سمعت بنبأ انتشار وباء إنفلونزا في الهند بدلًا من أن تنتج كميات أكبر من فيتامين ج وتخفض السعر، قللت حجم الكميات الذاهبة إلى السوق وزادت الأسعار. وفي نفس الوقت لم تطور شركةٌ واحدة دواءً جديد للتدرن الرئوي منذ عام ١٩٦٦ بسبب اعتقادها أن هذا المرض لا يصيب البلدان المتقدمة؛ وبالتالي لا يدرُّ علاجه ربحًا!

عشرون عامًا تقريبًا من العمل مع كوش كشفت لي الحقيقة المرة، ليس عن كوش وحدها وإنما عن عالم الدواء العالمي أيضًا. وبينت لي ما كنت أجهله ولا يخطر لي على بال: إن نفاق الغرب لا حدَّ له! (ألم تصدر الأمم المتحدة التي يسيطرون عليها ١٩٢ قرارًا ضد إسرائيل لم تنفذ منها واحدًا، بينما يرغموننا نحن على التنفيذ بكل احترام؟).

هل يعرف أحد أن حكومات إنجلترا وفرنسا وسويسرا تعفي صادرات الأدوية من الرقابة على السلامة والنوعية والجودة وهي الرقابة المفروضة محليًّا على أي دواءٍ جديد قبل الترخيص بتوزيعه؟ وأن هيئة الغذاء والدواء في أمريكا تسمح بتصدير الأدوية التي انتهى تاريخ مفعولها أو غير مسجلة نهائيًّا تحت عنوان «استقصاء»؛ لتجربتها على الشعوب الأخرى؟

ولا يقف الأمر عند هذا الحد؛ فدواء لوموتيل LOMOTIL مثلًا المضاد للإسهال يستخدم في أمريكا تحت تحذيراتٍ مشددة بالنسبة للجرعة؛ لأن تجاوزها ولو بقدرٍ طفيف يؤدي للوفاة، لكنهم صدَّروه إلى السودان في عبوات كُتب عليها «هذا الدواء استعمله رواد الفضاء في رحلات جيمني وأبولو»، ويمكن استخدامه للأطفال من عمر عامٍ واحد! المضاد الحيوي كلوروميستسين CHLOROMYCTICINE مُنع في أمريكا وبِيع في المكسيك وتسبب في وفاة ٢٠ ألف شخص. عقار ديبوبروفيرا DEPO-PROVERA لمنع الحمل منع في أمريكا بسبب إحداثه تشوهات في الأجنة وأمراضًا سرطانية لحيوانات المختبر، لكنه ما زال يباع في ٧٠ دولة من العالم الثالث.

أذكر أني حضرت مؤتمرًا للسكان في طوكيو عام ١٩٧٧، ووقف مندوب الوكالة الأمريكية للتنمية يدافع عن حبوب لمنع الحمل ثبت أنها تؤدي إلى تضخم الثدي. قال بكل صفاقة إن هذه الحبوب، تجعل ثدي المرأة أكثر جمالًا وتفيد الجميع بما في ذلك صانعو الأحجام الكبيرة من السوتيانات!

لو أحصيت الأدوية الضارة التي تباع في بلادنا أو البلاد المماثلة لنا بينما هي محرمة في بلدها الأصلي سأحتاج إلى كشكولٍ كامل. عقار رونيسترول الذي ثبت أنه يعوق النمو في الأطفال يباع في البرازيل على أنه فاتح لشهية الأطفال، دهان فراميكرون FRAMYCORT من شركة فيزون FISONS يحتوي على نيوميسين سلفات NEOMYCIN SULPHATE في بنجلاديش لكنه في بريطانيا يحتوى على FRMYCETIN SULPHATE فراميستين سلفات بسبب الآثار الجانبية الخطيرة للنيوميسين. فاليوم روش الذي توزعه في تايلاند لا يحمل التحذيرات والآثار الجانبية الموجودة على الدواء الذي توزعه في أوروبا أو أمريكا. عقار بتنيلان BETNILAN من جلاسكو GLAXO الموزع في بنجلاديش تؤكد نشرته أنه فعال في علاج الروماتويد RHEUMATOID لكنها لا تشمل التحذير الذي يوزع في بريطانيا عن ضرورة استخدام أقل جرعة ممكنة وأن الجرعات يجب تخفيفها بالتدريج، الأكثر من هذا أن الجرعة الموصوفة في بريطانيا تتراوح بين نصف ملجم واثنين يوميًّا، وهي في بنجلاديش

ثلاثة ملجم! مبيد الفوسفيل الممنوع دوليًّا سُمح بتصديره إلى مصر وتسبب سنة ١٩٧١ في نفوق ١٣٠٠ جاموسة! ... القائمة طويلة.

* * *

هناك أكثر من عشرين ألف شخص يموتون سنويًّا في العالم الثالث من جراء استخدام المبيدات الحشرية التي لم يعد الغرب يستخدمها على نطاقٍ واسع. جهل السكان هو السبب كما يقال؟ أبدًا. بدليل هذه القصة التي وقعت في مصر دونًا عن أي بلاد الدنيا.

في ١٩٧٨، وكنت وقتها في فنزويلا، أعلنت مجلة دير شبيجيل الألمانية أن شركة سيبا جايجي CIBA GEIGY السويسرية للأدوية، قامت بتجربة المبيد الحشري جاليكرون GALYCRONE على أطفالٍ وشبانٍ مصريين بعد أن ثبت أنه يسبب أمراضًا سرطانية لفئران التجارب وأن تقريرًا أمريكيًّا سجل ظهور نزيفٍ دموي في بول الفلاحين في نفس اليوم الذي استخدم فيه المبيد. وفي أعقاب نشر النبأ أصدرت الشركة بيانًا اعترفت فيه بأن «بعض الأطفال المصريين أصيبوا بالسرطان نتيجة استخدام مبيد جاليكرون عام ١٩٧٦». وكان رد فعل السلطات المصرية مضحكًا فقد أعلنت وزارة الصحة أنها لا تسمح بإجراء تجارب على أي مواطن تعرض حياته للخطر، وأن تجارب استخدام الجاليكرون كانت على دودة القطن وليس على المواطنين! ونفت أن تكون أية آثار ظهرت على المواطنين، والأدهى من ذلك أنها دافعت عن المبيد وأكدت أن الأبحاث الجديدة عليه أكدت خلوه من الآثار الضارة على الحيوان والإنسان؛ ولهذا أعيد تسجيله في قائمة المبيدات المسموح بتداولها في مصر. أما ممثل الشركة في القاهرة فاعترف بأن المبيد سبَّب «بعض المتاعب الصحية» للأطفال المصريين بسبب جريهم في الحقول وراء طائرات الرش ونفى أن تكون حدثت إصاباتٌ سرطانية.

من ساعتها بدأتُ أتساءل: الأمراض والتشوهات الخلقية التي أصابت الأبرياء من ملايين الفقراء في أفريقيا وآسيا نتيجة التجارب الكيماوية التي تقوم بها الشركات الغربية، كيف تعوض؟

* * *

كنت أتردد على القاهرة عندما تسمح الظروف؛ أي أكون في طريقي من بلد إلى آخر. هناك شيءٌ مثير في أن يفطر الواحد في أمستردام ثم يمكنه بعد ذلك أن يتناول طعام الغداء في

فندق سميراميس وسط القاهرة، وجئت خصيصًا مرتين؛ الأولى عندما مرض أبي وأشرف على الموت، والثانية عندما ماتت أمي بعده مباشرة. وكانت المناظر التي تطالعني تملؤني بالأسى والنفور، ويصدمني وسط البلد بالقبح والتراب، أذكر حانوتًا كبيرًا للأحذية على ناصية شارعَي شريف وقصر النيل تفنن في عمل ديكور لواجهته فأحاطها بحدوةٍ هائلةٍ سوداء اللون من الخشب أو الكاوتشوك لا أدري. كانت بشعة. وعندما بدأ الانفتاح أملت أن يؤدي إلى تنشيط الاقتصاد وتحديث البلد.

على العموم أنا كنت أعيش في أماكنَ مشابهة أثناء تنقلي في أمريكا اللاتينية، فلم أشعر بالغربة أبدًا، وخصوصًا عندما استقر بي الأمر في المكسيك.

كنت اقترحت على الشركة إقامة مصنع فيها للاستفادة من تخفيض العملة وضآلة الأجور، فعرضوا عليَّ أن أتولى المهمة. قضيت فيها تسع سنوات من ٨٢ حتى حرب الخليج، أعتبرها أهم فترة في حياتي.

* * *

المكسيك أمم ولغات ... قرابة التسعين مليونًا ... وعاصمتها ستصبح قريبًا أكبر مدن العالم، يسكنها الآن ١٦ مليونًا أو أكثر، الزحام والمواصلات والضجة والوجوه المتجهمة. كل شيء يشعرك أنك في القاهرة؛ الأهرامات! نعم، عندهم أهراماتهم، والقصور الجديدة التي يملكها أهل البيزنيس ومهربو المخدرات والمتقاعدون من الساسة وقادة الشرطة، بينما تتكوم عائلاتٌ مكونة من خمسة أشخاص وأكثر في غرفة واحدة، ثلث سكان العاصمة بهذا الشكل. والتلوث ... كل يوم ١١ ألف طن من العادم في الهواء. إذا خرجت من السيارة لبضع دقائق يسودُّ قميصي ووجهي، الشوارع الجانبية حية ومزدحمة طول الوقت ... حوانيت الميكانيكية والسمكرية في كل مكان، حوادث السيارات كل يوم، عشش الصفيح، كأنك في القاهرة. فارقٌ واحد يتضح على الفور؛ فعلى عكس القاهرة المؤدبة المستكينة، المظاهرات هناك كل يوم؛ مظاهرات تهتف لكاسترو أو للحمر، وهم السكان الأصليون، ومظاهرات ضد الجوع وضد الاعتقالات.

المكسيك أيضًا جنة للسائح الذي معه دولارات. في سنة ٧٦ خفضت الحكومة قيمة العملة إلى النصف لسداد ٢٠ مليار دولار سبق أن استدانتها من أجل التنمية؛ الفكرة أن التخفيض سيؤدي إلى تخفيض قيمة الصادرات بالنسبة للدولار وبالتالي زيادة حجمها. ومن حصيلتها يمكن تسديد الديون. هذه هي وجهة نظر صندوق النقد وأنصار التخفيض، أما

الواقع فمختلف. المضحك هو أن الديون التي تم التخفيض بزعم تسديدها جاء أغلبها من أمريكا وتولى رجال الحكومة والصناعة تهريبها إلى أمريكا مرةً أخرى في صورة استثمارات خاصة لهم دون تنمية أو دياولو.

في البداية نزلنا في شقةٍ فندقيةٍ كبيرة كانت تكلفني أقل من عشرة دولارات في اليوم، ثم ابتعتُ (أو على الأصح ابتاعت لي الشركة) شقةً كبيرة في الطابق السابع عشر من مبنًى حديث، وأصبح لديَّ ثلاث غرف نوم وصالتا استقبال وثلاث حمامات وغرفة للخادمة وحمام لها ومطبخ ومصعدان يصلان مباشرة إلى شقتي، كان أغلب السكان الآخرين من الدبلوماسيين ورجال الأعمال مثلي، وأثثنا منزلنا مثلهم من حانوتٍ مخصص للصفوة، لا بد من أن يدق الواحد جرسًا ويتم فحصه أولًا من خلال عينٍ سحرية قبل أن يسمحوا له بالدخول والشراء. وكان عندنا طباخ وخادمات وسيارة «موستانج» لها سقف من الفينيل. وقررنا أن الوقت قد حان لإنجاب الأطفال، أحببت المعيشة هناك، وأن يكون لديَّ منزلٌ كبير وسيارة بسائقها، وأن ألعب الجولف وأمارس رياضة القوارب. وتجاهلت عن عمد البون الشاسع بين حياتي وحياة الأهالي.

كانت سعادتنا مرتبطة بقبول النظام الاجتماعي الذي نعيش داخله، وفي ذلك الوقت لم أهتم بالتفكير في عدالته. كان مرتبي الرسمي مثلًا في ارتفاعٍ مستمر؛ ومع ذلك كنت أحصل على أكثر منه بكثير؛ كنت أقبض راتبًا مضاعفًا في يونيو وثلاثة أضعاف في ديسمبر؛ والهدف من ذلك هو مكافأة العاملين من خلف ظهر زملائهم. فالجميع كانوا يعرفون بشكلٍ رسمي أن لهذه الوظيفة مثلًا راتبًا شهريًّا معينًا، لكنهم لا يعرفون كم عدد المرات يتقاضى فيها الموظف هذا الراتب، وهذا المبدأ هو المطبق في دفع رواتب العاملين في الخارج، لكن بهدفٍ آخر هو الإبقاء على المستوى المنخفض للأجور في البلدان النامية. فعندما اتفقت مع الشركة على مستوى راتبي كمدير في المكسيك، قامت بتحديد المقدار الذي سيدفع لي فعلًا بها والمقدار الذي سيوضع لي بحسابي السويسري في بازل. ثم أخطرت المحاسب المكسيكي بالمبلغ الذي سيدفع لي في المكسيك وحدها، وهو الذي سأعلنه وأسدد عنه الضرائب، أما المبلغ الموجود في البنك السويسري فلن يعلن عنه في سويسرا ولن أسدد عنه أية ضرائب في أي مكان.

أرادت كوش أن تخفي عن العاملين المحليين لديها في البلاد الأخرى مقدار ما يحصل عليه زملاؤهم العاملون بعقودٍ أجنبية؛ فالفارق بين ما كنت أتقاضاه وبين ما يتقاضاه الكيميائي المكسيكي الذي يعمل عندي يبدو في الظاهر الفارق الطبيعي بين وظيفته ووظيفة

المدير، فلو أدركوا أني في الواقع أتقاضي ضعف ذلك المبلغ وأنه يمثل قيمة السوق الغربية الحقيقية لهذه الوظيفة لحدثت ثورة؛ لأنهم يحملون نفس مؤهلاتي بالضبط. النساء اللاتي كن يعملن في قسم التغليف والتعبئة كن يتقاضين مقابل العمل من الثامنة صباحًا إلى الخامسة بعد الظهر أقل مما أعطيه لخادماتي.

* * *

نجحتُ؛ المكسيك بها كتلةٌ رئيسية من السكان لا تملك قوةً شرائية وتعيش على حافة الفقر، ومع ذلك تمكنتُ خلال ثلاث سنوات من تحقيق مبيعات مقدارها ١٥ مليون فرنك سويسري، وكان لديَّ مائتا موظف.

في البداية كنت مثل السواح تمامًا، رحلات في أنحاء البلاد حيث الطبيعة الوحشية المتنوعة. ذهبت إلى ACAPULCO التي حولتها قروض البنك الدولي من قرية صيادين إلى جنةٍ سياحية للأثرياء، حيث يمكن للواحد في فندق البريزيدنتي IL PRESIDENTI أن يشرب كأسًا من النبيذ وهو داخل حمام السباحة ... تفرجت على مصارعة الثيران، وجربت رياضة تسلق الجبال، استمتعت بألوان الطعام والفنون ... الأسماك المشوية في ورق الموز، التورتيلا وفاكهة البابايا والموسيقى الشعبية ولوحات ريفيرا وسيكورس العملاقة وآثار حضارة الأزتيك الرفيعة في وسط البلاد والمايا في جنوبها، شعب المايا من الشعوب المتميزة في تاريخ البشرية، قبل الميلاد بخمسمائة سنة كان أبناؤه يعرفون الكتابة ولديهم تقويم، وكانت مدنهم تقوم على مجتمعاتٍ منظمة على درجةٍ عالية من التكنولوجيا والعمارة والنحت والرسم والتجارة.

شيئًا فشيئًا ازددت معرفة بالتاريخ المأساوي لهذا البلد الجميل؛ في سنة ١٥٢٠ غزاه الإسبان، ونجحوا خلال عقدٍ واحد في تدمير ثلاث حضاراتٍ متجاورة: الأزتيك والمايا والإنكا، وتم ذلك تحت راية المسيح مثلما تم الفتح العربي لمصر تحت راية الإسلام. أقنعوا الأهالي بمسيحٍ أشقر، وظهرت العذراء لأحد الهنود وطلبت أن تُبني لها كنيسة في مكان ظهورها، وطبعت صورتها على ردائه، ولم يبخل سفاح الغزو الإسباني كورتيز بالتبرعات لبناء كنيسة سانت فرانسيس لتصبح مركز نشر الكاثوليكية في أمريكا، بينما كان يقود، بوحشيةٍ نادرة المثال، عملية نهب الذهب المكوَّم في المعابد، فلم يكن المساكين من أبناء هذه الحضارات يعرفون له فائدةً عملية ... التاريخ غريب حقًّا. فوق أكوام من الجثث وأنهار من الدماء ولدت الحضارة الرأسمالية؛ فقد ساهم هذا الذهب في تمويل رحلاتٍ استكشافية

وحملاتٍ استعمارية وابتكاراتٍ صناعية، ودامت السيطرة الإسبانية ثلاثة قرون، وهذا وجه شبه أيضًا معنا؛ فقد جثم الأتراك على صدورنا نفس المدة وحوالي نفس التاريخ، وقبلهم مكث الصليبيون الأوروبيون نفس المدة.

أوجه الشبه كثيرة كما قلت. في العاصمة يوجد هرم CUICUILCO المستدير الذي بني منذ أربعة آلاف سنة، وفي مدينة CHOLULA المقدسة أكبر هرم في العالم وهو في حقيقته عبارة عن سبعة أهرامات فوق بعضها، بُنيت فوق بعضها في عصورٍ مختلفة. لكن التاريخ الحديث لبلدينا حافل بأوجه التماثل أيضًا، من الثورات الفاشلة حتى صندوق النقد الدولي.

في سنوات مراهقتي رأيت فيلمًا أمريكيًّا باسم «فيفا زاباتا»، كان EMILIANO ZAPATA أحد الذين تزعموا فلاحي المكسيك في عشرينيات هذا القرن، هاجموا الأغنياء وصادروا أراضيهم ثم وزعوها على المعدمين. الآن في المطاعم الفاخرة والحفلات يأكل الميكسيكيون المحترمون على صوت موسيقى شعبية تعزفها فرقة من العواجيز، يرتدي أفرادها الملابس الشهيرة التي كانت تميز زاباتا ورجاله؛ رداءٌ أبيض اللون من سترة على شكل القميص، وسروال يُربط بخيط عند خاصرة القدم أو الكاحل، وقبعةٌ عريضة من القش لها قمةٌ مخروطية، وشريط من الطلقات النارية فوق الصدر أو شريطان متعانقان فوق البطن، وأخيرًا البندقية الخشبية القديمة، هذا هو ما تبقى من الثورة.

أما صندوق النقد الدولي فله قصةٌ أخرى.

* * *

في الولايات المجاورة للعاصمة المكسيكية رأيت مشهدًا نادرًا يتكرر كل شتاء؛ بلايين الفراشات تهاجر من الولايات المتحدة وكندا بحثًا عن الدفء والطعام فتستقر وسط المكسيك. وتختفي الأشجار تحت كثافة جموعها، وغالبًا ما تنقصف أغصانها نتيجة ذلك. وعندما يأتي الربيع تعود إلى مواطنها بعد أن تترك بيضها فوق الأشجار ليفقس ويتغذى على راحته.

هذا هو الدور الذي تقوم به المكسيك بالنسبة لجيرانها الأغنياء في الشمال على مدار العام، لقد تحولت الزراعة من الإنتاج المحلي (الذرة والقمح) إلى الإنتاج من أجل التصدير (البصل والخيار والطماطم والأسبرجس والفراولة). والنتيجة أن المكسيك تجد نفسها مضطرة للاستدانة من أجل الحصول على القمح والذرة؛ لأن الناس لا يمكن أن تغمس الجبن بالفراولة (التي تعجز عن شرائها لارتفاع سعرها). وتكتمل الدائرة الخبيثة إذا

عرفنا أن ٥٦ بالمائة من الفواكه والخضراوات المنتجة للتصدير في أمريكا الوسطى تلقى حرفيًّا في الزبالة؛ لأنها إما تواجه سوقًا متخمة في الولايات المتحدة، أو لا تستوفي المعايير الجمالية للمستهلكين هناك! كما أن الأرض التي يحصل عليها المستثمرون بثمنٍ رخيص يستخدمونها بصورةٍ رخيصة تؤدي إلى استنزافها باستخدامٍ مدمر للري والمبيدات، لكن الشركات الزراعية تدرك أن بإمكانها الانتقال إلى أراضٍ جديدة أو حتى إلى بلدٍ آخر حيث يمكن بدء العملية برمَّتها من جديد!

* * *

في وادي ثامورا رأيت مشهدًا مثيرًا من نوعٍ آخر. في البلدة التي تحمل هذا الاسم مائة ألف من السكان وتأتي آلافٌ أخرى إلى الوادي بحثًا عن عمل، وينامون في الطرقات؛ حيث تمثل نفقات المواصلات بالنسبة للبعض ٣٠ بالمائة من الأجر اليومي إذا وجدوا عملًا. ويعيش أكثر من ثلاثة أرباع السكان في أحياء من الكرتون تطوق البلدة بعرض نصف ميل بلا مرافقَ صحية ولا مياهٍ جارية والقليل من الكهرباء. وهناك أيضًا قصور يملكها مليونيرات الفراولة.

شاهدت خمسة آلاف باحث عن العمل محتشدين من الخامسة صباحًا بجوار محطة القطار. وفي حراسة عسكريين مسلحين بالبنادق نصف الآلية كانوا ينتظرون مجيء مندوبي الشركات في الشاحنات لينتقوا بضع مئات من العمال يتقاضون أقل من الحد الأدنى القانوني للأجر وهو ثلاثة دولارات يوميًّا، ويقنع النساء والأطفال بثلثي هذا المبلغ.

* * *

رغم مظاهر الفقر الشديد المحيطة بي كانت هناك أيضًا مظاهر ازدهار اقتصادي لا ينكر لم أرها في كوبا أو دول الكتلة السوفييتية التي مررت بها في زياراتٍ عابرة؛ فالواردات الأجنبية في كل مكان. نجحت الخطة الأمريكية التي رعاها البنك الدولي لخلق طبقةٍ متوسطة متلهفة على شراء الواردات من أمريكا بالطبع. انهالت القروض من البنوك التي تجمعت فيها أموال النفط العربي بعد ٧٣، وصار البنك الدولي في كل مناسبة يستشهد بالمكسيك ليدلل على نجاح مفهومه للتنمية، أما الأزمة التي ظهرت سنة ٧٦ فقد حلَّتها الحكومة كما ذكرت من قبلُ بتخفيض العملة. لهذا فإن ما حدث عام ١٩٨٢ جاء مفاجأة؛ أعلنت المكسيك فجأة ودون مقدمات عجزها عن تسديد ديونها الخارجية لأكثر من ٥٠٠ بنك.

قضيت يوم الإعلان كله بمكتبي، ولم أغادره إلا في ساعةٍ مبكرة من صباح اليوم التالي. كنا نتدارس تأثير القرار على عمليات الشركة في المكسيك. وظل المركز الرئيسي في بازل على اتصال بنا. كان هناك قلقٌ عظيم بسبب ضخامة استثماراتنا، كما كنا نريد أن نعرف كيف نستفيد، وما لبث الاطمئنان أن عاد إلينا؛ فقد تقدمت أمريكا بخطة تقوم على تكرار الروشتة السابقة التي أودت باقتصاد المكسيك؛ تخفيض مجمل قيمة الديون مقابل التزام المكسيك بالعودة لتسديدها عن طريقَين: الأول هو الاقتراض من جديد والثاني بيع الموارد المحلية؛ أي الصناعات والأراضي والغابات، بأثمانٍ زهيدة للمستثمرين الأجانب والمحليين.

تدفقت الاستثمارات مرةً أخرى. وخرجنا من هذه العملية بنصيب الأسد؛ إذ اشترينا عديدًا من شركات الدواء الصغيرة والصيدليات، بل وبعض مؤسسات العلف الحيواني وشركاتٍ أخرى بأثمانٍ زهيدة للغاية، كنت أبعث بتلكس إلى بازل ذاكرًا مواصفات الشركة المعروضة للبيع، وكان الرد دائمًا كلمة واحدة: اشترِ.

طبعًا لم نعبأ بالمظاهرات التي عمت البلاد، اليسار تحرك ورفع شعار «لا لبيع المؤسسات العامة» ... وتجمعت قواه خلف مرشحٍ واحد للرئاسة كان معروفًا بعدائه لسياسة الخصخصة وأوشك على الانتصار في انتخابات ٨٨. لكن النتيجة زُيفت وجاء إلى الحكم منافسه ساليناس. كان معروفًا بأنه من رجال الصندوق، وكان شديد الدهاء، لم يستخدم تعبير الخصخصة وإنما ابتكر تعبيرًا جديدًا هو «فك الشركات». وتمت هذه العملية بهدوءٍ شديد.

شهدت فترة ساليناس ازدياد نفوذ تجار ومهربي المخدرات، وأصبحت المكسيك منتجًا كبيرًا للماريجوانا والهيروين، عصاباتٌ كبرى تخصصت في الترويج والتهريب معتمدة على رشوة رجال الشرطة والجيش والحكومة. كان التهريب يتم بواسطة مركباتٍ عسكرية خاصة بالقوات البحرية المكسيكية تدعمها مدفعيةٌ مضادة للطائرات. وبلغت ثروة ساليناس ٥٠٠ مليون دولار في بنوك الخارج، طبعًا مبلغٌ صغير بالمقاييس المصرية. كما قلتُ أوجه الشبه معنا كثيرة.

* * *

انفجرت فقاعة الازدهار في ١٩٩٤ وللمرة الثالثة أعلنت المكسيك عجزها عن تسديد ديونها، وأجرت تخفيضًا جديدًا للعملة. وفي لحظةٍ واحدة ارتفعت قيمة الدولارات لدى المستثمر الأجنبي؛ إذ بدأت أسعار السلع المكسيكية بالدولار تنخفض يومًا بعد يوم، وفي نفس الوقت ارتفعت أسعار نفس السلع بالبيسو، العملة المحلية، دون أن تتحرك الأجور.

كنت قد عدت إلى مصر فتابعت منها التطورات. سارعت الولايات المتحدة بترتيب صفقة إنقاذ من عدة قروض بلغت خمسين مليارًا من الدولارات قدمتها هي وصندوق النقد الدولي وبنوكٌ أخرى مقابل أن تودع المكسيك كل عائداتها من النفط والمنتجات البتروكيماوية لدى البنك الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك تحت السيطرة الفعلية للولايات المتحدة بحيث تصادر فورًا إذا توقفت عن سداد ديونها. فضلًا عن تقريرٍ أسبوعيٍّ مفصَّل عن الوضع الاقتصادي تقدمه المكسيك للدائنين. مع الالتزام بتقليص الإنفاق على الخدمات الاجتماعية والصحية وغيرها.

علقت صحيفة «اللموند ديبلوماتيك» الفرنسية على هذه العملية بقولها: خمسون مليارًا من الدولارات مقابل الاستيلاء على تسعين مليون إنسان؛ أي على آلاف الملايين من ساعات العمل المعروضة في سوق أقرب إلى أسواق الرقيق.

* * *

حرب الخليج دراما أخرى لا تقل عن الزلازل الطبيعية والاقتصادية التي عصفت بالمكسيك، كشفت لي عقم الوضع العربي كما أكدت لي نفاق الغرب. ربما لا يعرف الكثير عن وحشية صدام حسين وساديته والجرائم التي ارتكبها في حق العراقيين؛ العرب منهم والأكراد. في سنة ٧٩ وفي اجتماع لزملائه في قيادة حزب البعث أمسك برأس صديقه عدنان وجعل يخبطه في الحائط حتى تفجر منه الدم، لقد رأيت جانبًا من هذا الاجتماع في فيلم فيديو أذاعته سي إن إن: صدام في بذلةٍ بيضاء جالسًا خلف منصةٍ مرتفعة مطلًّا على قاعة امتلأت بالجالسين وينادي اسمًا وراء اسم فيصيح الواحد منهم: «والله العظيم أنا مو خاين سيدي.» لكنهم يقتادونه للإعدام. في السنة التي جرت فيها انتخابات الرئاسة المكسيكية ضرب ٧٠ ألف مواطن في بلدةٍ كردية بقذائفَ مدفعيةٍ محشوة بغاز سيانيد الهيدروجين القاتل، هذه عينة فقط من جرائمه لكن ما فعله الأمريكان بالعراق كان أشبه بفيلم من أفلام الرعب؛ مائة ألف طلعة جوية على بغداد والمدن الرئيسية أعادت العراق إلى عهد ما قبل التصنيع، حطموا عن عمد البنية التحتية للاقتصاد العراقي؛ نظام توليد الطاقة الكهربائية ومصافي النفط والمصانع الكبرى والطرق والجسور وخطوط التليفون والتلغراف، جملة الخسائر التي أحدثوها قدرت بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار.

عندما انتهت الحرب وعادت الكويت لأهلها قررتُ أنا العودة إلى مصر. كانت الفكرة تراودني منذ بعض الوقت. وسبق أن طلبت من كوش بحث إمكانية نقلي إلى مصر، كان الرد

وقتها سلبيًّا بسبب صغر حجم عمليتها هناك؛ إذ كانت صناعة الدواء الوطنية توفر ٩٣ بالمائة من احتياجات الاستهلاك المحلي. وفي سنة ١٩٩٠ وقع ما يشبه الانقلاب في حياة كوش الداخلية مبعثه أن أكثر من سبعين بلدًا بدأت تنفذ برامج خصخصة وتبيع مؤسسات دولة بمقدار ١٨٥ مليون دولار (نتيجة أعباء ديون القطاع العام و٢٠ سنة من الإدارة الفاشلة) ... وبدأت كوش تخطط لتوسيع عملياتها، خلال ذلك تضاعف شعوري بالملل وعدم الاستقرار، مللت الحديث طول الوقت بالإنجليزية والإسبانية ومع زوجتي بالفرنسية، ولم تعد مباريات الجولف تغريني ولا تغيير السيارة، كنت أعيش في أعلى مستوًى أنا وأسرتي، لا ينقصني شيء. ومع ذلك وجدتني أتطلع حولي في غربةٍ كاملة بالرغم من «روزالينا».

روزالينا كانت سكرتيرتي، سمراء خمرية ذات ملامحَ إسبانية، كانت قصيرة القامة ممتلئة الجسم، تبرز الجوبات القصيرة جمال فخذيها. وعندما كنت أمرُّ بها وهي جالسة خلف مكتبها كنت ألمح دائمًا كيلوتها الأبيض، وربما كان ذلك هو السبب في العلاقة التي نشأت بيننا، وربما كان الأمر راجعًا إلى البرودة التي تسللت إلى فراشي الزوجي، لكن المؤكد أني أغرمت بها بعض الوقت. أعجبني فيها حيويتها وسرعة انفعالها وتلويحها بيديها أثناء الحديث (على العكس من زوجتي البيضاء الرصينة)، وكانت تعيش بمفردها مع طفل من زوجٍ سابق.

ربما كنت أمرُّ بما يسمى بأزمة منتصف العمر أو بغمِّ الإنجاز. أيًّا كان الأمر فقد أخذ الاكتئاب يستولي عليَّ. كلما تأملت فيما يجرى حولي، وجدت أن أمريكا اللاتينية تقف على حافة الهاوية بسبب الظلم والاستغلال ... تبينت أن فقر الأغلبية الساحقة من الناس ضروري كي تتمكن أقليةٌ قليلة من ممارسة التبذير، فحتى يزيد البعض استهلاكهم لا بد أن يخفض الكثيرون منه، ولكي يلتزم هؤلاء بالحدود المرسومة لهم تقوم الأقلية بتكديس الأسلحة الحربية وتتصدى للفقراء.

رأيت الناس في الأرجنتين، وهي من أكبر الدول المنتجة للحوم في العالم، يعجزون عن تذوق اللحم، ومن النادر أن يحصل الأرجنتيني العادي على كوب من اللبن أو قطعة من الجبن. السبب أن الأرجنتين في حاجة إلى تصدير اللحوم لدفع ما عليها من ديون (لم يستفد منها هذا الأرجنتيني العادي)؛ ولذلك يتجه مربو الماشية إلى التسمين والتصدير، ويذهب اللحم مباشرة إلى مصانع التجهيز العملاقة ليظهر بعد ذلك على شكل أقراص في محلات «مكدونالد» أو علب تحمل صورة البقرة في شبرا.

الناس الآن لا يعملون ليعيشوا بل هم يعيشون ليعملوا؛ مثل شغالة النمل. هناك ناس يعملون أكثر لأنهم لا يستطيعون توفير احتياجاتهم، وكما هو الحال في مصر، يقوم غالبية

سكان أمريكا اللاتينية بعملَين في وقتٍ واحد، وأحيانًا ثلاثة، فليست أمامهم وسيلةٌ أخرى للخلاص من الجوع.

الوقت يتناقص وثمنه في تزايدٍ مستمر، أصبح يباع ويؤجر، لكن من هو سيد الوقت؟ إن السيارة والتليفزيون والفيديو والكمبيوتر والتليفون المحمول وغيرها من أدوات الرفاهية التي ابتكرت لربح الوقت أو تبديده أصبحت تتحكم فيه. فالسيارة تحتل حيزًا مكانيًّا في المدن وتستهلك وقت الإنسان، إنها نظريًّا تفيد في اقتصاد الوقت لكنها في الواقع تستنفده، ذلك أن جزءًا هامًّا من الوقت المخصص للعمل يستخدم في تسديد ثمن الانتقال إلى مكان العمل، وهذا الانتقال يتطلب المزيد من الوقت بسبب تعطل حركة السير.

تعلمت في باراغواي أن الفلاح أقل قيمة من البقرة، وفي البرازيل أن الذي يزرع الأرض لا يملكها والذي يملكها لا يزرعها. أدركت لماذا يهجر القرويون حقولهم وينزحون إلى المدن.

عاصمة المكسيك تشهد سنويًّا زيادة تقدر بنصف مليون ساكن. وبحلول نهاية القرن ستصبح مع العاصمة البرازيلية أكبر مدينتين في العالم. المدن الكبيرة في جنوب الكوكب صورة للمدن الكبيرة في شماله، لكنها صورةٌ مشوهة. فعواصم أمريكا اللاتينية لا تعرف الممر الخاص بالدراجات ولا الهدوء أو الهواء النقي، الأرجنتين مثلًا تنتج الوقود الخالي من الرصاص لتصدره إلى الخارج وتبقي على الوقود السام للاستهلاك الداخلي، كم عانيت في المكسيك من عوادم السيارات؟ كنت أحيانًا أعجز فعليًّا عن التنفس في الشارع لأن خمسة ملايين سيارة تغطى المدينة بسحابة من الغبار، نفس الشيء في ساو باولو عاصمة البرازيل وسنتياجو عاصمة شيلي اللتين تنافستا عام ١٩٨٩ على لقب أكثر المدن تلوثًا في العالم.

المجتمع الاستهلاكي يبتلع الناس ويجبرهم على الاستهلاك بينما يقدم لهم التليفزيون دروسًا في العنف. هكذا يمكن أن يعيش المعدمون بعيدًا عن الميسورين لكنهم يطلُّون عليهم يوميًّا من خلال الشاشة الصغيرة التي تعرض فجور الاستهلاك الفاحش، وفي نفس الوقت تلقنهم كيف يشقُّون طريقهم في الحياة برصاص السلاح.

العنف الذي يشهده الشارع ليس إلا امتدادًا للعنف على الشاشة؛ فالتجول في شوارع أمريكا اللاتينية أصبح خطرًا لكن البقاء في البيت أخطر، المدينة سجن؛ فمن لم يكن سجين الفاقة فهو سجين الخوف، من يملك شيئًا مهما كانت تفاهته يشعر أنه مهدَّد ويخشى أن يصبح ضحية لاعتداءٍ ما، أما من يملك الكثير فيعيش منعزلًا في أبراج الأمان، تلك العمارات والمجمعات السكنية الضخمة المزودة بكاميرات المراقبة والحراس المسلحين والتي تنتشر الآن في أنحاء بلادنا.

لم تعد للإنسان أية قيمة. اختفت نغمة رعاية الأطفال بعد أن تخلت الدولة عن دور الرعاية استجابة لتعليمات صندوق النقد الدولي. أصبح التخلص من الأطفال الزائدين، أطفال الشوارع الفقراء والعمال والمهمشين، يتم بواسطة الجوع والرصاص؛ فهم ليسوا صالحين للمجتمع، والتعليم حق الذين يستطيعون دفع ثمنه، أما من لا يستطيعون فليس لهم الحق في الوجود. في جواتيمالا اغتالت الشرطة أكثر من أربعين طفلًا من المتسولين والذين كانوا يعبثون في صناديق القمامة، وقد عثر على جثثهم مشوهة مفقودة العيون مبتورة الآذان ومدفونة مع الفضلات، وعندما انتشرت ظاهرة أطفال الشوارع في البرازيل تشكلت فرق إعدام من رجال شرطة سابقين ومهربي مخدرات طاردتهم مثل الكلاب الضالة وقتلت منهم ٤٥٧ طفلًا عام ١٩٨٩ وارتفع الرقم في ١٩٩٣ إلى أربعة أطفال يوميًّا.

بلدانٌ عديدة في أمريكا اللاتينية ألغت عقوبة الإعدام، لكنه يمارس بها يوميًّا لحماية حق الملكية. ففي بيونس أيرس أواسط ١٩٩٠ أطلق مهندسٌ النارَ على طفلَين سرقا راديو سيارته، وعلق أهم صحفيٍ أرجنتيني على الحادث في برنامجٍ تليفزيوني قائلًا: لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه.

في فبراير ١٩٩١ حلَّ وباء الكوليرا بمدينة ليما عاصمة بيرو، وذهب ضحيته المئات في أيامٍ قليلة؛ إذ كانت المستشفيات تفتقر إلى الأمصال والملح؛ لأن الإجراءات الاقتصادية الصارمة التي فرضها صندوق النقد الدولي أتت على ما تبقى من خدمة الصحة العمومية.

في بوليفيا لا يتوافر ماء للشرب بالقرى، بينما يلمع الديش فوق أسطح المنازل. وفي شيلي تعلن الإحصائيات باعتزاز عن تضاعف الإنتاج الغذائي وتعلن في الوقت نفسه عن تضاعف أعداد ضحايا الجوع.

سقطت حواجز الحماية التي شيدتها دول أمريكا اللاتينية في الماضي، اليوم تبيع الدولة المؤسسات العامة مقابل لا شيء أو أقل من لا شيء. إنها تسلم المفاتيح وكل ما تبقى إلى المحتكرين الدوليين؛ عدة مئات من الشركات والبنوك العالمية التي تملك القدرة على التلاعب بالناس وأموالهم، بينما تتحول هذه الدول إلى أسواقٍ حرة، أما التكنوقراطية الدولية فتحاول إقناع الناس بأن تحرير السوق هو سر تحقيق الثروة! إذا كان الأمر كذلك فعلًا فلماذا لا تطبقه البلدان الغنية التي تنصح به؟ ذلك أن السوق ليس حرًّا على الإطلاق في فرنسا وألمانيا وكندا بل والولايات المتحدة نفسها.

* * *

تكررت المناقشات الحادة بيني وبين زوجتي، التي تابعت في قلق انسحابي داخل نفسي في السنوات الأخيرة، وتعليقاتي الساخرة والانتقادية على التطورات السياسية، وخاصة كل ما له علاقة بكوش والشركات العالمية، أو السياسة الغربية والأمريكية بوجهٍ خاص. مرة قرأت عليها تقريرًا موجهًا من كوش إلى مساهميها، جاء فيه أن الشركة تغلبت على كافة الأساليب التي استخدمتها الحكومات لتشجيع صناعة الدواء الوطنية وإعاقة الصناعة الأجنبية، بما في ذلك الضرائب والتعرفة الجمركية والنسب وقيود النقد والدعم والتأميمات، تطلعت إليَّ في دهشة عندما أبديتُ سخطي. حاولتُ أن أشرح لها أن كوش صارت مصدر خطر على استقلال أي بلد؛ فنفوذها أقوى من الحكومات، وهي غير مسئولة أمام أية جهة في أي مكان، وهي تتحكم في أموالٍ هائلة، وبوسعها أن تنقل ما تشاء من هذه الأموال من أي بلد وإليه. الأرباح يمكن تصويرها على أنها خسائر، والأصول تباع، كل هذا دون أن يعرف هذا أحد أو يتبيَّنه بسبب السرية المضروبة على حساباتها. كيف يمكن لأي حكومة أن تتحكم أو تسيطر على كيان مثل هذا يشبه سمك الجيلي؛ موجود في كل مكان وليس موجودًا في أي مكان؟ أعدت على سمعها ما اقترحه أحد المديرين من ضرورة التفكير في شراء أو استئجار بعض الدول الأفريقية الغنية بالموارد الطبيعية طالما أن حكوماتها عاجزة عن حل مشاكلها. قالت لي يومها إن كل هذا لا يعنينا في شيء طالما أن كوش تكفل لنا حياةً آمنة.

لزمتُ الصمت، كان هذا يحدث دائمًا كلما تبادلنا الحديث. أول خلافٍ حاد نشأ بيننا بعد سنوات قليلة من زواجنا ... كنا نتحدث عن الحرب الأهلية اللبنانية. وأزعجتني الكراهية التي ظهرت في صوتها عندما جاء ذكر المسلمين والفلسطينيين. قلت لها إن اللبنانيين بكل طوائفهم مسئولون عما حدث في بلادهم. غضبت مني، حرصتُ بعد ذلك على تجنب الموضوعات التي تثيرها، لكن هذا لم يحلَّ المشكلة، مع الزمن أدركت أنه يستحيل أن يتقاسم اثنان الحياة دون أن يتمكن كلٌّ منهما من عرض آرائه، ودون أن يتجادلا بشأنها.

مرة كانت تريد شراء كاميرا فيديو أحدث من التي عندنا فحدثتُها عن ضحايا الجوع في بنجلاديش والصومال، ورددتُ على سمعها أقوال القديس فرانسيس الأسيسي بأن الإنسان الذي لا يحتاج إلى شيء يملك كل شيء. وأن الخطوة الأولى في اكتشاف الإنسان لنفسه هي أن يفك ارتباطه بالأشياء. دار بيننا نقاش انتهى بأن صاحت فيَّ: أنت لا يعجبك شيء ولا أحد؟! ومن يومها انقطع كل خيط بيننا.

* * *

لا أريد أن أحمِّل زوجتي المسئولية الكاملة عن فشل علاقتنا؛ فهي في نهاية الأمر محكومة بظروف نشأتها. وربما يكمن الخطأ في أني توهمت أن ارتباطي بها سيشفيني من سارة، فأنا لم أنقطع عن التفكير فيها. كانت قد انتقلت مع زوجها إلى إنجلترا في بداية الثمانينيات. وظللنا على اتصال بواسطة الكروت التقليدية في المناسبات والأعياد، لكني لم أحاول الالتقاء بها.

* * *

جاءني الفرج أخيرًا ووافقت إدارة بازل على نقلي. كانت مصر قد وقَّعت على اتفاقيات الجات ومضت خطواتٌ واسعة في تطبيق الخصخصة والشراكة الأمريكية والأوروبية؛ الأمر الذي فتح آفاقًا وردية أمام شركة مثل كوش.

في السابق كانت الشركات الأجنبية تتمتع باحتكار براءات اختراع الأدوية الجديدة لمدة لا تزيد عن عشر سنوات تستطيع الشركات المصرية بعدها القيام بتصنيع هذه الأدوية لحسابها. ومدت الاتفاقية التي وقعت عليها مصر هذه المدة إلى عشرين سنة.

في البداية تصورت أن مصر تعرضت لضغوط أرغمتها على التوقيع؛ فالآثار المترتبة عليها خطيرة للغاية، وأهمها ارتفاع الأسعار إلى خمسة وستة أضعاف مستواها الحالي؛ مما يقضي على الصناعة المحلية، أما الأجنبية فيمكنها أن تخفض الأسعار لبعض الوقت وتعوض الأمر بعشرات الطرق، ثم تبين لي أن الأمر أعمق من ذلك.

فالاتفاقية تعطي مصر فترة سماح مدتها عشر سنوات قبل أن يبدأ تطبيق إجراءات حماية براءات الاختراع الأجنبية، والمقصود أن تستغل هذه الفترة في الاستعداد للمستقبل بالتجديد والإحلال والأبحاث والابتكار. وإذا بي أقرأ في الصحف تصريحات لبعض المسئولين يدعون فيها إلى التنازل عن هذه المدة الآن بحجة جذب الاستثمارات الأجنبية.

غباء أم عمالة؟ تأكد لي أن النخبة الحاكمة في مصر لا تفكر في المستقبل على الإطلاق، كان أمامي مثال كندا: طبقت الجات فورًا فسيطرت الشركات العالمية على تسعين بالمائة من مبيعات الدواء في كندا مقابل عشرة بالمائة فقط للشركات الكندية التي تخصصت في إنتاج الأدوية بأسمائها الكيميائية ذات النوعية العالية والتكلفة المعقولة، وتلبي ٣٠ بالمائة من احتياجات المواطنين من الدواء الرخيص. أصبح لمصنِّعي الأدوية ذات الأسماء التجارية الشهيرة، ومنهم كوش، الحق في تقاضي أسعار احتكارية لمدة عشرين عامًا. انتهى النظام الذي كان يوفر منافسةً سعرية وارتفعت أسعار الأدوية إلى خمسة أضعاف خلال عامٍ

واحد. وقدر الإخصائيون أن الكنديين سيتكلفون نتيجة ذلك ما بين سبعة وعشرة مليارات دولار خلال فترة الـ ١٥ سنة المقبلة بينما تُضَخ أرباحٌ هائلة في جيوب الشركات العالمية المملوكة للأجانب.

في بازل كان مديرو كوش يفركون أيديهم في سعادة؛ فمصر الآن تستهلك أدوية بمقدار مليارين ونصف مليار جنيه. ومع الجات سيرتفع هذا الرقم إلى ١٣ مليارًا. عسل بالنسبة لكوش! المضحك في الأمر أن الاختيار وقع عليَّ لأتولى إدارة فرعها في مصر، ألم أكن أسعى للانتقال إليها؟

الباقي كان متوقعًا؛ رفضت زوجتي العودة معي إلى مصر بحجة الإرهاب الذي يتعرض له المسيحيون، وكنت أنا قد وصلت إلى حالة لم أعد أعبأ بها بأي شيء في سبيل العودة، فاتفقنا على أن أذهب وحدي بينما تنتقل هي وابنتانا إلى لبنان ليعيشوا مع أهلها. اتفاق أشبه بالانفصال.

* * *

كانت أختي الصغرى قد تخلصت من شقة العائلة في شبرا، وأقمت في الهيلتون إلى أن وجدت لي الشركة شقةً مفروشةً فاخرة بمنطقة المهندسين. وخلال ذلك كنت أتعرف على مهل على البلد الذي لم تسمح لي زياراتي الخاطفة بتبيُّن ما وقع به من تغيرات.

سمعت من قبلُ الكثير عن نتائج الانفتاح ... ثم أنا قادم من بلد عالم ثالث لا يختلف كثيرًا عن مصر ... الطبقة الوسطى فيه ما إن تكتسب بعض المال حتى تكتشف أنها لا تستطيع الحياة دون سيارة ... ومع ذلك هالتني صور الفساد والضياع ... وانتشار المخدرات ... صور شبان زي الورد في صفحة الوفيات كل يوم. لفت نظري بالذات الوضع الصحي والدوائي ... حقن البنج التي تذهب بالمريض، المستشفيات غير المرخصة، الأدوية المغشوشة وأكياس الدم الملوثة، الليزر الذي يسبب العمى، والطبيب الذي يسرق الكلية.

بحثت عبثًا عن شجر البانسيانا الذي كان يغطي شوارع كثيرة في العباسية والظاهر وشبرا والجيزة، رأيت أكياس القمامة في كل مكان؛ فوق الأرصفة وأمام الفيلات وبين السيارات. ورجال تتدلى من صدورهم سلاسلُ ذهبية يخوضون في القمامة ليشتروا من الصيدلية سبراي ضد الذباب والبعوض وأدوية ضد الإسهال. أدهشني انتشار الصيدليات في كل شارع، رأيت سيارات من كافة الماركات والأنواع يقودها شبانٌ صغار أو رجال ونساءٌ سمان في طريقهم إلى الطبيب للعلاج من السكر أو الضغط المرتفع. لاحظت بذاءة المباني

والدكاكين، واختفاء اللغة العربية من أسماء الحوانيت، الثراء الفاحش والفقر البيِّن، اللسان المعوجُّ في محاولة للتشبه بالأجانب وأبناء الذوات، الإهمال والركاكة واللكلكة والهلفطة، الأنيميا وسوء التغذية، انعدام القواعد الصحية البسيطة التي تربينا على مراعاتها والتي كنا نقرؤها في صبانا على ظهور كراسات الدراسة، الأكاذيب في الصحف وعلى الشاشة، الخداع دون رقيب، انعدام الكرامة الوطنية، التعصب، الأنانية المطلقة.

بعد أسبوع طالعتُ في صفحة الوفيات نعي نسيم غبريال، فوجئت بالمربعات التي أُفردت له على عدة صفحات وعدة أيام والأوصاف التي أُسبغت على تاجر الشنطة ومهرب العملة السابق وأقلها: رجل الأعمال والصناعة، ابن مصر، فخر كل مصري، فقيد الوطن. لكن المفاجأة الكبرى تمثلت في حجم نشاطه والشركات والمؤسسات التي يرأسها أو يتولى رئاستها إخوته وأقاربه. شركة للفنادق يرأسها ابن أخته، شركة تأمين، وأخرى للسياحة وثالثة لليموزين، شركة أدوية، شركة لصناعة فلاتر السيارات، العالمية للاستيراد والتصدير، ملابس جاهزة يرأسها ابن عمه، محلات نيوكلوزث، مكتب هندسة، شركة للمقاولات والتنمية العقارية، دعاية وإعلان، تجارة سيارات، شحنٌ جوي وبحري، أدواتٌ صحية، تجارةٌ عالمية في المناطق الحرة. وبعد هذه الشركات جاء أفراد الجوقة المناسبة؛ محاسبٌ قانوني، مكتب محاماة، مهندسٌ استشاري، جراح، مدير مستشفى، معمل تحاليل طبية، كير سيرفيس للأمن، مدرسة لغات، فنادقُ عائمة، مجوهرات.

المجموعة الأخرى من إعلانات النعي بدأت بمفاجأة؛ المهندس عبد الحكيم عبد الناصر! وأكدت لي البقية مدى ما وصل إليه من نفوذ؛ بنك القاهرة باركليز، بنك أميريكان إكسبريس، البنك المصري الأمريكي، فنادق كونستا العالمية (لأن المدير العام لفندق القاهرة ابن أخته)، نيسان مصر، سوزوكي إيجبت ومودرن موتورز، كيا موتورز إيجبت وآشيا موتورز، إيجبت كار، توكيل رينو، جنرال موتورز، المصرية الكورية للخدمات والصيانة. منصور شيفروليه، شركات إتدكو وإتكو وإفكو وناتكو وإيكو وإمكر وإركو، جمعيتا مستثمري مدينتي العاشر من رمضان والسادات، كوكاكولا، أكتوبر فارما للأدوية، سترو مصر، آرت لاين للإعلان، إسو، موبيكا، ديكوراما لونا للعطور والمكياج، شركة المعارض الدولية، شركات سياحة، بلاستيك سيراميك، تسويق، توكيلات أدوية وسيارات، كريازي.

وتلا ذلك كله نعي الأئمة والكنيسة وعلى رأسها البابا شنودة الذي رأس صلاة الجنازة، الوزراء، المحافظون، مراكز البحوث، أعضاء مجلسي الشعب والشورى، رؤساء وأساتذة الجامعات، رؤساء المجالس المحلية والصحف والمجلات والأحزاب، مديرو الأمن، الكتاب

والصحفيون، الهيئات القضائية، السفراء، الغرف التجارية، رئيس اتحاد الصناعات، رؤساء النقابات المهنية والعمالية، المهندسون، الأطباء المحامون، البنوك القوات المسلحة، الشرطة.

أدركت فعلًا كم تغيرت البلد!

* * *

بحثت عن لبيب؛ الوحيد الذي بقي من فترة الصبا، وجدته قد استقر في بلدته بقنا حيث افتتح عيادة، وعلمت منه في التليفون أن سارة في مصر، جاءت وحدها في زيارة لأهلها. ذهبت لرؤيتها، وقفت أمام باب الفيلا القديمة مضطربًا وقلبي يدق في قوة، ثم دفعته ودخلت، وصعدت بضع درجات إلى بابٍ خشبي، فوجئت بصورةٍ ملونة للعذراء ملصقة فوقه وإلى جوارها لوحةٌ خطية صغيرة برسم الله محبة. فتحت لي، صدمني وجه ذو بشرةٍ كابية، وجسمٌ بدين، وشعرٌ أسود فاحم لكنه لا يتماشى مع التجاعيد والجيوب المنتفخة تحت العينين اللتين فقدتا لمعانهما. صافحتني يدٌ سمينةٌ مكرمشة غير تلك الرقيقة التي كانت تعزف البيانو.

تعمدتْ أن تُجلسني بحيث يسقط ضوء النافذة على وجهي وتبقى هي في الظل، تبادلنا حديثًا متقطعًا عن أولادنا؛ حديثًا بلا حماس. تأملت الغرفة؛ الأثاث القديم، تقويم جمعية المحبة القبطية، بصورةٍ ملونة للمسيح وآية اليوم. غادرتني لتحضر القهوة فتابعتها بنظري؛ صارت لها مؤخرةٌ عريضة حاولت إخفاءها أسفل جوبةٍ واسعة تصل إلى قدميها. لمحت في ركن الغرفة محرابًا صغيرًا به أيقونة العذراء وتحتها شمعةٌ كهربائيةٌ مضاءة وكتابٌ مفتوح. نهضت وتقدمت منه. كان الكتاب مفتوحًا على صفحة بها سطور من رسالة للقديس بولس: «يزينَّ ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابسَ كثيرة الثمن، بل كما يليق بنساءٍ متعاهدات بتقوى الله.» ونحن نشرب القهوة كنت أتأمل ملابسها المتواضعة مثل ملابس الراهبات وهي التي كانت تتفنن في زينتها، درية شفيق انهزمت.

* * *

ذهبت لزيارة لبيب؛ أخذت الطائرة إلى الأقصر، ثم سيارة بيجو مكدسة بالفلاحين. بعد ساعة كنت أمام منزله ... صف مرضى من المدخل وعلى الدرج حتى غرفة الكشف. صفٌّ

آخر من المقاعد عليه مرضى آخرون. نساء يحملن أطفالهن، الجدران القذرة تزينها تقاويمُ لامعة من شركات الأدوية الكبرى. عرضٌ جذاب لعلب لبن الأطفال الصناعي فوق رفٍّ تحت النافذة. صورة الأطفال الأصحاء الذين يطلُّون من العلب نقيض الأطفال المرضى الباكين. لبيب تضاعف حجمه ... عادي، الشعر الأبيض عادي، التجاعيد أيضًا عادية، لكن النظرة البليدة الميتة في عينَيه فاجأتني، حتى فكرت أنه يتعاطى مخدرًا ما. يبدو غير متأثر ومتماسك. استقبلني بحرارة ثم تجاهلني فجأة ليرحب بشابٍّ أنيقٍ أحضر له رزمة من الروشتات تحمل اسمه، فهمت من حديثهما أنه طبعها له خصيصًا. ثم رأيته يعطيه نشراتٍ خاصة بشركة أدوية ألمانية. أدركت الموقف؛ فالشاب كما أكد لي لبيب بعد ذلك مندوب الشركة، والروشتات «خدمة خاصة» للأطباء تقدمها الشركة بالإضافة إلى أنها وسيلة لمراقبة ما يصفه للمرضى؛ ففيما بعدُ يذهب المندوب إلى الصيدلية ويفحص الروشتات ... وبعد ذلك تصل الهدايا ... من الثلاجة إلى السيارة، ونفقات السفر لحضور مؤتمرٍ علميٍّ مزعوم لكنه دعاية للشركة، طبعًا إلى جانب عشرة بالمائة عمولة من الصيدلية.

لاحظت أنه يكتب المضادات الحيوية بسهولةٍ شديدة ولا يهتم بفحص نتائج التحليلات التي يأتي بها المرضى. عندما علقت على ذلك قال لي إن كل نتائج معامل التحليل في المستشفيات الحكومية والمعامل الخاصة صورية، وإن الشخص لن يخسر شيئًا إذا كان سليمًا وأخذ مضادًّا حيويًّا. قلت له إن هذا خطأ؛ فهذا الشخص لن يستجيب بعد ذلك للمضاد الحيوي عندما يمرض فعلًا.

لم أكن أبالغ؛ فالاستخدام العشوائي للمضادات الحيوية قد قضى على أثرها وأنتج أمراضًا متعددة المقاومة تقهر أقوى المضادات وبعضها ليس له علاج، والبعض الآخر تحول إلى أوبئةٍ عابرة للحدود مثل الشركات العالمية تمامًا! الطبيب في أمريكا اللاتينية يفعل مثل لبيب تمامًا: يصف المضاد الحيوي لكل شيء؛ من الصداع إلى انغراز الأظافر في اللحم. إنها تُبلَع وتُمصُّ وتُدهَن بها الجروح وتُطعَم للدجاج والأبقار من أجل التسمين وخصوصًا في الولايات المتحدة. لقد رأيت في السنغال أقراص المضادات الحيوية تباع في الأسواق ويعتقد الناس أن حبةً ملونة أو اثنتين يمكن أن تكفيا للشفاء، ولا أحد يعبأ بتصحيح هذه المعلومات وإقناعهم بأن النتيجة في هذه الحالة ستكون مضاعفة المرض وتطوره إلى شكل يستعصي على العلاج.

لم يجادلني لبيب، وبدا رافضًا للمناقشة أو التفكير فيما قلته أو غير مبالٍ به. قال لي: أنت تتكلم كخواجة. تسعة وتسعون في المائة من الأمراض في مصر سببها عدم نظافة

الشارع والأكل. عند طلوع النهار في الريف تجد الشعب المصري نائمًا أمام المستشفيات، نحن هنا نشرب مخلفات الإنسان والحيوان والأسماك الميتة الطافية على وجه المياه ... لكن لا أحد يفعل شيئًا لعلاج هذا. فماذا أستطيع أنا أن أفعل؟ أنا مضطر للمسايرة، وفي النهاية أنا معرض للقتل على يد أصحاب الدقون، هل تذكر مجدي فام؟ دخلوا عليه منذ شهر في وضح النهار وقتلوه.

طلب مني أن أنتظره نصف ساعة نصعد بعدها لرؤية زوجته وأولاده. وقفت قرب النافذة أتأمل الطريق؛ نساء محجبات ومنقبات يسرن في صمت، فلاح يتحامل على نفسه حاملًا كيسًا من البلاستيك مليئًا بالأدوية ... فيتامينات ونوفالجين لن تفيده شئيًا. أبواق السيارات التي تزحف بين الناس والحيوانات أسفل عاصفة من التراب. حانوت كُتب على واجهته لافتة باللون الأحمر «فاميلي شوب». ضحكت، جاءني صوت لبيب من خلفي ... قال إنه أعد لي غرفةً بعيدة عن ضجة الشارع. أجبته بأني لن أبيت وأني سأعود إلى القاهرة بقطار المساء.

* * *

تسلمت عملي في مكتبٍ فاخرٍ غير بعيد عن منزلي. أصص النباتات تحف بالمدخل وفوق الدرج المؤدي إلى مكتبي مباشرة؛ ربما لتخفي أكوام القمامة في الشارع. استقبلني المدير السابق الذي أصبح الآن نائبًا لي؛ شابٌّ مهذب أنيق، يدعى ماجد عبود، من النوع الذي يوجد دائمًا في أروقة الشركات والبنوك الأجنبية والفنادق الكبرى في العالم الثالث والذي وجدت منه الكثيرين في مصر، طموح لا يقف شيء في طريقه، تلقَّى تعليمًا أجنبيًّا سطحيًّا، عرض عليَّ عمليات الشركة وخطط الإنتاج.

كوش مصر كانت في وضع ممتاز، وتستولي على حصةٍ ثابتة من سوق الدواء بأسعار مجزية للغاية، ويرجع الفضل في هذا إلى القانون رقم ٣٤. هل يتصور أحد أن ٦٠ بالمائة من ثمن الدواء في مصر يذهب إلى الموزع والمستورد؟ ذلك كله بفضل القانون المذكور. كانت التأميمات الناصرية قد ألغت الوكالات الأجنبية وحتمت أن يتم استيراد الدواء والخامات عن طريق هيئة تابعة للقطاع العام؛ وبذلك أمكن توفير الدواء بسعرٍ رخيص، رغم طبعًا السلبيات المعروفة التي ترجع إلى البيروقراطية والغباء، والتي أدت إلى عدم توافر بعض الأدوية. القانون ٣٤ الذي صدر مع الانفتاح ألغى هذا الوضع واشترط أن يتم استيراد الأدوية والخامات عن طريق الوكلاء، أو فروع الشركات الأجنبية في مصر، وبأسعار يتفق عليها من خلال مظاريف وعطاءاتٍ وهمية. الشركات الأجنبية حققت مكاسبَ هائلة من

هذا القانون؛ شركة هوكست الألمانية (التي تساهم دولة الكويت بأكثر من ٢٤ في المائة من أسهمها) حققت في سنةٍ واحدة ربحًا صافيًا في صنفَين فقط من الدواء مقداره مليون و٢٠٠ ألف جنيه، شركةٌ أجنبية خالصة هي سكويب الأمريكية كان رأسمالها المدفوع ٥٫٧ مليون دولار بلغت مبيعاتها في ٥ سنوات نحو ٥٥ مليون جنيه. كيف؟ يكفي أن تتولى توريد الخامات والكيماويات للقطاع العام بأسعار تزيد أحيانًا ٣٠ ضعفًا عن السعر الأصلي، وتصل هذه المواد قبل انتهاء صلاحيتها بعدة شهور أو بعد انتهاء الصلاحية، وطبعًا لا يتكلم أحد؛ فالثمن مدفوع، أو تطرح أدوية حرمت منظمة الصحة العالمية استخدامها لتتخلص من المخزون المتراكم لديها بدلًا من إعدامه، أو أدوية تحت التجربة ولا تستطيع الشركة التي أنتجتها أن تجرِّبها في أمريكا أو أوروبا إلا على الحيوانات الراقية المكلفة مثل الشمبانزي.

هناك طبعًا هيئة الرقابة على الأدوية وظيفتها التأكد من مطابقة الدواء للمواصفات العلمية … لكن التعليمات تأتي للهيئة من أعلى بتغيير نتائج التحليل لتصبح مطابقة للمواصفات. رئيس الهيئة عضو مجلس إدارة شركة أدوية وعضو جمعيةٍ عمومية لشركةٍ أخرى، كما أنه عضو في لجنة البت لشراء المواد الخام بشركة قطاع عام؛ أي إنه البائع والمشتري والحكم بينهما! هناك أيضًا العمولات والهدايا التي تبدأ من: السيارة، تعيين أبناء كبار المسئولين، عقود لكبار الموظفين بالعمل في وظائف مستشار بعد التقاعد؛ والنتيجة أن كوش والشركات الأجنبية الأخرى تستطيع أن تحدد نسب الاتفاقات المشتركة وأسعار البيع، وتعدل كما تشاء شروط منح الامتيازات والرخص لصالحها. عشت هذا كله من قبلُ في المكسيك دون أن أتورط فيه تمامًا لأني كنت بعيدًا عن هذا الجانب من الإدارة. أما هنا فقد صرت مسئولًا عن كل شيء.

* * *

عندما كان ماجد عبود يتولى الإدارة، قامت الشركة بتصنيع شراب لعلاج متاعب الجهاز الهضمي في مصنعها بالأميرية، وأرسلته إلى هيئة الرقابة الدوائية للتحليل وبيان مدى مطابقته للمواصفات، وكشفت نتائج التحليل أن العينات من ست تشغيلات غير مطابقة للمواصفات؛ مما يعني عدم صلاحيتها وضرورة إعدامها. ويبدو أن المسئولين عن التحليل كانوا يضغطون من أجل الحصول على علاوة للرواتب الشهرية التي يتقاضونها منا، فجاءت نتيجتهم صحيحة!

وقررت الشركة إجراء تغيير في تركيب الدواء لتفادي العيوب، وفعلًا تم حذف أربع مواد من تركيبه وأضيفت موادُّ أخرى ثم أُرسلت عيناتٌ جديدة إلى الهيئة، واكتشفت أن ماجد أرسل العينات بنفس أرقام التشغيلات السابقة، وأدركت على الفور بحكم خبرتي ما ينتويه؛ طرح المستحضر الأول في السوق عندما نحصل على الموافقة على المستحضر الجديد طالما أن أرقام التشغيل واحدة.

اعترضتُ على هذا التصرف بحجة لا أخلاقيته وتعارضه مع القواعد الملزمة لعملنا؛ فتطلع إليَّ في دهشة. قال لي بصراحة إن بازل لن تعترض بل على العكس، أفهمني أن هذا هو ما تريده بازل. طبعًا كنت أعرف، أنا نفسي لم أعترض على تصرفاتٍ مماثلة في المكسيك، لكني وجدت نفسي عاجزًا عن التصديق عليها في مصر.

أصررت على موقفي، وأمرت بإعدام التشغيلات السابقة. وتلقيتُ فاكسًا من بازل يقرُّ تصرفي بلهجةٍ جافة. وحرص الفاكس في نهايته على أن يذكرني بأن بعض القواعد الملزمة في أوروبا تتعارض أحيانًا مع التقاليد المحلية أو أسلوب الحياة في بلد مثل مصر!

* * *

عرض عليَّ ماجد خطة الإنتاج ففوجئت بأن أغلبها أدوية سعال ومقويات، قلت له متعالمًا: أنت تعرف أن هذا كلام فارغ. فهذه ليست أدويةً حقيقية، إنها مثل شربة الحاج محمود. لم يكن قد سمع عن هذه الشربة المعجزة التي كانت تباع في الموالد والقرى. قلت: شركة الدواء الحقيقية ملزمة بأن تقدم للسوق علاجاتٍ فعلية لأهم الأمراض المستعصية الموجودة البلهارسيا، السرطان، الالتهاب الكبدي الوبائي، الدوسنتاريا، التيفود ... إلخ، جمع لي الشاب نشرات الشركات الأخرى واكتشفت أن السوق المصري به ١٨٠ دواءً للسعال و٢٨٠ من المقويات، وفي هذه الأثناء قرأت في الصحف أن حريقًا نشب في مديرية الشئون الصحية بأسوان والتي تخزن فيها كميات من أدوية التوسيفان والكودافين، وأن التحقيق أسفر عن تلف ثلاثة آلاف زجاجة منها، أما ما تبقى سليمًا من الزجاجات فكان ممتلئًا بشراب الكركديه! وفهمت أخيرًا السبب في اهتمام كوش والشركات الأخرى بأدوية السعال التي تحولت إلى أدوية مزاج، ولم أدهش عندما جاء فاكس من بازل: لا يمكن لكوش أن تتجاهل سوقًا هامة ومجزية مثل سوق السعال والمقويات.

* * *

الجزء الباقي من خطة الإنتاج كان مخصصًا لتعبئة المبيدات التي تنتجها كوش، وعندما درستُ الأرقام التي عرضها عليَّ ماجد اكتشفت أن في مصر مافيا تربح من استيراد المبيدات ٢٠ مليون دولار سنويًّا بعد أن قامت بتهريب ١٢ مبيدًا محرمة دوليًّا رخيصة الثمن لكن قاتلة وخاصة للأطفال. لم يكن بين منتجات كوش المصدَّرة إلينا واحدة من هذه المبيدات المحرمة لكن هذا لم يكن مبررًا لأن تحتل مكان الصدارة في نشاطها.

العالم كله أصبح يدرك أن استخدام المبيدات لم يؤدِّ إلا إلى مضاعفة الحشرات والآفات ١٧ ضعفًا. النظافة التامة داخل وخارج المنزل تمنع توالد الحشرات. كنت أبتسم في ألم وأنا أرى جزارًا يرش اللحم بمبيد ضد الذباب، أو بائع عصير يرش دكانه لنفس الغرض، أو عندما أشاهد في التليفزيون إعلانًا عن المبيد ذي القوة الرباعية أو الخماسية، وأعرف أن الناس ستهرع لشرائه لتتخلص من الصراصير والذباب والناموس، وتقرب المسافة بينها وبين المرض الذي ستنفق عليه من الجهد والمال أضعاف أضعاف ما يتطلبه تنظيف المنزل والمنور والسطح والتخلص من القمامة وإصلاح شبكات الصرف.

* * *

المشكلة أفدح في الزراعة. استمعت مرة في التليفزيون إلى دكتور ومدير لمعهد التغذية يؤكد أن بقايا الرش على المحصول تزول بعمليات التقشير والغسيل قبل التناول وأنه بذلك يتم التخلص نهائيًّا من بقايا المبيدات، وما تبقى يكون غير ضار بالمرة؛ عرفت فورًا أنه يعمل مندوبًا لشركة مبيدات لأنه كان يكذب.

لا الغسيل ولا الطهي ولا الغلي يقضي على بقايا المبيد التي تعسكر في لب الثمرة وتضمن لآكلها التسمم والسرطان وتشويهات المواليد والعقم. في قضية الأغذية الفاسدة استعان المتهم الأول (وهو موجود معي في الزنزانة الآن وأنا أكتب هذا الكلام) بوزير الصحة كشاهد نفي، وأمام المحكمة أبدى الوزير تعجبه من القول بمسئولية الأغذية الملوثة عن أمراضٍ عديدة متسائلًا في عهر: أين هي الإصابات التي تؤيد هذا الكلام؟

هذا الوزير، وهو الآخر دكتور، يعرف الحقيقة جيدًا، في حالة المبيدات فإن التعرض لجرعاتٍ قليلة (عن طريق الأنف والفم والجلد) لا يُحدث أثرًا مباشرًا وإنما تتراكم الآثار في أماكنَ معينةٍ كالمخ والكبد والرئة حتى تأتي جرعةٌ مؤثرة يمكن أن تؤدي إلى الشلل والموت. نفس الشيء في حالة الأغذية الملوثة، علبة لبن الطفل بها كمياتٌ ضئيلة من عنصر السترونشيوم المشع تعني بالقطع إصابته بالسرطان بعد عشرين سنة.

فقط في حالة تلوث الثمار، وخاصة العصيرية، بالزئبق والرصاص، عن طريق مياه الري، يمكن التخلص بسهولة من أثارهما بتناول كوب من اللبن عقب تناول أي طعام أو فاكهة من هذا النوع حيث يقوم كالسيوم اللبن بطرد هذه العناصر وإخراجها من الجسم. لكن مَن ضمن أن اللبن نفسه غير ملوث؟ وهل يستطيع الفقراء تحمل سعره؟

* * *

كان هناك مشروع قديم لدى كوش لإقامة مصنع لاستخلاص العطور النباتية في مسطرد، ذهبتُ لزيارة المنطقة التي تغذي القاهرة بالخضراوات وتقع بجوار ترعة الشابورة، فوجئت بالقمامة تفرش الطريق هضابًا، وبأن الترعة التي تروي الحقول عبارة عن مستنقعٍ قذرٍ كريه الرائحة مليء بجميع أنواع القمامة من علب الصفيح والبلاستيك إلى مخلفات الإنسان والحيوان ومصانع البوتاجاز والبلاستيك والصباغة. رأيت المواسير تخرج من جدران مصنع وتصب في قلب الماء، ورأيت المخلفات قد سدت المجرى المائي وارتفعت إلى مستوى الماء بما حملته من موادَّ بتروليةٍ أزوتية وشحوم اختلطت بالطين، كانت المياه التي تروي حقول الطعام تتسرب بصعوبة وقد سبح عليها زيت أسود مختلطًا بألوان الصباغة. وملأت الجو رائحة الصابون والبوتاسيوم.

تُباع محاصيل هذه الحقول من الخضراوات في سوق مسطرد وروض الفرج ولا يدرك الفلاحون أنهم يصدِّرون السم؛ فهم يأكلون منه أيضًا. وفيما بعدُ تابعت تحليلات أجرتها مراكزُ بحثيةٌ عديدة على مجموعة من الخضراوات، أثبتت أن نسبة الرصاص وصلت إلى ٣٦٧٠ ضعفًا في البصل الأخضر، تليه الكسبرة والفجل ثم الملوخية، وسجلت الملوخية أعلى نسبة في الكادميوم يليها الفجل والجرجير، امتصاص الرصاص لدى الأطفال يفوق كثيرًا مثيله لدى الكبار ويسبب الأنيميا والتأخر العقلي، أما الكادميوم فيؤثر على الكلى ويسبب الإجهاض. مأساةٌ حقيقية لأن هذا طعام الفقراء. كنت أكتئب عندما أرى الغلابة في ميدان رمسيس أو العتبة يتزاحمون حول العربات التي تبيع الطعمية المقلية في زيتٍ أسود أو الكبدة التي تتجمع فيها كل السموم التي تدخل الجسم، وسرعان ما انتقلت المشكلة إلى ساحتي.

* * *

اكتشفتُ بعد فترة أني عمليًّا لا آكل شيئًا. أنا من المغرمين بالأكل الصحي؛ السلاطة الخضراء والفواكه والأسماك. ما رأيته في مسطرد صدَّ نفسي عن كل أنواع الخضراوات

والفاكهة، بالإضافة إلى ذلك كنت أعلم تأثير المبيدات التي ترشُّ بغير حساب في كافة مراحل الزراعة، والمواد الكيماوية الشبيهة بالهرمونات التي تؤدي إلى زيادة حجمها وتبكير تلوينها ونضجها. وكان بوسعي أن أتصور دورتها في طعام الماشية وبالتالي امتنعت عن اللحوم الحمراء والألبان ومنتجاتها، وكنت قد عرفت من معارفي أن اللبن المتداول غالبًا ما يكون ملوثًا بالميكروبات الضارة مثل ميكروب الحمى المالطية والسل والتهاب الزور والحمى القرمزية، وأن المصانع تضيف الفورمالين الذي يستخدم في حفظ الجثث إلى الجبن، كما تستخدم ماء الأوكسجين لحفظه. وكانت لديَّ شكوكي بشأن اللحوم والأجبان المستوردة (وقد تأكدت فيما بعدُ أثناء وجودي في السجن) فتجنَّبتها، وأتبعتها بالدواجن عندما علمت ما يفعله مربو الدواجن من تسمينها بالهرمونات. وحل الدور أخيرًا على الأسماك عندما اطلعت على درجة التلوث التي وصلت إليها مياه النيل فضلًا عن البحر الأبيض (الصرف الصحي) والبحيرات. في حالة مركَّبٍ واحد هو الديلدرين، والذي يتواجد في المخلفات الصناعية، فإن وجبة من السمك كل يومين تعني خطر الإصابة بالسرطان بنسبة واحد إلى مائة. اتجهت إلى النشويات التي كنت أتجنبها دائمًا ففوجئت بتلوث الدقيق وبأن أصحاب المصانع يبيضون الأرز بتراب البلاط. تجنبت أيضًا مياه الشرب لما اكتشفتُه بها من كائناتٍ دقيقة وشوائب ونسبٍ عالية من الكلور الذي يضاف إليها عشوائيًّا، ولم أطمئن للمياه المعبأة في زجاجات والتي توصف بأنها طبيعية أي جوفية. فمن يضمن لي أن مياه الصرف لم تتسلل إليها؟ كما امتنعتُ عن تناول المياه الغازية من كولا وغيرها لأني أعرف أكثر من غيري مضارَّها. ولم يبقَ أمامي في النهاية سوى أن أقوم كل يوم بغلي كمياتٍ كبيرة من المياه أحملها معي أينما ذهبت.

تأكدت أن الإنسان في مصر لم يعد يساوى أية قيمة، وتعجبت لشعب يدمر نفسه بنفسه أو يتفرج بلا مبالاة على الدمار الذي يلحقه به الآخرون. حمدت الرب لأن ابنتيَّ لم ترافقاني وإن كنت لا أضمن أن الحال ليس من بعضه في لبنان، بل ربما كان أخطر.

* * *

بدأت متاعبي الحقيقية عندما قررت كوش. بناء مصنع في مدينة ٦ اكتوبر لمكسبات الرائحة لتستفيد من الامتيازات الممنوحة للمستثمرين الأجانب: الأسعار الرمزية للأرض، والإعفاء من الضرائب حوالي عشر سنوات، فضلًا عن الأجور المنخفضة ... إلخ. هناك أكثر من ٣٠٠ مادة كيماوية تضاف إلى طعامنا وتجعله أكثر جاذبية من حيث اللون

أو الطعم أو الرائحة دون أن تضيف إليه أية قيمةٍ غذائية، بل تمثل خطرًا على صحة الإنسان، وتؤدي إلى تشوه الأجنة. ولا يقتصر الأمر على الطعام وإنما يمتد إلى الأدوية ومستحضرات التجميل مثل أحمر الشفاه ومعجون الأسنان والحلويات، وخاصة الحلويات الشعبية كحلوى الموالد وغزل البنات والشربات والمربات والجيلي. الشكولاتة مثلًا يستخدم في صناعتها لونٌ صناعي تناوله يمكن أن يؤدي إلى تسمم الكبد. والبيانات المسجلة على أي كيس لا رقابة عليها ولا تمثل أي معلومةٍ محددة بالنسبة للمستهلك الجاهل. وتجني الشركات من وراء ذلك مكاسبَ هائلة وإلا ما كانت إحداها ترصد لمسابقةٍ تليفزيونية جوائز مقدارها مائة ألف جنيه.

عندما عكفت على دراسة المشروع انتابني القلق، اكتشفت أن المصنع مخصص لإنتاج مادة التريكلوروفينول TRICHLOROPHENOL، وكنت أعرف أن ألمانيا وهولندا وانجلترا أغلقت المصانع التي تنتج هذه المادة بسبب خطورتها؛ فهي إذا تعرضت لحرارةٍ عالية تنتج واحدًا من أخطر السموم على الإنسان هو DIOXIN. وهو أقوى من السيانيد السام بسبعين ألف مرة، لكن الأمر لم يكن قاصرًا على ذلك.

فقد تبينتُ أن رقم الإنتاج المستهدف هو خمسين طنًّا في الأسبوع، وهو رقمٌ كبير جدًّا بالنسبة لتجارة الروائح، وهنا تذكرت أن التريكلوروفينول عنصرٌ أساسي في تركيب ما يسمى بالعامل البرتقالي الذي يستخدم في صناعة الأسمدة والمبيدات وثبت ضرره على صحة الإنسان فسحب من السوق في أغلب البلدان الأوروبية، وكان المقرر أن يتم شحن الكمية المنتجة إلى مصنع تملكه شركةٌ تابعة لكوش في الولايات المتحدة ومنها طبعًا إلى أي مكانٍ آخر.

تذكرت الكوارث التي تحدث كل يوم في العالم الثالث. في مطلع الثمانينيات وقعت أسوأ كارثةٍ صناعية عرفها التاريخ قبل حادث تشيرنوبيل؛ ففي مدينة «بهوبال» الهندية مات حوالي عشرة آلاف شخص نتيجة استنشاق غاز ثاني أكسيد الميثيل السام المتسرب من أحد مصانع المبيدات الحشرية التابعة لشركة «يونيون كاربيد» الأمريكية، وتعرض ما يقرب من نصف مليون شخص آخرين لأضرارٍ صحيةٍ جسيمة ما زالوا يعانون من آثارها حتى الآن.

ويظهر كل يوم ضحايا جدد أصيبوا بأمراض في الرئة والسرطان والعيون. ومما يزيد من معاناة هؤلاء البطء الشديد المتعمد في إجراءات المحاكم الهندية التي تنظر طلبات التعويضات التي يتقدمون بها.

تابعت وقتها وصف الصحف للكارثة، كيف سقطت الطيور من السماء أو هوت ميتة من أعشاشها، وترنحت الكلاب والقطط كالسكارى قبل أن تسقط على جانبها ميتة والدماء تتدفق من أفواهها وآذانها ومؤخراتها، وشاهدت على شاشة التليفزيون آلاف الأشخاص في أسمالٍ بالية يترنحون في الشوارع بعيونٍ حمراء كالدم يمسكون بطونهم ويتوقفون بين الحين والآخر ليفرغوا ما في أجوافهم ثم يسقطون على الأرض.

ثبت من التحقيقات بعد ذلك أن أكثر الدول الغربية تحرم إنتاج هذا الغاز على أراضيها وأن المصنع الهندي توءم من حيث التصميم لمصنع الشركة المقام في أمريكا. لكنه لا يحتوي على أيٍّ من أجهزة الأمن والحماية المتقدمة التي زُود بها المصنع الأمريكي.

لم تجد الشركة من تبرير لما حدث سوى تصريح لرئيسها في التليفزيون قال فيه: «إن الرأسمالية تعني التقدم، والتقدم قد يؤدي أحيانًا إلى بعض المضايقات.» وأتذكر أني وقتها أقنعت نفسي بصحة هذا الزعم.

* * *

في أول أسبوع بعد عودتي إلى مصر قمت بزيارةٍ سريعة للإسكندرية عبر الطريق الصحراوي وعندما مررت بمنطقة العامرية شاهدت مصنعًا لشركةٍ أمريكية ينتج البطاريات الجافة وترتفع فوقه سحابةٌ سوداء من الأدخنة. وتساءلتُ في أسًى بيني وبين نفسي عن إجراءات الأمان المتَّبعة ومدى تزويد العمال بالملابس الضرورية والمعدات اللازمة.

لم يكن في استطاعتي وقف مشروع المكسبات في مدينة ٦ أكتوبر الذي تكلف أكثر من مائة وخمسين مليونًا من الدولارات (على فكرة! كوش لم تتكلف شيئًا، أخذت قرضًا بالمبلغ من بنوك القطاع العام المصرية) ولا رغبتُ في ذلك، كل ما في الأمر أني عاهدت نفسي على الاهتمام بإجراءات الأمان، واسترحت عندما تبينتُ أن المصنع صممه مهندسٌ سويسري، كما أني تصورت أن البناء سيكون من مسئولياتي المباشرة.

بازل كان لها رأيٌ آخر؛ فقد طلبت مني تشكيل إدارةٍ خاصة يعهد برئاستها لنائبي تتولى متابعة العمل في بناء المصنع، كي أتفرغ أنا لالتهام شركات القطاع العام المعروضة للبيع، وعندما أوشك العمل على الانتهاء جاء المهندس السويسري في زيارةٍ تفقدية وأسرَّ لي منفعلًا أن المصنع لم يشيد طبقًا لرسوماته؛ إذ جرى التوفير في إجراءات الأمان التي حددها والتي تتكلف عدة ملايين من الدولارات.

اتصلت ببازل على الفور وجاءني ردٌّ فاتر بوعد النظر في الأمر، ولحظتُ أن ماجد عبود يتجنبني، واستمر العمل في المرحلة الأخيرة من البناء كأنما لم يحدث شيء.

فكرت في الاستقالة، ثم قررت القتال؛ حررت خطابًا إلى كل من وزارتي الصناعة والصحة المصريتَين أُخطرهما فيه بانتهاء العمل في بناء المصنع، وبضرورة حضور مندوبين عنهما للتأكد من سلامة إجراءات الأمن المتبعة. لم يعبأ أحد بالرد عليَّ. فكتبت إلى الصحف خطابات غفل عن التوقيع تعرض الموضوع، ونشرتْ إحدى صحف المعارضة تحقيقًا عن المصنع. وهنا تحركت وزارة الصناعة وزارتنا لجنةٌ ثلاثية من كبار موظفيها أبدت حزمًا غريبًا أدهشني وأسعدني ... وكان القرار بوقف ترخيص البناء ما لم تُستوفَ إجراءات الأمان الواردة في التصميمات الأولية.

استرحت؛ شعرت أن مجهودي أثمر، وهنا ظهر اللواء محسن فهمي في الصورة.

* * *

عندما كنت أدرس ملف شركات القطاع العام المعروضة للبيع، كان يعاونني في ذلك ضابط شرطة سابق، في حوالي الستين من عمره، يرأس إدارة الأمن، هو اللواء محسن فهمي.

كانت مهامه متشعبة تمتد من حماية أسرار الشركة وتأمين مكاتبها ومبانيها ضد التخريب والعمليات الإرهابية إلى إمداد الإدارة بما تحتاج إليه من معلومات. كان يحتفظ بملفاتٍ تفصيلية عن شركات الدواء العاملة في مصر وخاصة المصرية، وعن كبار العاملين بها. وعندما أقول تفصيلية أقصد مثلًا أدق المعلومات الشخصية؛ دخل الشخص واحتياجاته الفعلية، وعلاقته بزوجته وأولاده، وإمكانية شرائه، وعاداته فيما يتعلق بالجنس أو اللهو. بل كنت أشك في أنه يحتفظ بتسجيلاتٍ صوتية لبعض كبار المسئولين تكفي لإدانتهم والضغط عليهم. لكني لم أحاول التأكد من ذلك كأنما أردت أن أعفي نفسي من المسئولية عن الأمر كله.

لم يكن هذا الأمر بالجديد عليَّ ففي المكسيك كانت لدينا ملفاتٌ مماثلة، لكن ملفات محسن فهمي أصابتني بصدمة، ربما كنت في أعماقي أتمنى أن تكون الصورة مختلفة في بلدي، وبدلًا من ذلك طالعت صورةً مؤسية لقادة الاقتصاد والبلد. أبسط وصف لهم أنهم يتميزون بالدناءة والخسة. مثلًا رئيس مجلس إدارة قد الدنيا، حاصل على درجة الدكتوراه، يتفنن في إعداد قوائم بمستلزمات منزله من أرز وبيض ولحم بحيث تتوزع الرشوة المطلوبة على أشياء عديدة صغيرة القيمة. وآخر يسرق الملاعق الفضية من الطائرات، وثالث مليونير من كبار الصحفيين يبعث بابنته لتصرف منا مجانًا روشتة أدوية لا يتجاوز ثمنها سبعين جنيهًا، ورابع من كبار رجال الدولة يفرض ابنه شريكًا على المشروعات الناجحة، وخامس

يتعمد تخريب مصنعٍ ناجح، لصالح منافسٍ أجنبي، مقابل رحلة استجمام في أوروبا. كيف يكون وضعنا ونحن نعلم كل ذلك عن رؤساء الشركات المباعة وفرصتنا في تحديد الثمن الذي نشتري به مقابل هديةٍ صغيرة للمسئول أو بمجرد الإشارة لمعلوماتنا عنه؟

* * *

ما أقدمنا عليه يمكن أن يطلق عليه وصف المذبحة؛ بدأنا ندرس شراء مصنع أقامته إحدى شركات القطاع العام لتصنيع الأمبولات المعقمة، كان أول مصنع من نوعه في مصر وجاءت لجنة من بازل قررت أن المصنع غير مطابق للمواصفات من حيث مستوى العمالة والنظافة والتعقيم. ومع ذلك أمرت بازل بشرائه وتحويله من الإنتاج إلى مجرد مقر لتغليف المنتج الذي تصنعه في سنغافورة، وفقدت مصر فرصة في التقدم على طريق التصنيع. وكان من الممكن علاج الأمر بتطوير العمالة أو حتى استبدالها بغيرها وتجديد أجهزة التعقيم وفرض شروط صحية صارمة.

تكررت مهزلة المكسيك، وتوالت الفاكسات من بازل: اشترِ. ووردت التعليمات بتسريح العمالة بأي طريقة؛ فبدأنا نعرض على العمال التقاعد مقابل خمسة عشر ألفًا من الجنيهات، ووافق أغلبهم لأنهم كانوا في حاجةٍ ماسة للمبلغ.

وتُوِّجت جهودنا باصطياد أكبر شركة أدوية في مصر لا تقل قيمتها في السوق عن مائتي مليون جنيه، لكننا تمكنا، بوسائل اللواء محسن فهمي، من الحصول عليها بسبعين مليونًا. وعلى الفور طُرحت الأرض الواسعة التي تشغلها مصانع الشركة ومكتبها في الأميرية للبيع كأرض للبناء، وقُدِّر العائد المنتظر بعشرة أضعاف هذا المبلغ. وشرعنا في نقل المصنع إلى مدينة العاشر من رمضان مستفيدين من الإعفاءات والتسهيلات المقدَّمة للمشروعات الجديدة.

* * *

عقب أن زارتنا لجنة وزارة الصناعة استمر العمل في تشطيب البناء بمصنع المكسبات كأنما لم يحدث شيء، ولم يتخذ ماجد أي إجراء لتنفيذ الاتفاق الذي توصلنا إليه. وبدأت أشعر بشيءٍ غريب في تصرفات اللواء محسن فهمي معي، ضبطته أكثر من مرة يتأملني بإمعان، كما يتأمل القط الفأر، كانت لعينَيه حدقتان صفراوان بعثت نظرتهما الرعدة في أوصالي.

أكثر من مرة شعرت أن أحدًا دخل شقتي في غيابي وعبث بمحتوياتها. في البداية شككت في السفرجي والشغالة الفلبينية اللذين ينفردان بالشقة طول النهار. ثم اتجهت شكوكي ناحيةً أخرى عندما اكتشفت أيضًا أن أحدًا يعبث بمحتويات مكتبي في الإدارة، وفي أحد الأيام سقطت مني سماعة التليفون على الأرض وتحطمت وعندما رفعت الحطام تبينت جهازًا صغيرًا للتسجيل مثبتًا في بوق الإرسال أيقنت على الفور أن محسن فهمي يسعي ورائي.

في هذه اللحظة انفجرت قضية الرشوة: ألقت الشرطة القبض على ماجد عبود بتهمة عرض رشوة مقدارها مليونين من الجنيهات على رئيس لجنة وزارة الصناعة من أجل التجاوز عن إجراءات الأمان، وبعد أسبوع فوجئت بالقبض عليَّ وتوجيه الاتهام نفسه إليَّ. وعرفت أن ماجد عبود زعم أنه كان ينفذ أوامري واستشهد بمحسن فهمي الذي قدَّم خطابًا موجهًا مني إلى رئيس اللجنة يشير إلى ما تم الاتفاق عليه بيننا بخصوص إجراءات الأمان، كما قدم تسجيلًا تليفونيًّا لحوار بيني وبين رئيس اللجنة حول إطاري كاوتشوك؛ كان هذا قد ذكر لي أنه يجد صعوبة في الحصول على نوعٍ معين من الإطارات لعربته الفولكس، فتطوعت لتزويده بهما دون مقابل، لكن النيابة أصرَّت على أن عجلتَي الكاوتشوك سيم أو شفرة للمليونين.

فيما بعدُ استطعت أن ألمَّ خيوط ما حدث. فالمبادرة التي قام بها ماجد بوحي من تعليمات عامة من بازل، اصطدمت بجشع رئيس اللجنة الذي أراد الاستئثار بالمبلغ، واشتمَّ زميلاه الرائحة فواجهاه طالبَين نصيبهما، وعندما رفض أبلغا الشرطة نكاية فيه. وتفتَّقت عبقرية محسن فهمي عن طريقة لاستغلال الموقف من أجل التخلص مني. وبالفعل أصدرت كوش قرارًا بفصلي بتهمة تجاوز حدود مسئولياتي باتخاذ إجراء — تقصد الرشوة — يتعارض مع المبادئ الأخلاقية التي تلتزمها الشركة؛ مما أساء إلى سمعتها.

* * *

طبعًا لن أتركهم في حالهم ... وسأقاتل حتى النهاية ... لكن مصيري الشخصي لم يعد يقلقني كثيرًا ... فترة السجن أتاحت لي فرصة للتفكير والقراءة، وتحقيق حلمٌ قديم من أحلامي هو كتابة المسرحيات. والتمعن في تجاربي. وفي أحوال البلد وأحوال العالم. أعرف أني أقف على حافة هوة قد تطيح بي شخصيًّا، لكني أرى بلدي وأفريقيا كلها بل وأغلب الشعوب السيئة الحظ تقف فعلًا على حافة هاويةٍ حقيقية.

أحيانًا أشك في أني ضحية أوهامي ومشاكلي الشخصية وفشلي في علاقتي بزوجتي، أو ببساطة ضحية أزمة منتصف العمر، أو ربما كنت طبقًا لاتهام زوجتي مغرورًا يتوهم أنه قادر على إصلاح الكون ... ربما!

وأعرف أني لن أتمكن من تغيير شيء؛ فالأمر أخطر من أن يقوم شخصٌ واحد أو حتى جماعة أو حزبٌ واحد بذلك.

ومع ذلك لا أستطيع أن أتجاهل ما يحدث.

* * *

ملحوظة: سلم مأمور السجن هذه الأوراق إلى مندوبٍ خاص من وزارة الداخلية سلمها بدوره في اليوم التالي إلى اللواء محسن فهمي، مدير الأمن بالفرع الإقليمي لشركة كوش العالمية.

١٥

عرض العرائس الذي أقيم بمناسبة ذكرى الانتصار العظيم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ أعده وأخرجه الدكتور رمزي بطرس نصيف

فناء عنبر الملكية مساءً. المسجونون يفترشون الأرض فوق بطاطينهم في ضجة وانفعال. ليس بينهم واحد من أصحاب اللحى الذين تابع بعضهم العرض من شُرَّاعات زنازينهم المغلقة في الطابق الثاني، ظهور الجالسين إلى بوابة العنبر ووجوههم نحو الحائط المقابل حيث انتصبت مائدة غطت البطاطين سطحها وقوائمها لتخفي المساجين الذين سيتولون أمر العرائس، كشافان كهربائيان معلَّقان في السقف. ستارة من البطاطين تمتد بين الجدارين بعرض الفناء فوق المائدة بحيث تخفي مدخلي الزنزانتَين الأخيرتَين المتقابلتَين اللتين تكوِّنان مع خلفية المائدة كواليس المسرح. ميكروفون خلف المائدة.

الصف الأول من المتفرجين يتكون من مقاعد يشغلها المأمور في الوسط يحيط به ضباط السجن (أثار هذا الوضع نقاشًا حادًّا من قبلُ؛ إذ احتج رمزي بأن المسجونين لن يتمكنوا من مشاهدة المسرح، وأعلن المأمور أنه من المستحيل أن يجلس هو وضباطه فوق الأرض إلى جوار المسجونين. وفي النهاية تم الاتفاق على تعلية المسرح بصناديقَ خشبية أُحضرت من ورشة النجارة، صُفَّت متجاورة ورفعت مائدة المنصة فوقها) خلفهم مباشرة كبار الشخصيات من المسجونين؛ بينهم الدكتور ثابت، ومستر تامر، وعزت بيه، والنوباتجية البارزون. الحراس يحيطون بالقاعة وقد جلس بعضهم فوق البطاطين بينما ظل الآخرون واقفين تحسبًا للطوارئ بناءً على تعليمات المأمور.

الدكتور رمزي يتقدم إلى الميكروفون فيقع الضوء المبهر على وجهه ... المسجونون يلزمون الهدوء.

د. رمزي:

فكرة هذا العرض آتية من بورسعيد،
لا أقصد أنها مستوردة،
فنحن نتحدث عن بورسعيد قبل أن تصبح حرة.
وفي الحقيقة قبل زمانٍ بعيد،
عندما قامت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي،
فقد تصادف أن حل عيد الفصح مع عيد شم النسيم،
في نفس اليوم،
فشارك مسلمو بورسعيد أقباطها الاحتفال.
ورفعوا جميعًا شعار الهلال والصليب،
ثم أعدوا تمثالًا من الخشب للجنرال الإنجليزي الشهير اللنبي،
وأحرقوه.
ومن يومها،
في كل عيد لشم النسيم،
يفطر البورسعيديون بكعكة من الخبز تتوسطها بيضةٌ مشويةٌ ملونة،
ويتغدون بالفسيخ والبصل الأخضر،
ويُحَلُّون باليوسفي والبرتقال،
ثم يصنعون تماثيل من الكرتون والقش،
تحمل جميعها اسم الجنرال الإنجليزي،
لكنها تمثل شخصياتٍ مختلفة.
من الباشا والمرابي والخواجا،
إلى إيدن ودي موليه وبن جوريون،
موشيه دايان وجونسون وجونسون،
من السمسار وصاحب الدشداشة،
إلى المواطنين الجشعين،
من تجار وأطباء وملاك مساكن ومهربين.
وفي المساء يقيمون مسرحًا كهذا
ينصبون فوقه التماثيل،
ثم يقومون بعملية تشهير.

يتراجع رمزي ويختفي خلف الستائر. تنفرج الستارة التي إلى اليمين عن صف من القبور الكرتونية. ينهض من خلفها ثلاثة أشخاص في ملابسَ عسكرية يتقدمون إلى المنصة. الثلاثة هم أشرف، وسامح، وصبري.

أصحاب القبور (في صوتٍ واحد):

هذا هو ما جاء بنا ...
نحن أربعون ألف قتيل،
سقطنا في حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣،
تاركين آباء وأمهات وزوجات وأطفالًا،
وخططًا طموحة للمستقبل.

واحد منهم:

أنا الجندي إبراهيم زيدان،
أُصبتُ في بطني،
وخرجتْ أحشائي أمام عيني،
لكني تحاملت على نفسي،
وظللت أقاتل حتى استشهدت.

واحدٌ آخر:

أنا النقيب إبراهيم الدسوقي.
في يوم ٢٢ أكتوبر ظهرت لنا ثلاث دبابات في طريق سرابيوم،
وخلفها سبعون دبابةً أخرى،
كان لا بد من تدمير الدبابات الثلاث لمنع تقدم السبعين.
وكنا شعلة من الحماس.
فقمت بتلغيم جسدي،
وهجمت على دبابة المقدمة،
احتضنتها بجسدي،
وانفجرنا نحن الاثنان.

ثالث:

اسمي لا قيمة له؛
فلم يُعنَ أحد بإحصاء عددنا،
أو تسجيل أسمائنا،
نحن عدة مئات من الأسرى.
في ٥٦ و٦٧،
أجبرَنا الإسرائيليون على حفر قبورنا،
ثم أوقفونا على حوافها،
وأمطرونا بالرصاص.
أما أنتم،
فتجاهلتمونا كلية،
عندما عقدتم اتفاقيات السلام،
وتبادلتم الزيارات والأنخاب.
رغم أن الصحف الإسرائيلية لم تخفِ الجريمة،
التي تتنافى مع كل المواثيق الدولية.

ينسحب العسكريون الثلاثة ويختفون خلف شواهد القبور ثم يعودون فوق مقاعدَ متحركة.

معوق ١:

أنا المقدم حسين الشاذلي،
كُلفتُ بمهمة تعطيل الدبابات الإسرائيلية عند الثغرة.
نجحت في إيقاف رتل منها،
ومنْع تقدمها،
وكان أن أصابتني قذيفة من طائرة،
إصابةً مباشرة،
ونتج عن الإصابة شللٌ نصفي في الجانب الأيمن،
ولم أعد قادرًا على الحركة.

١٥

معوق ٢:

أنا الجندي عيد طه،
من قرية بتمة، قليوبية،
اشتركت في العبور يوم ٦ أكتوبر،
وفي يوم ٧ كلفوني بزرع ألغام على بعد عشرة أمتار من شرق القناة،
وقبل فجر يوم ٨ نجحنا في تحويل المنطقة إلى قطعة من جهنم،
وفي يوم ١١ أُصبتُ،
وكانت النتيجة شللًا نصفيًّا في العمود الفقري،
وأصبحت، وأنا في الواحدة والعشرين،
أعيش فوق كرسيٍّ متحرك،
وكانت مكافأة الدولة لي ١٨٠٠ جنيه وعشرين قرشًا،
أنفقتُها على علاج أمي من الصدمة.

معوق ٣:

اسمي خلف قلدس،
من قرية شطورة بطهطا، سوهاج.
أُصبتُ عند العبور بشللٍ نصفي أقعدني،
وحرمني من الزواج والحياة الطبيعية،
وبعد علاج سبع سنوات،
وصلت إلى جمعية «الوفاء والأمل»،
إحدى الجمعيات التي تعهدت برعاية ٦١ ألف معاق،
هو عددنا الإجمالي.
وكنا قد سمعنا عن التبرعات التي جمعتها باسمنا ولصالحنا،
ومنها مليونان من الجنيهات تبرع بها ثريٌّ عربي،
من أجل شراء سياراتٍ مجهزة لنا،
وعمارة قدَّمها مقاول طيب القلب؛
لتوزع شققها علينا،
لكن المسئولين عن الجمعية أنكروا معرفتهم بالأمر.

وعندما أثرنا الموضوع في اجتماع مع السيدة الرئيسة؛
استشاطت غضبًا.
وبعد أيام طردوا أربعة منا في الفجر.
ذهبنا إلى رئاسة الجمهورية وشكونا لطوب الأرض،
فوضعونا في مركز تأهيل تابع للجيش،
وبعد سنة ونصف قرر المركز طردنا،
بحجة إخلاء أماكن لمصابي العراق في الحرب الإيرانية.

الجميع:

عندما أُصبنا،
لم نشعر بأي ندم،
كنا نؤمن بأننا نؤدي واجبنا،
لكننا الآن نتساءل:
من أجل أي شيء كانت تضحياتنا؟

ينسحبون ثم يعودون بعد أن استبدلوا ملابسهم بأفرولاتٍ عمالية، يتقدمون من المنصة.

جماعة العمال:

كالعادة أخطأتم في أرقام الضحايا،
ونسيتمونا كشأنكم في كل مرة،
نحن أيضًا سقطنا في المعركة،
رغم أننا لم نكن خلف المدافع أو فوق الدبابات،
نحن ستة آلاف عامل،
استشهدنا أثناء بناء حائط الصواريخ،
الذي انطلقت منه قوارب العبور.
من حقنا أيضًا أن نتساءل:
من أجل أي شيء كانت تضحياتنا؟

يتراجع العمال ويختفون وراء الستارة. تنفرج الستارة التي إلى اليسار عن مجموعة من العرائس صفراء اللون تمثل صورًا كاريكاتيرية لشخصياتٍ مصرية مختلفة؛ رجالية ونسائية. تنضم إليها مجموعةٌ جديدةٌ صغيرة العدد يتميز بعضها بألوان الأعلام الأمريكية والإسرائيلية، بينما اكتسى البعض الآخر بالملابس العربية الخليجية. يتعرف المسجونون على بعض العرائس التي تمثل شخصياتٍ مصرية.

أصوات من القاعة:

رئيس الوزراء!
وزير الداخلية!
وزير الإعلام!
الشيخ قرداوي!
الدكتور!
الحوت!
لهلوبة!

جماعة العرائس:

سؤال مشروع وإن كان غريبًا بعض الشيء،
والإجابة عليه ليس هناك أبسط منها،
إنكم ضحيتم بأنفسكم من أجل الوطن بالطبع،
وحياةٍ حرةٍ كريمة لأولادكم وأحفادكم.

ينهض ثلاثة من المتفرجين، من نزلاء العنبر، من أماكنَ مختلفة بالقاعة، ويخاطبون العرائس.

جماعة المتفرجين:

نحن لم نذهب إلى الحرب،
ولم نتعرض لشيء من أهوالها.
لم يمت منا أحد،

ولم نفقد عينًا أو ساقًا أو يدًا.
ولا حتى شُرِّدنا من منازلنا،
أو هُجِّرنا إلى أماكنَ بعيدة عن القتال،
لكننا دفعنا ثمن الأسلحة؛
ثمن الهزيمة والنصر،
ولم نعرف بعدُ الحياة الحرة الكريمة التي تتحدثون عنها،
الأسعار ترتفع كل يوم،
وكل من لديه يزاد حتى يصبح لديه وفر.
ويؤخذ ممن يفتقرون حتى الذي بين أيديهم.
والآن يقال لنا، إن كل واحد منا مدين بألف دولار،
لبلادٍ أجنبية لا نعرفها،
وكل طفل سننجبه،
سيخرج إلى الدنيا موسومًا بالرقم المخيف،
والعلامة المقدسة.
وهناك خطة وضعها صندوق البنك الدولي،
لتحصيل هذا الدين،
تقولون لنا إنها مضبوطة وسليمة؛
لأن الذي وضعها هو مواطننا المشكور،
عبد الشكور.

جماعة العرائس الصفراء:

نحن الذين اقترضنا
بضع عشرات من المليارات،
٦٢ مليارًا بالتحديد انخفضت إلى ٤٦ مليارًا
(مكافأة لنا على الخدمة في حرب الخليج)،
ليست بالكثيرة عليكم،
وعلى بلد خرجت من حربين مدمَّرة،
وعانت من الاشتراكية.
لم نقترض بلا سبب وإنما من أجلكم.

ومن أجل غدٍ مشرق لنا جميعًا،
كما قال رئيس الوزراء في إحدى خطبه.

متفرج ١:

من أجلنا؟
الكل يعرف أن عشرة بالمائة من حجم القروض الأجنبية،
تدخل جيوبكم،
بطريقةٍ مشروعة تمامًا؛
في صورة عمولة وأتعابٍ مهنية.
وتعود ستون بالمائة من القروض مرةً أخرى إلى البلد المقرض،
بطريقةٍ مشروعة تمامًا؛
في صورة دراسات جدوى وخبراء.
بينما نتحمل نحن سداد كامل القرض وفوائده.

متفرج ٢:

البنك الدولي نفسه الذي تتمسحون دائمًا بذكراه،
أعلن أن أرصدتكم من عمولات القروض،
المودعة في بنوك سويسرا، والولايات المتحدة،
لا تقل عن ستة مليارات من الدولارات.

متفرج ٣:

وفقًا لبيانات الأمم المتحدة،
بلغ دخل مصر في الثمانينيات ١٤٠ مليار دولار،
بينها قرابة خمسين مليارًا من تحويلات المصريين في الخارج،
و٢٥ مليارًا من المساعدات الأمريكية وغيرها،
و٢٢ مليارًا مساعدات عربية معظمها لا يرد.
ثروةٌ ضخمة لم تتوافر لأي بلد في العالم النامي،
كان يمكنها أن تُحدث معجزة.
على الأقل تعفيكم من الاقتراض،
وتعفينا من السداد.

عروسة صفراء ١:

مهلًا مهلًا يا إخواننا.
الأرقام والإحصائيات هي لعبتنا،
ولا أحد يعرف مثلنا كم هي مضللة!
إنكم تجاهلتم أن البنية الأساسية كانت مدمَّرة.
كما تجاهلتم ارتفاع الأسعار العالمية،
والنفقات العسكرية اللازمة للدفاع عن شرف الوطن.

متفرج ١: ضد من؟
عروسة صفراء ٢:

يمكنني أن أجيب على هذا السؤال؛
فأنا قائد عسكري؛
أي رجل استراتيجي.
مثلما كان المرحوم السادات،
الأمر واضح كالشمس،
وتجاهله يكون إما بسبب الغباء،
أو عدم الانتماء.
فسلامنا مع إسرائيل لا يعني أن الأخطار انتهت.
استقرار منطقة الخليج مثلًا أمرٌ حيوي للعالم كله.
لأن الغرب يحصل منها على ٩٠ بالمائة من احتياجاته البترولية.
هنا يكمن دور مصر ومسئوليتها.
هكذا قال المشير أبو غزالة،
وهو استراتيجي مثلنا.

عروسة صفراء ٣:

ثم إن إسرائيل لا يوثق بها.
ويجب أن نكون دائمًا على استعداد للمفاجآت.

١٥

عروسة بألوان العلم الإسرائيلي:

أنت تجعلني أضحك!
أي مفاجآت تتحدث عنها!
الجميع يدركون الآن أن المستقبل لنا.
أما أنتم فقد ضيعتم الفرص التي سنحت لكم في ٧٣؛
حققتم لحظة من الأداء العسكري والتضامن،
لم تحدث من قبلُ ولن تتكرر من بعدُ.
كان بوسعكم أيامها أن تجبرونا على قبول أشياءَ كثيرة،
لكن رب إسرائيل الذي لا يتخلى عنها،
بعث إلينا بأنور السادات؛
رئيسكم ورب عائلتكم،
القروي بحق وحقيق.
وفي ٨٢،
نجح الفلسطينيون في احتجازنا عدة أشهر في لبنان.
وكانت فرصتكم لو عملتم على الجبهات المختلفة.
لكنكم أضعتموها.
ليس هذا فقط ...
دولٌ عربيةٌ عديدة، منها مصر،
كان لديها صورةٌ كاملة عن مخطط الغزو،
بعد أن وافقت واشنطون على العملية.
وعندما قدم المندوب السوفييتي في مجلس الأمن مشروع قرار ضدنا،
كان مندوب لبنان هو الذي عارضه،
مؤكدًا أن الغزو الإسرائيلي شأنٌ لبنانيٌّ داخلي!
في يومٍ واحد ألقينا على بيروت كمية من القنابل العنقودية والفوسفورية،
تعادل مرة ونصفًا قنبلة هيروشيما الذرية،
وأسفرت العملية كلها عن ٧٠ ألف قتيل و١٦ ألف جريح،
من الفلسطينيين واللبنانيين بالطبع.
لكن الأسهل لديكم من التصدي لنا،

هو أن تحاربوا بعضكم بعضًا،
أو أن تقاتلوا إخوانكم في الدين.
وبينما الفتن والخلافات تمزقكم،
والديون تستنزفكم،
يتوافد علينا المهاجرون،
وتلوح إسرائيل الكبرى في الأفق.

عروسة صفراء ٢:

الله جل شأنه كان معنا دائمًا.
فلا تنسوا أن مصر ورد ذكرها بالقرآن الكريم.
لقد مرَّ علينا كثير من الغزاة.
وكانوا يبقون مئات السنين،
ثم يحملون عِصيَّهم ويرحلون،
بعد أن يصيبهم الضجر.

متفرج ٢:

ما ذكره المحترم لا يؤكد غير شيءٍ واحد؛
هو أننا شعب من فاقدي الهمة متبلِّدي الإحساس.
أفضِّل مثلًا آخر،
إذا كنتَ تريد حقًّا التدليل على أننا نخرج دائمًا كالشعرة من العجين.
في سنة ١٩٥٦، أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس،
فعادت إلى أصحابها،
الذين فقدوا ١٢٠ ألف رجل في حفرها،
لصالح الأوروبيين المتطلعين إلى الشرق،
الذين سرعان ما تحالفوا،
وبالاتفاق مع صنيعتهم إسرائيل،
انقضُّوا على بورسعيد،
وظلوا يقصفونها سبعة أيام من البر والبحر والجو،

ثم اقتحموها بالخديعة،
وحصدوا أهلها حصدًا.
سبعة آلاف قتيل سقطوا في يومٍ واحد،
ولم يتوقف القتل،
إلى أن وجَّه السوفييت إنذارهم الشهير،
وتحت ضغط الرأي العام العالمي،
اضطر المعتدون للانسحاب.
وظلت القناة مصرية.

عروسة صفراء ٣:

إنه مثال على الحمق والتهور وقصر النظر،
وعلى الغوغائية والشعبوية.
لماذا تتجاهل المرة التي تلتها؟
عندما أُغلق مضيق تيران،
وجاء الإسرائيليون وحدهم، مسنودين بالأمريكان،
بخطة أُجيدَ إعدادها،
واستغلت نقاط الضعف عندنا؟

عروسة إسرائيلية ٢:

أشتمُّ هنا روائح العداء للسلام،
الذي عملنا من أجله دائمًا،
ووضعنا أسسه في كامب ديفيد وأوسلو ومدريد،
وهو ما قدره المجتمع الدولي عاليًّا،
فقدم جائزته لبيجين،
ورابين وبيريز.

متفرج ٣:

الجائزة تذهب للسفاحين والقتلة،
ومحطمي أذرع الأطفال،
الذين يعلنون بأعلى صوت،

ومن فوق منابرهم الديمقراطية:
«أفضل عربي هو الميت.»

عروسة إسرائيلية ١:

ليس هناك ما يدعو للإنكار،
فرب إسرائيل لا يعرف الرحمة.
الأعداء مصيرهم واحد،
كبارًا كانوا أو صغارًا،
عسكريين أو مدنيين.

عروسة إسرائيلية ٢:

كانت الشاحنة تقلُّ مصريين في جلاليبَ بيضاء،
وعندما أطلقت رشاشي عليهم حدث أمرٌ غريب.
فقد ظلوا واقفين كأن الرصاص يدخل من جانب،
ويخرج من الجانب الآخر،
دون أن يثقب بطونهم،
بينما كانت الدماء تتدفق من جوانب الشاحنة بكمياتٍ كبيرة جدًّا.
كان ذلك لغزًا كبيرًا في نظري،
إلى أن فهمت السبب؛
فلأن الشاحنة كانت مكدسة لأقصى حد؛
لم يكن هناك مكان للسقوط على الأرض.
كل من مات
مات واقفًا.

متفرج ١:

أي سلام هذا الذي يتحدثون عنه؟
وهم ما زالوا يحتلون الأراضي العربية؟!
وإذا تركوا بعضًا منها،
فبشروط المنتصر المتغطرس،
المؤيَّد من المجتمع الدولي!

متفرج ٢:

مناطق منزوعة السلاح،
في أراضي المعتدى عليه،
فوقها محطات إنذار يديرها الأمريكيون.

متفرج ٣:

حرمان الفلسطينيين من حقهم في دولةٍ مستقلة،
ومن حق مهاجريهم في العودة إلى وطنهم.

متفرج ١:

إجبار الأردنيين على تأجير أراضيهم لإسرائيل،
وعلى الالتزام بعدم استقبال قواتٍ عربية دون موافقتها،
أو السماح بنشاطٍ سياسي قد تعتبره خطرًا عليها.

متفرج ٢:

أي سلام هذا الذي يتحدثون عنه؟
وهم يحتفظون بمائتي رأس نووي،
موجَّهة إلى العواصم العربية،
تحت سمع المجتمع الدولي وبصره،
ويطوِّرون الصواريخ،
ويعقدون الاتفاقيات العسكرية والأحلاف،
مع عتاولة الغرب والشرق.

متفرج ٣:

ويلقِّنون تلاميذ المدارس أن أرضهم،
تمتد من النيل إلى الفرات،
بما في ذلك منطقة خيبر السعودية.

عروسة إسرائيلية ١:

أمركم والله عجب!
فأنتم تريدون أن تحرمونا من حقنا التاريخي في أرضنا؛
أرض التوراة،
الذي التزمت به الولايات المتحدة الأمريكية،
والبنوك العالمية.

متفرج ١:

حديث التاريخ والبنوك شائق للغاية،
ولا بأس من فتح بعض صفحاته.
في ٤ يوليو ١٩٠٢ تناول الزعيم الصهيوني هرتزل طعام الغداء في لندن،
على مائدة اليهودي روتشيلد؛
— الذي موَّل مصرفُه قبل ربع قرن
شراءَ الحكومة البريطانية لنصف أسهم قناة السويس —
وعرض عليه مشروعًا لتوطين اليهود في أوغندة،
التي كانت توصف بلؤلؤة الإمبراطورية البريطانية،
وفي حدود علمي فإن اسم أوغندة لم يرد في التوراة.
وعندما رفض الإنجليز التنازل عن لؤلؤتهم، اتجه الصهيوني ناحيةً أخرى.
حضر إلى مصر في ٢٣ مارس ١٩٠٣،
يحمل مشروعًا لتوطينهم في سيناء،
عرضه على بطرس باشا غالي رئيس الوزراء (وجدُّ الأمين العام للأمم المتحدة).
وطبقًا للتقاليد العريقة،
رحَّب الباشا بالمشروع الصهيوني.
لكن سيده الإنجليزي كرومر لم يوافق (فأسرته كانت تملك بنك بارينج منافس روتشيلد).
هكذا كان حظ الفلسطينيين السيئ.

متفرج ٢:

قالوا إن فلسطين أرض بلا شعب،
وإن الرب منح أرضها لليهود،

وتجاهل الجميع أن فلسطين كان بها عام ١٩٤٧؛
أي قبل إنشاء دولة إسرائيل مباشرة،
مليون وربع مليون من السكان (بينهم ٦٠٠ ألف يهودي فقط)،
وإن إسرائيل قامت بتفريغ الأرض من العرب،
بالطرد والترويع والمذابح.
(في ١٩٤٨ دمرت ٣٨٥ قريةً من مجموع ٤٧٥ قريةً عربية)،
وبينما تجلب المستوطنين من كافة أنحاء العالم،
ترفض عودة السكان الأصليين،
طبقًا لقرارات الأمم المتحدة،
هكذا كان حظ الفلسطينيين السيئ.

متفرج ٣:

حظ الصهاينة كان رائعًا،
بفضل رعاية ربهم،
ليس أبانا الذي في السماوات،
وإنما ذلك الساكن في أقبية البنوك،
ببلاد الشيت SHIT.

عروسة أمريكية ١:

الغمز واللمز ضار للغاية،
وبالمثل الإهانة.
الحقائق معروفة لا نداريها أو نخفيها،
وقد أوضحها الرئيس السابق نيكسون في آخر كتبه:
«التزاماتنا نحو إسرائيل عميقةٌ جدًّا،
أخلاقية في الأساس.
حقًّا إن الإسرائيليين هم الذين اعتدوا وضموا أراضي،
لكن العودة إلى الحدود السابقة مستحيلة.
بمثل ما يستحيل عودة الفلسطينيين الذين غادروا البلاد في ٤٨؛
(فهم وأبناؤهم يبلغون ٣ ملايين نسمة،
وهو رقمٌ كفيل بتغيير الوضع الديموغرافي)،

أما اليهود الذين استوطنوا الأرض المحتلة،
فيجب أن يعودوا إلى إسرائيل،
مع منحهم تعويضاتٍ مناسبةً بالطبع!
يمكن الضغط على السعودية ودول الخليج واليابان لتقديمها.»
هكذا تحدث نيكسون قبل أن يموت.

متفرج ١:

صاحب الأرض الذي أُرغم على تركها،
لا يحق له العودة إليها،
أما اليهودي الروسي الذي ولد هو وأبوه في سيبريا،
فله كل الحق فيها!
إنها عدالة بلاد الشيت.

العروسة الأمريكية السابقة:

الحق أني لم أشهد مثل هذا الجحود من قبلُ،
خاصة وأن الشعب المصري يعيش على المعونة الأمريكية.

متفرج ٢:

فضلًا عن قلة الأدب والوقاحة، فإن ما ذكرته يجافي الحقيقة.
الشعب الأمريكي هو الذي يعيش على المعونة المصرية،
لندع جانبًا أن حكومتنا الأمينة الذكية،
تودع في بنككم الفيدرالي،
كافة احتياطياتنا من الدولارات،
وهي تزيد على ١٢ مليارًا منها،
وتستثمر فائدة هذا المبلغ التي تتجاوز ٥٠٠ مليون دولار،
في سندات خزانتكم،
أي تدعم الاقتصاد الأميركي،
بأن تحبس لديكم مبلغًا ضخمًا،
هو ثمرة عمل وكدح ملايين المصريين،
بدلًا من أن تستخدمه في شراء الديون،

أو المشروعات التي تستوعب العاطلين،
سندع ذلك جانبًا ونناقشك بلغة الأرقام:
في العشرين سنة الأخيرة (من ٧٤ إلى ٩٤)،
قدمت أمريكا لمصر مساعداتٍ اقتصادية وصلت إلى حوالي ٢٠ مليار دولار،
ويعود ٦٠ بالمائة من هذه المعونة إليكم في شكل صادراتٍ سلعية وخبراء ونقل.
وبلغت قيمة الصادرات الأمريكية لمصر ٢٩٢٠ مليون دولار عام ١٩٩٣،
وهناك ٢٠٠ شركة أمريكية لها مكاتب بمصر،
بخلاف ١٨٠٠ شركة لها وكلاء مصريون،
و٥٠ شركة مشتركة تنتج سلعًا متنوعة:
من بطاريات السيارات، والجرارات، إلى احتياجات المكاتب،
توجه إنتاجها للسوق المحلية والخارج،
وأغلب هذه الشركات، حسب كلامكم، تحقق أرباحًا ملائمة.

متفرج ٣:

أغلب هذه السلع لم نكن نستخدمها ولسنا في حاجة حقيقية إليها،
لكننا سرعان ما نألفها ولا نستطيع الاستغناء عنها،
رغم أنها قد تكون مميتة لنا.
يحضرني الآن ما نشرته «الواشنطون بوست» في ديسمبر ١٩٧٦،
فبدلًا من إعدام المبيدات المحظور استخدامها عندكم،
تشتريها حكومتكم من منتجيها،
ثم تشحنها إلى بلاد العالم الثالث،
فأنتم، رغم كل حديث عن التقدم والتحضُّر والغنى،
لا تتورعون عن بيع أمهاتكم، إذا كان ثمة ربح.

العروسة الأمريكية السابقة:

المحترم نسي شيئًا هامًّا؛
فعلى رأس هذه السلع التي وصفها بأنها زائدة عن الحاجة،
القمح الذي يصنع منه الخبز.

متفرج ١:

أبدًا لم أنسَ.
لقد كنا في عام ١٩٦٠ ننتج ثلاثة أرغفة من كل أربعة،
ونستورد الرابع،
ومنذ عشر سنوات أصبحنا نستورد ثلاثة أرغفة،
وننتج الرابع.
بالطبع هناك عواملُ كثيرة أوصلتنا إلى هذا الوضع،
لكن لا يمكنكم أن تدَّعوا البراءة الخالصة في الأمر؛
فأنتم تحققون دائمًا فائضًا من القمح.
وليس أمامكم سوى أن تحرقوه أو تُغرقوا به السوق،
فتنخفض الأسعار.
لكن عبقريتكم في الابتكار أوصلتكم إلى طريقٍ ثالث.
فالتكلفة الإنتاجية في بلادنا منخفضة،
ولهذا تشجعوننا، أنتم والبنك — اللي بيساعد ويدي —
والصندوق المفتوح للأحباب،
ورجالاتهما المخلصين، من أمثال عبد الشكور،
على الانصراف عن زراعة الحبوب،
إلى الفراولة والخيار الشيك،
وبقية المحاصيل التي يحتاج إليها مواطنوكم المرفهون،
كي تصلكم بسعرٍ معقول، أرخص مما لو زرعتموه بأنفسكم،
إلى أن نأخذ منكم حاجتنا من القمح،
عملاتٌ محلية توجه لتمويل مشروعاتٍ محلية،
بعبارةٍ أخرى لدعم القطاع الخاص؛
حتى يتمكن من استيراد سلعٍ أمريكية.
هكذا تعود الدولارات في النهايةِ إليكم.

متفرج ٢:

نحن نستورد سنويًّا ما قيمته ١٥٠ مليون دولار من القمح.
ويتولى إنجاز هذه العملية الذهبية،

مكتبٌ خاص في باريس تأسس سنة ١٩٧٦،
وكان أول رئيس له هو الدكتور القيسوني،
مهندس البناء الاشتراكي، ثم مقاول الانفتاح،
وخلفه الدكتور السايح ثم مصطفى خليل الشهير.
ويأخذ المكتب عمولة قدرها ٤ بالمائة على واردات القمح؛
أي ٦٠ مليون دولار كل سنة!
ويرتفع هذا المبلغ بالطبع كلما ارتفع ما ندفعه لإردب القمح المستورد،
هكذا يمكننا أن نفهم سر «الأسعار العالمية» التي لا تكف عن الارتفاع،
بالنسبة لنا وحدنا!
وبينما لا تبخل حكومتنا الكريمة على الفلاح الأمريكي بخمسين جنيهًا في الإردب،
تصرُّ على ألا يحصل الفلاح المصري على أكثر من ١٨ جنيهًا،
والسبب واضح لكل عينٍ بصيرة،
ويدٌ طويلة.

عروسة أمريكية ٢:

لا شأن لي بالماضي البعيد،
ولا بالتفاصيل؛
فأنا رجلٌ استراتيجي،
الصديق هنري،
كما وصفني المرحوم رئيسكم،
رغم أن ملعبي يمتد بين أطراف المعمورة،
فإن منطقتكم هي التي صنعت مجدي،
كما أمدَّتني بأمتع اللحظات في حياتي،
(لحظات من الضحك!)
لقد بدأت علاقتي بها منذ سنوات طويلة،
عندما كنت مستشارًا لبنك «تشيز مانهاتن»؛
البنك العتيد الذي يملكه روكفلر،
بابا البنوك الأمريكية وولي نعمتي،

وكان هذا البنك هو الذي يتحكم في البترول العربي،
ويسيطر تمامًا على الموقف، بعد أن طُرح عبد الناصر أرضًا،
بالضربة القاضية.
لكن لم تمضِ سنة على وفاة ناصر،
حتى بدا النظام الرأسمالي كله على وشك الانهيار،
تخلت الولايات المتحدة عن تعهدها بتحويل الدولار إلى ذهب،
ولم يعد الدولار مسنودًا باحتياطي من الذهب،
فانهار سعره بشدة،
لكن النجدة جاءت على الفور.
من أين؟
من بلد الحرم الشريف، مهد النبي العظيم،
عليه ألف صلاة وسلام.
فقد اندفع السعوديون إلى بنوكنا،
يضعون فيها الودائع باسم الحكومة،
ويشترون سنداتها غير القابلة للتسويق،
ويقدمون القروض لبلاد مثل الفليبين،
كي تشتري منتجاتنا،
لكن الأزمة لم تنفرج تمامًا،
وجاء عام ١٩٧٣ بعجز في ميزان المدفوعات الأمريكية،
لأول مرة منذ مائة سنة،
وتدنى سعر الدولار.
كنت وقتها مستشارًا للرئيس الأمريكي،
وغارقًا لأذنيَّ في مشكلة إسرائيل.
وفي إحدى اللحظات النادرة التي تتجلى فيها أعقد الأمور في جلاءٍ ناصع،
تبينتُ طريقي بوضوح،
فيما يشبه الوحي الذي كان ينزل على نبيكم الكريم،
ضربة القرن الكفيلة بحل كل المشاكل؛
ذهبت إلى السادات (الذي نعرفه جيدًا من زمان)،

وأبديتً له يأسي من أي حل ما لم يقم بتسخين الموقف.
لست أزعم أني المسئول عن قيام حرب أكتوبر،
فهذا يكون مني منتهى الغباء،
عبقرية أي استراتيجي ليست في تدبير الأحداث،
وإنما في التأثير فيها واحتوائها عند وقوعها،
وهو ما فعلته بالضبط.
فلم نسمح للقوات المصرية بغير عبور قناة السويس،
وهو ما كان ضروريًّا من أجل فتحها وإعادة تشغيلها.
وشجعنا صديقنا الملك فيصل، طيب الله ثراه،
على فرض حظر البترول ورفع سعره،
فتضاعف في أسابيعَ قليلة سبع مرات،
وسعد العرب البلهاء،
الذين يضعون فوق رءوسهم،
موانع الذكاء،
فقد امتلأت جيوبهم بالدولارات،
لكنها لم تستقر فيها سوى ثوانٍ.
فبفضل جشع البدو وتخلفهم،
سرعان ما انتقلت إلينا على يد الساحر روكفلر،
الذي تولى توظيفها على الفور،
وخلال ذلك كنت أمارس سياستي الموسومة،
بالخطوة خطوة،
(وهو على فكرة اسم رقصةٍ أمريكية)،
وهدفها كان ملاعبة السادات.
وكان اللعب لذيذًا للغاية،
فقبل أن يجلس في حِجْر كارتر،
كان قد عرف حِجْر العبد لله.
تنازل عن شروطه في التسوية الشاملة،
وانسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل سبعة وستين.
وفي أسوان، التزم أمامي بإمداد إسرائيل بالبترول،

وإبرام الصلح معها،
وإخراج السوفييت من معادلة الشرق الأوسط،
والأهم إلغاء سيطرة الدولة على التجارة الخارجية،
والسماح للمصريين بتكوين وكالاتٍ تجارية،
لكن الحق يعرف لأهله،
فلولا سذاجة المصريين وبلاهتهم، ما حققتُ شيئًا،
وكان السادات يفهمهم جيدًا (أليس واحدًا منهم؟)
ويعرف كيف يخاطبهم ويضحك على ذقونهم،
وبخبرةٍ تجاريةٍ عريقة منذ كان نائبًا لرئيس الجمهورية،
(عندما كان يتولى إدارة مصالح أمير الكويت)،
يبيع لهم أي شيء.
مرة يقول إن السوفييت امتنعوا عن تعويض السلاح،
كما لو كانت الحرب نيابة عنهم أو لحسابهم،
ورغم أنهم زودوا الطيران المصري بسرب ميج ٢٣،
قبل أن تحصل عليه دول حلف وارسو (فأتيح لنا التعرف على هذه الطائرة الخارقة).
ومرة يقول إن السلاح السوفييتي، الذي حقق لهم النصر،
متخلف ويجب استبداله بآخر من الغرب،
الذي يدفع العمولة،
وبدلًا من ثلاثة أرباع مليون جنيه مصري للميج ٢١،
دفع الأهبل بين ٦ و٨ ملايين دولار للفانتوم الأمريكية،
ومئات الألوف من الدولارات لخبراء عسكريين،
مكان الخبراء السوفييت.
الذين كانت موسكو تتحمل رواتبهم بالكامل.
ومرةً ثالثة يجعلهم يستقبلون نيكسون استقبال الفاتحين،
بعد أن رفضه العالم كله بما في ذلك الشعب الأمريكي نفسه،
متناسين الجسر الجوي الذي قتل الآلاف منهم قبل سنةٍ واحدة فقط.
ثم جعلهم يقبلون أن يكون هناك راعٍ واحد للخصمَين،

وصدق الهبل أننا يمكن أن نكون حكمًا عادلًا بينهم وبين إسرائيل،
وأننا يمكن أن نمدهم بسلاح لمحاربتها في يوم من الأيام.
والنتيجة بالطبع هي محادثات السلام التي أخرجتكم من الصراع،
وقضت إلى الأبد على حلمكم بالوحدة،
ومكنت لنا الأقدام.

عروسة أمريكية ٣:

أنا البابا،
ليس بابا الفاتيكان، ولا الإسكندرية،
بل أخطر؛ دافيد روكفلر،
أو الصديق دافيد،
بابا البنوك الأمريكية كلها،
وملك نيويورك.
دخل جدي السجن متهمًا باغتصاب شابةٍ صغيرة.
وكوَّن أبي ملايينه من قطعة أرض اغتصبتها شركةٌ صغيرة من الهنود الحمر.
ثم اكتشف بها بترولًا اغتصبه لنفسه.
واحد من محاميه تولى ترتيب أوضاع ألمانيا بعد الحرب الثانية،
وآخر وضع سياسة أمريكا البترولية،
وثالث وضع مشروع البنك الدولي والصندوق.
تميزت في هارفارد HARVARD بشيءٍ واحد هو جمع الخنافس،
وما زالت هوايتي إلى اليوم
(أحيانًا أتساءل عما إذا كانت هذه الهواية تعود إلى أن الجعران المصري قد استُخدم علامة على أقدم شكل للنقود؛ لأنه كما يرى تلامذة فرويد، ارتبط بعملية الإخراج؛ أي الشيت).
تعلمت منذ الصغر أن الدولة الأمريكية بكل أجهزتها،
قد وُجدت لخدمتي،
فنحن الذين ندفع قبل انتخابات ساكن البيت الأبيض،
ونحن الذين نقبض بعدها.
عندما أممت إيران البترول في عهد مُصدق،

كانت المخابرات الأمريكية هي التي أسقطته،
وبالنتيجة وُضعت كل عوائد النفط الإيراني في بنك تشيز مانهاتن،
وأصبحتُ المستشار السياسي والاقتصادي للشاه.
وعندما أوشك مويوتو على السقوط في أوائل السبعينيات،
سخر كيسينجر قواتٍ مصرية ومغربية لإنقاذه،
فارتفعت أسهم البنك وأسهم شركة الموارد المعدنية في الكونجو (التي تقدر نسبة أرباحها السنوية بـ ٤٠٠ في المائة وتملك أسرتنا نصيبًا كبيرًا منها).
ترددتُ على مصر بعد تولية السادات ١٣ مرة،
رجل دمه خفيف،
يشاركني حب الفخفخة وكراهية الشيوعية.
وقبل حرب أكتوبر بأسبوعَين فتح لي قلبه على مصراعَيه،
(بعد أن فتح لي بلاده كلها على مصراعَيها، وأمر كل الجهات بأن تضع تحت يدي أي بيانات أطلبها، فاطلعت خلال أسبوعَين على كل شاردة وواردة من أمور الاقتصاد المصري، تصوروا!)
قال لي بالحرف إن كيسينجر لا تهمه المشاكل وهي باردة،
عاوزها سخنة ومستوية للحل!
كأنني لم أكن أعلم!
وقال لي بالحرف إن مصر وضعت نفسها مع المفلسين،
وآن لها أن تكون مع الأغنياء.
ثم تطرقنا للخطوات العملية،
للقروض والعمولات والحسابات،
وقررنا فتح فرع في مصر للبنك.

عروسة أمريكية ١:

ضربة القرن الحقيقية هي ما حدث في الخليج.
حقًّا إن ثماني سنوات من الحرب الإيرانية-العراقية،
قد أنهكت البلدين،

(عبقري العراق شنَّها ولديه فوائضُ مالية مقدارها ٣٥ مليار دولار، وخرج منها بعد ثماني سنوات بديون خارجية ٤٢ مليار دولار، وإجمالًا كلَّفته الحرب ٢٠٠ مليار دولار)،
واستنزفت قدرًا كبيرًا من أموال العرب،
لكننا كنا محتاجين للمسة تشطيب أخيرة،
تلم الشرق الأوسط كله في جيبنا.
أبلغت سفيرتنا صدام أننا لن نعارض إذا أخذ الكويت.
وصدَّقها،
فاجتاحتها قواته في ٢ أغسطس ١٩٩٠.
في اليوم التالي اتصلنا بمبارك،
وذكَّرناه بالمعونة والديون، وبالبنك الدولي وصندوق النقد،
وفي اليوم الذي بعده أدانت الحكومة المصرية الغزو.
وكانت النتيجة أن رفض صدام حضور مؤتمر جدة،
الذي كان مقدرًا له بحث النزاع والوصول إلى حلٍّ سلمي.
ثم جاءت الخطوة الثانية.
أوصلنا للملك بوسائلنا الخاصة صورًا للقمر الصناعي،
أثبتت أن الجيش العراقي يتحرك نحو حدود بلاده.
لم يكتشف المسكين أن الصور ملعوب بها.
فالقوات التي ظهرت في الصورة لم تكن تتحرك،
إنما كانت تحفر لنفسها خنادق دفاعية.
وكنا قد أزلنا من الصورة أثر البلدوزرات التي تقوم بالحفر.
هكذا في ٦ أغسطس طلب منا رسميًّا،
أن تدخل قواتنا بلاده للدفاع عنها.
وكانت الطائرات جاهزة.
في نفس اليوم غادرت هناجرها، لتستقر بعد ١٥ ساعة طيران في الظهران،
ومنها إلى قاعدة تومريت في سلطنة عمان.
هكذا بدأت عملية درع الصحراء وهدفها المعلن هو ردع العراقيين،
أما هدفها الخفي فهو التحضير للعاصفة.

في ١٦ أكتوبر كان أمام جيمس بيكر وزير الخارجية تقدير موقف حاسم؛
«تحرير الكويت لم يعد بذي أهمية وليس سوى مجرد ذريعة.
المطلوب هو تدمير البنية الأساسية للعراق،
وإخراجه من معادلة الشرق الأوسط،
أو بالأصح إدخاله إليها.
لكن هذا الهدف سيحبط لو انسحب العراق من الكويت،
من تلقاء نفسه.
لهذا يجب أن تتوخى السياسة الأمريكية ثلاثة أهداف؛
استفزاز صدام بطرقٍ مختلفة تجعله يرفض الانسحاب،
رفض أي مساومة قد يعرضها،
وإحباط أي خطة للسلام قد تساعده على الخروج سليمًا من مأزقه.»
وفي ٢٩ نوفمبر أعطت الأمم المتحدة الضوء الأخضر لإجلاء العراق من الكويت،
ما لم ينسحب حتى ١٥ يناير.
وبينما كان الوسطاء يهرولون بين عواصم العالم للحيلولة دون المذبحة،
وعلى رأسهم السوفييت المساكين،
الذين كانوا يحاولون إنقاذ هيبتهم الضائعة،
ودولتهم المحتضرة،
كنا قد حشدنا آلة حرب جهنمية؛
غطت الأساطيل الحربية مياه الخليج والبحر الأحمر،
وازدحمت مطارات الخليج بالمقاتلات والقاذفات والناقلات،
سكاي هوك وتورنادو وميراج وبوما وسوبر بوما،
وفوقها أقمار التجسس والأواكس والأورورا،
أعاجيب تكنولوجية أنفقنا عليها مليارات المليارات،
تسجل كل حرف وكلمة وحركة يقوم بها صدام بالليل أو بالنهار،
وعلى طريق التابلاين الشهير،
تقدمت أكبر أرمادا برية في التاريخ؛
أكثر من نصف مليون جندي،
على رأسهم بضعة آلاف سعودي ومصري وسوري لزوم التمويه.

وبعد ساعتَين من منتصف ليلة ١٥ يناير.
انطلقت عاصفة الصحراء،
وخلال الشهر التالي دمرنا العراق وأعدناه إلى عصر ما قبل الثورة الصناعية.
ولم يستغرق الغزو البري غير أربعة أيام،
تم خلالها إبادة القوات العراقية في الكويت،
ودفع العرب البلهاء كلفة هذا كله؛
عام من الانتصارات، توجت بانهيار الاتحاد السوفييتي، بعد شهور،
دون حرب أو دياولو،
ثم مؤتمر مدريد الذي وضع الخطط
لجني الثمار.

متفرج ٣:

عمليةٌ رائعة دون شك،
قبل عشرين سنة لم يكن في استطاعتكم إرسال جنديٍّ واحد،
إلى أي مكان في المنطقة،
فشبح عبد الناصر كان ما يزال حيًّا.
وقبل خمس سنوات لم تكن لديكم قواتٌ أمامية في منطقة الخليج.
أما اليوم فهناك أكثر من ٢٠٠ طائرة مقاتلة،
تجثم في مجموعة من القواعد الجوية في عدد من البلدان،
على رأسها مصر،
ووجود بحري قوي طوال الوقت ومقر قيادته في البحرين،
ولواءٌ كاملٌ مقيم في الكويت،
عتادٌ مخزون في قطر،
والفاتورة يسددها العرب.

متفرج ١:

الكويت المسكينة،
التي كانت ترفض دائمًا أي تحالف أجنبي،

أصبحت تحت الحماية الأمريكية الدائمة،
وملتزمة بإنجاح سياستكم في المنطقة ودعمها.
وبتوقيع عقودٍ تجارية مع شركاتكم بعشرة مليارات من الدولارات،
وبعد أن أضاعت ١١ مليار دولار، خصصتها للتسلح بين ٧٣ و٩٠،
عادت اليوم تخصص مبلغًا أكبر للسنوات العشر القادمة.

متفرج ٢:

وخفض الأردن الرسوم الجمركية على السيارات الأمريكية؛ لتشجيع استيرادها وتمكينها من منافسة أخواتها اليابانية والروسية،
لكن نسبة التخفيض لم تعجب الولايات المتحدة،
واضطر الأردن لأن يجرى تخفيضًا آخر بمقدار النصف فكافأته، الحكومة الأمريكية بمساعداتٍ عينية قيمتها ٤٠٠ مليون دولار.
آلات مصانع وموتورات، أو حتى أغذية وأدوية؟
أبدًا! لا أكثر من ٥٠ ألف سيارة فورد (سعر الواحدة ٩٠٠٠ دولار)،
تبيعها الحكومة الأردنية لموظفيها مقابل أقساط تسدد على عشر سنوات.

متفرج ٣:

والإمارات المتحدة،
فرض عليها أن تشتري أسلحة لا تحتاجها،
بثمانية عشر ألف مليون دولار.

متفرج ١:

أكثر من سبعين مليار دولار أهدرت في حرب الخليج.
كم مصنعًا وجامعة ومزرعة ومستشفى يمكن إنشاؤها بهذا المبلغ؟
إن تحصين جميع أطفال العالم ضد المرض لن يتكلف سوى مليارَين ونصف مليار دولار في السنة.
ملياران ونصف مليار دولار سنويًّا لإنقاذ حياة ثمانية ملايين طفل في السنة.

١٥

عروسة أمريكية ١:

أنت تُضحكني.
لقد بددتم ثروة من أكبر الثروات التي أتيحت في التاريخ لأمة من الأمم،
كما قال هيكل، أحد كتابكم الكبار،
في عشر سنوات فقط،
أضعتم ألفًا وخمسمائة مليار دولار.
ثلثها تجمد في مشروعاتٍ ضخمة، مدنية وعسكرية،
تولاها مقاولون من عندنا،
ليس هناك احتياجٌ ملحٌّ لها.
والثلث الثاني في مشتريات سلاح،
لم تستخدموه ولا تعرفون كيف تفعلون.
والباقي ما زال يدور بمعرفة البنوك الأمريكية والغربية.

عروسة أمريكية ٢:

في سنةٍ واحدة هي ١٩٨٥ كانت الاستثمارات العربية الفردية،
في مجال الخيول فقط،
ببريطانيا فقط،
مليار دولار.

عروسة إسرائيلية ١:

البنوك العالمية تدور فيها الآن:
١١٢ مليارًا من أموال مصريين،
٧٤ مليار دولار من أموال جزائريين،
٦٥ مليارًا من أموال سوريين،
٤٣٠ مليار دولار من أموال سعوديين.

عروسة في ثياب خليجية:

حقًّا إن اسمي على رأس قائمة أغنياء العالم،
أو كان قبل حرب الخليج.
ومع ذلك يقولون إن رقم ثروتي غير معروف؛

لأنه لا فرق بينها وبين الخزانة العامة للمملكة،
وهو تعليلٌ مضحك للغاية؛
طالما أنه ليس هناك وجه للتفرقة بين الاثنين.

متفرج ٢:

لست أجده مضحكًا على الإطلاق،
فما يعلمه الجميع أن بلادكم الصحراوية لم تنتج حتى الآن غير النفط،
وفي حقول النفط يعمل ٢٥ ألف عامل،
كل واحد منهم ينتج ما قيمته ٢,٦ مليون دولار في السنة.
هكذا يمكننا معرفة حجم الثروة بالضبط،
وأصحابها الحقيقيين.

العروسة الخليجية السابقة:

لم أكن أتصور أن الأفكار الشيوعية ما تزال تعشش في أدمغة البعض،
بعد السقوط المدوي لقلاعها.
على أي حال، فليس هذا موضوعي.
ما أردت قوله هو معاتبة صديقي كيسينجر،
على لهجته الجارحة.
وأستشهد بصديق آخر، هو المرحوم فيلي برانت، الألماني، الذي قال بالحرف:
«إن الأموال التي أودعها السعوديون في البنوك الغربية والأمريكية،
تساوي إيجاد فرص عمل لحوالي مليون شخص في البلدان الصناعية سنويًّا
على مدى السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧.»
لقد كنا نحن الذين رفعنا سعر النفط وكدَّسنا هذه الأموال،
كما اعترف صديقي كيسينجر.
وعندما لم يعد الغرب قادرًا على مجاراة الارتفاع في أسعار النفط،
اتفقنا مع ريجان على إغراق السوق العالمي به؛
مما أدى إلى تدهور أسعاره،
وانهيار احتياطي الاتحاد السوفييتي من العملات الأجنبية،

وخسر العرب نتيجة ذلك ستين مليار دولار سنة ١٩٨٦،
بينما وفرت الدول الصناعية مائة مليار،
وقد تحملنا هذه الخسائر راضين،
لا عن بلاهة كما يقول الصديق كيسينجر،
وإنما عن اقتناع وإيمانٍ كاملَين،
بالعالم الحر ورسالته.
اشترينا معدات عسكرية بخمسمائة مليار في عشر سنوات،
دون أن يكون لدينا من يستطيع استخدامها،
لا عن بلاهة وجهل كما يقول الصديق كيسينجر،
وإنما عن فهم وإدراكٍ عميقَين،
بأن التسليح يحتاج إلى تجديدٍ يومي يتطلب نفقاتٍ باهظة،
وأن الاتحاد السوفييتي لا يملك من ورائه بلدًا مثل بلدنا،
بكعبتها وآبارها.
وليس أمامه سوى أن يضغط حزام التقشف،
أو يخرج من ميدان التنافس نهائيًّا،
وهو ما حدث بالفعل.
أوَتسمُّون هذا بلاهة؟
وعندما أسفر مجنون العراق عن عدوانيته،
وضعنا أرضنا وأموالنا رهن الصديق الأمريكي؛
حتى يسحق العسكرية العراقية،
دون أن يتكلف شيئًا.
وخلال ذلك حصلنا على أحدث تكنولوجيا بمجهودٍ بسيط،
وزمنٍ قياسي.
لم نكن في سذاجة الحالمين،
الذين تصوروا أن الحصول على التكنولوجيا،
يبدأ من الصفر،
ويتدرج حتى إنتاج الصاروخ.
ولهذا جمعوا أموال الناس،
وحرموهم من لذائذ الحياة،

في سبيل مستقبل في علم الله.
فلماذا العذاب إذا كان بوسعنا أن نشترى الصاروخ نفسه جاهزًا؟
ولماذا نعرض نفسنا لأخطار القتال،
إذا كان يمكن استئجار من يفعل ذلك نيابةً عنا؟
نفس الرأي كان يعتنقه زعيمكم المحبوب،
أنور السادات،
عليه ألف رحمة،
الذي أراد أن يعطي لكل مصري الكترونة في يده،
ومات قبل أن يحقق هذا الهدف النبيل.
أما نحن، فقد وفَّرنا لشعبنا الرفاهية
بأركانها الشرعية الثلاثة؛
المسكن والركوبة والخادم،
دون أن ننسى نبينا الكريم؛
فأنفقنا على توسيع حرمه وتجميل المنطقة المحيطة به،
٢ مليار دولار في السنوات القليلة الماضية.

متفرج ٣:

أرضٌ جرداء ينتصب فوقها خيال مآتة،
يحمل العين الإلكترونية للفيديو،
هذه هي الآن بلاد النفط الصحراوية.
المجتمع المتقدم ليس إنسانًا زائد أجهزة،
وإنما إنسانٌ مضروب في أجهزة.
ها هو في خيمةٍ مكيفة الهواء،
وحوله «حبات» من الثلاجات والفيديوهات والسيارات،
وأجهزة لا حصر لها،
ليس بينها واحد من صنع بلده،
ولديه أيضًا كمبيوتر يعمل باللغة العربية،
متصل مباشرة بقاعات البورصة في نيويورك ولندن وطوكيو،
حيث يتحدد سعر البرميل واسم المشتري،

ويستقر الثمن في خزائن البنوك الأوروبية والأمريكية،
بينما يذهب العائد إلى الجالس في البيداء،
وعلى رأسه مانعة الذكاء.
رزقٌ حلال دون مجهود،
أو وجع دماغ.
ويمكن تجنُّب شبهة الربا بالحديث عن مشاركة أو مرابحة،
ويمكن مضاعفة العائد بسهولة،
بشراء الذهب وتكديسه، ثم المضاربة عليه،
ولا يحتاج الأمر إلا القليل من الحظ،
وشيئًا من الشطارة،
والحاسة المرهفة لاتجاه الريح.
لكن هذا كله لن ينفع ببصلة،
أمام وحش اسمه التضخم.
سنة بعد سنة،
يجد الجالس في البيداء،
أنه لم يعد قادرًا على شراء كل ما يريد.
وتكون الثلاجات والفيديوهات والسيارات،
قد استهلكت،
والجزية المدفوعة للكاوبوي،
تضاعفت.
(اقترضت السعودية غداة حرب الخليج أربعة آلاف وخمسمائة مليون دولار).
سنة بعد سنة،
سيجد نفسه مضطرًّا لأن يقتطع من أصل الوديعة،
التي لا تسندها منشآت من أي نوع،
يمكن أن تولد مالًا؛
كالمصانع والمعامل والمزارع.
إلى أن يأتي اليوم المنظور،
الذي يحلم به جميع التعساء والمحرومين،

وعابري السبيل؛
عندما تختفي العين الإلكترونية للفيديو،
ولا يبقى غير خيال المآتة!

متفرج ١:

إنه خطٌّ واحد،
الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب،
مارًّا بدوحة الصحراء.
ليس بخط طول أو عرض،
ولا حتى نسب.
فما يجمع بين الملوك المجلَّلين،
السلاطين والأمراء المُسخمطين،
هو نشوتان:
واحدة للدم والثانية لماء الحياة.
فبعد ذبح الشاة، وقتل الأب والأم،
يسلمون مؤخراتهم للأسياد.
وبعد أن جربوا السيد الإنجليزي وابن عمه الأمريكي،
يهرولون الآن إلى الإسرائيلي،
الطالع في المقدَّر.

عروسة خليجية ٢:

الصور الأدبية لا تعجبني.
أُفضِّل حديث الأرقام،
فهو لغةٌ واضحة ومفهومة من الكافة.
عندما يسألني أحد عما أنجزت،
أرد عليه في إيجاز:
أنا أنفق يوميًّا ربع مليون دولار،
لأني أكسب ٥٠٠ دولار في الدقيقة.

الفضل يرجع لظروف نشأتي،
فأبي هو أول من أدخل جهاز الفحص بالأشعة إلى المملكة،
وبسبب ذلك أصبح الطبيب الخاص للملك،
وصار أخوه — عمي — القواد الخاص لصاحب الجلالة.
وبفضلهما خالطتُ أبناء الأمراء، وتعلمتُ معهم.
درستُ في كلية فيكتوريا الإنجليزية بالإسكندرية مع الملك حسين،
وكنا نتعرض للضرب بالعصي إذا نطق أحدنا بكلمةٍ عربية.
وفي جامعة كاليفورنيا أنجزت أولى صفقاتي.
كان الأمر سهلًا للغاية.
مجرد عقد صلة بين أبوَي اثنين من زملائي،
أحدهما مصري والآخر ليبي.
ومقابل ذلك حصلت على مائتي جنيه إسترليني،
أول عمولة في حياتي.
لكن البداية الحقيقية جاءت بعد ذلك؛
عندما استدعاني الأمير فيصل قبل أن يصبح ملكًا،
وسلمني شيكًا بمليون جنيه إسترليني،
وكان المطلوب هو تزويد الملكيين في اليمن بالسلاح الذي يقتل المصريين.
وبعد ذلك انهالت عقود السلاح من نورثورب ولوكهيد.
وعمولة السلاح كما يعلم الجميع لا تقل عن خمسين بالمائة،
وصنعت للكثيرين ثرواتٍ طائلة.
ومنهم مصريون محترمون،
كانت العلاقة مع السوفييت تقف في طريقهم؛
لأن الكفار لم يكونوا يدفعون العمولة.
لكن نشاطي لم يقتصر على الأسلحة.
فأنا أتعامل في كل شيء تقريبًا،
بما في ذلك اللحم
الأبيض والأحمر.
وقد كان لي شرف ترتيب القرض اللازم لتجديد شبكة التليفونات المصرية.
بالتعاون مع صديقي الدكتور مصطفى خليل.

فلي علاقاتٌ وطيدة بأكبر البنوك والشركات الصناعية،
التي تحقق دائمًا نسبة ربح لا تقل عن ٢٤ بالمائة،
وتحوِّل من بلاد العالم الثالث،
دولارين وربع دولار مقابل كل دولار تستثمره.
لكن صديقي كيسينجر هنا،
يعرف عن هذه الأمور أكثر مني؛
بحكم شركته المعروفة.

عروسة كيسينجر:

لست أنكر أن شركتي لها علاقةٌ وثيقة بأهم هذه المؤسسات،
وقد كونتها سنة ١٩٨٢ من شخصياتٍ بارزة معروفة لديكم جيدًا.
أحدهم وليام روجرز، وكيل الخارجية الأمريكية السابق، وصاحب المشروع الشهير.
والثاني لورد كارينجتون، وزير الخارجية البريطانية السابق،
وسكرتير حلف الأطلنطي سابقًا.
والثالث هو الجنرال سكوكروفت، مستشار الأمن القومي للرئيس بوش.
وأول من كان يقابل عندما يغادر فراشه كل صباح.
أما ماذا نبيع؛ فالإجابة بسيطة للغاية:
تقييم للشئون الدولية قائم على معلوماتٍ دقيقة بالطبع.
أرقام وبيانات، واتصالاتٌ شخصيةٌ مهمة.
لدينا الآن ٣٠ زبونًا؛ من فولفو السويدية،
إلى مونت أديسون الإيطالية.
بالإضافة إلى كوكاكولا ويونيون كاربيد الأمريكيتين.
الزبون منهم يدفع ما بين مائة ألف دولار وأربعمائة ألف في السنة،
مقابل بياناتٍ شفاهية عن طريق التليفون،
وأربعة أحاديث سنوية،
مع شخصي المتواضع.
يجرى خلالها تحليل مخاطر الاستثمارات،
ودراسة طرق حمايتها.

فهؤلاء العمالقة لم ينسوا أبدًا درس السويس.
وشبح جمال عبد الناصر هو الكابوس الذي يؤرِّق منامهم، كل ليل.

متفرج ٢:

نحن أيضًا لم ننسَ،
رغم ما بذلوا من محاولات.
لم نعد من الساذجين،
ولا نعتبره من الأنبياء المعصومين.
لكنه ابنٌ مخلص لشعبنا؛
وكل الشعوب سيئة الحظ.
أراد لنفسه المجد؛
فوهب نفسه لأمته،
ونذر حياته لخدمتها.
في الظروف المتاحة،
وعلى قدر ما استطاع.
كان حلمه عظيمًا،
لكن الأشرار كمنوا له في الطريق.
كانوا مصممين على إيقافه بأي ثمن،
وأخطأ هو في الاعتداد بالنفس،
وفي الحسابات، كما قال.
ودفعنا معه ثمنًا فادحًا،
للتخلف والشر.
وما زلنا ندفع كل يوم وكل ساعة.
لكن صوته وصورته لن ينمحيا من قلوبنا.

متفرج ٣:

أسمعه الآن،
وهو يعلن باسم الشعب،
تأميم الشركة العالمية لقناة السويس،

وبوسعي أن أستحضر النشوة،
التي شعر بها كل مصري وعربي وأفريقي،
بل وأبناء الشعوب البعيدة في آسيا وأمريكا اللاتينية،
وكل المستعبدين المستذَلِّين،
وهم يسمعون بعودة القناة إلى أصحابها.

متفرج ١:

ما أقدم عليه جمال عبد الناصر،
لم يكن إجراءً عاطفيًّا،
كان يرى لمصر أحد مستقبلين؛
إما أن تصبح سوقًا للمصنوعات الأجنبية،
فتظل بلدًا تابعًا ومتخلفًا،
نهبًا للأهواء والمصالح،
يتسول أبناؤه الحفاة
فتات الأعمال،
أو تتكفل بإنتاج احتياجاتها،
واحتياجات سوقٍ عريضة تمتد من المحيط للخليج،
فتلحق بركب التقدم، وتحقق لأبنائها
المعيشة الكريمة الآمنة.
لكن الخيار الأخير لم يكن سهلًا على الإطلاق؛
فهو يتطلب قاعدةً متينة من الكهرباء، وأموالًا طائلة، وصبرًا.
جرب في البداية تشجيع أصحاب الأموال،
لكن أبناء طلعت حرب قنعوا بالوكالات التجارية،
باستيراد الشكولاتة والسجاير،
وتعبئة الكوكاكولا.
ورأى عبد الناصر في مشروع السد العالي فرصة العمر؛ لتوليد الكهرباء الضرورية.
وعندما سحب البنك الدولي عرض التمويل؛
التفت إلى القناة التي كانت تدرُّ أرباحًا ضخمة،

١٥

تذهب إلى أحفاد نابليون واللنبي وكيتشنر،
تكفي لتمويل بناء السد.
فضلًا عن كونها قناتنا.

عروسة صفراء ١:

كنت بين المسئولين الذين تحدث إليهم لأول مرة عن تأميم القناة.
وقد صفقنا له جميعًا،
وأحلف على المصحف،
أننا بكينا من التأثر.

متفرج ٢:

أصدقك.
وإن لم تخنِّي الذاكرة،
فأنت وأمثالك، كنتم أول المصفقين في ٥٢ و٥٦
و٥٨ و٥٩ و٦٢،
وأول الباكين سنة ٦٧،
وعندما مات في ٧٠.
فأنتم سريعو التأثر.
وتتميزون بالإخلاص التام،
للسيد الذي تخدمونه.
وأنتم نجوم كل العصور،
تسطعون على هذا الوجه من العملة،
وعندما تقلب على وجهها الآخر،
تلمعون أكثر وأكثر.
رأيناكم مدافعين أشاوس عن الوطن،
ومنظِّرين لاشتراكيتنا الفريدة.
على رأس الشركات المؤمَّمة،
ممسكين بمفاتيح السياسة والاقتصاد والإعلام،
قاطفين الثمار ومستأثرين بالخيرات

(أفضل المساكن وحجوزات السيارات،
وأغلى الأقمشة والأجهزة،
وأجمل النساء،
وأحسن الفرص للأبناء).
وفي اللحظة المناسبة،
كنتم على رأس الشركات المختلطة،
وعملاء لشركات الغرب العملاقة،
ووسطاء في الصفقات إياها،
ضامنين لأنفسكم مستوياتٍ خيالية من المعيشة،
في بلد يعيش أكثر من ثلث أبنائه تحت خط الفقر.
نصف مليون منهم يسكنون المقابر.

عروسة صفراء ٢:

لم نتصور أبدًا أننا هنا اليوم
لنسمع هجومًا حاقدًا،
على طليعة هذا البلد
من قادة ورجال أعمال.

متفرج ٣:

أية أعمال تتحدثون عنها؟
أنتم مجرد موزِّعين للمنتجات الأجنبية بالعمولة،
بعد أن أقنعتم المصريين السُّذَّج
أنهم في حاجة إلى مياهٍ ملونة بطعم الأناناس،
فوط صحية تتشرب البلل من قبل أن يحدث،
مزيل عرق وشامبو شعر يقاوم الصلع،
معجون أسنان يمنع التسوس،
موكيت يخنق الأنفاس،
منظفات فعالة
في القضاء عليهم.
لاكتويل I LIKE IT.

متفرج ١:

رجال أعمال؟
بل عملاء agents،
زودتم سادتكم بالمعلومات الدقيقة،
عن خبايا السوق،
ثغرات القوانين،
وأذواق المصريين.
حصلتم منهم على الرخصة،
حق الإنتاج والتصنيع المحلي،
للعطور والبخاخات وأحمر الشفاه،
فوفرتم عليهم نفقات الانتقال ومخاطره،
وحوَّلتم إليهم الأرباح.

متفرج ٢:

لو كنتم حقًّا من رجال الأعمال،
لأنشأتم صناعة،
عمرتم أراضي،
دربتم عمالًا،
موَّلتم أبحاثًا،
كما فعل أسيادكم،
في مقتبل نهضتهم.
لكنكم تتبعون تقليد الآباء والأجداد،
الذين كانوا دائمًا من التابعين،
خدمًا للفرس واليونان والرومان،
ثم العرب والترك والكرد،
الطليان والأرمن،
الفرنسيس والإنجليز،
وأخيرًا الأمريكان وبنو إسرائيل.

متفرج ٣:

ما زلت عاجزًا عن الفهم.
لماذا تقترضون، ونتحمل عبء السداد،
ولدينا كل هذه الثروات؟
طبقًا لبيانات البنك الدولي في عام ٩٢،
فإن الأموال المصرية المهاجرة إلى الخارج،
بما في ذلك ما تم تهريبه،
تصل إلى ١١٠ مليارات دولار أي ٣٧٥ مليار جنيه مصري.
ويؤكد الخبراء المصريون أن الرقم الحقيقي هو ١٢٠ مليار دولار،
أي ٤٠٠ مليار جنيه.
وهم يستشهدون بثروة اثنين فقط من رجال الأعمال الفارِّين،
لا يقلُّ حجم استثماراتهما في الخارج عن ٥٦ مليار دولار.

عروسة صفراء ٣:

هذه والله أخبارٌ طيبة!
فمعناها أن بلادنا أصبحت غنية ومتقدمة!
نمرة بين النمور الجديدة!

متفرج ٣:

معك حق،
فقد جعلتم من بلادنا «نمرة».
في خلال عشرين سنة فقط،
أصبح لدينا خمسون فردًا فقط،
تبلغ ثروة كل واحد منهم بين مائة و٢٠٠ مليون دولار،
وإجمالًا مليون شخص،
جمعوا ثرواتٍ هائلة،
بينهم عشرة آلاف مليونير،
ولا أقل من عشرين ملياردير،

يملك كلٌّ منهم ألف أرنب.
كيف؟
بالتأكيد ليس من العمل الشريف،
وإلا كان جميع العاملين قد اغتنوا.

متفرج ١:

من تقسيم وبيع الأراضي،
من الرشاوي والعمولات،
المقاولات والتوكيلات،
المتاجرة بتسعير منتجات القطاع العام،
ونهب القروض الأجنبية،
من الحديد والأسمنت والسكر،
اللحوم والأغذية الفاسدة،
عمولات السلاح،
ومن تجارة العملة والمخدرات.
مالٌ حرام، وأصحابه أكلة مالٍ حرام، وأولاد حرام!

متفرج ٢:

مليون فرد تستورد لهم الخنزيرة والتمساحة،
ويدفعون عشرين جنيهًا في لهطة آيس كريم أو زبادي،
مستوردة لهم بالذات.
يقيمون الأفراح الباذخة،
ويدفعون ملايين الجنيهات في شراء الشقق.
يملكون القصور في كان وكاليفورنيا،
واليخوت في مونت كارلو وسان مارينو.
هم زبائن المطاعم الجديدة (يدفعون في الوجبة الواحدة ٥٠٠ جنيه)،
والكباريهات والأندية،
والفنادق الكبرى (تكسب سبعة منها ثلاثين مليون جنيه شهريًّا من الحفلات)،

ومكاتب الديكور ومعارض الأثاث والسيارات،
والمخدرات (في عام ٩٣ استهلكت البلاد ٢ طن هيروين قيمتها ٦٠٠ مليون جنيه).

متفرج ٣:

راقصة واحدة تمتلك سيارةً مصفحة،
ثمنها ٢ مليون جنيه.

عروسة لهلوبة:

لم لسانك يا خويا،
واحترم نفسك.
أنا لا بأسرق وأسمسر،
ولا بتسخمط.
كل مليون عندي،
عملته من عرق بطني.
تحبوا أوريكو؟
يللا يا جدع،
رقصني،
على واحدة ونص.

العرائس الصفراء تهتز كالدراويش:

مصريتنا ... مصريتنا ...
حماها الله.
الله ... الله ...

متفرج ٣:

مليون ثري،
٢ مليون متعطل،
و٢ مليون شقة مغلقة.

١٥

متفرج ١:

مليون بني آدم في القاهرة وحدها يعيشون داخل عشش،
جدرانها من ألواح الصفيح،
وأسقفها من الكرتون والملابس القديمة،
المجموعة من القمامة،
ويدفعون ضرائب مثل بقية سكان المدينة.

عروسة صفراء على هيئة امرأة بنظارة تملأ وجهها:

الحقيقة هذه المشكلة كما صرحت في التليفزيون.
أوجدت أنماطًا من البشر غير عادية،
على قدرٍ كبير من السلبية،
لا يشعرون بالانتماء،
ولا يشاركون في التنمية.

عروسة صفراء بلحيةٍ قصيرةٍ مدببة:

من دراستي لحالاتهم النفسية،
وجدتها سيئة،
فهم يحقدون على ساكني العمارات الفاخرة،
وعلى المجتمع.
ومنهم تتوالد عناصر الإرهاب.

متفرج ٢:

ثمن الشقة الواحدة في هذه العمارات
يمثل مرتب الوزير في نحو ٢٠٠ سنة،
والمدير العام في نحو ٤٥٠ سنة،
المرتب لا الدخل الحقيقي!
والشاب حديث التخرج في نحو ألف وخمسمائة سنة.

متفرج ٣:

أقل من ٢ في المائة من مجموع السكان،
ويستهلكون ٢٠ بالمائة من الكهرباء المخصصة للمنازل.

متفرج ١:

٣ ملايين طفل خارج المدارس،
تراهم في الورش،
بعيونٍ غائرة، وأجسامٍ هزيلة،
تلطخهم الشحوم السوداء،
يعجزون عن الفهم من الإعياء ونقص الإدراك،
ينطقون لغةً جديدة بكلماتٍ مبتورة الأحرف،
طليعة جيش من ١٥ مليون أمي،
نستقبل بهم القرن الجديد.

متفرج ٢:

أطفالٌ مقزَّمون، مصابون بالأنيميا،
وتضخم الكبد والتخلف العقلي.
وثلاثة أجيالٍ قادمة،
مضروبة في حيواناتها المنوية،
ستلد أطفالًا مشوَّهين.

متفرج ٣:

أكباد مريضة لنصف المصريين،
منهم خمسة ملايين فلاح في خطرٍ داهم،
بعد أن لوَّثتم الطعام والماء والهواء.

متفرج ١:

شبابٌ ضائع على النواصي،
تفترسه المخدرات البيضاء.
هذا هو ما صنعتموه.

عروسة صفراء ٢:

فهمت الآن عمَّ تتحدث سيادتك؛
فأنت تقصد العدل.
لكن العدل صفة من صفات الله لا يمكن لأحد أن يحققه،
ربنا هو الذي يرتب الكون،
ورزق ناس على ناس.

عروسة صفراء ٣:

أنت تتناسى يا محترم ما تحقق من إيجابيات؛
التليفونات والمجاري والمدن،
المزارع والمصانع الجديدة،
الديمقراطية الرشيدة،
وقنوات التليفزيون العديدة.
الرئيس نفسه أشاد أكثر من مرة
بالسواعد التي عملت في إخلاص،
وسهرت على مصالح البلد.

متفرج ١:

نعم، لقد رأيناكم،
عندما وقعت الزلازل والسيول،
وغرقت القرى والبيوت،
عندما احترقت المصانع،
واصطدمت القطارات وغرقت البواخر،
عندما انهار محصول القطن،
واختلطت مياه الشواطئ بالخراء؛
تهرولون متخبطين،
وتوشكون، من التأثر، على البكاء أمام الكاميرات،
بينما تقبضون من تحت المائدة.

متفرج ٢:

٩٠٠ حالة تعذيب سنويًّا،
تشمل الاعتداء الجنسي في المعتقلات وأقسام الشرطة،
انتخابات مطبوخة،
هذه هي ديمقراطيتكم.

متفرج ٣:

فيلات فاخرة من أموال الشعب لحفنة مليونيرات،
بدلًا من خمسمائة مصنع،
يتكلف الواحد عشرين مليون جنيه،
تكفي للقضاء على البطالة.

عروسة صفراء ١:

كل فيلا من هذه الفيلات تحتاج لمن يحرسها ويخدم بها.
أليس هذا أفضل من المصانع التي تتكلف الملايين؟
وتحتاج إلى التكنولوجيا؟
يجب أن نتخلص من هذه النظرة الضيقة الموروثة من أيام الاشتراكية.
يا ريت كان فيه مليون حوت في مصر كانوا شغلوا الـ ٢٠ مليون شاب،
أم تفضل أن ينفق هؤلاء المليونيرات أموالهم في أوروبا وأمريكا
بعيدًا عن القرِّ؟

عروسة صفراء ٢:

لو كانت الظروف تسمح،
كنا دعوناكم لزيارة مارينا،
لؤلؤة الساحل الشمالي،
التي بناها القطاع العام.

متفرج ١:

لنرى كيف تروى الحدائق بمياه الشرب النقية،
بكلفة ثلاثة ملايين جنيه في السنة،
هي أموال الشعب،
صاحب القطاع العام.

عروسة صفراء ٣:

من العبث إنكار حجم المشاكل التي نعانيها.
فما زلنا في عنق الزجاجة.
لعنة الله على من أدخلَنا فيها.

عروسة صفراء ٤:

كلما سمعت اسمه،
أصبت بالأرتكاريا،
رغم أني جمعت المليون الأول،
من تحت أنفه الغليظ،
وفي ظل اشتراكيته المزعومة.
صحيح أن البذرة تكونت في معسكرات الجيش الإنجليزي،
وأينعت في أرض الحرمَين الشريفَين.
لكن الصعود الحقيقي جاء بعد عدوان ٥٦،
عندما تمت إعادة تعمير بورسعيد،
ثم توسيع قناة السويس،
الذي كسبتُ فيه مع شريكٍ أمريكي مليونَين.
ثم جاء السد العالي.
وكان دوري فيه هو نقل الصخور وردمها.
لكني أجدت الدعاية لنفسي.
والإعلاميون الحاضرون هنا يشهدون على ذلك؛
فقد أطعمتهم بما فيه الكفاية.

وكانت النتيجة أن تصوَّر الناس أنني أنا من بنى السد،
وبفضل هذا كله استطعت أن أعبر محنة التأميمات
التي وقعت البلاد كلها ضحية لها،
بسبب جنونه وحقده.

متفرج ٢:

التأميمات لم تكن اعتداءً بل إنصاف.
الأراضي التي اغتصبها المماليك.
أعاد محمد علي توزيعها على الألبان والأتراك،
ومن رضي عنهم من المصريين.
وهي التي ولدت مبانيَ وشركاتٍ وبنوكًا،
أغلبها كان حكرًا على الأجانب والمتمصرين،
وخدمهم من أهل البلد الأصليين.
وقد رفضوا كل العروض والتسهيلات،
التي قُدمت لهم للمساهمة في تصنيع البلاد.
التأميمات إذن أعادت الحقوق إلى أصحابها.

العروسة السابقة:

ما زلت مقتنعًا بأن الجنون والحقد،
أعمياه عن كل شيء عدا ذاته،
بعكس السادات الذي كان زعيمًا من نوعٍ آخر،
أضناه البحث عن الذات،
ويعرف ربه في الخفاء أكثر مما في العلن.
رأيته يجلس على الأرض كعادة الفلاحين،
يأكل هو وأفراد أسرته من طبقٍ واحد فوق الطبلية،
(صحيح أنهم كانوا يجلسون فوق موكيت بلجيكي فاخر، وأن الأمر كله كان للتصوير،
وأن المدام رفضت الاشتراك في هذا التهريج،

إلا أن الموقف يكشف لكم حقيقة ميوله وتوجهاته).
كان هو الذي ساعدني على الخروج من أخطر محنة واجهتني،
عندما اشتركت في مقاولة إقامة قواعد الصواريخ،
أثناء حرب الاستنزاف،
وقصفت الطائرات الإسرائيلية عدة مواقع في آنٍ واحد،
فقتلتْ خمسمائة عامل مرةً واحدة،
ثم تبين أن الإسرائيليين حصلوا على خرائط هذه المواقع،
من مكتبي،
وعن طريق أحد أقاربي.
لكن الله ستر،
ولولاه ما كنت أفلتُّ برقبتي.
وفيما بعدُ،
بعد أن نجح العبور في ٧٣،
وأحدث شارون ثغرته المشهورة،
استدعاني السادات للقائه،
وتصورت أني سأجده منهارًا أمام ذلك التطور المفاجئ.
لكنه كان في قمة الانتشاء
وهو يحدثني عن التعمير
(كانت إسرائيل تشترط البدء فورًا في تعمير مدن القناة
لتكون حاجزًا إذا ما تجدد القتال)،
وعن تحويل بورسعيد إلى مدينةٍ حرة،
تزدهر فيها المصانع الأجنبية دون قيود،
عاهدًا إليَّ بالمقاولة كلها.
وكانت المعونة الأمريكية جاهزة للتمويل
(تحية لزعيمة العالم التي وقفت إلى جانبنا في وقت الشدة)،
وسرعان ما امتلأت أسواق البلاد العطشى،
بالسلع التي حرمتْ منها طويلًا؛
السفن أب، وصابون كامي، وشكولاتة نستلة،

والجبن الفرنسي ذي الرائحة النتنة.
كان نجاحي كاسحًا؛
فأعطاني وزارة التعمير،
ثم ضمَّ لي وزارة الإسكان،
يعني أخذت مقاولة البلد كلها.
كنا نستقلُّ الهليكوبتر،
نحلق في السماء ومعنا الخرائط.
وكان بوسعي أن أضع إصبعي على أي مكان،
وأفعل به ما أشاء.
وكانت تأتينا أفكارٌ أخَّاذة حقًّا،
مثل الأمن الغذائي،
ومنع أكل اللحم لمدة شهرٍ كامل.
أنشأت خلاله أكبر جسرٍ جوي عرفه العالم،
من الدواجن المجمدة.
وبعد الدواجن جاءت الأسماك.
ولاحظت أن الشركات الأجنبية في المناطق الحرة،
التي تنتج أحمر شفاه، حاضنات أطفال،
مناديل ورقية وكافيه،
تعتمد على البنوك المصرية في التمويل،
وتتمتع بإعفاءات من الضرائب والجمارك،
وتستغل أيدي عاملةً رخيصة،
وتصدر للخارج أرباحًا بالملايين.
ورأيت أني أولى منها بالخير،
فأصبحت إقامة الشركات لعبتي.
وتربع اسمي على رأس ٢٠٠ شركة؛
المقاولات والأحذية والسياحة،
المياه الغازية والتوكيلات التجارية.
شركات خفيفة سريعة الربح،

أقمتها بالتعاون مع النابهين،
الذين يدينون بالفضل للقطاع العام،
للتوريدات والسوق السوداء وشغل الباطن،
والتحايل على قوانين النقد والجمارك،
للهزيمة والتعمير،
وحضرات الضباط الأحرار،
الثوار،
وأهل الفن،
أقصد التكنوقراط،
الذين كوَّنوا الثروات من البدلات والمخصصات والامتيازات.
لم أضع فيها مليمًا واحدًا من جيبي،
إنما موَّلتُها من بنوك القطاع العام وشركاته،
وصناديق النقابات،
وتأمينات العاملين ومعاشاتهم،
وحق الاستيلاء على أية أملاكٍ عامة من أراضٍ وخلافه،
يعني باختصار: عسل!
لكن حلقةً واحدة كانت ناقصة؛
عرفت أن بنكًا أجنبيًّا حقق ربحًا بمليون جنيه في أول سنة من نشاطه،
حوَّله كاملًا إلى الخارج.
في حين أن الشركات تحقق أرباحها بعد عدة سنوات وتظل محبوسة داخل البلاد،
محرومة من فرصة التوالد في البورصات.
هكذا انتقلت إلى إقامة البنوك
بنفس الطريقة،
أي من أموال البنوك الأخرى،
بعبارةٍ أخرى: من دقنه وافتلُّه،
وفي شهورٍ معدودة كان لي بنك في كل محافظة؛
٢٣ بنكًا.

وخلال سنواتٍ قليلة كانت أموال البلاد في يدي،
كما كان الأمر معه،
ومع محمد علي من قبله،
على أني لم أكن في غباء الاثنين،
اللذين حاولا حبسها في مشروعاتٍ ضخمة،
يحدوها طموحٌ أجوف.
وتحتاج إلى سنواتٍ طويلة قبل أن تؤتي أكلها،
وهو ما يتنافى مع طبيعة البشر وأوامر الدين.

عروسة صفراء بلحيةٍ كثيفة:

٢٠٠ شركة و٢٣ بنك لجمع بضعة مليارات!
يا له من مجهود،
لم أكن في حاجة إليه!
الجميع يعرفون الآن قصة جحا والحلة،
ولا بأس من أن أرويها من جديد،
فالتكرار لا يؤثر في الحمار.
ذات يوم اقترض جحا حلة من إحدى جاراته،
بعد أيام ذهب إليها حاملًا الحلة وطاسةً صغيرة.
سألته الجارة: ما هذا يا جحا؟
قال جحا: الحلة ولدت عندي،
وبما أنكِ صاحبتها فأنت أحق الناس بخلفتها.
بالطبع أخذت الجارة الطاسة،
وألحفت على جحا أن يحتفظ بالحلة، لعل وعسى،
ثم روت القصة لجيرانها.
وذاعت معجزة جحا وأمانته بين الجيران،
فتسابقوا يعرضون عليه حللهم،
متوسِّلين أن يضعها لديه بعض الوقت،
لعل شيئًا من بركته يمسها،
وتلد كسابقتها.

انتظروا بضعة أيام ثم بدءوا يترددون عليه سائلين عن حللهم.
واكتشف أحدهم اختفاء حلَّته،
فقال له جحا إنها ماتت أثناء الوضع.
لم يكن صاحب الحلة من البلاهة ليصدق هذا الزعم.
صاح في جحا: هو معقول أن الحلة تموت؟
وكان رد جحا المفحم: هو معقول أنها تلد؟
تذكرتُ هذه القصة في شهوري الأولى بالسعودية،
وأنا أعود منهكًا بعد ساعاتٍ طويلة من الوقوف بائعًا في حانوت،
لاستغرق في النوم بعد دورين كوتشينة،
مع زملائي في الشقة،
يجري خلالهما الحديث حول موضوع واحد لا يتغير؛
ما سيشترونه بمدخراتهم عند العودة النهائية إلى مصر.
كلٌّ منهم كان يحلم بأن يعيش بقية حياته كأصحاب النفط بالضبط؛
شقة مجهزة من كله، سيارة،
ووديعة محترمة في البنك،
يعفيه عائدها من عناء العمل.
وعندما أباح السادات، رحمة الله عليه،
الاستيراد بالعملة الأجنبية مباشرة.
أصبح هناك طلبٌ كبير على الدولار.
هنا واتتني الفكرة.
بدأت أجمع الدولارات من المصريين في السعودية،
وأبيعها لمن يحتاج إليها من المستوردين في مصر.
كنت أشترى الدولارات بجنيهاتٍ مصرية
تُدفَع في مصر من خلال حسابات لي بالبنوك.
مضت الأمور على هذا المنوال بنجاح إلى أن واتتني فكرةٌ جديدة.
واحدة من الأفكار التي تُغيِّر مصائر الأمم والشعوب، والأفراد.
أن أكون أنا نفسي بنكًا!
ليس هذا فقط ...
وإنما أيضًا بنك يأخذ ولا يعطي!

يعني آخذ الدولارات دون أن أدفع شيئًا مقابلها.
بدأت باللحية فأطلقتها،
وحفظت عن ظهر قلب عدة آيات قرآنية.
وأصبحت من أنصار الاقتصاد الإسلامي،
أُبشِّر بالقضاء على الربا.
واختلقت حديثًا شريفًا يساوى من أخذ الربا بمن زنا بأمه في الكعبة.
عرضت على أصحاب الأموال فائدة لا تقلُّ عن ٢٤ بالمائة،
فهُرِعوا إليَّ بأموالهم زرافات ووحدانًا،
دون أن يساورهم الشك،
ووجدت بين أصحاب الفضيلة من أعلنوا أن هذه الفائدة،
ليست فائدة وبذلك لا تُعدُّ من الربا.
فاطمأنت قلوب المودعين المؤمنين.
وبدأت الملايين تتجمع لديَّ دون أن أدفع شيئًا.
كيف؟
الأمر جد بسيط، كما سبق أن تبيَّن جحا.
كنت أعطي الفائدة للمودع من وديعة المودع الذي بعده.
ثم واتتني فكرةٌ ذهبية أخرى؛
أن أستردَّ هذه الفائدة من المودع دون أن يشعر!
كيف؟
قمت بحملةٍ إعلانيةٍ واسعة عن مشروعاتٍ ضخمةٍ جديدة للمنتجات الغذائية،
والسلع الكهربائية المستوردة،
هي في الحقيقة مشروعاتٌ قائمة بالفعل،
اشتريتها بما لديَّ من إيداعات،
وأعدت بيع منتجاتها بزيادة في السعر.
لَمَنْ فيما تعتقدون؟
للمودعين أنفسهم؛
لأنهم عمليًّا الطبقة القادرة على شراء السلع الغالية،
والذين اشتروها — أي سلعهم — بالفعل، للمرة الثانية!

وبذلك ضربتُ عدة عصافير بحجرٍ واحد؛
فقد أوهمت الجميع أن الأموال المودَعة لديَّ تعمل بنشاط في الإنتاج،
وجذبت بذلك مودِعين جددًا.
ثم إني استعدت الفائدة التي أخذها المودعون من خلال السلع التي اشتروها.
بل وأجبرتهم أحيانًا — عن طريق الإعلانات — على أن يشتروا سلعًا ليسوا في حاجة إليها،
على أن يخصم ثمنها — الذي أحدده على هواي — من ودائعهم ذاتها.
يعني، باختصار، سخمطتهم!

عروسة صفراء ٥:

يا للعار!
ألا تخجل؟!

العروسة الملتحية:

أنا لم أخدع أحدًا ولم أرغم أحدًا،
كل ما فعلته كان في الضوء.
بشهادة أصحاب الفضيلة والسيادة والسعادة،
الذين نالهم من الحب جانب.
وإلا ما كانت الدولة كافأتني،
بأن حولتني إلى شركةٍ مساهمة،
أملك أكثر من نصف أسهمها
(هي في الحقيقة أموال المودعين)،
مقابل أن أدفع لهم نقودهم على مدى عدة سنوات،
يأخذون أغلبها سلعًا مستوردة بأسعارٍ مضاعفة.

متفرج ٣:

الحق كله معك.
لم يكن بإمكانك أن تجمع مدخرات الناس،
لو لم يتواطأ الدكاترة المحترمون معك.

فبدلًا من وضع الخطط لاستثمارها في إقامة الصناعات والتنمية،
تعمَّدوا توفيرها للسماسرة والمغامرين والنصابين؛
من أبنائهم وأقاربهم وأذنابهم،
بينما راحوا يقترضون من البنوك العالمية،
التي دفعت الرشاوى بسخاء.

متفرج ١:

جملة القروض التي قدمتها بنوك القطاع العام الأربعة،
للمحظوظين من رجال الأعمال عام ١٩٩٥،
بلغت ١٢ مليار جنيه،
استخدمت في المضاربات العقارية،
وتمويل صفقاتٍ تجارية استهلاكية كالسيارات.
تصوروا لو كانت قدمتها للصناعة.

عروسة أمريكية:

اسمي مكنامارا.
لا أحد يذكرني الآن،
رغم أني كنت ذات يوم ملء السمع والبصر،
مشهورًا بنظري الحاد، عويناتي المعدنية،
وشعري الفضي.
كان شعاري أن كل مشكلة لها حل،
أيًّا كانت إنسانيته، أو أخلاقيته.
خرجت من جامعات الصفوة إلى شركة فورد،
حيث بنيتُ سمعتي كرجل إدارة منقطع النظير؛
لهذا اختارني كندي وزيرًا للدفاع، لأدير الحرب الفيتنامية.
لكنها تعسرت عليَّ،
فانتقلت في ١٩٦٨ إلى إدارة البنك الدولي
حيث حققت نجاحاتي.

١٥

كانت مهمتي الرئيسية في التعامل مع نموذج التنمية،
الذي اعتمدته بلدان العالم الثالث،
ففضلًا عن سذاجته ورومانسيته،
لم يكن يواكب التطور العالمي،
وبالتالي يتعارض مع مصالح الغرب.
فماذا يحدث لو تمكنت مصر والهند والمكسيك،
وغيرها من دول العالم الثالث،
من بناء صناعتها الخاصة؟
إذا أكلتْ وشربتْ ولبستْ من إنتاجها؟
عكفتُ على دراسة الملف المصري.
فرأيت بثاقب نظري
الهاوية التي كان يسير إليها المرحوم ناصر؛
كانت سياسة التنمية التي اعتمدها تقوم على إحلال الواردات الاستهلاكية.
(ثلاجة وبوتاجاز وسخان لكل مواطن فضلًا عن سيارة لأبناء الصفوة)
أي على استيراد السلع الوسيطة والآلات.
ولأن الادخار المحلي كان غير كافٍ لتمويل تلك الاحتياجات،
ظهر العجز في ميزان المدفوعات.
وعندما تورط في اليمن،
واصطاده السعوديون على أرضها،
اهتزت خطة التنمية،
ثم انهارت تمامًا عندما أوقعه الإسرائيليون،
وبدأ الاقتراض من البنوك العالمية،
لكنه تم في أضيق الحدود.
وتفاقم الوضع بعد حرب أكتوبر ٧٣،
بينما تجمعت في البنوك العالمية أرصدةٌ ضخمة
تبحث عن استثمار.
هنا جاء دوري.
قمت بواجب الزيارة لمصر في ١٩٧٤،
بعد أن مهد روكفلر وكيسينجر الطريق.

وتحدثت مع حجازي عن سياسة الانفتاح.
وعندما أبدت مصر مرونة في محادثات فصل القوات،
أبديتُ استعدادي لزيادة حجم الإقراض لها،
من ٣٠ مليون دولار إلى ٣٠٠ مليون دولار؛
ورحب السذج.
وفي ١٩٧٧ظهرت مشكلة سداد القروض،
وأبدى صندوق النقد صرامة وحزمًا بَالغَين.
اجتمعت بالقيسوني،
(الذي كان هو نفسه ممثلًا سابقًا للصندوق في الشرق الأوسط)
وعرضت عليه طلبات الصندوق فقبلها،
لكن الاتفاق باظ بسبب انتفاضة الحرامية.
ولم تمضِ شهور إلا وذهب السادات إلى كامب ديفيد،
ثم وقَّع الصلح مع إسرائيل،
وكان لا بد من مكافأته؛
فعقدنا اتفاقًا ثانيًا، تدفقت القروض على أثره.

متفرج ٢:

أنت حقًّا نجحت،
فقد أصبح البنك الآن وصيًّا على اقتصاد البلدان البائسة،
لصالح الشركات العالمية العملاقة،
يراقب المصروفات العامة ويتولى توزيع موارد الإنفاق؛
أي يرأس مجالس الوزراء.
فعندما عجزت البلدان الفقيرة عن سداد ديونها للبنوك العالمية،
(التي فرضت فائدةً أعلى بكثير من إجمالي المساعدات والقروض)
حلَّ صندوقكم محل البنوك،
وبدأ في تحصيل فوائد الديون كوكيل عن الدائنين،
عن طريق منح قروضٍ جديدة،
لإجراء ما سمي بالإصلاح الاقتصادي،
والتكييف الهيكلي.

متفرج ٣:

طلبتم في البداية تخفيض الإنفاق الحكومي،
وإطلاق حرية الأسعار أي ربطها بالأسعار العالمية،
(أسعار عالمكم أنتم)
بعد إلغاء دعم الاستهلاك والمسكن،
والمواصلات والمياه والكهرباء.
أمور نقبلها لو أطلقتم أيضًا حرية الأجور،
أي ربطتموها بالأجور العالمية.

عروسة صفراء ١:

الكلام هنا يلقى على عواهنه،
وإلا فليقلْ لي الجهابذة:
كيف يمكن أن تحل مثلًا مشكلة ندرة المياه،
إذا لم تسعر على نحوٍ ملائم،
يحفز المستهلكين إلى استخدامها بفاعلية أكثر؟

متفرج ١:

غريبة!
أول مرة أسمع عن ندرة المياه.
فما أعرفه أن المرحوم أنور،
من كثرة الفائض
عرض تزويد إسرائيل بما تحتاجه منها.

متفرج ٢:

ثم طلبتم تخفيض قيمة الجنيه المصري،
بحجة إنقاص الواردات الأجنبية،

متفرج ٣:

صفقة رائعة لحساب الأجانب وعملائهم المحليين،
الذين يكسبون سعرًا أفضل لعملاتهم الأجنبية بزيادة الثلث.
بينما ندفع نحن زيادة في أعباء الديون بمقدار الثلث،

وزيادة في ثمن ما كنا نستورده بمقدار الثلث
(أي مسح المدخرات التي شقينا في جمعها).

متفرج ١:

إلغاء الرسوم الجمركية على المستورد؛
للقضاء على ما تبقى من مصنوعاتٍ محلية.

متفرج ٢:

هيكلة الإنتاج لصالح التصدير،
أي توجيه الإنتاج لهدف التصدير لا لتلبية
احتياجات الشعب؛ (فهذه سيتم تلبيتها بالمستورد)،
من أجل توفير النقد الأجنبي لسداد الديون وفوائدها،
ولتزويد الحكام بالسيارات والمكيفات والفيديوهات،
عن طريقَين لا ثالث لهما:
إما التخصص في المشغولات الحرفية،
مثل منتجات خان الخليلي،
والمحاصيل الزراعية مثل الفراولة والخيار الشيك.
وإما من خلال مصانع أجنبية (بالكامل أو بالمشاركة)،
في العاشر من رمضان أو السادس من أكتوبر،
تنتج السلع الوسيطة؛
أدوات كهربائية بطاريات منتجات ألومنيوم،
أثاث، ملابس جاهزة، أدوات زينة، سيراميك،
مياه غازية، لبان، ألبان، مواد بناء، سجاد،
تجميع سيارات، تصنيع لحوم فاسدة،
مناديل ورق، منظفات،
معفاة من الضرائب والرسوم،
ومن تكاليف النقل والتأمين.

عروسة صفراء ٢:

قيمة أي دولة الآن تقاس بمقدار ما تصدره،
ويسرني أن أبلغكم بأننا طالبنا الأمريكان
في اجتماع لمجلس الوزراء المشترك،
بفتح أسواقهم أمام الصادرات المصرية.

متفرج ٣:

أي صادرات تتحدثون عنها؟
إلا إذا كنتم تقصدون المنتجات
التي سيصنعونها بثمنٍ رخيص لدينا!

متفرج ١:

تصفية القطاع العام (الذي نهبوه وخربوه)،
وبيعه في المزاد،
أي الخصخصة والمصمصة.

متفرج ٢:

٢١ شركة للصناعات الهندسية، ١٤ للصناعات الكيماوية،
١٧ للصناعات المعدنية، ٢٢ للصناعات الغذائية، ٧ للغزل والنسج،
١٤ لتصنيع المنسوجات، ٩ للأدوية، ١٢ للنقل البحري،
١٣ للتعدين والحراريات، ١٧ للمضارب والمطاحن،
٢٢ للقطن والتجارة الدولية، ١٦ لتوزيع الكهرباء،
٢٣ للتشييد والتعمير، ١٣ للأشغال واستصلاح الأراضي،
١٤ للتنمية الزراعية، ٢١ للإسكان والسياحة والسينما،
وعشرات أخرى غيرها.

متفرج ٣:

٣١٤ شركة قيمتها — عند إنشائها — مائة مليار جنيه،
أي مائة ألف مليون جنيه،
وبسعر السوق الآن،

لا أقل من أربعة أضعاف أو خمسة،
أي خمسمائة ألف مليون جنيه،
أو خمسمائة مليار.

متفرج ١:

الحديد والصلب، الكابلات الكهربائية، السجاد، الغزل والنسج،
الدلتا الصناعية (إيديال)، العربية للراديو، النصر للتليفزيون،
مصر للألومنيوم، النصر للمعدات والتركيبات،
كيما الأسمدة، النصر للأجهزة الكهربائية، راكتا للورق،
الماكو للمحولات، النصر للنقل الخفيف،
قها، فيليبس، كولدير، الغازات الصناعية،
الخزف والصيني، ترسانة الإسكندرية،
أسمنت طرة، أسمنت حلوان، أسمنت العامرية،
الإسكندرية للأسمنت، الصناعية للمبيدات والأسمدة،
مصر للصناعات الكيماوية، البويات والصناعات الكيماوية،
العامة للصوامع والتخزين، مطاحن مصر العليا،
مطاحن شرق الدلتا، مطاحن وسط وغرب الدلتا،
مطاحن مصر الوسطى، مطاحن شمال القاهرة،
المصرية لتصنيع الأخشاب، النصر للملابس والمنسوجات،
العربية للغزل والنسيج، الإسكندرية للغزل والنسيج،
دمياط للغزل والنسيج، المتحدة لتجارة المنسوجات،
النصر للمنسوجات ستيا، الدلتا للغزل والنسيج،
مصر شبين الكوم للغزل، المنسوجات الحديثة،
العربية لتجارة المنسوجات، بورسعيد لتصدير الأقطان،
عمر أفندي، صيدناوي، شيكوريل، بنزايون، عدس، ريفولي،
بيع المصنوعات المصرية.

متفرج ٢:

العربية للتوكيلات الملاحية، ميتالكو المالية،
القناة للتوكيلات الملاحية، الإسكندرية للحاويات،
دمياط للحاويات، النصر للزجاج والبللور،
مصر للزيوت والصابون، المصرية للنشا والجلوكوز،
الزيوت المستخلصة، الشرقية للكتان، كفر الزيات للمبيدات،
النيل للكبريت، المصرية للصباغة والتجهيز، النصر للمعدات والتركيبات،
ممفيس للأدوية، القاهرة للأدوية، العربية للأدوية، الإسكندرية للأدوية،
السويس للمناطق الحرة، المعادي للإسكان والتنمية،
أطلس للمقاولات، التنمية المتحدة للإسكان،
مصر للأسواق الحرة.

متفرج ٣:

الدواجن، كرونا للحلويات، الأهرام للمشروبات،
مصر للألبان، بسكو مصر، إدفينا للمعلبات،
فنادق: كوزموبوليتان، فلسطين، شهرزاد، البرج، كليوباترا، النيل،
شبرد، ميناهاوس، منيل بالاس، ماريوت، الخيام،
كتراكت أسوان، ونتر بالاس، هلنان، رومانس إسكندرية، إجوتيل الأقصر،
أنى أتون، حتب توت أسوان، أوبري السويس، إتاب الأقصر،
بولمان سيسيل الإسكندرية، الأقصر، كلابشة أسوان،
العلمين، مينا الأقصر، آمون أسوان، سافوي الأقصر، سان استيفانو،
بواخر: إيزيس، شهريار، شهرزاد، نفتيس، إيزيس، أوزوريس،
هلنان دهب، هلنان بورسيعيد، كميت قرية مجاويش،
مصر الجديدة للإسكان والتعمير، مدينة نصر،
الشرقية للدخان،

متفرج ١:

وبعد ذلك: الكهرباء والمياه والمجاري،
النقل العام والمترو والسكة الحديد،

الطيران والمطارات والطرق،
التليفونات والبريد،
الجامعات والبنوك،
قناة السويس والبترول،
السد العالي،
المصانع الحربية،
الأهرامات
(التي بدأت إسرائيل تطالب بها)،
أي كل ممتلكات الشعب المصري.

متفرج ٢:

كل ما حاربنا وضحينا،
من أجل إقامته والدفاع عنه
في ٥٦ و٦٧ و٧٣،
وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا.

عروسة صفراء ٣:

الحكومة لن تبيع سوى الشركات الخاسرة،
التي تمثل عبئًا على الاقتصاد الوطني.

متفرج ٣:

كاذب في أصل وشك!
فأنتم تبيعون الشركات الرابحة بحجة أن أحدًا لن يشتري الخاسرة!
وقد تعهدتم كتابة بأنكم ستستخدمون حصيلة البيع،
لإصلاح الشركات الخاسرة فعلًا
تمهيدًا لبيعها!

متفرج ١:

كذبةٌ أخرى من ترسانة أكاذيبكم،
تضحكون بها على الشعب الساذج؛

«الهدف من البيع هو توسيع قاعدة الملكية للمصريين،
الشركات الاستراتيجية لن تُمَس،
الأجانب لن يسيطروا على اقتصادنا،
لن يضار عاملٌ واحد،
المعاش المبكر هو إجراء لصالح العاملين.»

متفرج ٢:

تعهدتم للصندوق في خطاب النوايا التعيس،
أن تتيحوا للأجانب فرصة تملك المشروعات الوطنية،
والمشروعات ذات المنفعة العامة،
كالطرق السريعة، التليفونات، المترو،
الكهرباء، المياه، المجاري؛
لمدة ٩٩ عامًا (على غرار قناة السويس)،
يقومون خلالها بجباية الضرائب نيابة عن الحكومة،
لتحصيل التكاليف والأرباح،
وتحويلها لا لخزانة الدولة وإنما لبلادهم في الخارج.

متفرج ٣:

تعهدتم أيضًا بأن تعطوا الأجانب،
ما بخلتم به على أبناء بلادكم وصناعاتها؛
إعفاءات ضريبية وجمركية لمدة خمس عشرة سنة،
وفرصة الاقتراض من البنوك المصرية.

متفرج ١:

وأقسمتم على المصحف،
أنكم ستساعدونهم على التخلص من ١٤٠ ألف عامل،
بعد مهلة ٣ سنوات،
بلعبة المعاش المبكر.

متفرج ٢:

تعهدتم أيضًا بعدم المساس باحتياطياتنا من النقد الأجنبي،
التي تكونت من ثمرة جهدنا ومعاناتنا
(يدفع المواطن نصف دخله في ضرائب مختلفة دون أن يشعر).
١٨ مليارًا من الدولارات،
التزمتم بعدم استخدامها في مشروعات إنتاجية أو حتى في سداد الديون،
وبإيداعها في البنك الفيدرالي الأميركي،
أي حبسها لصالح عدونا الأكبر.

متفرج ٣:

تعهدتم بإجراء تخفيض الجمارك بنسبة ٧٠ بالمائة خلال ٣ سنوات،
بينما حددت اتفاقية الجات هذا التخفيض بنسبة ١٠ في المائة سنويًّا فقط،
خلال عشر سنوات.

متفرج ١:

التزمتم أمام ساداتكم بأن يقوم البنك الدولي وصندوقه
بمراجعةٍ دورية لأداء الحكومة كل ثلاثة شهور.

متفرج ٢:

هكذا اكتملت حلقات المؤامرة الجهنمية،
التي بدأت مع نجاح أول خطةٍ خمسية لتصنيع البلاد في ١٩٦٥،
فبعد أن أغرقنا السعوديون في مستنقع اليمن،
استدرجنا الإسرائيليون إلى فخ ٦٧،
وتولى أنور وصحبه الباقي.

متفرج ٣:

ما أشبه الليلة بالبارحة!
كلما تذكرت أن للخواجة مكتبًا دائمًا في وزارة الاقتصاد المصرية،

بصفته ممثلًا لهيئة صندوق النقد الدولية،
خطرت لي صفحة مأساوية في تاريخنا الحديث،
بدأ معها تخلفنا المشين.
فبعد محاولات التحديث بالتصنيع والتعليم،
التي قام بها محمد علي،
(في نفس اللحظة التي بدأته فيها اليابان)،
وأجهضتها أساطيل الغرب،
انصرف حفيده إسماعيل إلى التحديث بالقصور والتماثيل،
فبدَّد ثروات البلاد في سفه،
ثم تحول إلى الاقتراض من أصدقائه الأوروبيين.
وعندما عجز عن السداد،
أجبروه على إعلان الإفلاس،
وإنشاء هيئةٍ أجنبية تتولى اعتصار الاقتصاد،
لسداد الديون، أسموها صندوق الدين،
أقام ممثلاه في المكتب الذي تحتله سيادتك،
فمهدا الطريق لسبعين سنة من الاحتلال.

عروسة صفراء ١:

مهلًا، مهلًا، يا سادة!
شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية،
سيمدنا بالعملات الأجنبية التي تحتاجها التنمية،

متفرج ١:

الأجانب لن يدفعوا نقودًا في الشراء،
بل سيشترون الديون الخارجية للشركات بقيمةٍ اسمية،
ثم يحوِّلون الدين إلى أسهم في هذه الشركات،
بقيمة تساوى أضعاف ما دفعوه لشراء الدين.
وبعد ذلك يحولون هذه الشركات
إلى إنتاج السلع الوسيطة إياها،

بحيث يمكن تصدير السلع الرخيصة للخارج،
واستيراد السلع المتكاملة غالية الثمن
(ارتفعت الواردات الخارجية من ٨ مليارات دولار عام ١٩٩١ إلى ١٤ مليار دولار عام ١٩٩٣،
بزيادة بلغت ٨٠ بالمائة خلال عامين).

العروسة الصفراء السابقة:

شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية،
سيتبعه حتمًا تطويرٌ إداري وتكنولوجي،
ندخل به القرن الواحد والعشرين،
مرفوعي الرءوس والقامات.

المتفرج السابق:

أحلام العصافير،
وحجج اللصوص والمرتشين.
ستدخلون حقًّا القرن الواحد والعشرين،
وإنما فوق بطونكم منبطحين.
الشركات العالمية تحرص على أسرارها وخبراتها.
وهي تعمل وفق استراتيجيةٍ معروفة،
تقوم على نشر عمليات إنتاج السلعة في عدة بلدان،
بحيث لا ينتج البلد الواحد غير حلقةٍ واحدة أو أكثر،
من سلسلة إنتاج السلعة الواحدة.
حالة واحدة تتصرف فيها بكرم،
عندما يتعلق الأمر بالصناعات الملوِّثة للبيئة.

متفرج ٢:

سأقرأ عليكم تقريرا داخليًّا للبنك الدولي،
نشرتْه في ٨ / ٢ / ١٩٩٢ مجلة الإيكونومست الإنجليزية
(التي يملك نصفها بنك روتشيلد إياه).

يقول التقرير إن المصلحة الاقتصادية (لمن؟)
تحتم نقل الصناعات الملوِّثة،
مثل البطاريات الكهربائية والمبيدات،
الحديد الزهر والأسمنت والإسبيستوس،
إلى العالم الثالث.
ويسوق التقرير ثلاث حجج في هذا الشأن.
الأولي بالحرف: من الأفضل تلويث البلدان المنخفضة الأجور؛
حيث إن تكاليف حماية البيئة بها منخفضة كذلك.
الثانية بالحرف: من الأفضل تلويث البلدان التي لم تتلوث بعدُ؛ لأن ذلك يكلف أرخص في بداية الأمر.
الثالثة بالحرف: من الأفضل تلويث المناطق ذات مستويات المعيشة المنخفضة؛
حيث يكون لدى الناس على كل حال كثير من الهموم الأخرى.
ويضرب التقرير مثالًا على الحجة الأخيرة قائلًا بالحرف:
إذا كانت إحدى الصناعات الملوثة
تؤدي إلى زيادة احتمال الإصابة بسرطان البروستاتا،
بنسبة واحد في المليون،
فإن القلق الناشئ عن ذلك سيكون بالبداهة،
أشد بكثير في بلد يمتد فيه عمر الإنسان طويلًا،
(بلادهم هم طبعًا)
من بلد يموت فيه ٢٠ بالمائة من الأطفال
قبل الخامسة من عمرهم
(بلادنا نحن بالطبع).

متفرج ٣:

كافة البلدان التي تعاملت مع الصندوق،
ونفذت روشتته المشئومة،
تعرضت للفاجعة.
زادت الديون الخارجية،
وهبط مستوى المعيشة والقوة الشرائية،
وتدهورت الخدمات والصناعات المحلية.

متفرج ١:

أغرب ما في الأمر أن الصندوق نفسه،
يعترف بأن برامجه الإصلاحية لم تثمر،
وأنها أدت إلى زيادة التضخم،
وانخفاض معدلات النمو،
لكن المرتشين الفاسدين يشيدون بدورها
في إزالة «أسباب الخلل الاقتصادي»،
ويؤكدون أنها أفضل وسيلة،
لا لإذلال الجماهير وتمريغها في التراب،
وإبادة أكبر جزء من السكان،
وإنما لتحسين مستوى معيشتها،
وتحقيق رفاهيتها!

متفرج ٢:

قوانين السوق التي يتم إجبار دول الجنوب على تطبيقها،
هي نفسها التي أوجدت ٢٠ مليون عاطل و٤٠ مليون فقير،
في الدول الغربية.

عروسة صفراء ٣:

اقتصاد السوق هو اللي نادى به ربنا ونادت به الأديان.
وهو الكفيل بكسر الطوق،
ليبدأ عصر الإنتاج الواسع القادر على غزو الأسواق العالمية،
حقًّا ستكون هناك قراراتٌ صعبة في مجال التعليم والصحة والتغذية،
لكنه الطريق الوحيد للحاق بالنمور الآسيوية.

متفرج ٣:

حديث النمور ينم عن جهل أو خداع.
فقد بدأت بنفس سياستنا في إحلال الواردات.

لكنها على العكس منا،
تمتعت بمساعداتٍ أمريكيةٍ كريمة،
في صورة منح لا تُردُّ،
من أجل مواجهة الخطر الشيوعي،
ولم تنشأ إلى جوارها إسرائيل،
فلم تتعرض للعدوان أو الاستنزاف،
وتجنبت الوقوع في فخ المديونية.
وعلى العكس منا،
طبقت نظامًا صارمًا للنقد الأجنبي،
فلم يُسمح للأفراد بحيازته إلا مؤخرًا،
وأقامت الحواجز في وجه الواردات المنافسة للإنتاج المحلي،
الذي ما زال نصفه حتى الآن ملكًا لقطاعٍ عام،
تسيطر عليه الحكومة بخططٍ خماسية ورباعية
(خلال ٢٥ سنة لم تستورد كوريا الجنوبية سيارةً واحدة).
النمور لم تنجح إلا لأنها لم تستسلم
لمفعول قوى السوق، والحرية الاقتصادية.

متفرج ١:

كما أنها ضحت بعديد من الأجيال،
لا جيلٍ واحد كما ألفتم انتقاد التجارب الاشتراكية.
فالمناطق الحرة التي أقامتها لتجهيز الصادرات
نجحت في اجتذاب الاستثمارات الأجنبية،
بسبب المزايا التي قدمتها؛
عمالة منخفضة الأجر تضم الإناث والأطفال،
سبعة أيام عمل في الأسبوع،
حرمان من العطلات،
ومن حق التنظيم والإضراب،
ومن حدٍّ أدنى للأجور،
ومن حد الثماني ساعات عمل،

من التأمينات والمعاشات
والخدمات الصحية والتعليمية؛
مما جعل الفرد في ذعرٍ دائم.
أهذا هو ما تريدونه لنا؟

متفرج ٢:

الواحد منا يستيقظ في الصباح على منبهٍ ياباني.
ويغسل وجهه بصابونٍ فرنسي،
ثم يحلق ذقنه بفرشاةٍ صينية وماكينةٍ إنجليزية،
ويغسل أسنانه بمعجونٍ أمريكي،
ثم يتناول إفطارًا من جبنٍ دمياطي صنع في الدنمارك،
ويشرب شايًا هنديًّا أو سيلانيًّا،
بعد أن يضيف إليه لبنًا جافًّا من فرنسا أو سويسرا،
ثم يرتدي ملابس بسيطة؛ قميص أو بنطلون على المودة القادمة، مع الرخصة، من فرنسا أو إيطاليا.
وفي العمل يرتقي مصعدًا بلجيكيًّا،
ويشرب فنجان قهوة برازيليًّا أو سفن أب وكوكاكولا مع سيجارة مارلبورو أو روثمان،
بعد أن يشغل التكييف التايواني أو الياباني،
ويتحدث في تليفونٍ سويدي.
ثم يبدأ العمل، مستخدمًا قلمًا فرنسيًّا أو يابانيًّا،
وورقًا فنلنديًّا،
وعند الظهر يذهب إلى الجمعية الفئوية،
ليشتري سكرًا كوبيًّا، تونةً تايلاندية،
سردينًا إسبانيًّا ورنجة هولندية.
وفي طريق العودة إلى المنزل يأخذ خبزًا مصنوعًا بدقيقٍ أمريكي،
ومنظفاتٍ فعالة بالماركة الأجنبية،
ومصباحًا بلجيكيًّا أو بولنديًّا،

ودهانًا أستراليًّا لتلميع الأحذية،
وصلصةً يونانية، وأدويةً سويسرية وإيطالية،
وتتصدع رأسه وتنخرم أذناه من نداءات للبيع أو الصلاة،
من مكبرات صوت يابانية.
ويركب الأتوبيس الألماني الصنع،
أو ميكروباصًا يابانيًّا أو أمريكيًّا
دُقَّت مساميره في العاشر من رمضان،
ثم يشتري لابنه شكولاتة سويسرية،
وعلى شاشة تليفزيون كوري،
ركبت مفاتيحه في السادس من أكتوبر،
يتفرج على فيلمٍ أميركي أو فرنسي.
وقبل أن ينام يسمع في نشرة الأخبار،
تصريحات المسئولين،
تشيد بالصناعة المصرية،
والانطلاقة الإنتاجية.

عروسة صفراء ١:

الغباء هو الذي يشكك في أربح صفقة
نُقايض بها ما لدينا؛
الموقع الجغرافي،
العمالة الرخيصة والسوق الواسعة،
بالمستقبل.

متفرج ٣:

أنتم فعلًا تقايضون ما لدينا،
بالمستقبل.

عروسة صفراء ٢:

الأعمى هو الذي يعجز عن الرؤية؛
فالعالم الآن أصبح سوقًا تصديريةً كبيرة،

وستؤدي عملية السلام إلى ازدياد الاستثمار في المنطقة،
وتوسيع السوق الشرق أوسطية،
وزيادة الاندماج بين دولها،
بحيث تتشارك في الموارد المتاحة.

متفرج ١:

أموال الخليج ونفطه،
مياه النيل والأردن واليرموك،
والفرات والليطاني،
وكهرباء السد العالي.
عمالة مصر وفلسطين التعيسة.

متفرج ٢:

وتتولى إسرائيل المقاولة والسمسرة،
في مشروعات متكاملة،
تقودها أمريكا،
تعتمد على الموارد المتوافرة،
من أموال ونفط ومياه وكهرباء،
وعمالةٍ تعيسة.

متفرج ٣:

إن لم تعجبنا هذه السوق، أمامنا واحدة غيرها،
تضم البلاد المطلة على البحر المتوسط،
جاهزة هي الأخرى،
لاستغلال النفط والمياه والكهرباء؛
والعمالة التعيسة،
بقيادة فرنسا وألمانيا،
وقاعدتها إسرائيل أيضًا.

متفرج ١:

تحضرني حكاية تناسب المقام،
بطلاها اثنان من بلدياتنا،
أحدهما بحراوي والثاني كما هو متوقع، صعيدي،
قادهما البحث عن الرزق إلى الأدغال الأفريقية،
وإلى الوقوع في أسر قبيلةٍ متوحشة،
وكان رئيس القبيلة لطيفًا للغاية.
فقد خيرهما بين مصيرَين؛
إما «هونجا» وإما «قتلى».
ومن إشارات يديه أدرك الاثنان المقصود بكلمة «هونجا»
على الفور أعلن الصعيدي، الذي يعتز بالشرف أكثر من الحياة،
أنه يريد أن يكون من القتلى.
وكانت للبحراوي وجهة نظر أخرى.
بعد قليل من التدبر، قال:
هونجا.
تأملهما رئيس القبيلة طويلًا ثم أصدر أمره لأتباعه:
الاثنان هونجا حتى القتل!

عروسة أمريكية:

الجحود الذي تُبدونه لا حدود له،
فأنتم تنتقدون وتتمهزءون،
ولا يعجبكم العجب.
بينما تتوالدون كالأرانب؛
مما يقضي على كل فرصة في التنمية.

متفرج ٢:

هذه هي نمرتكم الكبرى!
ولحسن الحظ أن شاهدًا من أهله قد شهد.

يقول أحد مسئولي وكالتكم التنموية:
«إن استمرار الانفجار السكاني سيؤدي إلى ثورات،
وبدون أن نحاول معاونة بلدان العالم الثالث في تحديد النسل،
ستثور شعوب العالم ضد الوجود التجاري الأميركي.»
هكذا بوضوح، ودون لف أو دوران.
رغم أن المنظمات التابعة للأمم المتحدة أكدت أكثر من مرة،
أن العالم لا يشكو من نقص الغذاء،
بقدر ما يعاني من سوء توزيعه.
وأنه قد يواجه كارثة إذا تقلَّص نموه السكاني؛
لأن الموارد الطبيعية لم تستغل حتى الآن بشكلٍ كافٍ.

متفرج ٣:

في عام ١٩٨٤ تكدس في أوروبا الغربية فائض من المواد الغذائية
يكفي لملء مليون عربة،
فوق خطٍّ حديدي طوله ١٥ ألف كيلومتر.
وبدلًا من توزيع هذا الفائض على الأطفال النافقين،
في تشاد والصومال وإثيوبيا وبنجلاديش،
جرى سحق الفواكه والخضراوات بالجرارات،
وأتلفت الحبوب بالمواد الكيماوية.

متفرج ١:

ما يشغل خبراءكم هو المحافظة على مستوى معيشة الغرب.
الفرد الأمريكي يستهلك من المواد الغذائية قدر ما يستهلكه ٥٠٠ هندي.
وسكان الولايات المتحدة يستهلكون ثلث النفط العالمي،
وربع الحبوب ونصف الفوسفات،
مع أنهم لا يزيدون عن ستة بالمائة من مجموع سكان الأرض.

عروسة صفراء ٣:

هناك الكثير من المبالغات والمغالطات،
فيما قيل هنا.

وأخطاء فادحة أيضًا.
فأنا وزملائي من رجال الأعمال المصريين الأمريكيين،
كنا نتصور أن يجري تكريمنا لا التشهير بنا.
فرغم أن أغلبنا خضعوا للتأميم في السابق،
وهاجروا منذ ثلاثين عامًا،
فإننا لم نحمل أي غضاضة،
وهرعنا جميعًا للاستثمار في مصر،
عندما أصبحت الفرصة مواتية؛
ذلك أننا نحبها، أي مصر، من أعماق القلب.
وإني أنتهز هذه الفرصة لأستحثَّ
كل رجال الأعمال المصريين في الخارج على العودة.
ففضلًا عن الارتباط القومي والعاطفي،
فإن العائد المالي مُغرٍ، لا يقل عن عشرين بالمائة
(بينما لا يزيد في أوروبا وأمريكا عن ثلاثة بالمائة)،
وذلك بفضل المناخ الاقتصادي والسوق المفتوحة على البحري.

عروسة صفراء ٤:

كلام مضبوط جرَّبته.
كان الأمر ميسرًا للغاية،
لم يتطلب سوى عدة ملايين من الجنيهات لا الدولارات،
تقاسمها بعض الوزراء ورؤساء القطاع العام،
وكبار الصحفيين، دون أن أنسى الشاشة الصغيرة.
ولذلك أمكنني أن أستولي على محصول القطن،
وعندما تحقق له أحسن سعر في بورصات العالم،
قمت بتصديره.
ولأني أحب مصر،
وأشفق على أبنائها وعمالها،
رتبت في نفس الوقت الأمر،
فاستوردت لهم قطن أمريكا الرخيص.

صحيح أنه لا يصلح لمغازلنا فانهارت وأغلق أغلبها.
لكن ثمن التكنولوجيا ليس بخسًا،
ولا توجد جراحة بدون ألم.

عروسة صفراء ٥:

وأنا قمت عن طريق شبكة الأقمار الصناعية،
ولصالح شركةٍ أمريكية،
بعمل مسح للأراضي المصرية،
يمكنها من التنبؤ بكمية المحاصيل قبل الحصاد بمدةٍ كافية.
وبذلك يمكن تحديد مساحات التخزين،
وسياسات التسعير والتمويل،
أي السيطرة على الوضع الزراعي.

عروسة صفراء ٦:

أنا عبقريٌّ آخر،
مصريٌّ أميركي أو أميركيٌّ مصري،
كما تشاءون.
كل نبضة من نبضات قلبي تنادي بحب بلدي،
مصر يعني.

متفرج ٢: تاني!
عروسة صفراء ٦:

حاربت مرتين وكنت ضابطًا مقاتلًا في حرب أكتوبر العظيمة.
وعندما أغرقت السيول ذخيرة الجيش الثالث،
كنت أنا الذي قمت بإصلاحها في مواقعها.
وبعد الحرب قمت بمفردي بإطالة أعمار صواريخ سام،
عندما قطع عنا الروس الملاعين صواريخ الدفاع الجوي.
قدمت لمصر خلاصة فكري.
ثم هاجرت إلى أمريكا،

وأعطيتها هي الأخرى خلاصة فكري.
أنا الذي قمت باختراع نظام «الدفع الآلي» للجيش الأمريكي،
واخترعت لهم نظام الدفع الهيدرومغناطيسي لحرب الكواكب.
وقمت بحل مشاكل صاروخ الهاربون للبحرية الأمريكية،
ومشكلة تذبذب الضغط في محرك مكوك الفضاء،
وقدمت لهم مشروعًا قالوا إنه سيحدث طفرة في التكنولوجيا.
فيحق لبلادي أن تفخر بي.

متفرج ٣:

كان لدينا الكثيرون من أمثالك غداة حرب أكتوبر،
عشرات الألوف من الشباب المؤهَّل لاستيعاب التكنولوجيا.
كنا في حاجة إليهم لنبني ونعمر،
فدفعوهم إلى الهجرة،
ليخلو لهم الجو ويحلو السهر.
لكن لكل عملة — كما لعلك تدرك — وجهان.
فأنت بالتأكيد تعرف قصة الجسر الجوي الذي أمدَّ إسرائيل بالدبابات،
في أحرج لحظات الحرب،
وبالأعداد التي قتلها السلاح الأميركي.
فضلًا عن المساعدات المالية والمساعدات الأخرى،
التي قدمتها بلادك؛ أمريكا
لشراذم الأمم،
فمكنتهم من اغتصاب أرض ودولة.
فعلًا، يحق لبلادك أن تفخر بك.

متفرج ١:

العباقرة الأمريكومصريون أو المصرأمريكيون كثيرون،
وأغلبهم يعيشون بين ظهرانينا،
ودون أن يحملوا الجنسية المبجَّلة،

تفانوا في خدمة وطنهم الأعلى،
وفي إجراء البحوث المشتركة.

عروسة صفراء ٧:

لا أنكر أني، فضلًا عن مهامَّ أخرى،
لم يحن وقت الكشف عنها،
أشرفت على إجراء أكثر من مائتي بحث،
عن الزواج والزار، هجرة العقول والانتخابات،
العمالة، مصادر الطاقة والمياه،
الصحة، توزيع الدخل ومعوقات الإنتاج،
القوى السياسية، الجماعات الإسلامية والقبطية،
الذوق العام، تحديد النسل، تجديد شبكات الطرق،
كل شيء يعني،
بواسطة باحثين لا مبالين من الشباب،
كانوا في حاجة إلى أكل العيش على كل حال،

متفرج ٢:

فساعدت سادتك، من بدري،
على تحديد اتجاهات الاستثمار،
وإعادة صياغة أنماط الاستهلاك،
والسيطرة على السوق،
وفرض الشروط.

عروسة صفراء ٨:

أنا أسافر كثيرًا بحكم عملي الصحفي،
ودائمًا في معية الرئيس،
وفي كل مرة أزداد اقتناعًا بأمر هام؛
أننا نستطيع أن نخلق لأنفسنا ما نتمناه،
من حياةٍ كريمة ومجتمعٍ راقٍ،
لو بذلنا مزيدًا من العرق والجهد.

متفرج ٣:

ليس ثمة شك فيما تبذل من جهد وعرق،
فأنت تسافر على الأقل مرةً كل شهر،
وتستغرق كل سفرة قرابة عشرة أيام.
صحيح أنك تتقاضي بدل سفر لا يقل عن ألف دولار في اليوم،
أي ما لا يقل عن عشرة آلاف دولار في الشهر،
وتحصل على نصيبك من عائد الإعلانات التي تنشرها الصحيفة،
وعمولات على آلات الطباعة التي تستوردها،
والمباني التي تقيمها باسمها،
فضلًا عن المنافع الأخرى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى،
ولا تُقدَّر بثمن،
لكن هذا كله لا يقارن بما تبذله — حقًّا —
من جهد وعرق.

عروسة صفراء ٩:

أنا قمت بواجبي على الوجه الأكمل،
مع آخر طلقة في حرب أكتوبر العظيمة.
كانت مهمتي هي التوعية وإعادة التثقيف،
واتبعت في ذلك ما نصح به ذوو الخبرة من الأمريكان.
استلمناهم من لحظة الصحيان:
أكاذيب تدعمها حقائق،
مشروعات وإنجازات على الورق،
مهرجانات دائمة،
إعلانات ملوَّنة،
أذان يخرم الآذان،
ومسلسلات حتى الفجر،
إلى أن دوَّخناهم.

لو سألتم أحدهم الآن عما حدث في ٥٦ أو ٦٧،
سيحتاج بعض الوقت كي يتذكر.
البعض لم يعد يعرف حتى اسمه.

متفرج ١:

جئتم من أسفل الدرك،
بعطش لا يرتوي للنعيم والسلطة.
تقربتم من الحكام،
بمسح الجوخ والقوادة أو النسب،
بكتابة التقارير، وشهادات الدكتوراه،
التحليلات الإشكالية والشكلانية،
الاشتراكية المخصوصة والقومية العربية،
الأقنعة السبعة والأزمنة المتغيرة،
المسيرة والمعركة،
الحداثة وما بعدها،
والشرق أوسطية.
وتنقلتم على أبواب السفارات:
الليبية والعراقية،
وعندما تحوَّل الميزان،
الكويتية والسعودية،
مرورًا بمنظمة التحرير.
تذهبون في الصباح معطَّرين مهندمين لمكاتبَ مكيفة،
بعيون حمراء من السهر،
حيث تتفننون في التعليق والتزويق،
التفسير والتحليل،
التبرير، والإشادة،
ولعق المؤخرات.

عروسة صفراء بعمامة:

كنت معتكفًا عندما جاءوا بي إلى هنا،
منصرفًا إلى هداية واحد من الجان
وإدخاله الإسلام.

متفرج ٢:

صفحتك مشرفة في الهداية،
تشهد بها الممثلات والجنيات.
ومع ذلك فاتك بعض الجهد،
لهداية شياطين الإنسان،
ليكفُّوا عن قتل المسلمين في فلسطين ولبنان،
ويتنازلوا عن بعض الديون، والشروط.

عروسة صفراء بلحية وملابسَ باكستانية:

بسم الله الرحمن الرحيم،
والصلاة والسلام على سيد المرسلين.
الشرع شرع الله،
ولا حكم إلا لله وبكتاب الله.
قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.
صدق الله العظيم.

متفرج ٣:

تسعون في المائة من الشرع الذي تتحدثون عنه،
قوانين استنَّها بشر،
وصايا مؤقتة مرتبطة بأحداث وقعت للرسول وأتباعه.
يمكننا أن نهتدي بها،
لكن يجب أيضًا أن نستخدم عقولنا،
التي وهبنا الله إياها.

متفرج ١:

القرآن الكريم حمَّال أوجه،
فبأي وجه تحكمون،
إن كنتم تعلمون؟

متفرج ٢:

بينما هم ينتجون ويبتكرون ويرحلون في الفضاء،
ويرسمون خريطةً جديدة المنطقة،
تمكنهم من نهب الثروات العربية،
تنشغلون وتشغلوننا بالحجاب والنقاب،
عذاب القبر،
وألوان الخرافات،
والجهة التي يجب أن نأتي بها الطعام في الصحاف،
وهل يجوز للأم المبيت مع أولادها بملابس النوم،
وهل من الحرام أن يجلس الرجل في مكان احتلته امرأة قبله،
وأن يتعامل الأب مع ابنته البالغة،
أم يجب ألا يجلس معها وألا يتحدث إليها إلا من خلال أمها؟

متفرج ٣:

مهووسون أنتم بجسد المرأة،
شأنكم شأن أبناء الشيطان الأكبر.
هوليود الفاجرة عرَّته،
وأنتم تسدلون عليه الحجب،
وفي عظاتكم تزعمون:
«يكون للرجل في الجنة سبعمائة زوجة.»

متفرج ١:

ألم يأتكم تنزيل العزيز الحكيم:
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟

وإنه وحده هو المالك،
وليس للإنسان حق التصرف
بالتبديد والتدمير،
أو الجمع والتكنيز؟

متفرج ٢:

هل بلغكم قول الرسول الكريم،
عليه الصلاة والسلام:
«الناس شركاء في ثلاث،
الماء والكلأ والنار؟»

متفرج ٣:

حقًّا، قبل أن تقتلوا وتدمروا وتعتدوا،
قولوا لنا أولا: لمن الأرض والمعادن،
المصانع والمزارع؟
للمرتشين والمضاربين،
أو الاكتنازيين،
أم لله وعباده المؤمنين،
للعاملين والكادحين
بحق،
وعابري السبيل؟

متفرج ١:

نواياكم طيبة بلا شك،
أفزعكم حال الوطن،
نساء يغيرن لون البشرة،
وأولاد يَعْوجون الألسنة.
مخدرات على النواصي.

شباب لا يشغله غير البحث عن العمولة،
إعلامٌ كاذب ومخادع،
وحكامٌ ضالعون مع الأجنبي،
يزدادون ثراءً وانحلالًا،
ينهبون الفقراء،
ويضحكون على ذقونهم.

متفرج ٢:

أرعبكم حال العالم،
أقلية لا تتعدى الخمس،
تستهلك ثمانين بالمائة من الموارد الطبيعية،
وتسيطر عليها.
و٣٥٠ شخصًا فقط،
يستحوذون على قسط من الثروة،
يماثل ما لدى مليارين من البشر.

متفرج ٣:

رءوس أموال ترتع كالوحوش،
تتسابق بلهفة وشراهة،
على تقسيم الموارد والأسواق،
دون أن تضيف شيئًا إلى الحياة.
تبيع الحاجيات القديمة لزبائنَ جدد،
وتخلق حاجياتٍ جديدة عند الزبائن القدامى.

متفرج ١:

وبهدف الحصول على أكبر سيولةٍ نقدية،
في أسرع وقت،
وأعلى ربح بأي ثمن،
لا تتورع عن نشر الدمار والحروب والمخدرات.

١٥

متفرج ٢:

وممثلوها في اجتماعات القمم الدولية،
يصيحون بسخرية:
يا عمال العالم،
بدلًا من أن تتحدوا،
تنافسوا
في خدمتنا!

متفرج ٢:

في حضارة الرأسمالية،
يتم تسميم الأرض والماء والهواء،
لكي تنتج أموالًا أكثر.

متفرج ٣:

ويجرى الترويج بحماس لقيمة التملك،
بحيث أصبح الناس عبيدًا للأشياء لا سادة لها.

متفرج ١:

أصبح حق الملكية،
أهم من حق الحياة،
وقيمة البشر،
أقل من قيمة الأشياء.

متفرج ٢:

وتدنَّت الحياة اليومية إلى أسفل درجات المهانة،
بينما الناس مخدَّرون باحتياجاتٍ اصطناعية،
أنستهم احتياجاتهم الحقيقية.

متفرج ٣:

سرقت منهم أرواحهم،
وحُوِّلوا إلى كائناتٍ متوحشةٍ أنانية،
لا يشغلها في الحياة،
غير القتال من أجل مجرد البقاء.

جماعة العرائس:

كل هذا جميل.
ونصدقكم القول إننا حقًّا سعداء،
بأن أتحنا لكم الفرصة،
كي تُخرِجوا ما في صدوركم.
ولعلكم تكونون الآن قد استرحتم.

جماعة المتفرجين:

حرمتمونا من طعامٍ صحي،
مياهٍ نقية نشربها،
مستشفًى حقيقي،
مسكنٍ ملائم،
هواءٍ نقي نستنشقه،
رصيف نمشي فوقه،
وسيلة انتقال آدمية،
حديقةٍ خضراء وزهورٍ يانعة،
من فرصة التريض والتنزه،
من البهجة والفرح،
من الطمأنينة
والسعادة.
فماذا تنتظرون؟

فترة صمت. يخفت نور الكشافَين تدريجيًّا. يخطو الدكتور رمزي إلى مقدمة المسرح.

د. رمزي:

في بورسعيد،
التي جئنا منها بفكرة هذا العرض،
يستمر الأهالي في التشهير بالتماثيل،
إلى أن ينتصف الليل،
وعندئذٍ يشعلون فيها النار،
وهم يزغردون.
وتظل النار مشتعلةً حتى تشرق الشمس.
فيتوجهون إلى البحر،
ليغتسلوا من أثر الحريق،
ويبدءوا يومًا جديدًا.
بعد أن فشُّوا غلَّهم.

يتلاشى نور الكشافَين تدريجيًّا. يتناول الدكتور رمزي علبة ثقاب من جيبه ويشرع في إشعال مجموعة من أوراق الصحف. ينهض المأمور والضباط واقفَين في ارتباك. هرج ومرج. تنقلب مائدة العرائس.

الحراس ينفخون صفاراتهم. يعود الضوء المبهر. يشير المأمور إلى الدكتور رمزي هاتفًا:

– أمسكوه.

يهرع الحراس إلى الدكتور رمزي فيقيدون ساعدَيه ويقتادونه إلى الخارج.

يجمع المسجونون بطاطينهم ويتجهون إلى زنازينهم. ترتفع من بينهم أصواتٌ ضاحكة: هونجا حتى القتلى!

القسم الثالث

١٦

خرج المأمور من معركة اللحى كما تخرج الشعرة من العجين (إذ لبس إدكو الموضوع برمَّته)، لكن التوفيق جانبه في حالة الاحتفال بالسادس من أكتوبر. فقد كانت مسئوليته واضحة كالشمس، ألم يجرِ الاحتفال بمبادرةٍ شخصية منه؟ ألم يترك للدكتور رمزي مهمة إعداده دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عما ينتوي العمل بعرائسه؟ صحيح أنه شعر بالانزعاج في منتصف العرض لما جاء على ألسنتها وألسنة المتفرجين الذين دسهم الدكتور بين الحاضرين (لم يفهم الكثير مما ردَّدوه لكن شعورًا مبهمًا خالجه بأن الأمور ليست على ما يُرام). وداعبه خاطر إيقاف العرض وإلغائه. ثم أدرك أن الإلغاء سيستدعي «س» و«ج» من رؤسائه وهو أمر يمكن تجنُّبه لو مرَّ الأمر في سلام، لهذا تغاضى عن العبارات التي أثارت قلقه واكتفى بأن يأمر بالقبض على الدكتور عندما شرع في إشعال النار ثم تبيَّن أنه لا يمكن القبض على شخص مقبوض عليه بالفعل؛ فأمر بإرساله إلى التأديب ثم تراجع عن ذلك عندما تذكر أن التأديب مكتظ بأصحاب اللحى، فأرسله إلى زنزانته، واكتفى ببعض الإجراءات لمواجهة رد فعل البيروقراطية عندما يتسرب إليها نبأ ما حدث، فاستعد لزيارةٍ مفاجئة من ممثليها بفرق نظافة من خدم الميري مسحت ولَمَّعت الأرضيات ودهنت الطرقات وبعض الزنازين التي اختارها كي يدخلها الزائرون صدفة.

حطَّ الزائرون فجأة كما توقَّع وتجوَّلوا في العنابر والورش فألفوا النظام مستتبًّا، ودخلوا الزنازين بالصدفة ووجدوها نظيفةً مرتبةً مدهونة يقطنها نزلاء تم تأديبهم وإصلاحهم، كما وجدوا الطبيب في العيادة والممرضين في المستشفى، واستقبلهم العاملون بالمطبخ في معاطفَ بيضاء نظيفة بل وقفازات من البلاستيك الشفاف. لم يُفد كل هذا بشيء؛ ففي نهاية الأسبوع نُقل المأمور وزوجته الصغيرة النزقة (وفي جعبتها صندوق سكرابل) إلى أطراف الصعيد، وعُيِّن العميد «سيد الضروبش» مكانه.

لم يكن هذا بالطبع لقبه الحقيقي، وإنما اكتسبه على مرِّ السنوات الخمس والثلاثين التي قضاها في خدمة مصلحة السجون. وبدا مناسبًا لوجهه المتجهِّم وجسمه البدين وساقَيه المقوستَين قليلًا وحركات ساعدَيه العشوائية.

كان هو الذي اختار العمل في مصلحة السجون بعد تخرُّجه من كلية الشرطة؛ إذ استهواه تطبيق لائحتها، وأتيحت له الفرصة على الفور في ليمان «أبو زعبل» وبالتحديد في سجنٍ ملحق به يسمى «الأوردي» حيث كان الشيوعيون يتعرضون للضرب يوميًّا كي يردِّدوا أغنية أم كلثوم الشهيرة: «يا جمال يا مثال الوطنية».

ما أثار سيد الضروبش وقتها ليس رفضهم الغناء وإنما التبرير الذي قدَّموه. قال متحدث باسمهم (أستاذ في الجامعة) إنهم يحبون الغناء ويعتقدون بوطنية جمال عبد الناصر وعلى استعداد لأن يتغنوا باسمه ليلًا ونهارًا لكنهم لن يفعلوا ذلك تحت وطأة التعذيب. لم يكن الأمر متعلقًا برؤيةٍ خاصة بفن الغناء؛ فقد ظل يضرب واحدًا منهم (من عمال النسيج) بعصًا غليظة على رأسه كي يقول إنه امرأة فرفض. وعندما كلَّت يده وأوشكت رأس المعتقل على التصدع أوقف الضرب وسأله عن سرِّ تعنُّته. أجاب أنه لا يجد ما يشين في أن يكون امرأة؛ لأنه يؤمن بالمساواة التامة بين الجنسين، لكنه لن يقولها إلا بمزاجه.

بدلًا من أن تُشبع الإجابتان فضوله، ضاعفتا من ريبته في أن هناك ملعوبًا ما يدار من خلف ظهره. فهل يُعقَل أن يسجنهم عبد الناصر لكي يجبرهم على الهتاف باسمه، الأمر الذي كانوا يفعلونه طواعية وهم أحرار؟ ومن ناحيةٍ أخرى؛ فالمنطقي أن يصبحوا ضد النظام بسبب ما يتعرضون له وكونهم مستمرين في تأييده لغزٌ آخر. هل هي تمثيليةٌ متقنة من الجانبَين؟ ما لم يفهمه أبدًا هو تصرف السلطات معه؛ فهي نفسها التي أصدرت إليه الأوامر بتطبيق اللائحة على هؤلاء الكفار الملحدين وبعد ذلك على المؤمنين ذوي اللحى، وعاقبته في الحالتَين على أنه نفَّذ التعليمات بأمانة وتفانٍ، فاستحق لقب الضروبش بجدارة.

نُقل الملازم أول سيد الضروبش إلى وظيفةٍ مكتبية في المقر الرئيسي للمصلحة عندما توفي أحد المعتقلين إثر ضربة شوم محكمة. هكذا لم يعد لديه من مجال لتطبيق اللائحة غير المنزل، وكانت وجهة نظره التي شرحها لأهل زوجته عندما استنجدت بهم أنه لا بد من احترام السلطة (خاصة وأنه لا يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة).

تجوَّل سيد الضروبش بين مكاتب المصلحة لمدة عشرين سنةً بينما كان زملاؤه ينعمون بتطبيق اللائحة (ظهرت ملامح النعمة في شكل سياراتٍ فاخرة وشققٍ جديدة وملابسَ أنيقة

ونساءٍ استبن) إلى أن بدأت موجة حرق نوادي الفيديو ودور العرض والمسارح والكنائس، ومسَّت الحاجة إلى خبراء تطبيق اللائحة فأُعيد إلى حلبته الأساسية حيث صال وجال إلى أن استُدعي لفرض الضبط والربط اللذين أخلَّت بهما احتفالات أكتوبر.

أقبل على عمله الجديد بهمة لتعويض ما فاته من فرص تطبيق اللائحة (فلم يعد بينه وبين التقاعد غير سنتين)؛ أمر بوضع الدكتور رمزي في التأديب (وتحرك شرف بالنتيجة بمقدار نمرة بعيدًا عن دلو البول) ثم ألحقه بعم فوزي، صانع العرائس، من باب الحيطة (تجاهل الدور الذي لعبه شرف وسامح وصبري إكرامًا لخدمات أولهم). وعندما تبين أن العنبر الصغير المخصص للتأديب كامل العدد بأصحاب اللحى، تصرف بذكاء؛ وضع كلًّا من الاثنين في زنزانةٍ انفرادية بالطابق الأرضي من عنبر الآخر؛ الدكتور في الميري وعم فوزي في الملكي، وطبق عليهما اللائحة؛ الفول والصراصير والفئران، فضلًا عن اللاءات الثلاث: الطابور والزيارة والقراءة. لكنه لم يتمكن من حرمانهما من سماع نشرات الأنباء أو إذاعتها، في حالة الدكتور رمزي.

ففي أول ليلة له بالزنزانة الانفرادية، وبعد النشرتَين التقليديتَين، الدنيوية والروحية، انطلق صوته من شراعة الباب. كان ضعيفًا مترددًا في البداية فلم ينتبه إليه أحد. لكنه ما لبث أن ازداد ثباتًا وقوة وأصغى أكثر من خمسمائة سجين لصوتٍ أجشَّ يحمل عليهم:

«لماذا تقبلون معاملة الحيوانات؟ لماذا تتركونهم يسرقونكم ويضطهدونكم؟ لماذا لا تطالبون بحقوقكم؟ طبقًا للائحة السجون، لكل واحد فيكم الحق في سرير ومرتبة وملاءات وبطاطين وأدوات طعام، وطقمَين من الملابس الداخلية والخارجية صيفًا وشتاء، لكنكم لا تحصلون على السرير والمرتبة والملاءات ويعطونكم بطاطينَ متهرئة وطاقمًا واحدًا من الملابس.

طبقًا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق في ١٤ وجبة في الأسبوع منها ٧ فول و٣ عدس و٢ لحم و١ جبن و١ وجبة خضار ساخنة وقطعة عجوة تزن حوالي ١٢٥ جرامًا. لكنكم لا تحصلون إلا على فتات لا يصلح ولا حتى للحيوانات.

طبقًا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق في رعايةٍ صحيةٍ كاملة لكن السجن به طبيبٌ واحد يأتي مرةً واحدة في الأسبوع لمدة ساعتَين، ولكي يفوز الواحد منكم بلقائه لا بد أن يدفع علبة سجائر للتومرجي، ثم في النهاية لا يحصل على غير حبتَين من الأسبرين.

وإذا اشتكيتم أو تضررتم تعرضتم للجلد، وهي عقوبةٌ مهينة تنتمي إلى عصور العبيد وتتنافى مع الدستور.

لماذا تقبلون استغلال النوباتجية والحراس؟

هل تعرفون أن لائحتهم تعطيكم حق الاحتجاج والاعتصام والإضراب عن الطعام حتى تأتي النيابة لتسجل مطالبكم؟»

ران الصمت على العنبر عدة لحظات ثم انطلقت صيحات التهليل من الزنازين المختلفة، ما لبث أن غطى عليها صوتٌ جهوري وجَّه إلى الدكتور أقذع الشتائم (تتعلق برجولته المفترضة)، تلاه صوتٌ جهوريٌّ آخر أعلن: «الدكتور رمزي عاوز يروح لأمه يا جدعان»، وكرَّر ثالثٌ نفس الاستنتاج مقلِّدًا عربية الدكتور الفصحى: «الدكتور رمزي يريد الذهاب إلى أمه يا رجال.»

من جانبه قرر الدكتور أن يعطيهم القدوة فأعلن في اليوم التالي الإضراب عن الطعام إلى أن يتم تطبيق اللائحة والدستور.

تلقَّى الضرويش نبأ هذا الإعلان بغير مبالاة، ففضلًا عن سذاجة المطالب، تنصُّ اللائحة على عمل محضرٍ رسمي بالإضراب بعد مرور أربع وعشرين ساعةً. لكن اللائحة شيء وتطبيقها شيءٌ آخر. فمنذ قيام الثورة لم تعد السجون تنفذ هذا النص إلا بعد مرور أربعة أيام على الأقل تستخدم خلالها كل وسائل الإقناع حتى يعدل المسجون عن الإضراب وبالتالي لا يثبت أمره في أوراق السجن. لم يهتم الضرويش بمحاولة إقناع الدكتور؛ إذ تصوره غير أهل لذلك، اكتفى بأن عرضه على الطبيب النفسي الذي أرسلته المصلحة خصوصًا، ووجَّه جهده كله إلى حملة الظبط والربط التي شنَّها، فأحال للتحقيق علي بلبل لأنه غادر السجن قبل موعده (الساعة الثالثة والنصف في قول الضابط مرقص فهمي، والرابعة والنصف في قول أمين البوابة). فتَّش على طفايات الحريق فوجدها معطَّلة ثم اكتشف أن لا أحد بالسجن كله من ضباط وحراس ومسجونين يعرف كيفية تشغيلها؛ فأحال الجميع (الطفايات) للتحقيق. لاحظ وجود كثير من الكلاب الضالة في أنحاء السجن فأحالها إلى «سماوي» متخصص اصطيادها وضربها بالنار ليلًا. هجم على المخازن فوجد بها ٢٩٤ كيلو عجوة تالفة بسبب انتهاء صلاحيتها للاستهلاك الآدمي، وتبين أن تحقيقًا إداريًّا جرى في هذه الواقعة منذ ثلاث سنوات وأُرسلت نتيجته إلى المصلحة بالمحضر رقم ١١٦. وأقرَّ مراجع المخازن بالمصلحة «إدوار لبيب» باستلامه، إلا أنه أفاد بتسليمه لرئيسه «عبد القادر الدسوقي» الذي أنكر ذلك؛ وبالتالي ضاع المحضر المذكور نهائيًّا.

فتح «س» و«ج» مع المساعد أول شرطة أمين المخزن الذي كان اسمه، بالضرورة، إبراهيم أمين، فقرر أن العجوة التي تسلمها كانت سليمة.

س: وكيف عرفتَ أنها كانت سليمة؟

ج: لأن اللجنة التي استلمتها من شركة قها وقَّعت بأن الكمية صالحة، وتم الصرف منها في حينه إلى أن أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري الصرف.

س: هل تعرف لماذا أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري صرف العجوة المذكورة؟

ج: بناء على شكوى المساجين.

س: وبماذا اشتكى المساجين؟

ج: اشتكوا من وجود آثار عض بها.

كشف التحقيق أن الضابط المذكور خالف التعليمات؛ لأنه فعل ما فعله دون أن يحرِّر محضرًا به أو يطلب لجنة لتحديد المسئولية والصلاحية؛ ولهذا أحاله الضروبش إلى التحقيق.

خلال ذلك كان الدكتور يواصل نداءاته من شراعة الزنزانة، فبعد أن ملَّ تكرار ندائَي الحقوق والإضراب عن الطعام انتقل إلى مجال تخصصه:

– هل تعرفون أن ٦٠ بالمائة من ثمن الدواء في مصر يذهب إلى الموزع والمستورد؟ وأن الدواء الذي تدفعون فيه الآن ثلاثة جنيهات ستدفعون فيه عشرين بعد تطبيق الجات؟ هل تعرفون أن ٥٥ بالمائة من الأطفال مرضى بأكبادهم، وأن عدة أفراد لا وطن لهم ولا ضمير كدسوا ثروات بالملايين من استيراد الأطعمة الفاسدة ورشِّ المبيدات؟ هل تعرفون أنهم يبيعون السرطان لعشرين مليون طفل؟ اشربوا هذا بطعم البرتقال، كلوا هذا بطعم الفراولة، الحسوا هذا بطعم الأناناس والشكولاتة والملح والخل والكاري والكباب والخراء. مياهٌ غازية وكولا ملونة وشكولاتة وحلوى وأعصرة وشربات ومربات وجيلي وغزل بنات، عبارة عن مكسبات طعم ورائحة ولون، أي أمراض تُدوِّخ أطفالكم طيلة العمر إلى أن يقصفه السرطان بعد أن يصابوا بالفشل الكلوي من جراء المياه الملوَّثة، أو الطرش والغباء بسبب التعرض للرصاص المنبعث من عوادم السيارات، أو يرحمهم الرحيم فيقعون في بالوعة مجاري أو تدهسهم سيارة أو ينفخهم صاحب ورشة.

طبعًا لم يكونوا يعرفون كل هذا وإلا ما ردوا عليه بنداءاتٍ معاكسة تضمنت اتهاماتٍ بذيئة تتعلق بأمه (أهونها رغبته في الخروج إليها)، استفزت الدكتور فوجَّه إليهم السباب:

– يا حيوانات يا مساكين! دفعتم نصيبكم من الأموال الهائلة التي تنفقها الدولة على تعليم وتدريب أطباء يستنزفونكم ويعاملونكم معاملة الحيوانات، يجرون لكم جراحات لا

تحتاجون إليها وينسون مشارطهم في بطونكم. دفعتم نصيبكم من الأموال الهائلة التي تنفق على إقامة مستشفيات لا يدخلها من يحتاج إليها، تستخدم أدويةٌ فاقدة الصلاحية ولا تقبل الحالات العاجلة وحوادث الطرق دون أتعاب وتتقاضى أجورًا باهظة رغم أنها معفاة من الضرائب لمدة خمس سنوات على الأقل ومعفاة أيضًا من الجمارك، جهاز الأشعة الذي ثمنه ٢٠٠ ألف جنيه جمركه ٥٠ ألفًا ويدفع المستشفى ألفًا واحدة فقط ثم يطالبكم بالآلاف. يا غلابة يا مساكين ... الواحد منكم يعيش في كشك طوله لا يتعدى ثلاثة أمتار وعرضه متر ونصف متر والسقف تبدو منه السماء بعد أن فتَّتته الأمطار ... تعانون البرد وتقضون حاجتكم ليلًا في دورة مياه مشتركة يستعملها ثلاثون أسرة على الأقل أي مائة وخمسون شخصًا على الأقل. وتحصلون على المياه العذبة من المسجد القريب وأحيانا تشترون الجركن بخمسين قرشًا ... وحولكم آلاف الشقق المغلقة والأبراج العملاقة، اسألوا أنفسكم: لماذا تقبلون كل هذه المهانة؟

لم يعبأ الضروبش بنداءات الدكتور إذ انشغل بالبحث عن خاتمه الذهبي الذي فقده في غمار تطبيق اللائحة، كان قد اشتراه بعد تعيينه في المصلحة من أول راتب له. ولهذا كان يستبشر به بعد أن ربط بينه وبين طاقة القدْر التي فتحت له. وبلغت معزة الخاتم عنده أنه رفض بيعه لمواجهة الضائقة التي مرَّ بها عندما أغلقت الطاقة ونُقل إلى المكاتب. لهذا جند السجن كله بحثًا عن الخاتم دون جدوى، وفي النهاية الْتجأ إلى «المهدي» المنتظَر.

كان عم حسين الكعكي متهمًا في قضية إهانة أديان، ويؤمن بأنه المهدي المنتظَر الذي تحدَّثتْ عنه الأديان المتهم بإهانتها، وأنه سيحكم العالم في القريب. لم يكن الأمر هزلًا؛ فقد آمن به الكثيرون وعلى رأسهم دكتور في أصول الفقه بالأزهر، أخرج أولاده الأحد عشر من المدارس على أساس أنها مضيعة للوقت طالما أن زعيمه سيحكم العالم قبل أن تنتهي السنة الدراسية.

أحضره الحارس في قميصٍ مشجَّر وبنطلون هافانا. كان ربعة، ممتلئ الجسم، حادَّ النظرات، فصيح اللسان، تبدو عليه ملامح الذكاء والحيوية البالغة.

خاطبه الضروبش باستخفاف: إزيك يا عم حسين. عامل إيه؟

أجاب المهدي المنتظر برصانةٍ بالغة: أحمد الله وأشكره يا سيادة المأمور.

أخفى المأمور ضيقه من تجريده من لقب الباشا المعهود وقال: الله! إنت بتعرف ربنا أهوه ... أمال إيه اللي بيقولوه عليك؟

سيطر المهدي المنتظر على أعصابه وشرح للمأمور كيف أنه يؤمن بالله وبرسله جميعًا بما فيهم هو نفسه. وعندما لم يبدُ الاقتناع على وجه المأمور أضاف: أنا سيادتك تحدَّيت النيابة والقضاة أني قادر على حل ثلاثة ألغاز حيَّرت العالم.

لم يكن المأمور في هذه اللحظة معنيًّا بغير لغزٍ واحد؛ أشار عليه المهدى أن يستدعي كافة الأشخاص القريبين منه، من الضباط والحراس إلى المجندين والنوباتجية. تفرَّس في وجوههم الواحد بعد الآخر فاصفرَّت جميعها وبدا الارتباك على أصحابها. اصفرَّ وجه الضروبش أيضًا إذ ظن أنهم اشتركوا كلهم في سرقة الخاتم، لكن سر المهدى كان باتعًا فقد خطا نحوهم وأشار بحركةٍ مسرحية إلى أحد المجندين الذي تراجع قليلًا إلى الخلف في ارتباكٍ شديد. تولى الضباط الباقي فوجَّه إليه علي بلبل السباب وتوعده بالويل والثبور، وعاجله خضرة بصفعة على وجهه وركلة في مؤخرته، ثم تسلَّمه مرقص فهمي إلى أن اعترف.

عبر الضروبش عن امتنانه بطريقة أسلافه من الحكام. طلب من المهدى المنتظر أن يتمنى عليه شيئًا بعد أن وعده بتحقيق أمنيته. فطلب نقله من الزنزانة التي يسكنها وضمه إلى أعوانه وأتباعه.

لم يكن فصله عنهم لسببٍ غير أزمة المساكن وضيق الأماكن. أما ضيقه بزنزانته الحالية فكان جمال عبد الناصر هو المسئول عنه. ففي غمار التصريحات اليومية الصادرة عنه والتي تبلور أفكاره وفلسفته، والتي قسم فيها الأرواح إلى خيِّرة وشريرة، أعلن ذات مرة أن ناصر من عتاة المجرمين، دون أن ينتبه إلى أن الزنزانة تضم ثلاثة من عتاة الناصريين الذين حُكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في تنظيم ثورة مصر المسلح، وكانوا في طريقهم من الليمان إلى القصر العيني للعلاج. ولم يكونوا في حاجة إلى أية أسلحة كي يحوِّلوا حياته إلى جحيم.

ارتبك سيد الضروبش وقال: السجن زحمة الوقت ع الآخر، لكن في أقرب فرصة حانقلك.

كان المهدي المنتظر خبيرًا بوعود الحكام فقرر أن يعتمد على نفسه. في نفس الليلة أيقظ زملاءه في الزنزانة عند الفجر، وهو الموعد الذي يتلقى فيه الوحي، وهتف فيهم: أبشروا يا إخواني.

بُهت الإخوان وتبادرت إلى أذهانهم بُشرى واحدة لا غير وعندما استوضحوه الأمر قال: الحبيب أخبرني أنه تمت إعادة تقويم عبد الناصر في البرزخ وتقرَّر ضمُّه إلى العناصر الخيرة.

بالمقابل أعاد الناصريون تقويم المهدي المنتظر. وكما يحدث عادة في هذه الحالات، اشتطوا في الأمر فآمنوا بالرجل وبدعواه. ومن جانبه وثق هو فيهم فأسرَّ إليهم ببقية رسالة الحبيب: في نهاية الشهر الهجري التي تحلُّ بعد أسبوع سينطلق موكب المهدي المنتظر من المنطقة المقدسة (أي السجن الذي تقدس بوجوده) بعد أن تنزل من السماء أربعة أسود تفتح الطريق أمامه ودابةٌ قادرة على التمييز بين المؤمن وغيره تهش للأول وتكشر للثاني، وتصادف أن الْتجأت إحدى القطط الضالة إلى الزنزانة في نفس اليوم فاعتقد الجميع أنها الدابة المقصودة وشرعوا يعاملونها برقَّة بينما أخذ هو يردد لكل من يخاطبه في شيء: إن هي يا بني إلا مسألة أيام.

تضاعف إيمان الجميع بمقولات المهدي ودعاويه وبأنه سيخرج ويحكم العالم كله، وأبلغ الناصريون المحامين الذين كانوا يسعون إلى استصدار عفوٍ صحي عن بعضهم: أوقفوا مساعيكم، خلاص الدنيا كلها حتتغير بعد يومين.

حل اليوم الموعود أخيرًا دون أن يحدث شيء بالطبع. فانقلب الجميع على المهدي المنتظر وأشبعوه سخرية واستهزاءً، تحمَّل الرجل الموقف في بسالة المجاهدين وأصحاب الرسالات دون أن يصيبه اليأس. وبعد عدة أيام أيقظهم في الفجر قائلًا إن الحبيب جاءه وعاتبه لأنه أفشى السر؛ فالخبر كان له وحده، ولهذا قرر أن يربيه بتأجيل التنفيذ. وأكد الحبيب ما سبق أن قاله بخصوص قرب خروجه في موكب ليحكم العالم فهو الحق بعينه، لكنه، عقابًا له، لن يذكر له من الآن لا الموعد ولا الزمان ولا الكيفية.

خلال ذلك انشغل الضروبش بإعادة تقويم الرائد مرقص فهمي على ضوء اعترافاتٍ جديدة من سارق الخاتم الذهبي، ألمحت إلى الرواتب الشهرية التي يحصل عليها من المساجين الذين يعملون في مشغولات الخرز والخشب كي يسمح لهم بالخروج إلى الزيارة يوميًّا لعرض منتجاتهم على الزائرين.

استقبل الضروبش هذه الاعترافات بهدوء. وانتظر فرصةً ملائمة للتصرف. سنحت الفرصة سريعًا؛ ففي أثناء مروره بالفناء وجد سيارة «مازدا» يجرى إصلاحها بواسطة أحد السجناء، أخبره الحراس أنها خاصة بالضابط مرقص فهمي وقد عهد بها إلى هذا المسجون بالذات لأنه من الخبراء النادرين في السيارات اليابانية (سرقتها بالطبع). وفي اليوم التالي رأى سيارةً أخرى من طراز «أوبل» مكان السيارة المازدا يتولى الخبير الياباني إصلاحها. استفسر من مرقص فهمي نفسه فقال إن السيارة لزوج أخته الذي أعجب بالإصلاحات التي تمت على المازدا فرجاه أن يطبقها على الأوبل. وبعد يومَين كانت هناك

ثلاث سياراتٍ متجاورة في الفناء من ماركاتٍ مختلفة، أراد أن يستفسر عن الأمر فبعث في طلب مرقص فهمي. قيل له إنه غادر السجن لشراء مهمات للكانتين، بحث عن الخبير الياباني فاكتشف أنه غادر السجن أيضًا في رفقة الضابط، وتبين أن الاثنين نزلا إلى السوق لشراء قطع غيار للسيارات الثلاث.

لم تكن اللائحة تتضمن ورشة لإصلاح السيارات أو إمكانية استخدام الفناء لأغراض غير التريض (للمساجين) والجلوس إلى جوار الزهور (للضباط)، ولا كانت السجون قد دخلت بعدُ برامج الخصخصة، كما أن مغادرة السجن بالنسبة للنزلاء كانت لها حالاتٌ محدَّدة، ليس بينها أبدًا النزول إلى السوق، لهذا جرت مواجهةٌ حاسمة. بين الضروبش والضابط لم تؤدِّ إلى إحالة الأخير وإنما أثمرت نتائج أكثر إيجابية أهمها تدعيم الورشة بخبيرَين آخرَين من تخصصاتٍ أخرى (السيارات الفرنسية والأمريكية) وإطلاق عملية الشاي.

ففي سعيه من أجل إحكام الظبط والربط، شنَّ الضروبش سلسلة من حملات التفتيش العشوائي (تسبقها معلوماتٌ محدَّدة من المرشدين) صادر فيها الممنوعات التي صادفته وعلى رأسها بالطبع الشاي الذي عهد به إلى الضابط مرقص فهمي كي يبيعه سرًّا للمساجين من خلال شبكة المرشدين. وقبل أن يتمكن هؤلاء من استهلاكه قام الضروبش بحملةٍ تفتيشيةٍ عشوائية ثانية فصادر نفس الشاي الذي سبقت له مصادرته وعهد به لمرقص فهمي ليبيعه من جديد وهكذا.

لم يكن قلقًا بشأن الدكتور رمزي، حقًّا إن اللائحة، الموروثة من العهد الملكي، تنصُّ على ضرورة استدعاء النيابة للتحقيق في مطالب المضرب عن الطعام في موعد لا يزيد عن ٤٨ ساعة منذ بداية الإضراب أي منذ بداية تسجيله في الدفاتر، إلا أن هذه المدة امتدت بلا حدود في ظل الثورة. وبذلك أتيحت الفرصة للدكتور كي ينوع نداءاته ويوسع من مجالها: يا غلابة يا مساكين ... هل تعلمون أن خمسة من أهالي القرية يشغلون أهم المناصب الإدارية بها، من العمودية إلى إدارة الجمعية، هم أنفسهم تجَّار الأسمنت ومواد البناء والمقاولون الذين يتعهدون ببناء المنازل على الأراضي الزراعية التي اشتروها وقاموا بتقسيمها وبيعها من قبلُ. وهم كبار الحائزين يملكون ثلث الأرض ويستأجرون الربع ويملكون ثمانين بالمائة من أدوات الإنتاج خاصة الجرارات وماكينات الري ورافعات المياه ويقومون بتأجيرها لصغار الفلاحين بدعم المعونة الأمريكية بأجورٍ مرتفعة بينما يستخدمون الأدوات الموجودة في الجمعية التعاونية بأجر أقل وهي التي قيل للفلاح إنها معطلة ...

تهدج صوته من التعب لكنه واصل: يا غلابة يا مساكين ... هل تعرفون أن ثمانية تجار يسيطرون على سوق الخضر والفاكهة، وأربعة على تجارة اللحوم المستوردة، وسبعة على البقالة وثلاثة على سوق السمك ... وأن كل هؤلاء يتفقون عليكم كل مساء ... وأن المستهلك ليس هو الضحية الوحيدة. المنتج أيضًا من الضحايا ... فالمزارع والصياد لا يحصلان على أكثر من نصف حقهما ويذهب النصف الآخر لتجار الجملة.

وفي اليوم الذي بعده عاد إلى قضية الطعام، ويبدو أن عزيمة الامتناع عنه أصابها بعض الوهن، وأنه شعر بالحنين إلى بعض الأنواع المحبَّبة إليه، فأراد أن يشد من أزر نفسه: هل تعلمون أن مربي الدواجن يضيفون حبوب منع الحمل إلى أعلافها من أجل تسمينها فيعرضونكم لخطر الإصابة بسرطان الكبد؟ وأن البصل الأخضر والفجل والجرجير والكرات التي تعيشون عليها وتحلمون بها؛ ملوثة بالرصاص الذي يسبب الأنيميا والتخلف العقلي ويمحو الذاكرة ويجعل الواحد ينسى حتى أمه، وبالكادميوم الذي يضر بالكلى ويؤدي إلى الإجهاض؟

هلل المساجين لندائه كالعادة، وصاح أحدهم من زنزانة في الطابق الرابع: يا كاديوم إنت يا كايدهم.

هل اكتفي الدكتور؟ كلا.

في اليوم التالي واصل اختبار معلوماتهم: هل تعلمون أن في مصر ٣٠ ألف سيارة من طراز مرسيدس. متوسط سعر الواحدة ٧٠ ألف جنيه أي إن المجموع ٢١٠٠ مليون جنيه تكفي لسداد ثلث العجز في الميزانية العامة أو نصف أصل الديون العسكرية؟ وإن المرسيدس التي تدعى بالزلكة لا يقل ثمنها عن ٤٠٠ ألف جنيه وهو مبلغ يكفي لشراء ثلاثة أتوبيسات للنقل العام وبناء أربعة آلاف وحدةٍ سكنيةٍ اقتصادية؟

هل تعلمون أن سعر طفاية السجاير في المرسيدس المدعوة بالشبح ٧٠٠ جنيه أي ما يكفي لإطعام ١٤٠٠ مصري بوجبة إفطار مكونة من ٢٨٠٠ سندوتش فول، وأن سعر الإطار الواحد لهذه السيارة يساوي مرتب عشرة موظفين مصريين في شهر، والفانوس الواحد بها ثمنه ٤٥٠ جنيهًا والتكييف ١٥ ألفًا؟ هذه هي السيارة التي يملكها الآن ١٣٦٠ من الذين يدعون أنفسهم برجال الأعمال ومنهم وزراء ورؤساء صحف، وحجزها ٤٠٠ غيرهم دفعوا جميعًا فيها ما يساوي ثلثي تكاليف فوائد الدين السنوية على مصر ومقدارها أربعة مليارات جنيه. وهم لا يدفعون عنها ضرائب؛ فهي تمرُّ من الموانئ بنظام التربتيك الذي ابتكروه خصيصًا لمصلحتهم، فيضع صاحب السيارة قيمة الجمرك في أحد البنوك

فتوفر له ضريبة التربتيك التي تقدر بالألوف بدلًا من الجمرك الذي يقدر بالملايين، أو يكون أصلًا صاحب مشروع يتمتع بالإعفاءات الجمركية فتضاف السيارة إلى الأصول المعفية.

بمجرد أن تعرض الدكتور رمزي للسيارات بدأ الضروبش يشعر بالقلق. استخرج ملفه وتصفح التقرير الطبي الذي أهمل قراءته في حينه. كان بتوقيع الدكتور حمدي السكري، الطبيب بمستشفى حلوان للأمراض النفسية. وجاء به أن المسجون «يتمتع بشخصيةٍ قوية تميل للعظمة، كما أنه جذاب للآخرين، ذكي يحب الناس جميعًا وخاصة ذوي المراكز المرموقة، طموحه أكبر من قدراته، ذو ذاكرة قوية، يتمنى أن يصلح الكون، مضطرب نفسيًّا نتيجة ما يحدث حوله من انحرافات.» حاول أن يستخلص من ذلك نوع الإجراء الذي يتعين اتخاذه، وقبل أن يصل إلى قرار وقع ما صرف اهتمامه في اتجاهٍ آخر.

فبينما هو يقرأ خطابات السجناء لشطب أي إشارة إلى سوء المعاملة وبحثًا عن أي عبارة يمكن أن تغذي مشاعره الإيروتيكية الذاوية، هبطت عليه فجأة لجنةٌ مشتركة من لواءات المصلحة (مباحث السجون) والداخلية (أمن الدولة) والمخابرات العامة؛ وتبين أن المهدي المنتظر تمكن من تسريب رسالة إلى رئيس الجمهورية. لم ينزعج ممثلو البيروقراطية لأنه تمكن من إخراج رسالة من السجن عن غير الطريق الرسمي، ولا لأنه تجاسر على مخاطبة رئيس الجمهورية، ولا على الطريقة غير اللائقة التي خاطبه بها؛ إذ وصفه بأنه من الأشخاص ذوي الأرواح الخيرة، ثم حذره من أن يتعرض للإفساد على أيدى أصحاب الأرواح الشريرة، ولا أزعجهم قوله إنه يستطيع أن يقدم للرئيس الدليل على صدقه بأن يحل الألغاز الثلاثة التي حيرت العالم، ما أزعجهم لدرجة بلَّلت ملابسهم الداخلية هو ما جاء في نهاية خطابه من أن الله سيخرجه من السجن لمدة أربع وعشرين ساعة بكيفية لا يعلمها إلا هو (أي سبحانه تعالى).

استُدعي المهدي المنتظر لمقابلة البيروقراطية، وقف أمامهم محاطًا بحارسَين أمسكا بساعدَيه حتى لا يخرج من السجن بدونهما، سأله لواء مباحث السجون: إيه يا عم حسين اللي انت باعته للريس؟

أجاب عم حسين على الفور: الرئيس رجلٌ طيب وخيِّر. وأنا استخدمت حقي في مخاطبته.

سأله لواء المخابرات العامة: وإيه هي بأه الألغاز اللي حيَّرت العالم؟

أجاب المهدي المنتظر: إنها ثلاثة يا سيادة اللواء. مثلث برمودا وقارة الأطلنطيد المختفية وأصل موشيه دايان.

– ما له موشيه دايان؟

أجاب بثقة: أصله سفاحٌ أمريكي كان موجودًا في أمريكا سنة ١٨٠٠، لو ضاهى أحد بصماته ببصمات موشيه ديان لتطابقا.

– وانت ناوي تهرب؟

– لا يا سيادة اللواء. الله سبحانه سيخرجني من هنا لمدة ٢٤ ساعة فقط وأعود مرةً أخرى.

تدخل لواء مباحث أمن الدولة: حتعمل إيه في الأربعة وعشرين ساعة دي؟ إذا كان عندك مصلحة مستعجلة قلِّنا عليها وإحنا نشوفهالك من غير ما تتعب نفسك وتتعب المولى معاك.

– أستغفر الله يا سيادة اللواء. إنها إرادة الله ولا رادَّ لمشيئته.

أمر اللواءات بإخراجه من الغرفة على أن ينتظر بالخارج مع حارسَيه.

فور خروجه أعلن الضرويش بصوتٍ حاول أن يجعله قويًّا: الجن الأحمر نفسه ميقدرش يطلع من السجن من غير إذني.

تطلع إليه لواء أمن الدولة باستخفاف، وطالب لواء مباحث السجون بوضع المهدي في التأديب وتشديد الحراسة عليه، ردَّ الضرويش بأن التأديب لا يوجد به مكانٌ فارغ، وأن الحراسة مشددة عليه بالفعل وهو في زنزانته.

عاد اللواء الخبير بأوضاع السجون يتكلم: بالنهار طبعًا مفيش مشكلة. تقدروا تراقبوه بكذا طريقة. المشكلة بالليل. مين حيراقبه طول الوقت؟ حتى لو حطيناله حارس مخصوص على الباب، منضمنش إنه يسيب مكانه ويروح يشرب شاي أو ياخد تعسيلة.

استشار لواء المخابرات العامة أوراقه وقال: معلوماتنا أن الساحر ميقدرش يخرج نفسه من المكان إنما يقدر يخفي نفسه في المكان، فافرضوا إننا حطيناه في زنزانة لوحده وأخفى نفسه؟

بعد تفكير ومشاورات توصلوا إلى وضعه في زنزانةٍ خاصة مع عددٍ محدود من النزلاء بينهم مرشد أو اثنان يتكفَّلان بمراقبته طول الوقت — وخاصة بالليل — والإبلاغ عن تحركاته وخططه واللحظة — لا قدر الله — التي يختفي فيها.

أضاف لواء أمن الدولة: إحنا حنراقب كمان بيته والأماكن اللي بيتردد عليها عشان لو خرج. مفيش أي معلومات عن مكان معيَّن بيتكلم عنه؟

قال الضرويش: هو دايمًا بيتكلم عن مكان اسمه البرزخ، لكن مبيقولش هو فين.

سجل اللواء هذه المعلومة، فتدخل لواء المخابرات العامة: باين عليه مكان خارج البلاد. يبقى من اختصاصنا.

عند انصراف اللواءات حرص كلٌّ منهم على الانفراد بالمهدى المنتظر لاستفساره في شأن «بعض المتاعب الصحية». ولم تغب طبيعة هذه المتاعب عن فطنة المأمور الذي سبق أن استشار المهدي فيما يؤرق كل المآمير واللواءات.

انفرد الضروبش نفسه بالمهدي بعد انصراف الزائرين: اسمع يا عم حسين. إنت لازم تفهم أنا معنديش حاجة ضدك. أنا بأدِّي واجبي وبس.

– فاهم يا سيادة المأمور.

– أنا عاوزك تحلف ع المصحف إنك متضرنيش بحاجة، أنا عارف إنك واصل وبتاع ربنا.

حلف عم حسين واطمأن المأمور فسأله في استعطاف: إنت ناوي ترجع فعلًا لو خرجت؟

أجاب المهدي المنتظر بتؤدة: كله بأمر الله.

أمره بالانصراف واجتمع على الفور بضباطه لتدبير الزنزانة الخاصة واختيار نزلائها. وعندما جاء دور المرشد الذكي الذي سيتولى المراقبة والإبلاغ تذكَّر الضابط خضرة أنه ورث بين ما ورث من متعلقات إدكو وأوراقه: أشرف عبد العزيز سليمان وأن هناك غطاءً جاهزًا للعملية؛ فقد حان الوقت لترقية نزلاء زنزانة الإيراد الجديد بالطابق الأرضي وتوزيعهم على الزنازين المتخصصة بالطوابق العليا.

١٧

رقدتُ في النور أغالب النعاس. أردت أن أنقلب على جانبي الأيسر، لكني تذكرت تعليمات سيادة الضابط خضرة لي بألا يغيب عم حسين عن بصري طول الليل، وأن أستدعي الحراس إذا اختفى فجأة. انقلبتُ على الجانب الأيمن واختلست النظر إليه. وجدته غارقًا في النوم؛ فهو ينام مبكرًا دائمًا ويستيقظ في الفجر وهو الموعد الذي يأتيه فيه الحبيب؛ أي الرسول عليه الصلاة والسلام.

كنا خمسة في زنزانة المخزن الصغيرة بالطابق العلوي المخصص لجرائم المخدرات والنفوس؛ أنا، والمهدي المنتظر، والنوبتجي توكل، والحاج شوقي، ورضا بوند. لم تكن هناك أماكنُ خالية في الزنازين الكبيرة؛ لهذا وضعونا سويًّا في هذه الزنزانة رغم اختلاف جرائمنا. وعيَّن لنا توكل أماكننا؛ فخصَّ نفسه طبعًا بالركن البعيد، ووضع المهدي المنتظر في مواجهة الباب مباشرة ورضا بوند في الركن الآخر. أما أنا فقد وضعني إلى جوار المهدي، بينه وبين رضا، وجعلني هذا أشك في أنه على معرفة بمهمتي السرية وربما كان رقيبًا علينا نحن الاثنين. لكنى سررت لأني تحررت أخيرًا من رفقة دلو البول.

خالجني أيضًا شعور بأن توكل سعد بهذا التغيير ليتحرر من وجود المتعلمين من أمثال عزت بيه وسامح والدكتور رمزي ومستر تامر. وفي أول ليلة لنا بالزنزانة جمع منا الرسوم التقليدية، ثم أعددنا مائدةً مشتركة وأكلنا في صمت. وتولَّى عمل الشاي بمساعدتي ثم صاح فينا فجأة: جرى إيه يا اخوانا؟ إحنا في ميتم وللا إيه. إنتو عمركم ما دخلتم: سجن؟

لم يرد عليه أحد فاستطرد: عرفتم اللي حصل النهارده مع سيادة الباشا المأمور؟

هرزنا جميعًا رءوسنا في حيرة.

قال: بعت جاب سيادة الضابط خضرة وقاله يقوم ع الفيوم في الحال بواحد مسجون. وطلب منه إنه يروح بالطريق الصحراوي عشان يمر على بيته في المنيل — بيت المأمور — ويشوف إذا كان هناك وللا لأ.

تطلعنا إليه في وجوم، وأخيرًا بدأ رضا بوند يضحك فاستوقفه توكل بإشارة من يده: لسه. مش تعرف اللي حصل بعد كده؟ سيادة الضابط خضرة قام على طول. على باب السجن قابل سيادة الضابط علي بلبل. بلبل سأله: على فين العزم؟ قال له: ع الفيوم. قال له: متوصلني معاك. قال له: مش حينفع عشان أنا طالع الهرم. ليه؟ قال له: المأمور عاوز كده، عاوزني أفوت على بيته وأشوف إذا كان هناك وللا لأ. بلبل خبط كف على كف: أما غبي صحيح. ما عنده التليفون يقدر يتصل ببيته ويسأل.

ضحكنا جميعًا فانبسط توكل. قال: لازم الواحد يضحك، وإلا طق. محدش واخد من الدنيا حاجة، حتة قطن بس، مش كده يا شرف؟ عارف عشان إيه؟

لم أكن أعرف، قال: محضرتش ميت بيتغسِّل؟ مشفتهومش وهم بيسدوا كل خرم في جتته؟ لو كنت شاطر قولي يعوزوا كام حتة قطن.

أحصيت على أصابعي: اتنين للمراخير واتنين للودان، والخامسة …

قاطعني: فيك ولا مؤاخذة.

انفجر ضاحكًا وخبط على النمرة: ساعة الحظ مهمة. تديني كم سنة؟

لم أردَّ فوجَّه السؤال إلى المهدي: تديني كام سنة يا عم حسين؟

لم ينتظر الإجابة واستطرد: أنا ثلاثة وخمسين ولي أخ أصغر مني بثلاث سنين لو شفته تقول عجوز. ده لأني مبشيلش هم. أقوم مِ النوم قبل الضهر. آخد الاصطباحة وأنزل، ألاقي الناس زي ما يكونوا مضروبين بالصرم، والصنايعية مقفِّلين ومكشَّرين. أزعق فيهم: جرى إيه يا ولاد القحايب؟ محدش عملكو حاجة إمبارح وللا إيه؟ وأقوم موزع عليهم الدوا على طول يفكوا ويهيصوا.

وأضاف موجهًا الكلام إلى شوقي عمر: صح وللا لأ يا حاج؟ اللي زينا بيخدموا البلد شوف الناس يبقى شكلها إيه إن مكنَّاش نخفف عليها. قال وبيحاكمونا على كده.

تذكرت أبو السباع وحديثه عن دوره القومي. وتأكدتْ شكوكي في توكل عندما هجعنا للنوم وطلب منه المهدي أن يخلع المصباح الكهربائي فرفض قائلًا إن التعليمات تقضي ببقائه مضاءً طول الليل، ورأيت المهدى يبتسم فأدركت أنه فهم أن هذا الإجراء يتيح للحراس رؤيته من النضارة أثناء الليل والتأكد من عدم اختفائه.

وجدت نفسي أستريح للمهدي، كان يتكلم كثيرًا ويفتي في كل شيء، مثل الدكتور رمزي. لكن حديثه كان شيقًا على خلاف الأخير. كان مغرمًا بمسلسل «فالكون كريست» ولا يملُّ الحديث عن أبطاله، وحكى لنا منه عدة حلقات سبق أن شاهدتها لكني استمتعت بطريقته في الحكي. وكان يرتدي قمصانًا مشجرةً أو «بولو سبورت» وينتعل في الطابور حذاء «ريبوك» فوق جوارب من نفس الطراز نُقش عليها العلم الأميركي، وكان الطعام يأتيه يوميًّا، وعندما يحضره ويدخل الزنزانة يكشف محتوياته قائلًا بالفصحى التي لا يتخلى عنها أبدًا: «ترى ماذا أعدت لنا أم المؤمنين اليوم؟» كان يقصد زوجته وأراني صورتها وكانت جميلةً جدًّا رغم الحجاب الذي يغطي رأسها ويحيط بوجهها.

شرح لنا نظريته؛ وهي أن ربنا خلق مجموعة من الأرواح الشريرة والخيرة ذات دورات، وجعل الأنبياء روحًا واحدة خرجت منها دورة باسم عيسى وأخرى باسم موسى وثالثة باسم محمد عليه الصلاة والسلام وهو آخر دورة في الأنبياء. وقال إنه تحدى في التحقيقات أنه قادر على حل ثلاثة ألغاز حيرت العالم؛ مثلث برمودا، وقارة الأطلنطيد، وأصل موشيه دايان. وعندما سألته عن حل هذه الألغاز قال إنه يحتفظ به للوقت المناسب.

سأله توكل: وانت ناوي فعلًا تهرب؟

كان أمر الخطاب الذي أرسله إلى سيادة الرئيس قد ذاع في السجن.

قال: الحبيب هو الذي سيخرجني ويعيدني بعد أربع وعشرين ساعة.

– تعمل فيهم إيه؟ عندك معاد مهم؟ ولا يمكن مؤتمر؟

لم يكن المهدى يعبأ بمحاولات الاستفزاز ولا كان يغضب من المزاح. كان يتجاهله وينطلق في حديثٍ جاد ومنطقي ويجبر سامعه على احترامه والإنصات إليه.

اطمأننتُ إلى أنه غارق في النوم فاعتدلت على ظهري والتفتُّ ناحية رضا. كان أكبر مني بعشر سنوات، ضخم الجسم مستدير الوجه، حليق الرأس، ذا عينَين واسعتَين وشاربٍ كث. وكان معروفًا بأنه من أخطر لصوص السيارات، ودخل السجن عشرات المرات، ولديه أكثر من خمسين قضية.

قلت له: مش عارف أنام وعندي زيارة الصبح.

سألني: سلك ولا خاصة؟

قلت: خاصة.

عاد يسأل: مين جايلك؟

قلت: أمي هي اللي بتيجي دايمًا. وانت؟

قال: أمي برضه، معنديش غيرها.

طلبت منه أن يحكى لي كيف قُبض عليه فضحك.

قال: مش حتصدق.

لم يكن السجناء يتحدثون عادة بصراحة عن جرائمهم ويحرصون على التأكيد على براءتهم؛ ولهذا شعرت بالزهو لأن رضا يحكي لي كل شيء ولا يخفي شيئًا. وتأكدت أنه يثق فيَّ.

قلت وأنا أختلس نظرة إلى عم حسين وأتأكد من وجوده: احكيلي.

– شوف يا سيدي: مرة شفت أتوموبيل في المهندسين عجبني. مرسيدس فيها كل الكماليات وعليها اللوحة الخضرا بتاعت السفارات. مشيت وراها لغاية ما عرفت انها تبع سفارة أفريقية، بلد كده اسمها غريب. تَصوَّر نسيته؟ المهم. قعدت أراقب السفارة وأفكر في طريقة أخطف بيها الأتوموبيل، وفي يوم لقيت فيها شغل نقاشة وعمال بتيجي الصبح. رحت متنكر في هدوم نقاش ودخلت ضمن العمال وسهِّيت السواق وهربت بالأتوموبيل.

نظرت إليه في إعجاب، فضحك وقال: اللي حصل بعد كده يموِّت من الضحك.

كانت زوجته تنتظره على ناصية الشارع ومعها طاقم ملابس لسائقٍ رسمي. احتلت المقعد الخلفي وأنزلت الستائر ومضى هو بالسيارة إلى شارعٍ جانبيٍ هادئ فأوقفها، استبدل ملابس النقاش بملابس سائق رسمية أحضرتها له. ثم انطلق فوق كوبري فيصل إلى الهرم وإلى طريق إسكندرية الصحراوي.

– طلعت بالأتوموبيل وهو رافع علم السفارة. فجأة لقيت ضابط مرور على موتوسيكل. كان بيتكلم في اللاسلكي. قلبي طب ومراتي قالتلي وقعنا يا رضا. قلتلها دي دورية عادية. مسألتش فيه وعديته بصيت لقيته جاي ورايا. مراتي قالتلي: اوعى تتهور يا رضا، بصيت لقيته مسرع ومحصَّلني، قلت رحنا في داهية حصَّلني وعداني. ولقيته عمال يفتح لنا السكة وماشي قدامنا كإنه الحرس بتاعنا. وكل شوية يبص ناحية مراتي باحترام ... متنا على نفسنا م الضحك. الظاهر لما لقى أتوموبيل السفير ماشي من غير حراسة كلم الرئاسة بتاعته فكلفته بالحراسة، فضل قدَّامنا لغاية ما وصلنا إسكندرية وقُدام الشيراتون حيَّانا تحية عسكرية ورجع ع القاهرة عشان يبلغ إنه قام بمأموريته.

تطلعت إليه مبهورًا بجرأته: محدِّش اكتشف المقلب؟

– جايلك في الكلام، قبل ما يوصل سمع بلاغ من قيادة الطريق السريع بسرقة سيارة سفير، واكتشف أنه كان بيحرس السيارة المسروقة. مبلغش حد رجع اسكندرية على طول،

كنت سبت الشيراتون ونقلت فندق تاني ففضل ورايا لغاية ما لقاني. من غيظه تَف في وشِّي أول ما مسكني.

صاح فينا الحاج شوقي عمر أن نكفَّ عن الكلام كي يتمكن من النوم، وكان الجو قد مال إلى البرودة وتغطَّى الجميع بالبطاطين. سحب رضا بطانيته فوقه بحيث غطته تمامًا بعد أن ثنى ركبتيه إلى أعلى. وشعرت بالغيظ لأني عاجز عن تقليده وممارسة متعتي السرية. وظللت ساهرًا وحدي في الضوء أقاوم النعاس. وتسلَّيت باستعراض مغامرات رضا متخيلًا نفسي مكانه.

كنت واثقًا أن توكل مستيقظ رغم أني كنت أسمع شخيره بين الحين والآخر، وعندما بزغ الفجر نهض المهدي فتوضأ وصلى، وقام توكل أيضًا يعدُّ لنفسه كوبًا من الشاي، فانتهزت الفرصة وأخذت لنفسي تعسيلة.

ذهبت إلى الزيارة قرب الظهر وأنا كالمخدَّر من قلة النوم. وجدت أمي بمفردها ومعها كيس الطعام وكيسٌ آخر به بيجامة كستور وبلوفر من الصوف، بسطت البلوفر فوق حجري فألفيته رخيصًا للغاية لا يقارن بما بدأ يظهر على بعض المساجين. لم أتصور نفسي به في الطابور لكني أخذته بعد أن قدرت أني قد أحتاج إليه أثناء النوم عندما تشتد البرودة.

لاحظت أنها شاحبة الوجه ويبدو عليها الإعياء، وقالت لي وأنا أتفحص كيس الطعام إنها كانت عند المحامي بالأمس وطمأنها على نتيجة الجلسة القادمة في شهر ديسمبر. سألتها عن عايدة وعما إذا كانت فاطمة قد وجدت عملًا فهزَّت رأسها نفيًا. كنت أرغب في تجنُّب الحديث عن أبي. لكن الصمت ران علينا ولم أجد ما أقوله. سألتها عنه فانفجرت باكية.

قلت وأنا أكشف غطاء إناء صغير من المعدن: في إيه؟ حصل حاجة؟

وقبل أن ترد تبينت أنها أحضرت لي بطاطس مطبوخة فصحتُ بها: بطاطس تاني، مش قلت لك بلاش تجيبي لي بطاطس.

واصلَتِ البكاء فقلتُ لها متذمرًا: كفاية عياط بأه. انت حتقلبيها محزنة.

قالت: أبوك.

قلت: ما له؟

قالت إنه دخل المستشفى مصابًا بجلطة في المخ.

بحثت عن سجائر في الكيس فلم أجد. كنت دخنت آخر سجائري قبل الزيارة فسألتها في نرفزة: انتي مجبتيش سجاير؟

قالت إن مصاريفها كثرت بسبب علاج أبي وأدويته.

زعقتُ فيها غاضبًا: لما انتو مش قادرين على مصاريفنا خلفتونا ليه؟

أخذتْ تبكي في سكون، وأخذتُ أفكر في كل الأشياء التي حرمت منها بسببهم. على الأقل لو كنت دخلت مدرسة لغات لكنت الآن أتكلمها بطلاقة وكنت التحقت بالعمل في فندق أو شركة سياحة بسهولة.

أعلن الحارس انتهاء الزيارة فودعتها في صمت. وتبعته مع المساجين الآخرين إلى العنبر.

صعدت السلم الكبير الذي يتوسط الفناء الداخلي للعنبر. نادى عليَّ عم فوزي من شرَّاعة زنزانته الانفرادية فلم أردَّ عليه، كانت زنازين الطابق الثاني مغلقة كالعادة منذ معركة التليفزيون. وظهرت وجوه نزلائها الملتحين وراء قضبان الشراعات. حاولت أن أتبيَّن بينهم وجه الشيخ عصام فلم أتمكن.

واصلتُ الصعود إلى الطابق الثالث المخصَّص لقضايا الأموال العامة من رشوة واختلاس واحتيال وتبديد. كان يتقدمني أحد نزلائه حاملًا صندوقَين كبيرَين أحدهما يحمل شعار «بتزا هات» والثاني شعار «لا بوار» الحلواني. استقرت عيناي على إليتَيه اللتين كانتا تتراقصان بشدة بسبب بدانته. وكان في انتظاره عند رأس السلم اثنان من زملائه يرتدي أحدهما روب دي شامبر مكويًّا فوق بيجامة. كانوا يشتركون في زنزانةٍ واحدة تزدحم بالخيرات من معلبات تونة وأنشوجة وسردين وماكريل وكومبوت وخلافه وبها ثلاجة «فيليبس» صغيرة، وينامون فوق أسرَّة حديدية وضعت فوق بعضها، كان الثلاثة أيضًا يشتركون في ملكية ثلاث قرًى سياحية على شاطئ البحر الأحمر وتهربوا من سداد ضرائب وتعويضات مقدارها أربعة عشر مليونًا من الجنيهات، وكان رأي الحاج شوقي أن هذا لا يكفي لسجنهم، ولا بد أن أحد الكبار حاول الاستيلاء على القرى، وعندما فشل جرَّهم إلى السجن.

بلغت الطابق الرابع وأنا أفكر في أن زنزانتهم تمتلئ بالتأكيد بصناديق المارلبورو، وداعبني خاطر التسلل إليها، لكني استبعدت الأمر لصعوبته. مضيت إلى زنزانتي مارًّا بعم حسين الكعكي جالسًا إلى جوار حارس الدور، وضعتُ حاجياتي فوق نمرتي. ولمحت توكل يتناول زجاجة المياه الخاصة به، وعندما وجدها فارغة اتجه ناحية الباب، أسرعت نحوه قائلًا: عنك يا نبطشي.

جمد في وقفته وتطلع إليَّ متمعنًا. وشعرت به يفكر بسرعة في مدلولات تصرفي وما سيترتب عليه. وانتظرت قراره وقلبي يخفق في صدري.

ترك لي الزجاجة وقال وهو يخطو إلى الخارج: ماشي.

طرت بالزجاجة إلى دورة المياه فملأتها وعدت. لم يكن بالزنزانة غير الحاج شوقي، ولاحظت أنه يبكي. كنت أشفق عليه لأنه مهدَّد بخطر الإعدام مثلي. كان تاجرًا ناجحًا في الموسكي إلى أن سقط في الإدمان وأهمل عمله فتكاثرت عليه الديون واتجه إلى الاتجار في الهيرويين لتغطية نفقاته. وأعدَّت له الشرطة كمينًا فتقدم له ضابطٌ متنكر اتفق على شراء كميةٍ كبيرة من تذاكر الهيرويين، وفي الموعد المحدَّد للتسليم بكوبري القبة حوصر وضُبطت معه الكمية مع الخاتم المعدني الذي يستخدمه في ختم التذاكر و٥ آلاف جنيه حصيلة البيع.

وضعتُ الزجاجة بجوار نمرة توكل واستدرتُ لأنصرف، وهنا تبينتُ أن الحاج شوقي في حالة غير طبيعية. كان مخاطه يسيل من أنفه فوق فمه ويعرق بشدة ثم بدأ يتشنَّج ورأيته يتبول على نفسه والظاهر أيضًا أنه تبرز؛ إذ شممت راحةً عفنة. لم أدرِ ماذا أفعل؛ فأسرعت أبحث عن توكل ووجدته جالسًا مع حارس الدور وعم حسين الكعكي فناديته وأبلغته بحالة الحاج شوقي.

اتجه توكل بخطواتٍ سريعة إلى الزنزانة، كان شوقي ما زال بمفرده، وقد أقعى فوق نمرته محتضنًا نفسه بساعديه، انحنى توكل فوقه وقال له شيئًا. هزَّ الحاج رأسه نفيًا فاعتدل واقفًا وقال: لما ممعكش يبقى خد أنجكة؛ أرخص. قلت إيه؟

مدَّ شوقي يده إلى كيسه فاستخرج منه ثلاثة صناديق من سجاير كليوباترا أعطاها لتوكل الذي انتزع من أحدها ثلاث علب وضعها في جيبه ثم ناداني وناولني الصناديق الثلاثة قائلًا: خد السجاير دي للحاج رأفت في زنزانة ستَّاشر، وهات الحاجة اللي يديهالك. طيارة. بس اوعى الشاويش يشوفك.

لم أكد أتحرك حتى نادى عليَّ وأشار إليَّ أن أقترب منه ثم همس: قل له يدِّيك العدة كمان.

مضيت إلى الزنزانة ١٦ في الربع المخصَّص للمخدرات بالناحية الأخرى من الطابق، كانت واسعة تضم خمسة وعشرين نزيلًا توحي محتوياتها بالثراء وتزين جدرانها صور المجلات.

كان الحاج رأفت معروفًا للجميع؛ فقد دخل السجن ثلاث مرات لتنفيذ أحكام آخرها الحبس خمس سنوات. وكان ينفق ببذخ وتأتيه في الزيارة تورتاتٌ ضخمة وكمياتٌ كبيرة من الخضراوات والفاكهة ويرتدي ملابس بلديةً فاخرة. وكانت زوجته مسجونة أيضًا

وللمرة الثانية وعندما خرجت أول مرة أشاع أولادها نبأ موتها وأقاموا لها سرادقًا كبيرًا في بولاق أبو العلا بينما اختفت في شقةٍ فاخرة في مدينة نصر زاولت منها نشاطها إلى أن قُبض عليها.

وجدته متربعًا فوق نمرته وفي يده مسبحة ... كان ضئيل الحجم يعاني من شيء في عينَيه كالحول لم أدرك كنهه وإن كان يحدُّ من قدرته على الرؤية. وكنت قد سمعت أن زوجته أيضًا شبه عمياء.

أخذ مني السجائر ووضعها بجواره على الأرض ثم نادى أحد النزلاء الشبان وأسرَّ إليه بشيء فغادر الزنزانة، ولحظت أنه اتجه ناحية المراحيض، طلبت منه سيجارة فأعطاني واحدة «روثمان».

عاد المسجون الشاب بعد لحظات فأعطاه لفافةً صغيرة ناولنيها قائلًا: خبِّيها كويس.

بلغت أنفي رائحةٌ غريبةٌ منفِّرة وأنا أدسُّ اللفافة في صدري، أطفأتُ السيجارة عند منتصفها وأسرعتُ إلى زنزانتي، ألفيتُ العرق يقطر من خدَّي الحاج شوقي ويتجمع حول إبطَيه.

فكَّ توكل اللفافة واستخرج منها لفافةً أخرى ملوثة ببقعٍ بُنِّية فميَّزتُ رائحة البراز. انحنى فوق دلو البول وأشار لي أن أصبَّ له كوزًا من المياه. وبعد أن شطف اللفافة الملوثة صببتُ له المزيد من المياه فصبَّنها وغسلها جيدًا. ثم شطفناها للمرة الأخيرة وغسل يديه كما غسل علبة صلصة صغيرة فارغة.

طلب مني أن أُوارب باب الزنزانة وأقف خارجه في الممر لأحذِّره إذا اقترب الحارس أو دخل الضابط العنبر. خرجت وواربت الباب ثم اختلست النظر من فرجته. رأيته يفكُّ اللفافة المغسولة ويستخرج منها قطعة قطن ومحقنًا بلاستيكيًّا وبالونة حمراء معقودة الطرف. وبسط ورقة جريدة فوق نمرته وضع فوقها محتويات اللفافة، ثم ملأ كوبًا من مياه الدلو وناوله الحاج شوقي ليمونة من كيسه مزَّقها بأسنانه.

كنت أعرف أن الليمون يُعصَر على البودرة الرخيصة المخلوطة بشوائب ولا تصلح للشم لتطهيرها من التلوث قبل استخدامها في «الأنجكة» أي الحقن.

راقبتُ يديه تتحركان بحذق وسرعة. امتصَّ بعض المياه في إبرة المحقن ورفعها في الضوء ليتأكد من صفائها. ثم فضَّ بالونة وسكب ما بها من مسحوق في علبة الصلصة وعصر عليه الليمونة ثم سحب الخليط إلى المحقن من خلال قطعة القطن.

قال شيئًا للحاج شوقي ففكَّ هذا حزام بنطلونه وشمَّر عن ذراعه ثم ثناه بعنف عدة مرات كأنما يُطرِّيه ولفَّ الحزام بمهارة حول الجزء العلوي من ذراعه، واحتوى طرفه في

يده اليمني. تحسَّس توكل ذراعه بأصابعه إلى أن عثر على وريدٍ كبيرٍ بارز قرب المرفق، فأمسكه بين الأصبع الوسطى والإبهام، وجعل يضخُّ بيده حتى نفرت العروق على ظهرها. وضع طرف الإبرة وضغطها، اندفعت الدماء إلى القطَّارة فضغط الحقنة ودفع المحلول ببطءٍ شديد، بعد عشر ثوانٍ تنهَّد الحاج شوقي في نشوة. واسترخى جسده ولانت ملامحه وتباطأ تنفُّسه. سحب توكل الإبرة حتى أوشكت القطَّارة أن تمتلي بالدماء، ثم جذب السنَّ ومسحه في ورقة كلينكس، ومسح أيضًا ذراع الحاج النازف، وجمع العدة بسرعة وأعادها إلى كيسها، ودسَّه في صدره فولجت الزنزانة. وفجأة انحنى الحاج شوقي إلى الأمام واضعًا يده على بطنه ثم تقيَّأ فوق نمرته.

لم يُبدِ توكل انزعاجًا وقال له: ميهمكش. دايمًا كده في الأول، عشان كده اسمه السم.

أشعل سيجارة، وعندما نظرت إليه قدمها لي لآخذ منها نفسَين، راقبني وأنا أستنشق الدخان بشراهة. وأمرني بإعداد الشاي للحاج شوقي ففعلت، ولاحظتُ أن علامات الانبساط بدأت تظهر عليه بالتدريج وأشعل سيجارة جذب أنفاسها في عمق.

سألني توكل: انت مجتلكش سجاير في الزيارة؟

أجبت: لا. وكنت عايز أستلف منك.

قال: ممعييش.

ثم أضاف: متقلقش. حتفرج.

ناولني عقب سيجارته فجذبت نفسًا عميقًا ساخنًا جعلني أسعل بشدة. وولج عم حسين الزنزانة فقال عندما رآنا: سمعتوا الخبر؟ الدكتور رمزي رجع العنبر، حطُّوه في زنزانة أموال عامة بالدور التالت.

كنت قد تابعت أخباره منذ نقله إلى زنزانةٍ انفرادية في العنبر الآخر، ثم إضرابه عن الطعام. وكانت حالته قد ساءت بعد مرور عشرة أيام، لكنه ركب رأسه وواصل الإضراب طالبًا أن تأتي النيابة لسماع أقواله، وركب المأمور رأسه هو الآخر ورفض إبلاغ النيابة وفشلت محاولات إقناعه بوقف الإضراب، وبعدها بأسبوع رآه الطبيب وأعلن عدم مسئوليته عن حياته وراجت إشاعة بأنه مات، ثم عرفنا أن المأمور نقله قسرًا إلى المستشفى بسبب تدهور حالته لكنه امتنع عن تناول العلاج مشترطًا مجيء النيابة؛ فاضطر المأمور للخضوع وأخطر النيابة التي جاءت وأخذت أقواله؛ فأوقف الإضراب وخضع للعلاج.

هبطتُ إلى الطابور فوجدته جالسًا في الشمس، مستندًا بظهره إلى حائط العنبر وممددًا ساقَيه أمامه وقد بدا عليه الهزال الشديد، وأحاط به سامح وأبو السباع ومستر تامر الذي

غطَّى عينَيه بنظارة «لويسول» وارتدى سويت شيرت أسفل «باركا» زرقاء من النايلون، ذات وسطٍ مطاطي.

تطلعت إلى الدكتور بإعجاب وسألته عن الإضراب وهل كان شاقًّا. هزَّ كتفيه قائلًا: أصعب وقت هو التلات أيام الأولانية بعدها تكون المعدة تعودت والواحد نفسه تنسد.

انضم إلينا رضا وقرفص إلى جوارنا، كان يرتدي سترة «أولد إنجلند» من الجبردين مخططة طوليًّا فوق بولو من القطن «توماس بيربريز»، وكرافتة من نفس الماركة بألوان العلم الألماني، وينتعل موكاسان جلد بنعل كاوتشوك فوق جواربَ قطنية «بول سميث». ولاحظت أن بنطلونه ضيق يضغط على محاشمه ويوضح تفاصيلها.

سأله عن هدفه من الإضراب فقال ببطء: تطبيق اللايحة والدستور بالنسبة لمعاملة المسجونين.

علق رضا ساخرًا: واطبَّقوا؟

أجاب الدكتور في تردد: النيابة سجلت كلامي، لما نشوف.

نهض رضا واقفًا وهو يقول: شاالله يا نيابة.

أخرج علبة سجاير مارلبورو تناول منها سيجارة، نهضتُ واقفًا وأنا أنظر إلى العلبة. علقت على أناقته فقال بزهو: دي عدة الشغل.

أعطاني سيجارة فوضعتها في عبِّي لكي أدخنها بالليل. قال ونحن ندور حول الفناء: لازم ألبس كويس عشان محدِّش يشك فيَّ، مرة فتحت باب أتوموبيل وفجأة لقيت صاحبه جنبي. تمالكت أعصابي وقلت له إن العربية بتاعته سدَّة السكة قدام عربيتي وإني معرفتش أزقها لقدام فجربت المفتاح بتاعي وفتح. الراجل مشكِّش في حاجة واتأسف لي. الهدوم اللي أنا لابسها ساعدتني، وفضلت واقف لغاية ما مشي.

سألته: إنت ناوي على حاجة النهارده؟

ضحك: يا ريت. مفيش غير المحامي.

نفخ الحارس في صفارته معلنا انتهاء الطابور. وناداني توكل بمجرد صعودي وأخذني إلى دورة المياه فانتحينا فجوةً صغيرة في مدخلها بعيدًا عن الأنظار.

قال بصوتٍ خافت: اسمع. الوقت لازم نشيل العدة والتموين لعمك شوقي قبل التمام، يمكن يحصل تفتيش. فإيه رأيك؟

لم أفهم ما يقصده، قلت: اللي تشوفه.

قال: أنا حطيت كل حاجة في لفَّة صغيرة، همتك بقى يا بطل.

أراني لفةً واحدة احتوت على عدة خوابير مدكوكة في بعضها البعض وملفوفة ببلاستيك الأكياس الناعم.

تطلعت إليه متسائلًا فصاح فيَّ: إيه يا واد حتستعبطلي؟ يللا خش البسهم.

بدت لي اللفافة كبيرة الحجم ودون تفكير قلت: وليه ما يلبسهمش هو؟

قال: ما انت شايف ازاي بيريل على روحه، أنا لو مكنش عندى بواسير كنت لبستهم على طول ولا الحوجة للئيم.

قلت محتجًّا: لكن دول كتير.

ضحك: يا بني لا كتير ولا حاجة. مش فاكر لما إدكو مسك الواد بريمة وغسل له معدته؟ فاكر طلع منها إيه؟

تذكرت أنهم أخرجوا من بطنه عشرين علبة سجاير وكتلة حشيش وأفيون وعدة أمواس حلاقة وحوالي ألف جنيه.

قال: مفيش مشاكل، انت بس تزقها زقَّة صغيرة، ولما نعوز حاجة تحزق فتتزفلط على طول من غير ما تحس. بس خلي الخابور الأحمر ده في الآخر عشان لما نعوز نعمر دماغنا يبقى في إيدنا.

قلت: طب افرض جابوا الأجهزة اللي بتكشف كل حاجة في الجسم؟

ضحك: هو إنت معرفتش؟ مش عطلت كلها ومعرفوش يصلحوها. رموها في المخازن.

قلت: ولما أدخل الدورة الصبح؟

كشر قائلًا: الله بأه. يا بنى متخافش. حاخدها منك ساعتها. بالنهار أقدر أتصرف إنما المشكلة بالليل. عشان المهدي الله يجحمه.

كنا فعلًا نتعرض بسببه لتفتيش شبه يومي في أوقات مختلفة وخاصة بعد التمام، أخذت اللفافة ودسستها في صدري فأضاف محذرًا: بس اسمع. كلمة واحدة منك وتروح في الباي باي. فاكر اللي حصل لسكسكة؟

كان سكسكة نشالًا مشهورًا في عنبر الميري، وأبلغ الإدارة عن شحنة مخدرات دخلت السجن. وبعد أسبوع وجدوه في المرحاض مغمًى عليه وعينه مفقوءة.

قلت: أيوه فاكر. متخفش.

وقف هو في مدخل الدورة بينما دخلت المرحاض الأخير وأسدلتُ ستارته. قرفصت وفككت اللفافة وأخرجت الخوابير فلبستها واحدًا بعد الآخر وحرصت على أن يكون الأحمر في الآخر.

وجدته في انتظاري عندما خرجت فأشعل سيجارة كاملة وقدمها لي لندخنها سويًّا، وعدنا إلى الزنزانة فوجدنا الحاج شوقي مصهللًا. وجدت صعوبة في الجلوس إلى أن تعودت على وجود الخوابير في أمعائي.

تخلَّى الحاج شوقي بعد العشاء عن الحذر الذي لازمه معنا، ومضى يحكى مغامراته، روى لنا كيف كان عليه مرة أن يذهب إلى الإسكندرية بسيارته الـ ١٢٧ ليسلم «بضاعة». فخبأها في خزان البنزين ولم ينتبه إلى تأثير ذلك على سعته الصغيرة من الأساس، وإلى أنه لم يعد يتسع لأكثر من عشرة لترات، وتوقفت السيارة في الطريق، يا دوبك بعدما عبر البوابة، بعيدًا عن أي محطة بنزين، لم يعد أمامه غير أن يعتمد على السيارات المارة. فأشار لواحدة رفضت التوقف، واعتذر سائق الثانية بقلة ما معه. وكانت السيارة التالية للشرطة وهي التي أعطته. جاء الدور على رضا فقال: مرة فتحت أتوموبيل فلقيت ع الكرسي شنطة فيها ٦٥ ألف جنيه. أخدت الشنطة وسبت الأتوموبيل وبعد أسبوع رجعت سرقته.

اعتدلت في جلستي بحثًا عن وضعٍ أكثر راحة وسألته إذا كان حزينًا لأنه دخل السجن. هزَّ كتفيه وقال: أزعل ليه؟ كلها كام شهر وأخرج وأرجع لنشاطي.

– ازاي؟

– حاخرج بكفالة وبعد كده يبقوا يلاقوني.

كنت مفتونًا بحكاياته، لا أملُّ سماع المزيد، وأتخيل لي دورًا فيها. وخطر لي فجأة أن أسأله عما دفعه لاختيار هذا الطريق.

أطرق برأسه ثم ابتسم: كنت بازهق من المدرسة وأهرب مع الشلة نطلع نتفسح. وكنا مصاحبين ٣ بنات وعاوزين نعمل مغامرات على طريقة الأفلام، عملنا رحلات في النيل. كنا نسرق القوارب ونتفسح بيها طول النهار وفي آخر اليوم نسيبها على الشط التاني. وبعدين نقلنا على الأوتومبيلات نسرقها وبعد ما نتفسح نسيبها في أي حتة بعيدة. تعلمنا السهر والسجاير، ومصاريفنا زادت فبقينا ناخد حاجات من الأوتوموبيل قبل ما نسيبه ونبيعها. وبعد شوية مبقيناش نسيبه خالص، بقينا نبيعه للتجار اللي يفكوه ويبيعوه قطع غيار.

سألته عن أهله وهل كانوا يسببون له مشاكل. فتردد لحظة ثم قال: لا. عادي.

تخيلت نفسي عضوًا في شلته وأشاركه في مغامراته، ثم سألته عن المرة الأولى التي قُبض عليه فيها. فقال إنهم سرقوا سيارة وذهبوا للسهر في عوامة على النيل فتشاجروا مع آخرين، وقطع أحدهم حبل العوامة فجرفها التيار إلى عرض النهر، وبدأت تصطدم بالقوارب الصغيرة، وتملَّك الذعر الجميع، إلى أن أنقذتهم شرطة الإنقاذ النهري، وسحبت

العوامة إلى المرسى وألقت القبض على كل من عليها. وهنا اكتشفت الشرطة أمر السيارة المسروقة فأحالت رضا وأصدقاءه إلى النيابة التي راعت ظروف المراهقة والدراسة؛ فاكتفت بتوجيه تهمة استهلاك وقود لهم بدلًا من تهمة السرقة، وأحالتهم إلى المحكمة التي قضت عليهم بالحبس ٣٠ يومًا.

– الشهر ده كان بدايتي الحقيقية. كان زي المدرسة. اتعلمت فيه حاجات كتير من المعلمين الكبار، ولما خرجت أخدت علقة محترمة من أبويا ومنعني شوية من الخروج، رحت مصنَّع طفاشة تنفع لكل أبواب الأتومبيلات، وبدأت أشتغل لوحدي ونجحت بفضل الطفاشة، وبعد شوية سكنت لوحدي واتجوزت صاحبتي.

تصورت المفتاح السحري في حوزتي وأنواع السيارات التي سأطير بها. ثم انتبهت إلى أنه يبكي.

بُهت الجميع وساد الوجوم. ولم يلبث أن تمتم: ربنا انتقم مني، أنا عمري ما حبيت واحدة زيها، الواحد له مرة واحدة بس يا يلقاها يا ميلقاهاش. متتعوضش أبدًا. كانت تعمل معايا كل حاجة، كنا نسرق سوا ونهرب سوا ونتفسح سوا ...

سرد علينا ما حدث: كانت بمفردها في الشقة تعد الطعام عندما أمسكت النيران بملابسها النايلون. صرخت واستنجدت بالجيران إلا أن النيران تمكنت منها، ونقلها الجيران إلى المستشفى بين الحياة والموت، لكنها لم تكفَّ عن النداء باسم رضا حتى جاء وظل يبكي بلا دموع حتى لا تشعر به إلى أن لفظت أنفاسها في حضنه.

ران الصمت علينا واكتأبنا. وأخرجَنا توكل من حالتنا بأن صاح: الله ... أمال بقى ... لو كان الواحد بدل ما اتجوز اشترى بالفلوس بهايم مش كان أحسن؟ أنا متجوز من ثلاثة وعشرين سنة وحبيت خمسة. اجَّوزت على مراتي، وبعدين طلقت الجديدة، واجَّوزت واحدة عرفي.

جاراه الحاج شوقي متسائلًا: وأنهي واحدة فيهم بتبسطك؟

– اللي أنا متجوزها عرفي.

أشعل سيجارة وبدأ يتحدث جادًّا: لازم تحسس مراتك إن فيه واحدة تانية ويا ريت تعرفها وتكون أقل منها في حاجة عشان تتجنن، أيوه كده.

أدار بصره فينا ثم أضاف بزهو: نيِّمتهم جانبي واحدة على يميني والثانية على شمالي. أنا الجاهل. حد فيكم يا متعلمين عملها؟

قال عم حسين وهو يتناول مسبحته: معاذ الله يا أخ توكل.

تجاهله توكل ونظر إليَّ وقال: وانت يا شرف؟ تلاقيك لسه مدخلتش دنيا؟ مش عاوز تدخلها؟ تعالَ جنبي هنا وأنا أعلِّمك.

لم أدرِ بماذا أردُّ. خفت أن أنتقل إلى جواره، ومن ناحيةٍ أخرى إذا لم أرد سأتعرض لسخريته. وأخيرًا أجبت وأنا أهزُّ كتفيَّ: مش عايز.

نظر إليَّ بوقاحة وقلدني بصوتٍ أنثوي: مش عايز. مش عايزة ليه يا بطة؟

ارتفع صوت الدكتور رمزي فجأة من الطابق الثالث: «يا غلابة يا مساكين. فكروا بعقولكم. إنهم يسرقونكم طول الوقت ويضحكون على ذقونكم. وأنتم تتجاهلون حقوقكم، الأمور ليست سداحًا مداحًا في البلدان المتقدمة كما يحاولون إيهامكم. الدولة في البلدان المتقدمة تحمى مواطنيها عندما يشترون احتياجاتهم من السلع، وعندما يتحدد سعرها وعندما يعلن عنها وعندما توزع في السوق. البائع مثلًا يجب أن تتأكد نظافته وخلوه من الدرن والالتهاب الوبائي بشهادةٍ صحية غير مزورة. ويجب أن يمر مراقب أغذية يأخذ عينات من السلع الغذائية ليتم تحليلها في معاملَ مختصة، ومن واجب الدولة أن تراعي اعتبارات الأمان في السلع التي تشترونها، وأن تحميكم عندما تتحدد شروط البيع وعندما تتحدد المواصفات والبيانات اللازمة عن السلعة كمحتوياتها وتاريخ إنتاجها وصلاحيتها ووزنها وتركيبها وسعرها ...»

هلَّل المساجين وأعلن أحدهم نبأ عودة الدكتور رمزي من المستشفى. والظاهر أن هذا الاستقبال شجَّعه فمضى يقول: «ضحكوا عليكم وسرقوكم عندما أعلنت الشركات والجمعيات عن فتح باب الحجز لسلعها بدفع الثمن مقدمًا كاملًا أو جزئيًّا؛ لتمول أعمالها بأموال المستهلك دون أن يحصل على عائد استثمار أمواله وينتظر سنوات، فإذا اشتكى قالوا له خذ نقودك، طبعًا دون عائد استثمارها، وعندما يستلم السلعة يجدها من موديل غير الذي اتفق عليه، وأحيانًا بسعر غير الذي تعاقد عليه، وإذا اشتكى يجد أن شروط الحجز تعطي الشركة الحق في تعديل التصميم والسعر والتأخير في التسليم. ضحكوا عليكم وسرقوكم عندما فرضوا عليكم تقسيطًا في أسعار السلع يضاعف ثمنها تقريبًا. وعندما تقاضوا منكم مبالغَ كبيرة بصرف النظر عن مستوى السلعة أو الخدمة ونوع المعاملة التي تتلقونها؛ التليفون الذي يتكرر عطله، الكهرباء التي يتقلب تيارها ويتلف ما لديكم من أجهزة. ثم جاء أصحاب شركات توظيف الأموال وأبلغوكم أنهم ضد الربا وأنكم طبقًا للشريعة تستحقون ربحًا مقداره ٢٥ بالمائة وأكثر فأخذتم الربا وعشتم في نشوة عامًا أو اثنين لغاية ما راحت عليكم أموالكم ومع ذلك لا تتعظون، تستسلمون بكل بلاهة لكل ما ينشر في الصحف أو يعلن في التليفزيون.»

علق توكل وهو يشعل نصف سيجارة: الراجل ضرب. الصيام خلاه يهلوس، هو عايز يغير الكون وللا إيه؟ هو ما له وما للحكومة والتجار. عامل راسه براسهم؟ عاملي فيها فلَّة؟ طب ولما يرقعوه حكم محترم؟ حتنفعه الفلسفة دي؟ كده وللا لأ يا شرف؟

ناولني النصف فأجبت على الفور: تمام يا معلمي.

كانت أول مرة أخاطبه بهذا اللقب وأعجبه ذلك فانطلق في الكلام: بص. أنا مبدئي هو امشي مع الريح وميل معاها لما تميل وانت تستريح. طب قولي يا حاج ... صاحبك وللا أخوك؟ أخويا هو اللي ينفعني. أنا سيبت أختي بتعمل عملية وواحد صاحبي في الإنعاش ورحت أعزِّي في واحد ليَّه عنده مصلحة. آه. هو كده. صح وللا لأ يا عم حسين؟

قال عم حسين وهو يبسط بطانيته استعدادًا للنوم: غدًا إن شاء الله أحدثك عن رأيي في كل ما ذكرت.

١٨

لم يُكتشف اختفاء المهدي إلا عند إجراء التمام المسائي. وكان شرف هو الذي نبه «اسحب الفجل» إلى غيابه؛ فنودي عليه في المرحاض وفي الزنازين الأخرى بالطابق الرابع وبقية الطوابق، وجرى البحث عنه في الفناء والمكاتب والفرن والمغسلة والورش دون جدوى.

وكما يحدث في أمثال هذه الحالات، قرر اسحب الفجل أن المهدي اشترك في طابور بعد الظهر. وشهد حارس الطابق الثالث أنه رآه يصعد السلم بعد انتهاء الطابور. وأكد عدد من النزلاء بينهم توكل أنهم لمحوه في الزنزانة قبل إجراء التمام بدقائق.

ظلت الزنزانة بغير تمام ولم يسجل الضروبش التمام العمومي في الدفاتر وبالتالي ظل السجن مفتوحًا. وطاف بأرجائه يوزع الشتائم والأوامر واضعًا على عينيه نظارة «فوارنيه» أخفتهما تمامًا بفضل زائدتَيها الجانبيتَين، مؤجلًا إلى آخر لحظة ممكنة إبلاغ مثلث الرؤساء (في المصلحة والمباحث والمخابرات). واستولت على السجناء حالة من الترقب الحذر كما تصف وكالات الأنباء لحظات الأزمات؛ فلو نجح الاختفاء تعرض الجميع للتكدير، وطُبقت عليهم اللائحة بحذافيرها؛ فيتم التشديد على دخول الممنوعات (منعها لا السماح بها) كي ترتفع أسعارها. ولهذا السبب تمنى الجميع سرعة ظهوره. دافعٌ آخر لهذه الرغبة الإجماعية هو الغيرة. فهل هناك سجين يحلم بالعثور على طاقية الإخفاء؟ بل إن البعض، مثل توكل، يعتبر ذلك من الفرائض.

شرح وجهة نظره من الناحية القانونية: لو القضية جناية الحكم يسقط بالتقادم بعد عشر سنين، ويسقط لنفس السبب بعد تلات سنين بس إذا كانت جنحة.

كان لديه مثالٌ جاهز هو ما حدث مع الملحن «بليغ حمدي» الذي غادر البلاد قبل ساعات من صدور الحكم عليه بثلاث سنوات في قضية مقتل المغربية سميرة مليان، وبعد انقضاء السنوات الثلاث عاد ولا يهم أنه مات بعد قليل.

من يضمن مثل بليغ حمدي أن تتحول الجريمة من جناية إلى جنحة؟ تبقى المفاضلة بين عشر سنوات في السجن وعشر مثلها من الاختفاء والخوف والحرية. رضا الأكثر خبرة بدخول السجن والخروج منه قدَّم حالةً أخرى بالمثال التالي: إذا كان الحكم ستة شهور ولا ترغب في أن تصبح لك سابقةٌ رسمية تطعن في الحكم. في هذه الحالة تنتظر في السجن نتيجة النقض التي قد تأتي بعد أربع سنوات، فمن يعوضك عن هذه الفترة لو صدر الحكم النهائي ببراءتك؟ استخلص شرف النتيجة: الأفضل أن يختفي الواحد ويعتمد على حظه، رغم أن الفشل ينتظره في غالب الأمر.

آخر المحاولات الفاشلة تمت في نفس الشهر من العام الماضي؛ فقد نجح مسجونان في تهريب منشار من الصلب في رغيف فينو، وعكفا على قضبان الزنزانة حتى تمكنا من نشرها، وتسلَّلا منها إلى السقف، وبطريقةٍ ما وصلا إلى السور وإلى الحرية التي لم يتمكنا من الاستمتاع بها أكثر من بضع ساعات؛ إذ قُبض عليهما في المنزل الذي اختفيا به والذي تركا عنوانه في ورقة بالزنزانة.

وليس معنى هذا أن الحظ لا يضرب ضرباته أحيانًا، فمنذ بضع سنوات حصل أحدهم — وكانت له علاقة بمافيا مخدرات إيطالية — على ملابس ضابط وغادر السجن بطريقةٍ عادية في يوم الأولمبياد وكانت تنتظره بطاقةٌ طائرة أقلَّته خارج البلاد قبل أن يكتشف مأمور السجن اختفاءه.

لم يكن عم حسين عضوًا في أي مافيا ولا تمكَّن من تهريب ملابس عسكرية فضلًا عن منشار؛ ولهذا السبب عثروا عليه بعد خمس ساعات. كان قد نجح في التسلل أثناء الطابور إلى خزان مياه فوق سطح المغسلة وانزوى به منتظرًا موعد تغيير الحراس في منتصف الليل ليستغله في التسلل إلى السور. لكن الخزان بدأ يمتلئ بالمياه قبل منتصف الليل بساعتَين ووجد نفسه مهددًا بالغرق فاضطر لمغادرته، وهنا كشفته الأنوار الكاشفة للحراس الذين كانوا ينقبون الفناء بحثًا عنه. وتولى اسحب الفجل سحبه إلى عنبر التأديب.

ترتب على ظهور المهدي إخلاء إحدى زنازين التأديب من أصحاب اللحى وعودتهم إلى زنازينهم الأصلية بالطابق الثاني من عنبر الملكية، وكان مذيع النشرة الإسلامية بين العائدين فاستأنف العمل على الفور، والظاهر أنه كان متأثرًا بطول الفترة التي عزل فيها عن العالمين الداخلي والخارجي، فبعد أن استعرض الثوابت بسرعة (الخمر والزنا والميسر والربا) انتقل للتعليق بصوت يرتعش من الغضب على اغتصاب المسلمات في البوسنة بواسطة وحوش الصرب، ثم انطلق يندد بعميد كلية الشريعة المصرية الذي أفتى بجواز

إعادة غشاء البكارة للفتاة بواسطة الجراحة كي لا يفتضح أمرها أو يلحق العار بأسرتها طالما أنها تابت ورجعت إلى الله. وأعلن في سخط أن ذلك غش وخداع لا يقرُّه الإسلام، وإغراء لفتيات غيرها على الزنا. ثم ختم نشرته هاتفًا: هذه العملية حرام حرام حرام.

انتقلت عدوى السخط فيما يبدو إلى الدكتور رمزي كما اتضح من أول نداء له بعد ظهور المهدي: يا غلابة يا مساكين، هل تظنون أنفسكم أحياء؟ أنتم موتى. الواحد فيكم مرسوم ككائن حي لكنه ليس حيًّا على الإطلاق. تأملوا أحوالكم وأحوال زوجاتكم، الواحدة تطبخ وتعطي جسدها بدون انفعال، وتحمل وتلد وتواصل حياة هي والموت سواء، أنتم لستم سوى فئران تجارب، قبلتم معاملة الحيوانات، تشربون مياه الترع الملوثة بالحيوانات النافقة والمبيدات والقاذورات والخراء وتتنفسون الأتربة والأبخرة السامة وعوادم السيارات ويدقون رءوسكم بالميكروفونات والاستريوهات فيصيبكم الطرش وتنخفض نسبة المغنسيوم في أجسامكم فتتلاشى قدرتها على تجديد البناء وتضطرب أعصابكم وتنهار خلايا أمخاخكم ويصيبكم الاكتئاب، ويرتفع ضغط دمكم، إذا تبقى عندكم دم.

تعرَّف السجناء على أعراض العلل التي يشكون منها فهللوا للدكتور الذي واصل هجومه: هل تعرفون أن في مصر خمسة آلاف مصنع غير مرخص تنتج سلعًا غير مطابقة للمواصفات؛ مثل اللانشون والبسطرمة والسجق والجبن الأبيض وملح الطعام ومستحضرات التجميل وزيوت السيارات وإطاراتها وتيل الفرامل وأسطوانة الدبرياج والأسلاك الكهربائية والأجهزة الكهربائية المجمعة من أجهزةٍ قديمة. أي إنكم إذا لم تموتوا بسرطان المعدة والأمعاء فبحادث سيارة أو صعقة كهرباء.

على خلاف ما حدث في عنبر الميري، حيث كان الاستنكار لنداءاته شاملًا (من باب الجهل على الأقل)، انقسم عنبر الملكي بشأنه إلى مؤيِّدين ومعارِضين وبين بين، وتم الانقسام على أساسٍ طابقي، لا طبقي، فبينما صفق له سكان الطابق الأول من نشالين ولصوصٍ صغار (ولو من باب التهريج) وإيراد جديد (لم تتضح الرؤية له بعدُ)، هاجمه سكان الطابقَين الثاني المخصص لأصحاب اللحى (على أساس الخلاف الأيديولوجي المزمن بين محمد وعيسى) والثالث المخصص لقضايا الأموال العامة من رؤساء شركات وموظفين كبار ومحتالين وقوادين ومزيِّفين وأصحاب قرًى سياحية (على أساس موقعهم فوق قمة النظام الاجتماعي؛ وبالتالي مسئوليتهم في الدفاع عن كل تجلياته). لنفس السبب تعاطف معه سكان الطابق الرابع من قتلة وتجار مخدرات ينتظرون أحكامًا تتراوح بين المؤبد والإعدام

(كما سبق أن تعاطفوا مع تطبيق الشريعة). ولم يعبأ به نفرٌ قليل من سكان هذا الطابق هم «الحمر».

كانوا ثلاثة جواسيس لإسرائيل يرتدون ملابس الإعدام الحمراء، يحتلون ربعًا كاملًا من الطابق وينفرد كلٌّ منهم بزنزانةٍ خاصة، ولا يُتاح لهم الاختلاط ببقية السجناء. وهو وضع يعتبر امتدادًا لمناخ عهدٍ سابق كانوا يتعرضون فيه للأذى على يد المساجين العاديين قبل أن تعطيهم «كامب ديفيد» الشرعية. وبالرغم من تغير الأوضاع وثقتهم في حتمية الإفراج عنهم لم يكونوا ينعمون بالنوم غير ليلةٍ واحدة فقط في الأسبوع هي ليلة الخميس لأن الجمعة هو اليوم الوحيد الذي لا تنفذ فيه أحكام الإعدام. أولهم وليم الهش الذي لم ينكر أبدًا جريمته وأعلن أمام المحكمة: «إسرائيل مش محتاجة جواسيس هي عارفة كل حاجة عن مصر.» وكان شابًّا، من جيل أكتوبر، عمل في مصنع ملابس بالإسكندرية يصدِّر إنتاجه المتميز إلى إسرائيل دون علاماتٍ مصرية، وهناك توضع عليه علاماتٌ إسرائيلية ويصدَّر إلى أوروبا. عن هذا الطريق سافر إلى إسرائيل والتقطته فتاة بادلته الحب بالمعلومات فأدمن الاثنين والتحق بالموساد.

ثانيهم «مصطفى صور يا بيه»، كان حارسًا (ماركة غفير لا أمن) لشركة مقاولات في سيناء، يتصيد الجنود الذين يمرون به ويتوقفون لشرب الشاي أو الماء ويعرف منهم أسماء وحداتهم وأرقامها في البريد الحربي وأسماء الضباط، فيحفظها في ذاكرته لأنه أمي لا يعرف الكتابة أو القراءة، ثم يسلم هذه المعلومات إلى مندوبٍ إسرائيلي. وفي يوم عثر في كوم من الزبالة بجوار مبنًى للدفاع الجوي في الإسماعيلية على ورقٍ غريبٍ مثقوب من الجانبين فسلمه للمندوب الذي سعد به قائلًا إنه ورق كمبيوتر مهم وكافأه بكاميرا ومهمة تصوير مداخل ومخارج شبكة الكهرباء في المبنى. وتتابعت بعد ذلك مهام التصوير التي أنجزها بكفاءة، أما السبب في لقب الشهرة الذي عرف به في السجن فيعود إلى ما جرى أثناء التحقيق معه بواسطة المخابرات المصرية وهي قصة لم يكن يملُّ روايتها بتفكُّه بالغ؛ إذ قال له الضابط المحقق متلطفًا: يا عم مصطفى قل لنا المواقع اللي انت صورتها عشان نغيرها.

فرد عم مصطفى وهو يبتسم: صور يا بيه من الإسكندرية لغاية أسوان.

الثالث «يوسف ليفي» هو الإسرائيلي الوحيد بين الجواسيس (والملتحي الوحيد بينهم)؛ ولهذا يستمتع بزيارةٍ دورية من ممثل السفارة الإسرائيلية يزوده خلالها بحاجته من الهيروين ويؤكد له قرب الإفراج عنه، وهو مصير لم يشكَّ فيه أبدًا بعد أن رأى بنفسه

كيف أدانت المحكمة زميله «مصراتي» فتبول أمامها ثم أفرجت عنه السلطات (هو وابنته) وسلَّمته لأهله معزَّزًا مكرَّما. كان يعيش في عالمٍ خاص به يتمحور بين صحيفتَين يوميتَين (فهو الوحيد أيضًا بين الثلاثة الذي يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة)؛ «الجمهورية» ليتابع قضايا الدعارة التي تخصصت في نشرها بالتفصيل. ويسجل أسماء المتهمات ثم يخمن السجون التي ذهبن إليها فيكتب إليهن خطابات يهربها عن طريق الحراس أملًا في عقد أواصر علاقةٍ عاطفية على الورق.

الجريدة الثانية التي كان يتابعها بانتظام هي جريدة «الأهرام» ليبرهن على عبثية الوجود؛ ما فعله في خدمة إسرائيل (واستحق عليه الإعدام) لا يساوي شيئًا، إلى جانب ما يؤديه لها صاحب العمود اليومي الصغير في جريدة مصر الأولى.

ترتب أيضًا على ظهور المهدي وإحالته إلى عنبر التأديب أن الزنزانة المخصوصة في المخزن فقدت مبرر وجودها فأعيد توزيع نزلائها طبقًا لقواعد اللائحة؛ رضا لطابق الحرامية، والحاج شوقي في زنازين المخدرات، وشرف وتوكل مع أقرانهما من القتلة في زنازين النفوس؛ حيث تحرر الأول من مهام الرقابة والتخزين لينتقل إلى مهامَّ أخرى أكثر إثارة.

في زنزانته الجديدة التي اتسعت لأكثر من عشرين قاتلًا واحتلَّ فيها كالعادة أول درجة في السلم (بجوار دلو البول) ألفى شرف نفسه في عالمٍ شديد الثراء. على خلاف الجرائم الأخرى كانت للقتل دوافع غاية في التنوع؛ من الثأر لأب أو ابن قُتل في القرن الماضي أو الذي قبله، إلى علاج الموقف الذي نشأ عن رش قليل من المياه النقية أمام دكان خضري، كان هناك من قتلوا صديقهم بالعِصيِّ والحجارة وحرقوا جثته لأنه طالب بنصيبه من عدة مئات من الجنيهات سرقوها من أحد المخابز، ومن ألقى بمطلقة شقيقه من الطابق الثاني بعد أن صبَّ عليها كمية من الكيروسين وأشعل فيها النيران لاستيلائها على الشقة، ومن قذف رأس خطيبته بحجر فهشَّمه عندما التقى بها مع أمها في الطريق فوجَّهت إليه سؤالًا سخيفًا بشأن إعداد منزل الزوجية بعد أن مضى على الخطوبة خمس سنوات، من ذبح شقيقه الصغير وشقيقته الطالبة في الجامعة ليقنع أصدقاءه التلاميذ بأنه أصبح رجلًا، من مزق والده الكهل بالساطور ليمنعه من الزواج بفتاةٍ صغيرة، ومن قضى على أمه بطعنات سكين إرضاءً لزوجته، ومن دسَّ السم لزوجته إرضاءً لأمه، ومن خنق زوجته لأنها لا تنجب، ومن مزَّقها قطعًا صغيرة ووزَّعها في أماكنَ متباعدة على طريقة «ست» و«إيزيس» لأنها أنجبت من وراء ظهره، ومن ذبحوا ابنة عمهم الجميلة لسوء سلوكها، ومن اغتصب ابنة خالته الطفلة حتى الموت.

كان هناك أستاذ الجامعة الذي قتل عمه من فرط حبه له، وصاحب ورشة السمكرة الذي نفخ طفلًا يعمل عنده وعلقه من قدميه في السقف حتى خرجت روحه؛ وذلك من أجل تهذيبه وإصلاحه، والطبيب الذي أجرى عملية ختان لطفلة في السادسة من عمرها من أجل مساعدتها على التمسك بالفضيلة فأصيبت بنزيف قضى عليها وأراحها من مشقة المجاهدة. وخريج معهد التدريب بالمطرية (دبلوم برادة) الذي عمل سائقًا على فان نقل لدى مطعم يملكه أحد المطربين فيشتري مستلزمات المطعم وينقل الزبالة ويتولى توصيل الطلبات للمنازل أي يعمل من الفجر للفجر مقابل ٢٥٠ جنيهًا في الشهر يرفعها البقشيش إلى ٣٠٠ يدفع منها ٦٠ للسكن والباقي ينفق منه على زوجة وطفلين، وعندما طالب بالتصحيح هدده المطرب بمسدس؛ وبالنتيجة حقد على صاحب المطعم وقتله. وكان هناك من أطلق النار في الهواء احتفالًا بنجاته من القتل فأصاب أحد المارة في مقتل. وكان هناك من لم يقتل أصلًا وإنما اتهمته زوجته الأولى بأنه اشترك مع الثانية في تقييدها ثم سكبوا الكيروسين عليها وأشعلوا فيها النار ثم اعترفت قبل الموت بأنها حرقت نفسها انتقامًا منه. وكان هناك سالم محمود سالم الذي يقتل بلا سبب.

لم يتعلم؛ لأن أهله لم يتمكنوا من العثور على مريلة من قماشٍ معين حددتها المدرسة شرطًا لملابسه ولقبوله؛ فتحوَّل إلى رعي الغنم ثم عمل في ورشة بلاط. ثم سحب المالك قراريط كان يزرعها الأب بالإيجار فبكى الأب وتمرَّغت الأسرة في طين الأرض ترفض الخروج منها إلى أن طُرد أفرادها بالقوة. ذهب سالم إلى المسجد ليصلي ركعتين ويطلب من الله أن يخرب بيت المالك، وبقي به حتى صلاة العشاء، استجاب الله لدعائه مع تعديل بسيط، فعندما عاد إلى منزله وجد في انتظاره مخبرًا صحبه إلى مركز الشرطة حيث اتُّهم بقتل صاحب الأرض.

كانت الجريمة مفبركة لأن السلاح كان على مكتب الضابط وأمامه شهود يؤكدون أنه هدده وبينهم إمام المسجد الذي أنكر رؤيته. صدر الحكم بثلاث سنوات في سجن أسيوط وعند الإفراج تم اعتقاله في سجن قنا باعتباره من الخطرين حيث أمضى ثلاث سنواتٍ أخرى. ثم أُفرج عنه بشرط البقاء تحت المراقبة. ولم تكد تنتهي مدة المراقبة حتى قُبض عليه مرةً أخرى بتهمة التهرب من التجنيد الذي حان موعده وهو في المعتقل فلم يتقدم له لحظتها، بالطبع شُحن إلى إدارة التجنيد على أنه من أفراد الأمن المركزي الهاربين، وتمسك هو بالتوصيف الجديد لحالته فما إن حصل على الكارنيه وتسلم العهدة حتى هرب فعلًا إلى الصعيد.

١٨

التحول التالي في حياته تم بنصيحة أحد معارف السجن الذي يتمتع بفراسةٍ شديدة. تفرس فيه طويلًا ثم قال له إنه يصلح لاحتراف النصب. كل ما يتعين عليه فعله هو أن يرتدي ملابس فاخرة ونظيفة ويتسلح بأعصابٍ باردة. أي دور ينتحل أهناك غير دور رجل المباحث؟ ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى صار خبيرًا بانتقاء المغفلين؛ ينادي الواحد منهم باحتقار ويسأله إذا كان يحمل بطاقة. سواء كانت الإجابة بالسلب (وهي غالبًا هكذا) أو بالإيجاب فإنها تعينه على دراسة الضحية وتجريده من نقوده، المرحلة الأخيرة يتظاهر فيها بأنه أشفق عليه ولهذا قرر أن يخلي سبيله ولا يصدق الضحية أذنَيه، فيطلق ساقَيه للريح.

أدار النجاح رأسه وانتشى، لا بالنقود السهلة وإنما بالسطوة، فتعطَّش للمزيد. تكررت عمليات النصب حتى ضُبط وحُكم عليه بالسجن لمدة عام لكنه فضَّل الهروب بعد دفع الكفالة. وفي القاهرة استأنف النشاط، في القاهرة أيضًا وقع التحول الأخير.

كان أول من لقي مجندًا في الجيش فوق كوبري مسطرد. سأله عن التصريح الذي غادر بمقتضاه المعسكر فارتبك، طلب منه أن يرفع يديه فاستسلم للتفتيش. كان معه أربعة عشر جنيهًا، أبلغه أنه مضطر لاقتياده إلى مركز الشرطة لأنه مطلوب في قضية، وأضاف أنه لا بد من تقييده قبل الدخول على ضابط المباحث. ولهذا لا بد من ربط يديه من الخلف. لم يعترض المجند، كان الوقت قبل الغروب بقليل. فاجأه بعد قليل وهما يسيران بين الحقول: إيه رأيك لو أسيبك تروح؟

– وتديني فلوسي؟

أبدى سالم تعجبه مما اعتبره من قبيل البجاحة: شوف الواد، بدل ما تبوس إيدي.

ركب الواد رأسه: أنا معلييش قضية ومش حاسيب فلوسي.

أمره بالجلوس وهجم عليه من الخلف وربط كوفية كانت معه حول عنقه لكنه قاوم وحاول أن يقف فوضع ركبته فوق كتفه وجذب طرفي الكوفية حتى خرج لسانه ولفظ أنفاسه دون صرخةٍ واحدة ثم انكفأ على الأرض فتركه ومضى.

كانت تجربةً مذهلة، ظلت يداه ثابتتَين ولم يرمش له جفن. وعلى العكس؛ شعر أنه يحلق في الهواء كما لو كان قد دخَّن قرشًا كاملًا من الحشيش، وأخذ يستعيد لحظة الخنق في نشوة، بدت له مثل لحظة الخلق. فعندما تمكنت يداه من عنق الضحية كان بوسعه أن يفعل ما يشاء؛ أن يواصل الضغط أو أن يطلق سراحه، أن يأخذ روحه أو يمنحه الحياة، أدرك أيضًا أن القتل لا يختلف عن أي شيءٍ آخر فهو مثل المشي؛ بعد الخطوة الأولى يصبح سهلًا، يتعوده الواحد.

كانت الضحية التالية رجلًا في الأربعين قابله في محطة حلمية الزيتون.

ابتدره: معاك بطاقة؟

ارتبك الرجل لكنه أبرزها من محفظةٍ معبأة بالفلوس، ألقى نظرة على البطاقة رغم أنه لا يعرف القراءة أو الكتابة ووضعها في جيبه قائلًا: أهو إنت!

تساءل المسكين في حيرة: أنا مين؟

– إنت اللي بندور عليه.

أمسك به من كتفه بالطريقة التي يقبض بها المخبرون على المتهمين ودفعه أمامه بعد أن أوهمه أنهما ذاهبان إلى مركز الشرطة، بعد أن وصلا إلى جسر المطرية كرَّر عليه قصة القيد الضروري قبل الدخول على ضابط المباحث؛ ربط يديه بكوفية (صار الآن يحمل ثلاثًا بصفة دائمة) ثم قال له إنه مشفق عليه من الجريمة المتهَم بها والتي سيواجهه بها الضابط، وعرض عليه أن يسلمه مائة جنيه مما معه مقابل إطلاق سراحه. لكنه رفض قائلًا إنه بريء.

لجأ سالم إلى الصراحة: افرض إن أنا مش مخبر ولا حاجة، إنما بتاع ليل وقلتلك: عمرك وللا فلوسك ... تقول إيه؟

أجاب العبيط في صلف وغرور: لسه متولدش اللي ياخد مني فلوسي.

لم يملك سالم نفسه أمام هذا الغباء، كانا قد أشرفا على فناءٍ مهجور فطلب منه أن يجلس على الأرض ليستريحا قليلًا. وما إن جلس حتى لف الكوفية حول عنقه وقتله.

الذي بعده لم يكن معه مليمٌ واحد ومع ذلك (أو ربما بسبب ذلك) قتله. وبلغ عدد قتلاه ١٣ دفعوه جميعًا لقتلهم. وعندما شرع يلفُّ الكوفية حول رقبة رقم ١٤ ظهر فجأة عابران أمسكا به. لم يعرف أحد بأمر القتلى السابقين وحُكم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة قضى ثلاثة أرباعها في الليمان. وقبل موعد خروجه بأيام قُبض عليه من جديد؛ لأنه طعن سجينًا أهانه ورفض أن يعتذر.

روى القصة لشرف، لم يكن أمامه خيار؛ فلو تركه بعد الإهانة تشجَّع غيره، سيطلب منه واحد أن يحضر له شيئًا من الكانتين أو أن يغسل له ملابسه أو أن ينحني أمامه ويفك سرواله. سيذيع الأمر؛ سالم محمود سالم لا يريد القتال لأنه في طريقه إلى الخارج. بعض السجناء لا بأس بهم لكن هناك أيضًا بينهم حيوانات. حثالة الأرض القذرة المعفنة الطريقة الوحيدة لردعهم هي أن تكون دائمًا مستعدًّا لتسييح دمائهم. والنتيجة: أولًا إلغاء العفو عن ربع المدة وعودته لاستكمالها، وثانيًا الحكم عليه بخمس عشرة سنةً أخرى قضى منها ثلاثًا في انتظار حكم النقض.

كان السفاح في حوالي الستين من عمره، طويل القامة، مهيب الطلعة، يوحي وجهه الأسمر القوي بالثقة والطمأنينة، يعتلي فمَه الشاربُ المنفوش المعهود، في حالة ارتخاء لا انتصاب، مسدلًا الستار على عدة فجوات بين الأسنان، يشغل الركن الذي يشغله النوباتجية عادة ويحسب له الجميع حسابًا، بما فيهم النوبتجي الذي كان على عكس ما يتوقع المرء تمامًا في زنزانة تضم قتَّالين القتلة؛ فبدلًا من أن يكون شيخ منصر كان رجلًا منكسرًا فاقد الهمة، دائم الشرود، قليل الحركة بسبب دوالي واضحة في قدمَيه ينتظر حكم النقض في جريمة لم يرتكبها.

لم يكن سالم يشارك في اللسانيات إلا نادرًا، أو هكذا بدا في الأيام الأولى التي واجهه فيها شرف من مكانه في مدخل الزنزانة. لكن مجيء الأخير شجَّعه على ممارستها فدعاه في أول ليلة للعشاء وشرب الشاي (وهي دعوة رحب بها شرف الذي عاد للاعتماد على اليمك ليغطي به الثغرات المتسعة باستمرار في الغطاء العائلي) واستمع منه إلى قصته بالتفصيل، تولت الجغرافيا الباقي؛ إذ كان موقع شرف إلى جوار دلو البول يجعله في مواجهة السفاح القابع في الركن البعيد عن الباب وفي المجال الدائم لرؤيته، وهو أمر أثار خوف شرف في البداية (خصوصًا بعد أن سمع بقصة الكوفيات الثلاث) إلى أن ألفه بالتدريج حتى صار ينزعج إذا أخطأ السفاح وصوَّب عينيه نحو هدفٍ آخر. أبدى السفاح أيضًا لمساتٍ إنسانيةً رقيقة؛ فإذا رآه متعبًا سأله: أجيب لك أسبرينة؟ (حقيقية لا كودية)، وإذا لاحظ أنه يفتقر إلى السجاير أشركه في أنصاف سجائره، وإذا وجده مكتئبًا فاجأه بكوب ليمونادة أو بسيل من النصائح تؤلف رؤية كاملة في الحياة:

- معاك فلوس الناس الحلوة تحترمك. ممعكش يدوسوك بالجزم.
- لو كنت متعلم وأقدر أدافع عن نفسي أو أقدر أأجر محامي كبير كنت فلتّ.
- المال الحلال معدش سهل زي زمان، مكسب الوقت كله حرام.
- كل اللي انت شايفهم دول سمك صغير، السمك الكبير ميجيش هنا أبدا.
- النساء ناقصات عقل ودين ولا يمكن عمل صداقة معهن إنما الصداقة فقط مع الرجل.

إلى جانب هذه الأفكار الحداثية كانت هناك ومضاتٌ كلاسيكية بعضها كفيل بتنظيم علاقة الإنسان بالسلطة (اتعلمت من صغري إني مصدقش الحكومة. مش راح أكون أبدًا شخص محترم في المجتمع. عشان أبقى كده لازم يا إما أبقى مرشد أو جبان أو جردل

خرا يمشي زي الأعمى ورا أي واحد حمار يختاروه للحكومة) والبعض الآخر كفيل بحل قضايا معقدة مثل الصراع العربي الإسرائيلي (لو حد دخل بيتي عشان ياخد مني حاجة مش حاروح للبوليس، إذا مكنتش أقدر أدافع عن نفسي واسترد حقي يبقى الراجل ده من حقه ياخد اللي عاوزه لأني مستحقهوش) وإن عبر أحيانًا؛ عن فلسفة الدولة الإسرائيلية ذاتها (الحق معي لأني أملك القوة).

ويبدو أن السفاح كان واثقًا من مصير شرف إذ أخذ يعدُّه لحياة الليمان: لا تفتح فمك إلا عند الضرورة القصوى، تجنب الاحتكاك بالآخرين، احذر من مصادقة أحد مهما كان طيبًا (باستثناء السفاح نفسه بالطبع)، لا تتنازل طوعًا عن أي شيء (إذا تنازلت عن شبر واحد حيحاولوا ياخدوا منك اتنين)، أضعف لحظة هي أثناء التبول (خلى بالك وانت بتطرطر) في السجن ليس هناك من يحل لك مشاكلك، إذا ذهبت إلى الإدارة ستوصم بأنك مرشد وهذا قد يقضي عليك. إذن فأنت مضطر لأن تعالج مشاكلك بنفسك. من سيطلب منك إنزال بنطلونك لن يكتفى بذلك ولهذا يجب أن تكون مستعدًّا للقتال والدفاع عن نفسك أو تستسلم.

لكن أهم شيء هو ألا تجعل السجن يهزمك بأن تهزمه أنت. كيف؟ باستخدام مخك.

استخدم سالم محمود سالم مخه من أجل الترويح عن نفسه بإنتاج خمرٍ محلية (خبز وبرتقال وماء وسكر تترك في علبة بلاستيك أربعة أيام) ومقاومة متاعب المعدة والأمعاء بصناعة الزبادي (قطعة صغيرة من لبابة الخبز في حجم الليمونة مع أروانة لبن وتوضع في مكانٍ دافئ لمدة يومَين) وفي الاستعداد للاختفاء بأدواتٍ بسيطة (أي سلك من الصلب الرفيع من علبة نظارة مثلًا كفيل بنشر القضبان) وللدفاع عن النفس بالتسلح (تلف فرشاة أسنان جيدًا بكيس بلاستيك ثم تسخنها بعيدان الكبريت إلى أن تتصلب ثم تدعكها في أرضية الزنزانة عدة ساعات يصبح لديك بعدها سكين من البلاستيك). هذا هو الدرس الأول.

الدرس الثاني كان كفيلًا بإثارة غضب الرئيس الراحل أنور السادات لأنه يتلخص في تغذية الحقد؛ فالحقد الصافي الخالص يمكن الإنسان من الصبر والتحمل والصمود لسنوات. إنه يعطى السجين عطشًا للانتقام ورغبة في البقاء ولو لدافعٍ واحد هو أنه يحرم ساجنيه من متعة الظن بأنهم قد هزموه.

انتقلت عدوى توجيه النصائح إلى الدكتور رمزي فانهال بها على الغلابة المساكين: لا تثقوا في أحد. لا تصدقوا الصحفيين والكتاب الكبار، لا تثقوا في طبيب أو محامي أو

بائع مهما بسملوا وحوقلوا فهم يسعون جميعًا وراء لحمكم الحي. لا تثقوا بالحكام؛ كذبوا عليكم ووعدوكم بالرخاء والعدالة والسعادة. ولم تحصدوا غير الفقر والمعاناة والكآبة، ضحكوا عليكم وقالوا لكم إن الاشتراكية مساواة في الفقر وإنها تحرم الإنسان من أعز غرائزه وهي التملك والتميز. صدقتموهم فماذا كانت النتيجة؟ هم وحدهم الذين تملكوا وتميزوا ... لا تثقوا في إعلانات الصحف. كلما كبر الإعلان وارتفع ثمنه كلما كانت الهبرة ضخمة. التهنئة أو التعزية الموجهة إلى وزير أو مسئول لها ثمنها الذي سيأتي من جيوبكم، لا تثقوا في التليفزيون. لا تثقوا في أنباء السي إن إن مهما تظاهرت بالحياد والموضوعية. فكِّروا بعقولكم، اسألوا أنفسكم دائمًا: من المستفيد؟ كم المكسب؟ تذكروا دائمًا أن السلعة التي يعلن عنها في التليفزيون بمئات الألوف من الجنيهات لا بد أن يكون مكسبها بالملايين، اسألوا أنفسكم كيف؟ من أين تأتي هذه الملايين وأين تذهب؟ اسألوا أنفسكم ما معنى أن المسئولين عن التليفزيون يعملون هم وأولادهم في نفس الوقت لدى تليفزيونات منافسة يملكها السعوديون الذين يسيطرون على كافة وسائل الإعلام العربية؟ اسألوا أنفسكم، ماذا يريد هؤلاء منكم؟ كونوا دائمًا على حذر، عندما يذكر أحد المتحدثين في التليفزيون أنه يحب مصر، تحسسوا جيوبكم. انتبهوا وافتحوا عقولكم جيدًا.

كما احتوت نصائح السفاح لشرف على جانبٍ عملي، كذلك كان الأمر في نصائح الدكتور: لا تنساقوا لنصائحهم وتوجيهاتهم. اعملوا بعكس ما يطلبون منكم. لا تشربوا مياههم الملونة الضارة. اعتمدوا على تراث الآباء والأجداد. بدلًا من الكولا اشربوا العرقسوس والقصب والينسون والحلبة والكركديه، كلها مشروباتٌ صحية ومفيدة. لا تأكلوا الهامبورجر لأنه قد يسممكم. لا تستعملوا المعلبات الغالية التي يأخذون منكم عشرات أضعاف ثمنها الحقيقي، أنتم لا تحتاجون إلى كل هذه الرشاشات التي تملأ شاشة التليفزيون ورفوف السوبر ماركتات. ملعقةٌ كبيرة من تنوة القهوة تنظف أية آنية تلتصق بها مخلفات الطهي. احذروا مساحيق الغسيل التي تتنافس في زيادة الفعالية بإضافة مواد ًّكيماويةٍ سرطانية، بوسائلَ بسيطة ورخيصة يمكنكم أن تصنعوا الصابون بأنفسكم. لا تتناولوا أدوية السعال التي أغرقوكم بها، قليل من مغلي لبان الدكر يقضي على أقوى كحة، وفِّروا نقودكم وصحتكم واحكموا عليهم بالإفلاس. لا تتركوهم يضحكون عليكم.

أثارت نداءات الدكتور استغراب السفاح وفضوله. وازداد الاثنان عندما روى له شرف ذكريات زنزانتهما المشتركة. شرف أيضًا كان يشعر بالاستغراب والفضول؛ لا لسلوك الدكتور وإنما لسلوك السفاح نفسه.

كان الطعام يأتيه يوميًّا والسجائر لا تفرغ من عنده ولا تخلو الأكياس المعلَّقة من حبل فوق رأسه من كل ما يحتاج إليه السجين الذي ينعم بمصدرٍ مالي ثابت. ومع ذلك لم يكن يتعامل مع الكانتين ولا يتلقَّى زيارات ولا حوالاتٍ ماليةً مثل الآخرين.

ألقى السفاح ضوءًا كافيًا على مصادره المعيشية مصادفة عندما روى في زهو قصة صداقته مع النجم السينمائي «فؤاد وصفي». تعرَّف به يوم وصوله إلى اللومان بتهمة الاتجار في المخدرات. كان رقيقًا وادعًا ضئيل الجسم، وكرَّمته إدارة السجن (التي اشتهرت بتقدير الفن والفنانين) بإعطائه زنزانةً مستقلةً مفتوحة طول اليوم. وبعد أيامٍ قليلة اقتحم بلطجيان زنزانته وأوقعاه أرضًا ووضعا سكينًا في عنقه ثم شرعا ينزعان سرواله، وكان يمكن أن يحدث ما لا يحمد عقباه لولا الظهور المفاجئ للسفاح وتخلُّصه من الشقيين على طريقة «فريد شوقي». هكذا اقتنع الممثل الوسيم بأهمية صداقة السفاح (فضلا عن حاجته إليه لتزويده باحتياجات مزاجه) ورتب له إيرادًا يوميًّا من الطعام والسجائر، ما لم يدركه الممثل هو أن الاعتداء الذي تعرض له كان من تدبير صديقه وحاميه.

بالإضافة إلى عيني السفاح كانت عيونٌ أخرى تلاحق شرف أثناء صعوده ونزوله وتنزلق فوق أماكن من جسده ساعد الأكل المنتظم المتنوع وندرة الحركة على تسمينها. وكانت هناك ابتساماتٌ هازئة في العيون وتلميحاتٌ بذيئة واحتكاكاتٌ عفوية، ووضع السفاح حدًّا لكل ذلك.

ففي في أحد الأيام، تلقى شرف من أمه في الزيارة (التي أصبحت تخلو من السجائر بسبب تفاقم حالة الأب الصحية) علبتي كليوباترا. استخدم واحدة واحتفظ بالثانية في كيسه. وعند عودته من طابور المساء اكتشف اختفاءها. فتش عنها جيدًا بمساعدة السفاح لكنهما لم يجدا لها أثرًا. انتظرا حتى انتهى التمام واستقر كل نزيل فوق نمرته فخاطب السفاح الجميع: في علبة سجاير ضايعة من شرف. حد شافها يا جدعان؟

تبادل الجدعان النظرات دون أن يفتح أحد فمه، وتطلع البعض ناحية النوبتجي الذي تشاغل بترتيب نمرته.

خاطبه السفاح قائلًا: إيه رأيك يا نبطشي؟

استدار النوبتجي نحوهما قائلًا: مش يمكن تكون وقعت منه في الطابور؟

قال شرف: دي كانت هنا في الكيس بتاعي.

قال النوبتجي: ع العموم محدش هنا بيمد إيده على حاجة حد.

ثم أضاف مخاطبا الموجودين: إذا كان حد أخدها بالغلط يرجعها وإحنا نسامحه.

قال السفاح بصوتٍ مرتفع: اللي حيمد إيده تاني على حاجة شرف أني حاقطعها له.

وضع هذا الإعلان كل الأمور في نصابها وأحدث صدًى واسعًا كالذي أحدثه في الماضي إعلان الحماية البريطانية على مصر لدى الطامعين الآخرين مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا فضلًا عن الباب العالي في استنبول. وظهرت النتائج على الفور إذ طفت علبة السجاير في الصباح. وتوقفت الابتسامات الهازئة والتلميحات البذيئة والمضايقات التي كان شرف يتعرض لها من أصابع الباشا.

لم تكن نوعًا من الحلوى وإنما لعبة. ففي طابور بعد الظهر كانت الألعاب تنقسم إلى كرة القدم و«صلَّح المعدلة». ولما كان شرف لا يلعب الأولى بسبب عيب (خِلقي لا خُلقي) في باطن إحدى قدمَيه فإنه كان يلعب الثانية التي طورتها أجيال من السجناء. فبدلًا من أن يقف الواحد واضعًا يده اليسرى مبسوطة الكف على كتفه اليمنى ويتبارى اللاعبون في ضربها بكفوفهم ويتعين عليه أن يحزر شخصية الضارب من ضغط كفه. صار اللاعبون يستخدمون أصابعهم بدلا من كفوفهم، يغزونها في أي مكان من جسم الضحية. وكان الاختيار لدور الأخير يتم بالقرعة على طريقة ملك وكتابة، ولسبب غير مفهوم يقع دائمًا من نصيب شرف.

تتابعت ردود أفعال إعلان الحماية حتى بلغت أوجها بظهور اسحب الفجل في مدخل الزنزانة بوجهه الشاحب المعبر عن فقر الدم، حاملًا لفافةً مستطيلة في كيسٍ أسود، قادمًا في سفارة. استقبله سالم في ترحاب وأصرَّ أن يتناولا معًا طعام الغداء الذي أعده شرف من علبة بولوبيف كاملة تم إنضاجها فوق السخان الكهربائي بعد إضافة بصلتَين وحبة طماطم. تباسط اسحب الفجل فتحدث بصوته المبحوح عن متاعبه التي تتمثل في الإنفاق على بيتين (الأصلي مع الزوجة والأولاد في الصعيد، والثاني مع حارسَين أعزبَين قرب السجن) وعن أبيه الذي كان سجانًا مثله وأُميًّا. كان ذلك أيام القيود الحديدية التي تكبل المحكومين بالأشغال الشاقة (حلقة في كل قدم تربطهما سلسلة وزنها أربعة كيلوجرامات متصلة من الوسط بحلقة أخرى معلقة في حزام جلدي ولا يخلع السجين هذه القيود أبدًا في نومه أو يقظته أو حتى عند الاستحمام، تصوَّر!) وعلمه المسجونون الشيوعيون (في واحد من أخطائهم التاريخية) الكتابة والقراءة فأصرَّ على تعليم ابنه جدول الضرب، فأتقن هذا الاثنين؛ الضرب والحساب. بعد الشاي والسجاير انزوى اسحب الفجل مع السفاح جانبًا وقدم إليه اللفافة السوداء وكشف عن سفارته بصوت خافت.

لم يسمع شرف الحديث لكنه رأى السفاح يفضُّ اللفافة التي احتوت على خرطوشة كاملة من كليوباترا، أطرق السفاح بعض الوقت ثم أعاد كليوباترا إلى لفافتها واللفافة إلى حاملها قائلًا في صوت بارد: قوله يفتح الله.

شعر شرف شعورًا مُبهمًا أن الأمر يتعلق به وصدق شعوره عندما روى له السفاح القصة: فالجاسوس الإسرائيلي ضاق بغراميات الورق وحنَّ إلى الواقع؛ فوقع اختياره على شرف الذي صُدم للنبأ؛ لا لأنه أصبح موضوعًا للتفاوض بين قوى خارجية ولا لطبيعة الخدمة المطلوبة، وإنما للثمن البخس الذي وضعه في مستوى سجين مثل عزيزة يتقاضى صندوقًا مماثلًا مقابل جولةٍ سريعة بالنهار، وعدة أضعاف إذا تعلق الأمر بليلة كاملة.

ليست هناك أسرار في السجن؛ ولهذا لم تمضِ ساعات حتى عرف الجميع بموقف السفاح الرافض، وتسببت عيون شرف في زيارة ثانية من اسحب الفجل في اليوم التالي، هذه المرة في سفارة من عشم الله.

جاء عشم الله من قرية في كفر الشيخ حيث كون عصابة للثأر من أسرة اشترك أبناؤها في اغتصاب أخته البكماء، وليضمن الحماية قرر أن يؤجر عصابته لمن يدفع من أصحاب النفوذ. لكنه كان مغرمًا باللسانيات التي أدت إلى وقوعه والحكم عليه بخمسة عشر عامًا، وخلال وجوده في السجن ورطته اللسانيات مرةً أخرى؛ فقد حكى لأصدقائه كيف استأجرته سيدة بمبلغ عشرين ألف جنيه لقتل مزارع استولى منها على قطعة أرض، فقام بالمهمة على أفضل وجه، ولم تستدل الشرطة على القاتل، وحفظت النيابة التحقيق، وقُيدت الجريمة ضد مجهول، بعد الإفراج عنه أمرت النيابة بإعادة التحقيق في القضية وإعادة حبسه.

ما دفع عشم الله للمزايدة على الجاسوس الإسرائيلي البخيل لم يكن معارضة منه للتطبيع وإنما ضعفه المزمن أمام العيون؛ فقد كانت هي القاسم المشترك بين أول وآخر عملية له. في الأولى هاجم مزرعة وأطلق الرصاص على ما بها من أبقار. بعد ذلك لم يتمكن من نسيان نظرة عيونها إليه أثناء احتضارها. وفي آخر عملية تعرفت عليه فلاحة عندما اغتصبها فحاول أن يخنقها لكن عينيها ظلتا مفتوحتين فارتجفت يداه ولم يتمكن من انتزاع روحها. أمال رأسها إلى الخلف وطعنها في رقبتها بقرن الغزال لكنها لم تغلق عينيها وظلت تنظر إليه. استخدم يديه الاثنتين في دفع المطواة بلا جدوى؛ فالتقط طوبة وأمسك المطواة بيده اليسرى ومضى يدقها بالطوبة ثم جذب المطواة ناحية اليسار ومرة أخرى ناحية اليمين إلى أن أتم مهمته.

لم يعرف أحد ما إذا كانت عينا شرف قد ذكرته بعيون البقر أو بعيني الفلاحة العنيدة؛ فقد ضاعت فرصة معرفة ذلك. حقًّا إن اسحب الفجل قد حمل معه خرطوشتين من كليوباترا مما أرضى كبرياء شرف (رغم أنه ما كان سيرضى بصفقة تنال من شرفه)، لكن الرد الذي حصل عليه من جهة الاختصاص — سالم — كان واحًدا: يفتح الله.

وعندما تطلع إليه شرف متعجبًا قال في اقتضاب: أنا مش وسخ.

١٩

انكمشتُ فوق نمرتي وأنا أرتعش من البرد. كنت ألتفُّ بالبطانيتَين المخصصتَين لي بعد أن جعلت الوسادة من كيس حاجياتي وحذائي، كما كنت أرتدي البلوفر الصوفي الذي أحضرتْه لي أمي، وكلسونًا طويلًا من القطن، لكن برد ديسمبر خرم عظامي بسهولة، كنت في نقطة التقاء تيارَين من الهواء اللاسع؛ واحد يهبُّ من إحدى النافذتَين اللتين تتمتع بهما الزنزانة، والثاني يندفع من أسفل الباب المجاور لي ويصطدم مباشرة بجانبي الأيمن كله من الرأس إلى القدم. أنصت لأصوات شخير النائمين وتنفسهم وخصوصًا الذين كانوا في الركنَين البعيدَين عن تيارات الهواء وهما سالم والنوبتجي. كان إلى جواري عجوزٌ أهتم متهم بقتل شريكه في محل بقالة، وكان قد حصل على بطانية إضافية من الحراس مقابل سجائر ثم جاءته واحدة «ساراتوجا» ثقيلة من أهله، لكنه كان دائم التقلب والتنهد.

أثنيت ركبتي وكورت جسمي واقتربت قليلًا من العجوز لأتدفأ بالحرارة المنبعثة من جسمه، ودسست يدي بين فخذي محاولًا تجاهل البرد بالتفكير في شيءٍ آخر، استعدت صورة زوجة الدكتور ثابت محفوظ أثناء جلوسها في المحكمة واضعة ساقًا فوق ساق. وجدت نفسي عاجزًا عن تذكرها بوضوح وعاجزًا أيضًا عن التركيز من البرد، وشعرت بالأسف لأني لن أراها ثانية أثناء الزيارة أو في المحكمة؛ إذ خرج زوجها بكفالة كبيرة.

انتظرت في لهفة بزوغ النهار. وتابعت شقشقة الفجر من النافذة. وتمنيت أن يكون اليوم مشمسًا لأتخلص من برد الليل.

كان سالم أول من استيقظ وبدأ يعد الشاي وعندما رآني مفتوح العينين أضاف كوبًا آخر إلى الماء. انتظر حتى غلى الشاي فصبَّ لي كوبًا ارتشفته في لهفة.

قلت: يا ريت النبطشي يحطلنا كرتونة أو أي حاجة في الشباك اللي جنبي.

سمعني وهو منكمش أسفل أغطيته فاعتدل جالسًا وسعل بشدة، صوب بصقة تابعتها في قلق حتى استقرت في دلو البول بجواري.

قال: لو غطينا الشباك حنتخنق من النفس والزراط.

قلت: يعني الواحد يموت من البرد؟

توجه إلى الآخرين بالحديث: حد تاني عاوز قفل الشباك؟

أبدى الجميع اعتراضهم وتطلعتُ إلى جاري العجوز لكنه لم ينبس بحرف. قلت في نفسي إن لديه ساراتوجا، كما أني أصد عنه التيار القادم من تحت عقب الباب.

قال سالم للنوبتجي: انقله بعيدًا عن التيار.

قال النوبتجي: أوديه فين؟ ومين ييجي مطرحه؟

– طب شوفله بطانية. أنا لو مكنتش ظهري تعبني كنت اديتله واحدة.

تطلع النوبتجي إليَّ ثم إلى سالم وأدركت فيما يفكر: الثمن ومن الذي سيدفعه. لكنه لم يعلق واكتفى بأن قال: إن شاء الرحمن.

تناول سالم إحدى بطاطينه الثلاث وكانت من بطاطين السجن الداكنة لكن في حالةٍ جيدة. قدمها لي قائلًا: خد دي لغاية ما يشاء الرحمن.

ابتسم النوبتجي في خبث فابتعدت عن يد سالم الممدودة قائلًا: لا، انت محتاجلها أكثر.

ألحف عليَّ سالم بقبول البطانية لكني أصررت على الرفض وغادرت الزنزانة إلى دورة المياه.

فوجئت عند مدخلها بحجاج الذي تعرفت عليه في عنبر الميري والذي اختطفته العصابات وهو صغير، كان يرتدي جلبابًا فضفاضًا بعض الشيء تبدو من تحته ملابس داخلية من الكستور؛ كلسون طويل حتى القدم وفانلة بكمَّين طويلَين وكان يحمل في يده فوطةً كبيرةً ملونة وصابونة «كامي».

صبَّحت عليه وأضفت في استغراب: بتعمل هنا إيه؟

احمرَّ وجهه وقال: الحاج رأفت نقلني.

– الحاج رأفت؟

– أيوه. كلِّم سيادة الضابط مرقص فهمي فنقلني.

– في زنزانة ستاشر؟

أطرق برأسه مؤمنًا، تذكرت فوطته المزقة الجربانة وأدركت أنه يحمل فوطة الحاج رأفت وصابونته وأنه في طريقه كي يحجز مكانًا للحاج في الدورة. تبعته إلى الداخل، وصحَّ

حدسي إذ وقف أمام أحد المراحيض الخالية مانعًا الآخرين من دخولها حتى يأتي صاحبه. تبولت في المجرى ولم أعبأ بالاغتسال؛ إذ كان اليوم موعد الحمام الأسبوعي. وعدت إلى الزنزانة فأفطرت مع سالم بقطعة من الجبن القريش أضاف إليها ملعقة من الطحينة البيضاء.

كنا قد تبادلنا العزايم عدة مرات ثم اقترح أن نتشارك في الطعام والشراب والسجائر فأصبحنا نتقاسم كل شيء. وكان هذا الترتيب ملائمًا لي إذ بدأت زيارات أمي تقلُّ واقتصر تموينها الضئيل من الطعام والسجاير على مرةٍ واحدة في الأسبوع.

جاء الدور على زنزانتنا بعد ساعة لنزول الحمام، ووقفنا عُراة في القاعة الصغيرة أسفل مياه الدش الساخنة. كان سالم قريبًا مني، وكانت أول مرة نستحم فيها سويًّا، ولحظت أن له كرشًا بارزًا وثديَين متهدلَين، وتأملني هو بإمعان ثم علق على شعر سيقاني الكثيف.

كان السُّنية في طابور بمفردهم فصعدنا إلى أعلى وانتظرنا عودتهم. وتلكأت قرب السلم بحثًا عن الشيخ عصام الذي لم أره منذ عاد من التأديب، نهرني الحارس وأمرني بدخول زنزانتي مهددًا بإغلاقها، وأسرَّ لي سالم أنه يريدني في أمر وطلب مني أن أتخلف عن نزول الطابور.

انتظر حتى نزل الجميع إلى الفناء ثم شرح لي أن زنزانة ١٦ ستحتفل الليلة بالإفراج عن أحد نزلائها وبالتالي يحتاجون إلى تموين من المخدرات. وقال إننا مدعوان — أنا وهو — لقضاء الليلة معهم.

كانت العادة ألا تحتفظ زنازين المخدرات بأي كميات منها تجنبًا لأي تفتيشٍ مفاجئ رغم أن السجن كله يعرف دائمًا بحملات التفتيش قبل موعدها بوقتٍ كاف. ولهذا تودع في مخابئ بزنازينَ أخرى، وكشف لي سالم أنه يتولى أمر أحد هذه المخابئ بزنزانتنا وأنه سيتولى فتحه أثناء الطابور ويحتاجني للقيام بدور الناضور.

واربنا الباب ووقفت في الخارج متظاهرًا بالتدخين، وأخذت أنقِّل عينيَّ بين السلم وأبواب الزنازين الأخرى، فلم نكن نخشى الحراس وحدهم وإنما أيضًا السجناء الآخرين.

ألقيت نظرة داخل الزنزانة فرأيت سالم قد طوى نمرته وجلس فوقها، ثم تناول علبة حلاوة طحينية فاقتطع منها بأصابعه كتلة في حجم البرتقالة وفتَّتها نتفًا صغيرة فوق غطاء العلبة. مزَّق صفحة من جريدة رقعًا صغيرة، ودَعَك كل رقعة في فتافيت الحلاوة ووزعها في شبه دائرة فوق أسفلت الأرضية ثم أشعل عودًا من الكبريت وقرَّبه من الورق وتركه يشتعل ببطء.

تابعت الحلاوة في أسًى إلى أن ذابت تمامًا ولانت الأرضية فدسَّ فيها سلكًا رفيعًا وحرَّكه في دائرة بحجم رغيف الخبز. كرر العملية عدة مرات إلى أن انفصلت الدائرة عن بقية الأرضية. رفعها ووضعها جانبًا ثم استخرج من الحفرة لفافةً سوداء من البلاستيك فضَّ محتوياتها فوق الأرض وتناول منها عدة لفائفَ صغيرة وضعها في صدره وأعاد اللفافة الأصلية مكانها وأضاف إليها لفافتَين أخريين أخرجهما من جيب جلبابه، أعاد دائرة الأسفلت مكانها ثم وزع رقع الورق المدهون بالحلاوة حول محيط الدائرة وأشعله، وانتظر حتى ذاب الأسفلت من جديد حول الدائرة فأخذ يخزه بحرف السلك، واظب على هذه العملية إلى أن سوَّى سطح الأرضية وأعاده إلى ما كان عليه واختفى الشق الدالُّ على الحفرة، ثم جمع الرماد المتخلف عن العملية ونثره فوق سطح الحفرة ومسحه بلطف. وكرر هذه العملية أيضًا إلى أن استعادت المنطقة لونها الأسود القديم.

ظهر مساعد الحاج رأفت بعد قليل فجمع لفائف المخدرات في صدره ومضى إلى المراحيض ليلبسها توقيًا لأي تفتيشٍ مفاجئ عند التمام، بعد أن شاع نبأ الاحتفال المزمع. فكرت أن أحلق ذقني بهذه المناسبة لكني لم أكن أملك ما أدفعه للحلاق. وقبل التمام حملنا نمرنا وانتقلنا إلى زنزانة ١٦.

أعطانا النوبتجي مكانَين متجاورَين في العمق بعيدًا عن الباب وتيارات الهواء. واقترح سالم أن نعدَّ فراشًا مشتركًا لنضمن الدفء. فبسطنا البرشَين متجاورَين وفوقهما بطاطينه الثلاث وأبقينا بطانيتي الاثنتين لنتغطى بهما معًا.

كان الحاج رأفت في مكانه المعهود بمركز الصدارة يتوسط الحائط الممتد بين ركني العمق وإلى يمينه حجاج، ولحظتُ أن الأخير يرتدي جلبابًا أبيض نظيفًا وأن خديه أملسان ويلمعان، وأدركت أنه حلق ذقنه بالفتلة، وجلس الحاج عرفة، المحتفَل به، إلى يساره، كان يرتدي بذلةً كاملة من صوف «ستيا» وكرافتة لم تعجبني ألوانها، وله عدة أسنانٍ ذهبية في مقدمة فمه. ورأيت إلى جواره تاجر المخدرات وابني أخيه اللذين كانا في زنزانة عبد الفتاح بالطابق الأرضي، بالإضافة إلى عم حسن نوبتجيها. سألوني عن أخبار عبد الفتاح وعما إذا كنت أتلقى منه خطابات أو أنباء، وأجبت بالنفي.

كان العشاء مخصوصًا ويتضمن دجاجًا محمرًا وصينية كنافة ضخمة وعدة سلطانيات مهلبية. وبعد الشاي صعد النوبتجي إلى شراعة الباب وصاح بأعلى صوته: المعلم عرفة مروح لأمه يا جدعان، عقبالنا جميعًا يا حبايب.

تصاعدت الصيحات من مختلف الطوابق. وبدأت كل زنزانة توجه تحياتها للمفرَج عنه، وفجأة سمعت صوت الدكتور رمزي يشترك في التحية ثم ينطلق في موال من مواويله

اليومية: يا غلابة يا مساكين ... الواحد فيكم سرق ألف أو ألفين، أو قتل واحد أو اثنين بينما هم يسرقون ويقتلون بالملايين ولا يدخلون سجون ولا يعرفون مشانق.

انطلقت التهليلات والشتائم من كل اتجاه، وصحنا جميعًا فيه أن يسكت. لكنه لم يعبأ وواصل: يا غلابة يا مساكين، أنتم تعيشون حياة الموتى بينما يبددون أموالكم وحقوقكم، سرقوكم ونهبوكم ... خدعوكم وضحكوا عليكم من زمان ... في الأول منُّوا عليكم بدعم تحصلون به على السكر والأرز والزيت والخبز بأسعارٍ رخيصة وكأنهم يعطونكم من جيوبهم متجاهلين أنه يأتي من جيوبكم ويذهب أغلبه لهم ومنه شيدوا ثرواتهم، فمن جيوبكم دفعت الحكومة دعمًا للأسمنت والأسمدة، وحديد التسليح ذهب لأصحاب العمارات والأبراج، والدقيق الفاخر والسكر ذهب لمصانع الحلويات والمياه الغازية (فتتكلف زجاجة السفن أب عشرين قرشًا وتباع بخمسين). أي إنكم اقتطعتم من خبزكم ودخولكم كي يحصل أصحاب العمارات والمخابز ومحلات الحلوى على المواد الخام بأقل من أسعارها الحقيقية، ثم ألفيتم أنفسكم عاجزين عن السكن في عماراتهم أو شراء منتجاتهم التي تذهب للقادرين من أمثالهم بأسعار في متناول أيديهم، نتيجة الدعم المزعوم. ومنُّوا عليكم بدعم الكهربا الذي يذهب أغلبه لسكان المدن والقادرين منهم على شراء المكيفات والأجهزة.

بعد ذلك تدفعون ضرائب وهي ضرائب غير عادلة؛ لأنها على الدخل وليست على الثروة، ولا تستطيعون التهرب؛ لأنها تخصم من المنبع على العكس منهم فهم يملكون حسابات في بنوك في الخارج ويملكون السلطة والنفوذ في الداخل ويستمتعون بالإعفاءات التي تقدر بأربعة مليارات جنيه في السنة. وأنتم تدخرون إجباريًّا في صندوق التأمينات، وتقترض الدولة من هذه التأمينات بفائدةٍ رمزية وأيضًا من صندوق توفير البريد وشهادات الاستثمار لتنفق على احتياجات المحظوظين من سيارات ومكيفات وديشات.

وتقدم البنوك قروضًا ميسرة للإسكان والأمن الغذائي واستصلاح الأراضي وشراء الأراضي المستصلحة. وتتحمل الخزانة العامة؛ أي خزانتكم التي تمولونها بعملكم وتضحياتكم، الفرق بين سعر الفائدة في السوق والسعر المنخفض الذي يدفعه المقترض وهو عادة من الأغنياء.

فهل حلَّ هؤلاء مشاكلكم؟ لقد أقاموا العمارات الفاخرة الضخمة متعمدين أن يصبح الرصيف والشارع جاراجًا لسياراتهم، فأخذوا منكم الشارع الذي دفعتم ثمن رصفه، ولأنهم يأكلون جيدًا بالطبع فالمتوقع أن يكون ضغطهم عاليًا على شبكة الصرف الصحي، والنتيجة قرضٌ أجنبي من أجل إصلاح وتطوير الشبكة بتكلفة ثلاثة مليارات من الجنيهات

اقتطع منها الوسطاء والخبراء الأجانب والوزراء شريحةً ضخمة. وتدفعون من قروشكم المحدودة كل هذا؛ ربح صاحب العمارة وقيمة القرض الناشئ عن آثارها و(مخلفاتها) وتتكرر القصة في شبكة المياه وشبكة المواصلات وشبكة التليفونات وبقية الشبكات.

والآن وبعد أن اغتنوا واكتفوا، يلغون الدعم بناءً على طلب الصندوق فيحرمونكم حتى من القليل الذي كان يصلكم؛ بدعوى تسديد الديون التي اقترضوها باسمكم، ضاحكين عليكم للمرة الثانية.

يقولون لكم إن صندوق النقد مبسوط وقرر إسقاط عدة مليارات من الديون، ولا تعرفون أن ذلك تم مقابل الخصخصة، فبعد أن فقد الدائنون الأجانب الأمل في الحصول على ديونهم وأصبحوا مستعدين للتنازل عن نصفها مقابل الحصول على النصف الثاني، يتيحون لهم الحصول عليها كاملة بشراء المصانع والشركات والبنوك التي قامت بأموالكم وتضحياتكم. يشترونها بتراب الفلوس ويحصلون معها على سوق لمنتجاتهم الأخرى وعمالة رخيصة فكأنهم استردوا ديونهم مضاعفة عدة مرات.

أغرقت صيحاتنا صوته حتى اضطر للصمت، ولم يلبث أن ارتفع صوتٌ آخر خُيِّل إليَّ أنه صوت الشيخ عصام. وبدا أن الليلة لن تنقضي على خير. لكن لم يكد ينطق بكلمتين حتى غطى عليه صوتٌ قوي سمعته يقول: أخي المسلم انظر ماذا فعل الله بأبرهة الأشرم حينما جاء بالفيلة، ألم يجعل كيدهم في تضليل؟ وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول؟ وماذا فعل الله بفرعون حينما قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾؟ ماذا فعل الله تعالى؟ أغرقه الله ومن معه، قل يا أهل الكتاب إن الله حرم الخمر والزنا والميسر والربا فتعالوا إلى كلمة سواء فإن لم تأتوا فإن ربك لبالمرصاد.

استمعنا جميعًا في هدوء ولم يجرؤ أحد على التشويش عليه، وظهر حارس الليل عند الباب فناوله النوبتجي من الشراعة نصيبه من الطعام وعندما أعطانا الأمان قام مساعد الحاج رأفت وأقعى بجوار دلو البول وتعاون النوبتجي مع سجينٍ آخر فحجباه عن الأنظار ببطانية رفعاها في الهواء، ثم أنزلاها فظهرت في يده لفافة المخدرات. تولى النوبتجي صبَّ المياه فوق يديه فغسلهما هما واللفافة جيدًا بالصابون. وفك النوبتجي اللفافة فكشف عن كيسين، يضم أحدهما قطعة من الحشيش في حجم كف اليد، تشممها النوبتجي في إعجاب، ويضم الآخر أقراصًا بيضاء وأخرى خضراء فوسفورية.

تولى الحاج رأفت توزيع الأقراص يمينًا ويسارًا بينما انهمك مساعده في تقطيع الحشيش. واعتذر سالم عن تناول الأقراص، فقال له الحاج ضاحكًا وهو يبرز زجاجة باراكودايين: كودا صلايش فودرة.

كان يقصد أن الجمع بين أدوية السعال وأبو صليبة يعطي نفس تأثير البودرة. أصر سالم على الرفض وسألني إن كنت جربت هذا المزيج، فقلت: مرة. كان لي شلة أصحاب في المعادي، وقعدنا نسمع. مزيكة، شريط لفريق اسمه «بينك فلويد» بيقول حاجات عن الظلم واضطهاد الشباب والفقر. وكنا بنسمع كمان «محمد منير». قعدت مشعشع مدة وبعدين صدري طبق عليَّ وحسيت إني حاتخنق. ونمت بعدها تلات تيام.

قال بصوتٍ خافت: الحاجات دي مضرة جدًّا. تعرف إن كل اللي بياخدوا أدوية الكحة دي بيخلصوا، مبيعودش فيهم للنسوان ويجيلهم احتباس في البول.

سكت لحظة ثم أضاف: اوعى تاخد الحاجات دي ... ولا حتى البانجو ... ده يلحس الدماغ ... خليك في المية والحشيش أحسن.

أبرز الحاج رأفت جوزة محلية الصنع تتألف من علبة عصير من الصفيح مثقوبة من الجانبين وعدة «حجارات» مصنوعة من لباب الخبز وبوصتَين قصيرتَين، ثبت كل بوصة في ثقب ثم وضع «الحجر» فوق إحدى البوصتَين وثبَّته بجزء من غلاف علبة سجاير. وقامت الحلاوة الطحينية بدور الوقود مرةً أخرى فوضع الورق المدهون بها في فتحة «الحجر» ثم أشعله وأضاف إليه الحشيش، ومرَّت الجوزة حتى وصلت إلى سالم فأخذ نفسًا عميقًا احتفظ به طويلًا في صدره ثم أطلقه وناولنيها، قلَّدته وتركت النفَس في صدري أطول مدةٍ ممكنة كما فعل وأطلقته فشعرتُ بالدوار ثم بدأتُ أسترخي، وكان النوبتجي قد أعدَّ دورًا ثانيًا من الشاي وقدمه إلينا قائلًا: شاي كواليتى ... عقبالنا جميعًا بإذن الله.

تناهى إليَّ حديث بين الحاج رأفت والحاج عرفة. وكان الأخير يحاول تأكيد سلامة الخطوات التي يتخذها عند تعبئة البودرة: إحنا بنخلطه تمانية لواحد. أربعة مانيتا وأربعة كينين. وبعدين ننخلهم مرة واتنين وتلاتة، ست مرات لغاية ما ينضفوا تمام.

مال على سالم وهمس: بقى هم دول اللي بيدخلوا البلد مخدرات بألف مليون جنيه في السنة؟ زي ما قلت لك السمك الكبير ميجيش هنا أبدًا.

انطلق عم حسن يغني أغانيه الصعيدية ثم ردد آخر أغنية «خالد عجاج» التي أحبها:

«في ناس بتحب تاخد كل حاجة،
مع إنها مش محتاجة،
وناس بترضى بأي حاجة،
في عز ما هي محتاجة ...»

فوجئت بسالم يردد بصوتٍ أجشَّ أغنية سميرة توفيق: أنا عاشق، وعندما وصل إلى المقطع الذي تقول فيه: «أنا عاشق يا صاحبي من زمان» التفت نحوي.

أعلن النوبتجي أن الأغنية التالية مهداة إلى الحاج عرفة فنهض وخطا وسط الزنزانة وتناول من عم حسن الشال الأبيض الذي يلفه فوق رأسه فأحاط به خاصرته وعقده على جانب، انطلق يرقص ونحن نصفِّق ثم انضم إليه النوبتجي. وقام الأخير بتقليد الراقصات فعرى جانب جلبابه ببطء وهو ينثني فكشف عن ساقٍ ضامرة غطَّاها الشعر، تعالت صيحاتنا ورددت أصوات اسم حجاج فقام وحزموه ورقص بحرفنة وعرى ساقه حتى أعلى الفخذ وكانت ملساء بلا شعر، فهللنا له وصاح الحاج عرفة مقلدًا العالمات: أيوه يا أختي. وبلغ الهياج مداه.

تعلقت عيناي بصور يسرا وليلى علوي وفيفي عبده ورضا عبد العال الملصقة على الجدران ثم نقلتهما بصعوبة إلى مجلس الحاج رأفت. تابعت أحد النزلاء يقترب منه حاملًا بطانية وبسطها ثم رفعها بحيث حجبت عنا حجاج. وعندما أبعدها بعد قليل انطلقت صيحات التهليل ورأيت حجاج يزم شفتَين مصبوغتَين بالروج الثقيل وهو يضحك.

ابتسم الحاج رأفت في زهو وتطلع حوله بعينيه الضيقتَين القاصرتَين وبدأ الرقص من جديد. أمسك الحاج عرفة بالغطاء المعدني لدلو المياه وأخذ يدق عليه بكف يده وقاد زفة بدأت من الباب حتى مجلس الحاج رأفت حيث يستدير الراقص ويثني جسده للخلف مقتربًا برأسه من الأرض إلى أن تصبح في حجر حجاج بينما يرعش جسده ويصيح الجميع: ادلع يا عريس وعروستك جاية.

دارت الجوزة حتى وصلتنا فأخذتُ منها نفسًا طويلًا دون أن أرفع عيني عن حجاج، وتمددت في جلستي مستمتعًا برائحة الدخان التي اختلطت بالرائحة المنبعثة من ملابس سالم والتي ذكرتني برائحة ملابس أبي. وسرح فكري إلى عبد الفتاح ثم هدى.

حكى أحدهم نكتةً بائخة عن الصعايدة ومع ذلك انفجرنا ضاحكين، ثم ذكر ما دبروه لأحد الضباط الذي كان مغرمًا بتفتيش الزنازين ويثور إذا لم يجد شيئًا من الممنوعات؛ حصلوا على قليل من المواد الكاوية التي تستخدم في تنظيف المراحيض ووضعوها في كيس صغير أخفاه أحدهم في ملابسه، وابتهج الضابط عندما عثر على الكيس، وأراد أن يتأكد من طبيعة المسحوق الأبيض بداخله ففتحه وذاق محتوياته بطرف لسانه. ومن ساعتها حرَّم.

روى آخر ما فعلوه في الليمان أثناء مرور اللواء مدير المصلحة عندما أرادوا الاحتجاج على سوء المعاملة. انتظروا حتى دخل العنبر بصحبة مدير الليمان وضباطه بعد أن

صاح الحراس بصوت كالرعد «انتباه» وساد سكونٌ مطبِق فدسُّوا قطةً صغيرة في جورب وأطلقوها في العنبر. وفوجئ اللواءات بكرةٍ داكنة تصدر عنها أصواتٌ غريبة تندفع نحوهم بسرعةٍ خارقة دون أن يتمكن الحراس من الإمساك بها، فاستولى عليهم الذعر وجروا مبتعدين، وطبعًا عُرفت الحقيقة في النهاية؛ وتعرض الليمان كله للتكدير.

استولى عليَّ النعاس مرةً واحدة واستيقظتُ فجأة شاعرًا بيد تعبث بسروالي. ظننت أني أحلم ثم تبينتُ أن النور مطفأ والجميع نيام وسالم إلى جواري تحت غطاءٍ واحد. اعتدلت جالسًا فسحب يده على الفور واستدار معطيًا ظهره لي.

ظللت جالسًا أحدق في الظلام وقلبي يدق في عنف، أنصتُّ لصوت تنفس سالم وحاولت تحديد موقع الحاج رأفت وحجاج إلى أن بزغ الفجر فغفوت. واستيقظت من جديد عندما فتحت الزنازين فنهضت وأنا أتحاشي النظر إلى سالم، وشعرت أنه هو الآخر يتجنَّب مواجهتي، وخيل إليَّ أنه يشعر بالحرج فملأني هذا بنشوةٍ غريبة.

حمل كلٌّ منا نمرته وعدنا إلى زنزانتنا، تركته يتناول الإفطار وحده، وبعد أن شرب الشاي غادر الزنزانة، قمت إلى نمرته فوجدته قد ترك لي نصيبي من الجبن والخبز وقطعة من الحلاوة الطحينية، فضلًا عن سيجارةٍ كاملة بجوار الوسادة. أفطرت وأعددت كوبًا من الشاي ثم قسمت السيجارة إلى ثلاثة أجزاء وضعتها في علبةٍ صغيرة من الصفيح ودخنتُ إحداها. تكرر الأمر ذاته في الغداء فأعدَّ قروانة من الفول بعد أن انتقاه وقشَّره وخلَّصه من السوس، ثم أضاف إليه قليلًا من الزيت وبصلة وحبة طماطم ووضعه على السخان. وعندما استوى أكل نصفه وترك لي النصف الثاني. وفي العشاء اضطررت أن أنضم إليه فوق نمرته كعادتنا كي لا أثير التساؤلات.

كان قد أعد مائدةً مؤلفة من قطعة مكرونة بالفرن وصحن من الخبيزة أضفت إليها نصيبي من اليمك الذي لم يكن أحدنا يستسيغه. أكلنا في صمت ثم التجأت إلى نمرتي فأشعلت الثلث الأخير من السيجارة وتشاغلت بالإنصات إلى الأحاديث الدائرة والفرجة على بقية المساجين. وكان أحدهم منشغلًا برتق فانلة من الصوف فقررت أن أعهد إليه بفانلتي التي تمزقت عند الإبط، وعرض عليَّ فريق الكوتشينة أن ألعب معهم فاعتذرت، وتسليتُ بمتابعة الإذاعات التي بدأت كالعادة بأخبار السجن. لم أكن أتوقع زيارة من أحد في الغد، كما كان بيني وبين موعد جلسة المحكمة أسبوعان، ومع ذلك أنصتُّ في انتباه لأسماء الزيارات والترحيلات أملًا أن أسمع اسمي بينها.

انتهت النشرة وتلتها النشرة الإسلامية، وفي نهايتها طرح المذيع سؤالًا وإجابته، كان السؤال عما يفعل الخطيب إذا حدث ناقض لوضوئه وهو يخطب الجمعة. قال إن الخطيب

في هذه الحالة له أن يستمر في الخطبة ثم يتوضأ بعد ذلك ليصلي بالناس، أو يقدِّم شخصًا آخر لإمامة الناس بدلًا منه حتى يتوضأ، وإما أن يقطع الخطبة ويُنيب غيره لاستكمالها، أو يذهب هو ليتوضأ ثم يعود ليخطب؛ فكل ذلك جائز.

جاء دور الدكتور رمزي الذي انطلق كعادته: يا غلابة يا مساكين أنتم لا تفهمون سعر الفائدة أو الخصم، لا تفهمون شيئًا في الاقتصاد، لهذا تتركونهم يقترضون ويقرضون ويغامرون بأموالكم ويستثمرون، وفي النهاية أنتم تدفعون، ضحك عليكم أصحاب الذقون واستولوا على مدخراتكم، ثم أودعتم الباقي في البنوك التي أغرتكم بربًا مرتفع، وبعد فترة خفضت السعر وتلاعبت به. أما أموالكم فقد أقرضوها بالملايين للأفاقين والمغامرين والنصابين وأبناء الحكام وأقاربهم، وأغلبهم لا يردون هذه القروض ويتهربون من سدادها بكافة الوسائل، وتساعدهم البنوك بأن تعتبرها في النهاية قروضًا معدومة أو ميتة. وتقرءون عن ذلك في الصحف وتسمعون أن فلانًا هرب بعدة ملايين، وفي الحالتين تهزُّون أكتافكم بغير مبالاة ولا تدرون أنكم ستدفعون كل الملايين المعدومة والهاربة في نهاية المطاف، كيف؟ أولًا هم يعطونكم ربًا بسيطًا على إيداعاتكم أقل بكثير من الذي يأخذونه عند إقراضها لغيركم؛ أي أقل مما يحق لكم. كما أنهم يحسبون ربا الإقراض بطريقة الربح المركَّب فيتزايد يوميًّا، هذا الفرق الكبير الذي يأتي من جيوبكم وشقائكم هو الذي يغطي القروض الميتة التي يحصل عليها أقارب الحكام وأصحاب الأموال.

استمر موال الدكتور رمزي بعض الوقت لكني انصرفتُ عنه إلى عدد من مجلة «الكواكب» وجدته بجواري، ثم تناولت صحيفة اليوم، طالعتني صورة لضابط شرطة شابٍّ وسيم قتله الإرهابيون في الصعيد بعد أن أطلقوا النار على الناس في السوق وأردوا بعضهم.

نمتُ في عمق لم يوقظني منه البرد. وفي الصباح اكتشفت أن سالم وضع فوقي إحدى بطاطينه فأعدتها له دون كلمة.

أفطر كلٌّ منا بمفرده وتوضأت ونزلت لصلاة الجمعة في فناء الطابق الأرضي. وتبعني سالم بعد قليل. كان الخطيب بادي التجهُّم، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه انطلق يهاجم مذهب الشيعة. استفاض في شرح بعض المسائل الفقهية التي استعصت على فهمي، فانصرفت عنه إلى تأمل الجالسين وألفيتهم مثلي يتململون ثم بدءوا ينتبهون للخطيب، وسمعته يقول إن بعض كتب الشيعة تعتبر المرأة ناشزًا إذا رفضت الوطء في دبرها من الزوج، كما أن أحد أئمتهم أفتى بأن الزوجة إذا ماتت من الوطء في دبرها فلها نصف

الدية، وهذا كله يعني إباحة الشيعة للشذوذ رغم علمهم أن الإيدز لم يأت إلا من وراء هذه الأفعال القذرة.

سرت همهمات بين السجناء وعلت الابتسامات وجوه بعضهم. مضى الخطيب فقال: إن الشيعة في موقفهم هذا يستندون زورًا وبهتانًا إلى القرآن الكريم وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ صدق الله العظيم. وهنا قال الشيعة إن لوطًا قال لقومه إني أعرض عليكم بناتي وهو يعلم أنهم لا يريدون إلا الأدبار فكأنه وافق على وطء بناته في أدبارهن.

في ختام الخطبة رفعنا جميعًا أيدينا بالدعاء لله تعالى كي يصلح أحوال البلاد والأمة، ويغفر لنا ذنوبنا ويمنَّ علينا بالإفراج القريب. وصعدت بعد الصلاة إلى الزنزانة فألقيت نظرة داخلها، كان سالم قد سبقني وجلس يدخن فوق نمرته. ولم أرَ أثرًا لأي سجائر فوق نمرتي. مضيت في الطرقة إلى نهايتها فافترشت الأرض جاعلًا ظهري إلى الحائط الخلفي للعنبر وأخذت أستعرض المساجين الذين يمكن أن أقترض منهم وفكرت في توكل. كان قد عرض عليَّ أن أواصل تخزين لفائفه مقابل حصة من السجائر وقلت لسالم فمنعني وحذرني منه، متعهدًا بأن يتكفل بحاجتي من السجائر إلى أن يفرجها الله.

صعبت عليَّ نفسي فدمعت عيناي وفوجئت بسالم يقترب مني فانتابني الخوف. جلس إلى جواري وقال دون أن يلتفت نحوي: أنا مش عاوزك تفهمني غلط، اللي حصل كان غصب عني. اوعى تفتكر إن ده هو اللي أنا عاوزه منك. أنا أقدر أفك حاجتي بأسهل ما يمكن، انت عارف ده كويس، لكن مش حاقدر ألاقي أبدًا صاحب ... اسمع ... أنا لي في السجون أكتر من عشرين سنة. تفتكر إيه أكتر حاجة كنت محتاج لها؟

لم أجب فواصل: تفتكر أنا مكنتش محتاج لحد جنبي؟ حد يطبطب عليَّ وأطبطب عليه؟ حد يحضني وأحضنه؟ عارف يعني إيه إنك تقعد عشرين سنة من غير ما تلمس إنسان تاني؟ من غير ما حد يحبك؟ مش معنى كده إنك عاوز تعمل معاه حاجة. مش ضروري، فيه شيء اسمه الصداقة. إن يكون جنبك حد يعرف انت بتفكر في إيه وتقصد إيه لما تقول حاجة ... واحد يفهمك ويقدرك ويعزك ويخاف عليك ويساعدك ويقف جنبك وقت العوزة.

قلت فجأة: أنا أبويا عمره ما حضنني.

أشعل نصف سيجارة في مبسمه وقدمه إليَّ فتناولته، واستأنف حديثه: ناحية الغريزة دي حاجة طبيعية. السجن هو اللي مش طبيعي. العالم اللي هنا كله منحرف، تفتكر أنا معرفش الفرق بين الراجل والست؟ الراجل مش ممكن يحل محل الست أبدًا. حتى ولو نام على ضهره. بس بص حواليك. إنت شايف ستات كتيرة هنا؟ طب الواحد يعمل إيه. أوقات أبقى حاسس إني حاجَّنن، ومهما حاولت مفكرش مفيش فايدة. مفيش يوم يفوت من غير ما حاجة تفكرك. صورة في مجلة. غنوة. حركة، فيه ناس تعمل انها مش مهتمة بالموضوع ده، خايفين من اللي ممكن يحصل، خايفين يتسخمطوا. مفيش حد هنا يحب يبقى شاذ. الشواذ دايمًا محتقرين والناس بتستضعفهم ومتعملش لهم حساب. طب الواحد يعمل إيه؟

جذبت نفَسًا من نصف السيجارة حبسته في صدري ثم ناولته الميسم وأطلقت الدخان من فمي دون أن أعلق. كان يدهشني دائمًا بقدرته على أن يتحدث مثل المتعلمين.

مضى يحكى لي عن مسجون من أصدقائه قُبض عليه أول مرة وهو في سن الثامنة عشرة، وفي مركز الشرطة اعتدى عليه ثلاثة من الأشقياء بالقوة. وبعد ست سنين قُبض عليه مرةً ثانية، وفي مركز الشرطة وجد معه صبيًّا في السابعة عشرة من عمره، فاغتصبه بعد أن ضربه. وقال لسالم إنه كره نفسه ساعتها؛ لأنه تذكر ما حدث له شخصيًّا وكيف كان شعوره وهو عاجز عن المقاومة بينما مغتصبوه يتتابعون فوقه، ثم اعترف بأنه استمتع باغتصاب الصبي، لا بالعملية الجسدية وإنما لأنه، على حد تعبيره، «كان فوق مش تحت».

لمحت نزيلا من فرق النظافة الميري يحمل في يده لفافةً مغلفة بورق الفويل المفضَّض ويطلُّ في الزنازين كمن يبحث عن أحد. أشار سالم للنزيل وهو ينهض قائلًا: الأكل وصل.

تناول اللفافة من النزيل وتبادل معه بعض كلمات ثم ولج الزنزانة وهو ينادي عليَّ. ذهبت إليه فأراني صينية مستطيلة من الكرتون استقرت فوقها ثلاث سمكات مشوية مغطاة بالبقدونس وكمية من البطاطس الفريت.

قال: إيه رأيك ناكل الوقت البطاطس بالعيش ونسيب السمك للعشا.

أعددنا سندوتشات البطاطس وجلسنا نأكلها، وتجرأت فسألته عن مصدر الأكل فضحك وقال: الجماعة بتوع القرى السياحية عملت لهم خدمة.

– وخبيزة إمبارح؟

– هم برضه. شوف بعتولي إيه كمان.

أراني ماكينة حلاقة «جيليت» من النوع الجديد الحساس، ولوحة شفرات من النوع ذي الحدين اللذين يعلو أحدهما الآخر والتي تثبت في الماكينة بضغطة خفيفة على نتوء

بها. تناولت لوحة الشفرات وقلبتها في يدي. كانت بلا هوية ولا تحمل اسم ماركةٍ معينة ثم اكتشفت في طرفها عبارة بخط دقيق: MADE IN ISRAEL.

شعرت أنه لا يريد أن يذكر نوع الخدمة التي أداها لهم فلم أسأله عنها. توليت إعداد الشاي وجلسنا نشربه في الطرقة. سألته بعد لحظة إذا كان قد تزوج فقال: مرة. اللي زيي مالوش في الجواز. السجن بيخرب الواحد. أنا أول ما دخلت السجن كنت دايمًا أشوف نفسي في الحلم بره. الوقت عندي حلم بيتكرر كتير، باشوف نفسي في العنبر وفيه هوجة وأدخل زنزانة فيها إدكو عمال يعيط. أمسكه من شعره وأهزه قدام المساجين وأقوله يفك بنطلونه فيترجاني إني مقتلوش عشان عياله، وبعد ما ينزل بنطلونه أخليه يطاطي وأسخمطه. وبعدين ألاقي نفسي ماسك سكينة وعمال أغزها في ضهره. حاجة فظيعة. مش كده؟ في الأول كنت باحلم بنسوان عريانة لها بزاز كبيرة، شوف وصلت لإيه؟ يا ترى بعد خمس سنين مثلًا حاحلم بإيه؟ وللا لما أخرج. لكن حاروح فين؟ لو كنت حاخرج بكرة تفتكر حاتغير؟ طب وحاعيش ازاي؟ حاقف في كشك سجاير؟ ولو عييت مين حيعالجني؟ لو كنت لوا شرطة ولا ممثل أو مهرج وحصل لي حاجة في القلب حيسفروني على طول أتعالج برة على حساب الدولة. لا. أنا مشيت في سكة من زمان وخلاص. بس عمري ما فكرت إني حاقضي حياتي في السجن.

قلت: انت اللي جبته لنفسك.

قال: معاك حق.

صمت لحظات في وجوم ثم قال: تعرف إني كتير أحسد اللي أنا قتلتهم؟ تعرف ليه؟ لأن محدش حيجري وراهم ولا حيهربوا ومش حيقتلوا حد. كل واحد فيهم كان له اللي حزن عليه. أنا بس اللي حزنت على نفسي من بدري لأن مليش حد يحزن عليَّ؛ أبويا مات مشلول وأمي عميت ومعدتش باسأل عليها، مش عاوز ابعتلها حاجة حرام، وأنا مبكسبش من حلال.

نادى علينا الحارس لطابور العصر. ولازمتني ثرثرة سالم طول الوقت. حكى لي طويلًا عن طفولته. ولم يتوقف إلا عندما بدأت نشرات المساء. استمعنا إلى واحد يتحدث عن ضرورة الصبر مستشهدًا بمحنة النبي أيوب، ورتل بصوتٍ رخيم: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ...﴾ وقال إن الضر يقرب المؤمن من الله، فعندما يشكو أوجاعه إلى الله ويتضرع إليه ينال ثوابًا عظيمًا. والله يبتلي البر والفاجر بالبأساء والضراء لحكمة قدرها؛ فالأول يزداد

من الله قربًا حين يستنجد به، بينما الفاجر يزداد بُعدًا عن الله حين لا يتضرع إليه ولا يستغيث به.

تنهد سالم وقال: الحاجة اللي مش قادر أفهمهما إنه بعد كل التقدم اللي حصل والاختراعات والصواريخ اللي بتلف في السما وكل ده ملقوش لحد النهارده حل للمجرمين اللي زيي غير السجن؟ هم عاوزين مني إيه؟ يعاقبوني؟ طب ده يفيدهم بإيه؟ يقولك السجن تهذيب وإصلاح. انت شايف فيه تهذيب وإصلاح؟

أشرت إليه أن يصغي معي للدكتور رمزي الذي صاح فينا: يا غلابة يا مساكين. لو أنا سألت الواحد منكم، كم دفع هذا الشهر من الربا؟ سيجيب قائلًا: الربا يدفعه من يقترض من البنوك أما أنا فمن يقرضني؟ وإذا سألت واحدًا آخر: كم دفعت من ضرائب هذا الشهر؟ سيجيب بأنه رجلٌ فقير ولا مال عنده؛ وبالتالي فلا يدفع ضرائب. ولم يدرك المسكينان أن الرغيف الذي يشتريانه يضم في ثمنه نسبةً مخيفة من الربا ومن الضرائب، الرغيف يمر قبل وصوله إليكم بخمس مراحل: مرحلة الزراعة أو الاستيراد، مرحلة تخزين القمح، مرحلة الطحن، الفرن، بيع التجزئة. كل مرحلة يجرى تأمينها عن طريق القروض الربوية التي تضاف إلى تكلفة كل مرحلة، وتضاف الضريبة بنفس الطريقة. فإذا كان رغيف الخبز ثمنه عشرة قروش، وإذا حسبنا نسبة الربا في ثمن الجرار والمبيدات والبذور والسماد أو تكلفة الاستيراد والنقل ومخازن الحبوب والأفران لوجدناها الثلث، أما الضرائب التي تُدفع من ثمن التراكتور إلى آخره فهي أيضًا في حدود الثلث؛ أي إنه لو كان هناك نظامٌ غير ربوي ونظامٌ ضريبيٌّ عادل فإن بإمكان الواحد أن يشتري ثلاثة أرغفة بدلًا من الرغيف الواحد؛ وتصبح قدرته ثلاثة أمثالها.

لم أفهم ما يعنيه الدكتور رمزي بالضبط ولهذا بحثت عنه في طابور الصباح لأستفسر منه وأيضًا كي أهرب من ثرثرة سالم. وجدته جالسًا إلى جوار الحائط وقد مدَّد ساقَيه وعرَّاهما ليعرِّضهما للشمس، وأحاط به سامح ورمضان. جلست إلى جوارهم وانضمَّ إلينا مستر تامر بعد قليل، وكان يمسك بمجلةٍ فرنسيةٍ سميكة تحمل فوق غلافها صورة مايكل جاكسون في ملابسه الذهبية اللامعة التي تلتصق بجسمه.

وضع مستر تامر المجلة جانبًا وأنصت للنقاش فتناولتُها وتصفَّحتُها بسرعة. كانت بها إعلاناتٌ كثيرة عن المودات الجديدة لملابس الرجال، وأعجبني معطف ترواكار من الصوف له ياقةٌ قصيرةٌ منفصلة تثبت فوق الصدر بزرارٍ كبير، ومعطفٌ آخر من النايلون ببطانة كاروهات من الصوف وياقةٍ عالية من الفرو وجيبَين مائلَين عند الصدر وزرايرَ ذهبية

عند الرسغَين من إنتاج بيربيريز الإنجليزي. كما أعجبتني مجموعة من كرافتات سيروتي الفرنسية. وفهمت من إعلان عن عطر «أوبيوم» النسائي أنهم بدءوا ينتجونه للرجال أيضًا، وكانت هناك عدة صور للموديلات الجديدة من سيارات فراري وألفا روميو ومرسيدس تشبه السيارات التي تظهر في أفلام الفضاء وخصوصًا واحدة بلا عجلة قيادة، وتوقفت طويلًا أمام صورة امرأةٍ شقراءَ جميلة ارتدت بلوزة شفافة محزقة أبرزت حلمتَي ثديَيها بوضوحٍ تام.

لمح مستر تامر المجلة في يدي فأخذها مني، وجَّهت انتباهي لحديث الدكتور رمزي: ... بعد سنة البنك يديك فلوسك بزيادة، صح؟ معنى كده إنك أخدت مكسب من غير مقابل. أخدت فلوس من غير ما تعمل حاجة. من غير ما تنتج حاجة، صح؟ جت منين الفلوس دي؟ يا إما من اللي تطبعه الحكومة من غير رصيد؛ يعني من غير ما يسنده إنتاج، وده يضرك؛ لأن الفلوس لما تكتر في السوق قيمتها تقل. مسألة عرض وطلب. أو يكون البنك أخد من حقوق غيرك وادَّاك. يعني الكل يخسر عشان انت تستفيد، أو تخسر أنت عشان يستفيد غيرك ... عشان كده بقول ان اللي بياكل الربا بياخده من عرق الفقير ... تعرف البنك الأهلي حقَّق السنة اللي فاتت أرباح قد إيه؟ مليار جنيه. جم منين دول؟

سكت لحظة يفكر ثم استطرد: لو أخدنا واحد مرتبه ٣٠٠ جنيه في الشهر مثلًا، حتلاقيه في الحقيقة بياخد خمسين جنيه بس. ازاي؟ أولًا بيدفع تأمينات. قول عشرة في المية، طبعًا صاحب العمل بيدفع قدامه عشرين في المية، لكنه بيحمِّل المبلغ ده على سعر السلعة؛ والنتيجة إن الفقير بيدفعها تاني لما ييجي يشتري. بعد كده بيدفع خمسة وعشرين في المية ضرائب دخل، والباقي هو الراتب الصافي، يعني كأنه بياخد تلتين حقه، ومن التلتين دول يدفع ضرائب تانية غير مباشرة عبارة عن تلت تمن السلع التي بيشتريها، يعني يفضلُّه من مرتبه تلت واحد. التلت ده نفسه ربعه بيضيع في التضخم والانخفاض المستمر في قيمة العملة نتيجة إن الدولة بتطبع فلوس من غير رصيد. يعني عمليًّا بيتفضل له سدس المرتب الأصلي، يعني متسخمط تمام.

لمحت حجاج جالسًا إلى جوار الحائط فانتقلت إلى جواره. فوجئت به يبكي. سألته عما به فلم يرد وواصل البكاء. ربتُّ على ظهره ثم على شعر رأسه الناعم. مسح دموعه بكم جلبابه والتفت نحوي قائلًا: مفيش، بافتكر حمادة.

سألته وأنا أتأمل شفتَيه: حمادة مين؟

ذكر لي أنه صبي في سنِّه يتيم الأب تشاجر مع أمه بسبب الفلوس، والتقطه زرافة فصار يخرج معه ويسرحان في القطارات. وفي يوم قرر حمادة الهرب فقفز من القطار

وسقط على الأرض بجوار القضبان، قفز حجاج وراءه وأسرع إليه فوجد رأسه تنزف، نادى عليه فلم يرد فقطع قميصه وربط له رأسه واستنجد بالمارة الذين تبينوا موته وعندما سألوه عنه أنكر معرفته به وتسلل هاربا.

– رجعت لزرافة وأنا بعيط. كنت خايف منهم جدًّا ومرعوب، وبعدها سخنت وقعدت أرتعش ومرضيتش آكل. أصل حمادة كان صاحبي الوحيد وكنت باحبه قوي، زرافة أخدني وأنا تعبان كده وقعد يشحت بي في الشارع على إني ابنه وعيان وممعاهوش ثمن العلاج، فضلت ع الحال ده أربع أيام لغاية ما خفِّيت بس كل ما افتكر حمادة أروح معيَّط.

صفَّر الحارس معلنًا انتهاء الطابور فقمنا متثاقلين وارتقينا السلم على مهل. وتوقفت أستريح عند الطابق الثاني، وحانت مني التفاتة إلى الفناء فلمحتُ نزيلًا جديدًا يدخل من بوابة العنبر حاملًا نمرته، تعرفتُ فيه على موظف التربية والتعليم الذي لقيته في حجز القسم، لم أتذكر اسمه فناديته: كعب الداير.

رفع وجهه إليَّ ولوَّح بيده، لم أعرف إذا كان تذكرني.

سألته: إيه اللي جابك؟

ضحك وصاح: أنا لسة راجع من لفة المحافظات. إن شاء الله أخرج قريب.

قاده الحارس إلى زنزانة الإيراد وواصلتُ الصعود، وعندما بلغت قمة الدرج شعرت فجأة بألمٍ حاد في جانبي جعلني أنحنى ممسكًا به، تكرر الألم فخطوتُ بصعوبة نحو الزنزانة، وهرع سالم إلى جواري وعاونني على الوصول إلى نمرتي، فتمددتُ فوقها وأنا أئنُّ.

تجمَّع النزلاء حولي واستمرَّ أنيني فتعددت الآراء والاقتراحات بشأني؛ فمن قائل إني تعرضت لضربة برد، ومن أفتى بأنه المصران الغليظ، ومن أكد أنه المصران الأعور. أعدَّ لي سالم كوبًا من عصير الليمون، وعندما وجد أن الألم مستمر قال: لازم نودِّيه العيادة.

قال النوبتجي: العيادة مقفولة، الظاهر محدش جه منهم النهارده.

تذكرت الطبيب المزيف في زنزانة عبد الفتاح فطلبت من سالم البحث عنه. أحضره بعد قليل ففحصني وقال إني أشكو من برد في الكلى أو حصوة. ونصحني بأن أشرب السوائل باستمرار وأتدفأ جيدًا.

شربت كوبًا من الشاي وأعطاني سالم فانلةً صوفية لففتُها حول خصري وبسط فوقي بطانتين من بطاطينه، وأحضر لي النوبتجي أسبرينة وقرص نوفالجين، لكن المغص لم يتوقف بل ازداد حدة، فطلبت من سالم أن يذهب إلى الدكتور رمزي ويطلب منه مسكنًا. وجاء الدكتور رمزي بنفسه فأعطاني حقنة. وبعد ربع ساعة أخذ الألم في الانحسار حتى اختفى تمامًا.

أصرَّ سالم على نقلي إلى جواره بعيدًا عن تيارات الهواء ولم يعترض أحد. وأعدَّ لي كوبًا من الحلبة الساخنة. وكان جاري من الناحية الأخرى سائق ميكروباص اصطدم بمقطورة نقل على الطريق الزراعي فقتل سبعة من ركابه. كان له رأس ضخم بالنسبة لجسمه القصير، ورحَّب بي قائلًا: خدها إيزي، وكان دائم الترديد لهذه العبارة بمناسبة وغير مناسبة.

روى لي كيف قرَّر أن يصبح سائقًا وهو طفل لأنه أُعجب بما يتمتَّع به سائق مأمور المركز من هيبة ونفوذ. وعلق قائلًا: أنا دايمًا خيبان، جماعة قرايبي هاجروا أستراليا وقالوا لي أروح معاهم. مرضيتش. يعني مش كنت سمعت كلامهم أحسن؟ مكنش حصلي اللي حصل واترميت الرمية المهببة دي.

قلت له: خدها إيزي.

ضحك وقال: واخدها. بس وحياتك مش خسارة؟ كان زماني الوقت مع قرايبي. بلاد بتحترم البني آدم، العيل يتولد بمعاش. الرعاية الصحية شاملة ودقيقة وأمينة ومجاني. الساعة خمسة اللي يفضل من العيش يحطوه في أكياس ويوزعوه على البيوت مجانًا، التفاح اللي مجروحة قشرته يوزعوه على الناس مجانًا. النتيجة مفيش لا سرقة ولا جريمة ولا مخدرات ... المصريين هناك عايشين ملوك. الولية قريبتي كانت عاوزة تيجي مصر زيارة؛ بنتها الصغيرة قالت لها يا ماما خلينا هنا أحسن ما نروح لبلد الشحاتين.

حكى لنا عما يصادفه في عمله من مواقف وشخصيات ونعستُ خلال حديثه. رحت في نومٍ عميق مستمتعًا بالدفء، وفي الصباح أصرَّ سالم أن أعرض نفسي على طبيب السجن. قلت إن جسمي قذر ولا بد أن أغيِّر ملابسي الداخلية وأستحمَّ أولًا بينما مياه الدورة باردة، قال إنه سيتكفل بتسخينها وأعطاني فانلةً نظيفة، ثم أخرج من كيسه ماكينة الحلاقة ذات الشفرة المزدوجة ومرآةً صغيرةً مكسورة واقترح أن أحلق ذقني. أسندت المرآة إلى قروانةٍ مقلوبة ودعكتُ ذقني بصابونة بالموليف ثم بالفرشاة وحلقتُ ثم نظفتُ الماكينة والمشرط وأعدتهما إليه فقال: خليهم. بالمرة تشيل الشعر الزيادة اللي في جسمك.

حملت الفانلة النظيفة وفوطتي والصابونة بالموليف، وسبقني إلى الدورة فأعدَّ لي دلوًا كبيرًا ممتلئًا بالمياه الساخنة أخذته معي إلى المرحاض الأخير، أنزلت الستارة وخلعت ملابسي وألقيت بها فوق الحافة الخشبية. دهنت ساقيَّ بالصابون ودعكته جيدًا بالفرشاة إلى أن تكونت رغوةٌ كبيرة فرفعت ساقي إلى أعلى وتناولت الماكينة فقربتها من أعلى فخذي وبدأت في إزالة الشعر.

شكر واجب

لمحمد برادة الذي أتاح لي الفرصة، وأعانني بتواصله (فضلًا عن نصائحه المستمرة).

لكمال القلش الذي كان كعهده دائمًا خير صديقٍ وقت الحاجة.

للفنان الكبير بهجت عثمان.

لصلاح الحزين.

لأسرة «دار المستقبل العربي» التي والَتني دائمًا بالتشجيع والمساندة.

للأصدقاء الذين لم يبخلوا بمعلوماتهم: أحمد سيف الإسلام المحامي، ووائل عويس، وإيهاب الأرفلي، ود. إسماعيل محمود فهمي، وإمام رفاعي المحامي؛ والكُتاب: يوسف فاخوري، ورءوف مسعد، وأشرف توفيق (وقد استفدت بالخصوص من كتابَيه عن المخدرات)، وأحمد زغلول الشطي الذي تكرم بتصحيح معلوماتي عن إجراءات التحقيق كما وردت في الفصول التي نُشرت بالصحف.

وللآخرين من ضباط سجون وسجناء سابقين تحدثوا بصراحة عن تجاربهم، وأمدُّوني بحاجتي من الوثائق وتحرجوا من ذكر أسمائهم.

لمحمد سعد شحاتة الذي تكرم بمراجعة المخطوطة (مستنكرًا تجاهلي المشين لقواعد الهمزة)، وتامر سعد ونادية محمد الجندي اللذين اكتشفا العديد من التناقضات.

وللأقلام أيضًا نصيبها من الشكر؛ فقد استفدت كثيرًا من شهادات: فتحي فضل في الزنزانة (١٩٩٣)، وطاهر عبد الحكيم في «الأقدام العارية»، وفتحي عبد الفتاح في «شيوعيون وناصريون»، ومصطفى طيبة في «رسائل سجين سياسي إلى حبيبته»، وفؤاد حجازي في «سجناء لكل العصور» (١٩٨٧)، وإلهام سيف النصر في «معتقل أبو زعبل»، ونوال السعداوي في «مذكراتي في سجن النساء» (١٩٨٦)، وشريف حتاتة في «النوافذ المفتوحة» (١٩٩٥).

استفدت أيضًا من: مؤلفات محمد حسنين هيكل التي لا غنى عنها لفهم التاريخ المصري المعاصر (وبالخصوص دراسته القيِّمة عن المصرفي الأمريكي روكفلر وبياناته الموثقة عن حركة المال المصري والعربي).

كتابات رشدي سعيد ودراسات رمزي زكي عن الديون والتضخم وأزمة الدول النامية، والليبرالية المتوحشة.

مؤلفات ANTHONY SAMPSON الذي تقصَّى آليات النظام الاقتصادي المعاصر من أول أسواق السلاح إلى البنوك العالمية والشركات العملاقة، وخصوصًا كتابه عن شركة آي تي تي.

كتاب STANLEY ADAMS عن شركة روش ١٩٨٤.

منشورات مؤسسة OXFAM الإنجليزية، وخاصةً BITTER PILLS BY DIANNA MELROSE، ١٩٨٢، «صناعة الجوع»، تأليف فرانسيس لا بي وجوزيف كولينز، وترجمة أحمد حسان؛ و«أمريكا وصناعة الجوع»، للمؤلفين السابقين بالاشتراك مع ديفيد كينلي، ترجمة د. حسن أبو بكر (١٩٨٧).

«من الاقتصاد القومي إلى الاقتصاد الكوني» لمايكل تانزو وآخرين، ترجمة عفيف الرزاز (١٩٨١)؛ «التاريخ السري للبنك الدولي» لزكي العابدي ومقدمته الهامة لرمزي زكي (١٩٩٢)؛ «دعم الأغنياء ودعم الفقراء» لمجموعة باحثين، ١٩٨٥؛ «نموذج النمور الآسيوية» لإبراهيم العيسوي (١٩٩٥)؛ «الفرصة السانحة» لريتشارد نيكسون، ترجمة أحمد صدقي مراد، ١٩٩٢ (وقد نقلت عنه الفقرة الخاصة بالموقف الأمريكي من إسرائيل).

برنامج حزب الرفاه الإسلامي التركي.

الطبعة العربية من مجلة «ليموند ديبلوماتيك» الفرنسية.

تحقيقات مجلتَي «روزاليوسف» و«اليسار»، وصحف «الأهالي» و«الشعب» و«اللواء الإسلامي».

الشكر أيضًا لجمعيات ومراكز حقوق الإنسان في مصر وخاصةً «مركز النديم» الذي أتاح لي الاطلاع على بعض وثائقه.

هنـــداوي